موسوعة

الفداء في الإسلام

تأليف
الدكتور أحمد الشرباصي

دار الجيل
بيروت

Bibliotheca Alexandrina
0159938

موسوعة الفداء
في الاسلام ج ٢

موسوعة الفداء في الإسلام

تأليف

الدكتور أحمد الشرباصي
أستاذ في جامعة الأزهر

General Organization of the

الجزء الثاني

دار الجيل
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

طبعـة جديدة

١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م

أبطال عقيدة وجهاد

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأُصلّي وأُسلّم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ؛ وأستفتح بالذي هو خير : (رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ، وإليكَ المَصِير) .

قبس من نور القرآن

ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً . من المؤمنين رجال صدقوا ، ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » .

« سورة الأحزاب »

تصدير

لا أريد أن أطيل الحديث عن هذا الكتاب في فاتحته أو تصديره . فلقد يستطيع الكتاب أن يتحدث عن نفسه بنفسه ، بعد أن بلغ غايته ، ووصل خاتمته . إنه يستطيع أن يتحدث عن ذاته بأبطاله الذين تشرق وجوههم من خلال عصور التاريخ الإسلامي ، ليجلوا أمام الناظرين والمتدبرين أكثر من قدوة وأسوة .

ويستطيع أن يتحدث بصوت العقيدة التي يمجدها ، ويدور حولها ، ويذكّر بها ، على أساس أنها البداية ، وأنها عماد الأمر ، وأصل الخير .

ويستطيع أن يتحدث بصوت الجهاد حين يخلصه أصحابه لوجه الله عز وجل ، وينزهونه عن الغرض والمرض ، ويقفونه على سبيل الله : سبيل الحق والعدل والخير واليقين .

ولا شك أننا أمة أراد لها قدرُ الاختبار والابتلاء ، أن تصيبها طعنات ، خلفت من ورائها جراحات ، ولن تلتئم هذه الجراح ويستعيد جسم الأمة حصانته ومناعته ، إلاّ إذا نغذى هذا الجسم بزاد أصيل نبيل من قيم الخير ، وأمثلة البطولة ، ونماذج الجهاد ، ومواقف الفداء .

* * *

وهذه الصفحات التالية تحدثنا حديث الحق والصدق ، عن طائفة كريمة

عظيمة من أبناء الإسلام ، وأبطال العقيدة والجهاد ، كانت حياتهم — وما زالت — من أكرم الحوافز الداعية إلى النهوض والاقدام ، والمتابعة لمسيرة هؤلاء الأماجد ، الذين دانوا الدنيا وأهلها بما ضحوا من أجلها وأجل الحق والحرية والعزة ، حتى كانوا مصداقاً لقول رب العزة : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » .

وعلى الله قصد السبيل .

د . أحمد الشرباصي

ثمامة بن أثال الحنفي

لقد علمنا الإسلام أن حياة المؤمن كلها جهاد ، على أي وضع من أوضاعها وفي أي صورة من صورها ، فهي إما جهاد للنفس ، أو جهاد للشيطان . أو جهاد للعدو ، أو جهاد من أجل الدين ، أو جهاد من أجل الدنيا .

وهي جهاد قبل المعركة بالإعداد والاستعداد ، لأن الله تبارك وتعالى يقول في سورة الأنفال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . وجهاد في انتظار المعركة باليقظة والحذر والانتباه ، ولذلك يقول الله جل شأنه في سورة النساء : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » وبالتأهب للانطلاق عند أول بادرة تدعو إلى الالتحام، فقد قال الله تعالى في السورة نفسها : « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها » . وهذا معناه بلغة العصر : خير الناس رجل واضع يده على زناد سلاحه كلما سمع صوتاً يدل على العدوان بادر إلى قمعه وردعه .

وحياة المؤمن جهاد خلال المعركة بالنفير والثبات ، والتضحية والفداء ، وطلب إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، لأن الله تعالى يقول في سورة التوبة : « انفروا خفافاً وثقالاً . وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

وحياة المؤمن جهاد بعد المعركة ، بالإصلاح والبناء والتعمير ، وتقويم النفوس وتطهير القلوب ، ولذلك روي أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال لأصحابه وهم عائدون من إحدى المعارك : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » .

قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟

قال : جهاد النفس .

ولقد شهد التاريخ حول رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً جاهدوا نفوسهم ، وجاهدوا أعداءهم ، وجاهدوا في كل ميدان من ميادين الحياة ، لم يملوا ولم يميلوا ، ولم يخدعوا ولم ينخدعوا ، بل طاولوا الأيام بالصبر ، وعمروا القلوب بالذكر ،وطلبوا عند الله الأجر ،وظلوا أهل وفاء وفداء ،منذ اهتدوا إلى صراط الله المستقيم ، حتى مضوا إلى خالقهم ، فتحقق فيهم قول بارئهم في سورة الرعد :

« أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ . إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار ؛ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

* * *

وهذا واحد من هؤلاء .

إنه الصحابي الوفي النقي ، المؤمن المجاهد الثابت : أبو أمامة ثمامة ابن أثال بن النعمان الحنفي ، الذي كان سيد قومه ، أهل اليمامة من بني حنيفة ، وكان فصيحاً شاعراً ، وكان في أول أمره مشركاً ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم معادياً ، حتى لقد وسوس إليه الشيطان ذات يوم أن يغتال رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فدعا الرسول ربه أن يمكنه من ثمامة .

واستجاب القدر ، حيث اعتقلت إحدى سرايا المسلمين ثمامة ، بلا عقد ولا عهد ، وهو عدو مهدور الدم ، وهم لا يعرفونه ، وأقبلوا به على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فلما رآه قال لهم : أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي ، فأحسنوا إساره .

وأمر بربطه في عمود من أعمدة المسجد . ومن يدري . لعل الرسول أمر بهذا لكي يتأثر ثمامة بجو المسجد . وما فيه من صلاة وذكر ، وما تعرضه الصلاة من مساواة وخشوع وابتهال .

ورجع الرسول إلى أهله وقال لهم : اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه . وأمر أن يسقوه من لبن ناقته صباحاً ومساءً .

ثم غدا النبي على ثمامة وقال له : مالك يا ثمام [1] ، هل أمكن الله منك ؟

فأجاب : قد كان ذلك يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم [2] ، وإن تعف

(١) ثمام : بحذف التاء ، لانه منادى مرخم ، والترخيم في النحو هو حذف الحرف الاخير من الاسم المنادى .

(٢) ذا دم : اي من هو مطالب بدم ، او صاحب دم مطلوب . ويروى : ذا ذم ــ بالذال المنقوطة ــ أي ذمام وحرمة في قومه ، واذا عقد ذمة وفى له .

تعف عن شاكر ، وإن تسأل مالاً تعطه . وفي رواية « الطبقات الكبرى » لابن سعد أن ثمامة قال : « إن تعاقب تعاقب ذا ذنب ، وإن تعف تعف عن شاكر [1] » . وفي رواية « السيرة النبوية » لابن كثير أن ثمامة قال : « عندي خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت [2] » .

وعندما أجاب ثمامة بذلك تركه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم كرر معه مثل هذا الحوار في اليومين التاليين ، وكان جواب ثمامة هو الجواب .

وكأنما لمح النبي صلوات الله وسلامه عليه بوادر التوبة وملامح الإنابة في نفس ثمامة ، فقال لأصحابه : أطلقوه .

ثم قال النبي لثمامة : قد عفوت عنك يا ثمامة .

وخرج ثمامة من المسجد وئيد الخطى ، ومضى غير بعيد ، ثم اغتسل وتطهر وطهر ثيابه ، وعاد مسرعاً إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال له : يا محمد ، لقد كنت وما وجه أبغض إليّ من وجهك ، ولا دين أبغض إلي من دينك ، ولا بلد أبغض إليّ من بلدك . ثم لقد أصبحت وما وجه أحب إليّ من وجهك ، ولا دين أحب إليّ من دينك ، ولا بلد أحب إلي من بلدك ، وإني أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وتحقق ظن الرسول في ثمامة وفرح بإسلامه ورجا له الخير .

ويظهر أن ثمامة كان في جاهليته أكولاً ، وقد حدث عقب إسلامه أن

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٥ ص ٤٠١ طبعة دار التحرير .
(٢) السيرة النبوية ، ج ٤ ص ٩٢ .

جاءوه بما كانوا يأتونه به من طعام ، فلم ينل منه إلاّ قليلاً ، وجاءوه باللبن فلم ينل منه إلاّ قليلاً ، فعجب المسلمون من ذلك ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : مم تعجبون ؟ أمن رجل أكل أول النهار في معي كافر [1] ، وأكل آخر النهار في معي مسلم ؟ إن الكافر يأكل في سبعة أمعاء ، وإن المسلم يأكل في معي واحد .

وهذا التعبير لا يراد به الحقيقة اللغوية للأمعاء ، ولكنه مجاز وكناية عن نهم الكافر وقناعة المسلم .

* * *

ثم قال ثمامة رضي الله عنه للرسول صلوات الله وسلامه عليه ، إنني كنت قد خرجت معتمراً [2] وأنا على دين قومي ، فأسرني أصحابك في عمرتي ، فسيِّرني — صلى الله عليك — في عمرتي . (أي ائذن لي في زيارة الكعبة) . فوافق الرسول على ذلك ، وما كاد ثمامة يدخل مكة ، وأهلها يومئذ على الشرك ، حتى رفع صوته بالتلبية :

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

فكان أول من لبى في الإسلام كما يروى ، وفي ذلك يقول الشاعر الحنفي :

ومنا الذي لبّى بمكة معلناً   برغم أبي سفيان في الأشهر الحرمِ

وكان أبو سفيان لم يسلم حينئذ .

(١) المعى — بكسر الميم وفتح العين — : واحد الامعاء ، وهي جميع ما في البطن من الحوايا ، وقيل الامعاء هي المصارين ، وهذا قريب من الاول .
(٢) اي زائرا للكعبة كما كانت عادتهم في الجاهلية .

وسارع المشركون فأمسكوا بثمامة ، وأغلظوا له ، وقالوا : لقد صبأت (أي ارتددت وتركت دينك) .

فقال : والله ما صبأت ، ولكني أسلمت ، وصدّقت محمداً ، وآمنت به ، فإن دينه خير الدين .

فعادوا يقولون له : لقد اجترأت علينا .
وهموا بقتله ، فقال قائل منهم : دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليمامة في طعامكم . وكانت مكة تعتمد حينئذ على اليمامة في تموينها من القمح . فأطلقوا سراحه .

وهنا قال ثمامة : والذي نفس ثمامة بيده ، لا تأتيكم حبة حنطة [1] من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعاد ثمامة إلى موطنه ، ومنع عن مكة ما كان يأتيها من حنطة اليمامة ، فكتب بعض الضعفاء في مكة إلى رسول الله ، يسألونه باسم القرابة والأرحام ، أن يأذن لثمامة بإرسال ما يقوتهم من الطعام ، فأذن عليه الصلاة والسلام .

* * *

وكان إسلام ثمامة بهذه الصورة الرائعة الباهرة قبل فتح مكة ، ولذلك نص ابن كثير على تخطئته للبخاري ، لأن البخاري ذكر إسلام ثمامة في الوفود التي وفدت على الرسول سنة تسع فقال [2] :

« وفي ذكر البخاري هذه القصة في الوفود نظر ، وذلك أن ثمامة لم يفد

---

(١) الحنطة ــ بكسر فسكون ــ البر والقمح .
(٢) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٤ ص ٩٣ .

بنفسه ، وإنما أُسر وقدم به في الوثاق ، فربط بسارية [1] من سواري المسجد .

ثم في ذكره مع الوفود سنة تسع نظر آخر ، وذلك أن الظاهر من سياق قصته أنها قبل الفتح ، لأن أهل مكة عيروه بالإسلام ، وقالوا : أصبوت ؟ فتوعدهم بأنه لا يفد إليهم من اليمامة حبة حنطة مرة ، حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدل على أن مكة كانت إذ ذاك دار حرب ، لم يسلم أهلها بعد ، والله أعلم » .

* * *

ومضت الأعوام وثمامة يجاهد في سبيل ربه بيقين وإخلاص ، مجاهد في حياة الرسول ، وجاهد بعد وفاة الرسول ، وأبلى بلاءً حسناً مع العلاء الحضرمي القائد الإسلامي ، في محاربة المرتدين المتمردين الخارجين في جنوب الجزيرة (من أهل البحرين) .

ويذكر التاريخ أن المجرم الأثيم مسيلمة الكذاب انتهز وفاة القائد الذائد الماجد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فجاهر بادعائه النبوة ، واستجاب له قومه السفهاء ضلالاً وتعصباً ، فارتدت بنو حنيفة ، وتابعت مسيلمةَ عليه اللعنة ، اللهم إلاّ شخصاً واحداً من بني حنيفة ، ظل على العهد قائماً ، وبالإيمان مستمسكاً ، وهو ثمامة بن أثال الحنفي .

يقول ابن عبد البر في كتابه « الدرر » عن مسيلمة : « واتبعته بنو حنيفة إلاّ ثمامة الحنفي ، فإنه بقي على الإيمان بالله ورسوله ، ولم يرتد مع قومه » [2] .

---

(1) السارية : العمود .
(2) الدرر ، ص ٢٧١ .

وجاء في « أسد الغابة » لابن الأثير : « لما ارتد أهل اليمامة عن الإسلام لم يرتد ثمامة ، وثبت على إسلامه ، هو ومن اتبعه من قومه ، وكان مقيماً باليمامة ينهاهم عن اتباع مسيلمة وتصديقه »(١) .

ويقول النووي في كتابه « تهذيب الأسماء واللغات » عن ثمامة : « سيد أهل اليمامة ، أسره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أطلقه ، فأسلم وحسن إسلامه ، ولم يرتد مع من ارتد من أهل اليمامة ، ولا خرج من الطاعة قط ، رضي الله عنه » (٢) .

وكان ثمامة يقول لقومه الذين اتبعوا مسيلمة (٣) :

« إنه لا يجتمع نبيان بأمر واحد ، إن محمداً رسول الله لا نبي بعده ولا نبي يشرك معه » . ثم قرأ عليهم قوله تعالى : « حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذي الطول ، لا إله إلاّ هو إليه المصير » ثم قال : « هذا كلام الله ، أين هذا من : يا ضفدع نقي ، لا الشراب تمنعين ، ولا الماء تكدرين (٤) والله إنكم لترون أن هذا كلام ما خرج من إل » (٥) .

وكان مما قاله لهم أيضاً :

« إياكم وأمراً مظلماً لا نور فيه ، وإنه لشقاء كتبه الله عز وجل على من

---

(١) أسد الغابة ، ج ١ ص ٢٩٤ .
(٢) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ص ١٤٠ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٥ ص ٤٠١ .
(٤) يشير الى سخافات مسيلمة التي ادعى أنها وحي يأتيه .
(٥) الإل : هو الله تعالى ، او هو الاصل الجيد ، اي لم يجيء من الاصل الذي جاء منه القرآن .

أخذ به منكم ، وبلاء على من يأخذ به منكم ، يا بني حنيفة »[1] .

* * *

وضاق ثمامة بهؤلاء الآثمين ذرعاً ، ورأى أن العلاء بن الحضرمي في طريقه إلى الجهاد في البحرين ، فقال ثمامة لأصحابه :

« إني والله ما أرى أن أقيم مع هؤلاء وقد أحدثوا ، وإن الله ضاربهم ببلية لا يقومون بها ولا يقعدون، وما أرى أن نتخلف عن هؤلاء (يعني العلاء وصحبه) وهم مسلمون ، وقد عرفنا الذي يريدون وقد مروا بنا ، ولا أرى إلاّ الخروج معهم ، فمن أراد منكم فليخرج »[2] .

وخرج ثمامة مع أصحابه فكان مدداً أي مدد للعلاء في الجهاد .

وظل ثمامة وفياً ثابتاً ، على الحق قائماً ، حتى نال نعمة الشهادة في السنة الثانية عشرة للهجرة في خلافة أبي بكر الصديق ، حيث اجتمع بنو قيس بن ثعلبة على ثمامة فقتلوه ، رضوان الله عليه .

---

(١) أسد الغابة ، ج ١ ص ٢٩٤ .
(٢) أسد الغابة ، ج ١ ص ٢٩٥ .

عياش بن أبي ربيعة

إذا كان القرآن الكريم قد مجد روابط القرابة وزكى شأنها ، فقـــال : «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » . وإذا كان قد رفع مكانة الأبوين إلى أعلى عليين » ، فقال : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً » ، فإن القرآن المجيد قد جعل حق الله فوق كل حق ، وجعل واجب العقيدة مقدماً على كل واجب ، فقال مخاطباً الولد في حق والديه : « وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إلي ، ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » وقال أيضاً في سورة التوبة : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

وقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلاّ لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار » .

وإذا كان أهلونا يشغلوننا في كثير من الأحيان عن ديون مستحقة في رقابنا لخالقنا وعقيدتنا ، فقد شهد صدر الإسلام رجالاً باعوا لله وللإسلام كل ما بأيديهم ، وضحوا في سبيل عقيدتهم بكل غال ونفيس ، وبذلوا من أجل دعوتهم المال والأهل والدم والروح ، وكان قائلهم يهتف وهو يجود بآخر أنفاسه في سبيل ربه :

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

* * *

وهذا هو الصحابي الجليل أبو عبد الرحمن [1] عياش بن أبي ربيعة عمرو ابن المغيرة المخزومي القرشي المكي : كان من قبيلة مخزوم ، قبيلة الوليد بن المغيرة ، وقبيلة خالد بن الوليد وغيرهما من عظماء العرب في الجاهلية ، وهي قبيلة غنية قوية قادرة . ولكن عياشاً لم يفخر بقبيلته ، ولم يجارها في غيها الجاهلي ، بل فتح عينيه على نور الإسلام ، فاستضاء به وسارع إليه ، ودخل في دين الله تعالى مبكراً ، قبل أن يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم : أول مدرسة نبوية في الإسلام . يقول النووي : « كان إسلام عياش قديماً في أول الأمر ، قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم »[2] .

وحينما اشتد طغيان الكفر على أهل الإيمان هاجر عياش إلى الحبشة في الهجرة الثانية ، ومعه زوجته أسماء بنت سلمة . وهناك ، وفي دار الغربة ولدت له ابنه عبد الله بن عياش ، ثم عادت الأسرة المهاجرة إلى مكة ، لعلها تجد مستقراً أو مسكناً بعد طول غياب ، ولكن الكفر هو الكفر في كل مكان عليه

---

(١) وقيل : أبو عبد الله .
(٢) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ٤٢ .

لعنة الله دائماً ، فهو لا يكتفي بضلال أهليه ، بل يمد سفهه إلى المستضعفين من أهل اليقين ، ولذلك عاد عياش بن أبي ربيعة إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وكان زميله في الهجرة هو البطل الإسلامي العظيم عمر بن الخطاب [1] ، الذي يقول فيه عبد الله بن مسعود : « كان إسلام عمر فتحاً ، وهجرته نصراً ، وإمارته رحمة » .

وحين هاجر عياش غضبت أمه الكافرة — أسماء بنت مخربة بن جندل — وأقسمت ألاّ يظلها ظل ، ولا تزال في الضح (أي الشمس) والريح حتى يرجع إليها ، ولكنه آثر ربه على أمه ، فخرج أبو جهل بن هشام والحارث ابن هشام — وهما أخوا عياش لأمه — وجاءا إليه في المدينة ، وكلماه فقالا : إن أمك نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك . فرق قلب عياش لأمه ، وأراد العودة معهما ليراها ثم يرجع .

وهنا قال له رفيقه في الهجرة عمر : إنه والله ما يريدك القوم إلاّ ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت .

فقال له عياش مخدوعاً : أبر قسم أمي ، ولي هناك مال فآخذه وأعود .

فقال له عمر : والله إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالاً ، فلك نصف مالي ، ولا تذهب معهما .

وشاءت إرادة الله تعالى لحكمة يعلمها أن يذهب عياش ، فقال له عمر : أما إذا فعلت ما فعلت ، فخذ ناقتي هذه ، فإنها ناقة نجيبة ذلول [2] فالزم ظهرها ، فإن رابك من أمر القوم ريب فانج عليها .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٢١٩ . وتهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ٤٢ .

(٢) ذلول : سهلة الانقياد .

وعاد أبو جهل والحارث ومعهما عياش ، وفي أثناء الطريق زعم أبو جهل لعياش أنه قد تعب من ركوب جمله ، وطلب إليه أن يتبادلا الدابتين ، وبينما كان عياش ينزل عن ناقة عمر ليركب بعير أبي جهل ، هجما عليه وأوثقاه رباطاً ، وحبساه هناك في مكة ، واشتد الندم بنفس عياش على أنه استسلم للقوم ، وانخدع بمكرهم ، وظن أن ذلك العمل كبيرة لا تغتفر ، ثم نزل قول الله تبارك وتعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم : لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ».

وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يدعو في صلاته لعياش وأمثاله الضعفاء المحبوسين في مكة ، فيقول « اللهم أنج سلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » (1) . والرسول يشير بذلك إلى قوله تعالى في سورة النساء : « إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » .

ثم استطاع الوليد بن الوليد بن المغيرة أن ينجو من حبسه ، وأن يهاجر إلى المدينة ، ثم رجع بعد حين — بتوجيه من النبي صلوات الله وسلامه عليه — وأنقذ عياشاً وهشام بن العاص من السجن ، وحملهما على بعيره ، وعاد بهما إلى المدينة ، وعثر في الطريق فدميت إصبعه ، فقال :

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ٩٦ . ويقول النووي : « عياش ابن ابي ربيعة الصحابي رضي الله عنه الذي كان من المستضعفين بمكة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو لهم في القنوت » تهذيب الاسماء ، ج ٢ ص ٤٢ .

مـــا أنت إلاّ إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت [1]

* * *

وأعرض عياش بن أبي ربيعة عن الأهل والولد ، وعن الأقارب والأصهار وعن الدنيا وزخرفها ، وأقبل على الجهاد في سبيل الله لا يلوي على شيء ، ولا يريد إلاّ وجه الله والدار الآخرة .

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم عياشاً إلى بني عبد كلال باليمن ، وأرسل معه كتاباً وقال له : « خذ كتابي بيمينك ، وادفعه بيمينك في أيمانهم ، فهم قائلون لك : اقرأ ، فاقرأ : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة ، وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءتهم البينة ، وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ، إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه) فإذا فرغت منها فقل : آمن محمد وأنا أول المؤمنين .

فلن تأتيك حجة إلاّ وقد دحضت ، ولا كتاب زخرف إلاّ ذهب نوره ومحّ لونه ؛ وهم قارئون ، فإذا رطنوا فقد ترجموا ، فقل : حسن ، آمنت بالله وما أنزل من كتاب الله ، فإذا أسلموا فسلمهم قضبهم التي إذا تحضروا بها

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ص ٢٢٠ . وينسب هذا القول الى الرسول ، ولعل عياشا تمثل به .

سُجد لهم ، وهي الأثل قضيب ملمع ببياض ، وقضيب ذو عجر كأنه من خيزران ، والأسود البهيم كأنه من ساسم ، ثم أخرج بها فحرقها في سوقهم »[١].

وقوله : « دحضت » أي زالت وبطلت ، والداحض الذي لا ثبات له ولا عزيمة في الأمور . وقوله : « ولا كتاب زخرف إلاّ ذهب نوره » أي كتاب تمويه وترقيش يزعمون أنه من كتب الله ، وفيه تحريف وتغيير وتمويه . « ومح لونه » أي ذهب ودرس ، وثوب مح أي خلق قديم بال . و « ذو عجر » أي ذو عقد .وقوله : « كأنه من ساسم » الساسم شجر أسود ، وقيل إنه الآبنوس [٢] .

وقد قام عياش بواجبه خير قيام .

* * *

ومضت السنوات بعد السنوات ، وعياش على العهد قائم ، وللإسلام وفي أمين ؛ حتى جاءت موقعة اليرموك التي نشبت في شهر رجب من السنة الخامسة عشرة للهجرة ، وكانت بين المسلمين والروم ؛ وكان عدد المسلمين فيها ثلاثين ألفاً ، وعدد الروم فيها أكثر من مائة ألف ، ولكن الله جل جلاله نصر المسلمين فيها بإيمانهم ويقينهم .

وكان ممن استشهد في موقعة اليرموك عياش بن أبي ربيعة رضي الله عنه [٣]. هكذا أخبر مؤرخ الإسلام الذهبي ، وحافظ السنة النووي ، وبعض المؤرخين

---

(١) العقد الفريد ، ج ١ ص ٢٨٦ ، مطبعة الاستقامة .
(٢) تفسير الكلمات عن النهاية لابن الانير ، من مواطن متفرقة .
(٣) كتاب العبر للذهبي ، ج ١ ص ١٨ : وتهذيب الاسماء للنووي ، ج ٢ ص ٤٢ وفيه يقول : « واستشهد عياش يوم اليرموك وقال الطبري : توفي بمكة » .

كالطبري يقول إن عياشاً بقي في المدينة ، حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إلى الشام فجاهد ، ثم رجع إلى مكة فأقام بها إلى أن مات .

ومما يروى من حديث الكرام أن عياش بن أبي ربيعة، والحارث بن هشام ، وعكرمة بن أبي جهل ، كانوا رفاق جهاد وزملاء نضال وأصدقاء سلاح في معركة اليرموك ، وظلوا يجاهدون حتى أصيبوا ، وكثرت جراحهم ، وأشرفوا على الموت . فدعا الحارث – وكان ظامئاً – بشربة ماء ، فلما جاءه الساقي بالماء رأى الحارث عكرمة ينظر إلى الماء ، فقال الحارث للساقي : اذهب به إلى عكرمة ، فلما جاء به إلى عكرمة ، رأى عكرمة عياشاً ينظر إلى الماء فقال عكرمة للساقي : اذهب بالماء إلى عياش . فلما ذهب الساقي إلى عياش وجده قد أسلم آخر أنفاسه ، وعاد الساقي بالماء إلى صاحبيه فوجدهما قد لحقا بالدار الآخرة ، رضوان الله على الجميع [1] .

انتقل هؤلاء إلى رحاب الله ، وإلى نعيمه المقيم ، وإلى شراب الجنة الطهور الذي يقول عنه القرآن الكريم في سورة الإنسان : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ، عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً » . ثم يقول : « ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً ، قوارير من فضة قدروها تقديراً ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ، عيناً فيها تسمى سلسبيلاً » .

* * *

لو أن هذه المواقف البطولية التي وقفها أصحاب رسول الله عليه الصلاة

---

(1) ذكر صاحب « العقد الفريد » هذا الخبر ، ثم علق عليه بأن هذه القصة عنده موضوعة ، والله أعلم بحقيقة ما كان .

والسلام قصص خيالية ، صورها أديب أو قصاص ، لأثرت في نفوس ذوي المشاعر والأحاسيس ، فكيف وهي حقائق ثابتة ، شهدها الزمن ووعاها التاريخ ؟ . « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

خلاد بن سويد

يقولون إن ابن آدم سمي إنساناً لكثرة نسيانه ، ويتوسعون فيقولون إن هذا يذكرنا بقول الله جل جلاله عن الأب الأول للإنسان : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً . ولعل هذا هو بعض السر في كثرة حديث القرآن الكريم عن التذكر والتذكير ، كقوله : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » . وقوله : « فذكر إن نفعت الذكرى » . وقوله : إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » . . . الخ .

ولقد صور أحد شعرائنا وطننا الحزين المنكوب فقال عنه منذ عشرات السنين : « كل شيء فيه ينسى بعد حين » . ويبدو أن داء النسيان ما زال مسيطراً على كثير منا ، مستحكماً فيهم ، حتى فيما لا يجوز نسيانه بحال من الأحوال ، ولذلك يوجد فينا من كاد ينسى أننا أمة مغلوبة ، وأن جوانب غالية من وطننا مغصوبة ، وكدنا ننسى أن فلسطين قد ابتلعها الصهاينة المجرمون الآثمون ، وأنهم احتلوا القدس أولى القبلتين ، وأنهم أحرقوا المسجد الأقصى ثالث الحرمين ، وأنهم هتكوا الأعراض ، وبقروا بطون الحوامل ، وقتلوا الأطفال ، وشردوا الرجال .

وكأننا بطول المدة ومضي الزمن قد نسينا ما حدث ، أو قد ألفنا ما وقع ،

ومضى كثير منا في دروب الحياة يخطون ويسيرون ، يجللهم الذل والعار ، ويهددهم الفناء والدمار .

وأعداؤنا اليوم هم أعداؤنا بالأمس القريب ، وهم أعداؤنا بالأمس البعيد، وهم أعداؤنا منذ أشرق نور الإسلام : هم قتلة الأنبياء اليهود الأخسة اللئام : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » . وهم الذين ناصبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العداء ، وتربصوا به وبأتباعه الدوائر ، وصدوا الناس عن دعوة الحق ، وافتروا عليها أوقح الافتراء ، وتآمروا ضد المسلمين ، وحاربوهم في خسة ودناءة ، وكانوا كما قال الله عنهم لعباده المؤمنين : « لا يألونكم خبالاً ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ، إن كنتم تعقلون » .

فليتنا نستيقظ ونتنبّه ، وليتنا نتذكر ونعتبر ، وليتنا نمسي ونصبح ولا شاغل لنا سوى تحرير دارنا ، وغسل عارنا ، وأخذ ثارنا . وليتنا على الدوام نستمد العبرة والعظة من هدى ربنا ، وسيرة نبينا ، وجهاد أسلافنا ، إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب .

* * *

وهذه لمحة من عظة تتصل بموضوعنا ، لعلها تذكرنا أو تزجرنا .

وهذه اللمحة تتمثل في الصحابي الجليل : خلاّد بن سُويد الأنصاري — رضي الله عنه — الذي كان من فضلاء الصحابة ، ومن السابقين إلى الاهتداء بنور الله عز وجل ، فكان ممن شهدوا بيعة العقبة الثانية مع رسول الله صلى

الله عليه وسلم [1] ، فصار من طلائع المؤمنين من أهل المدينة : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » .

وأخذ خلاد العهد على نفسه منذ أسلم بأن يحيا لله ، وأن يجاهد في سبيل الله ، وأن يوالي أحباء الله ، وأن يقاوم أعداء الله ، وكأنه اتخذ لنفسه شعاراً ومناراً من قول الله تبارك وتعالى : « قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » .

ولذلك قاتل قتال الرجال ، وناضل نضال الأبطال ، في غزوات : بدر ، وأحد ، والخندق ؛ ومع هذا كان يدرك بوضوح أن عدو الإسلام الأكبر هم أولئك اليهود الذين أكثروا في الأرض الفساد ، ولذلك لم يدع حيلة ولا وسيلة يتذرع بها إلى قتال هؤلاء ، إلاّ تطلع إليها .

وكأن اليهود قد أدركوا خطر خلاد بن سويد ، فتآمروا عليه ، كشأنهم في تاريخهم الأثيم الأسود ؛ وتواطؤا على التخلص منه بالغدر والخيانة ، لا بمواجهة الأنداد للأنداد . وكان فيهم رجل خبيث اسمه « الحكم القرظي » ، وكانت له زوجة خبيثة مثله تسمى « نباتة » ، وقيل تسمى « مزنة » ؛ وقيل تسمى « بنانة » [2] ، فزين لها أن تترصد لخلاد من فوق الدار ، حتى إذا صادفته ألقت عليه الرحى لتقتله ؛ واستجابت المرأة لهذا التفكير الوضيع . وكان زوجها أقذر منها ، لأن التاريخ يذكر في بعض رواياته أن « الحكم » أغرى زوجته بتلك الجريمة ، لأنه أحب ألا تبقى بعده ، فيتزوجها غيره ، وكأنه كان ينتظر الموت [3] .

(١) في الطبقات الكبرى لابن سعد : «شهد خلاد العقبة في روايتهم جميعا» ج ٣ ص ٨٢ .
(٢) الطبقات لابن سعد ، ج ٣ ص ٨٣ .
(٣) السيرة الحلبية ، ج ٢ ص ١٢٠ .

وبينما كان خلاد يمضي في طريق نضاله وكفاحه في غزوة « بني قريظة » أصابه ذلك الاعتداء الخسيس ، فشدخته الرحى ، وأصابته إصابة قاتلة ، وحينما شهد الرسول عليه الصلاة والسلام استشهاد خلاد بهذه الصورة الأليمة ، دعا له وقال عنه : « إن له لأجر شهيدين » . ويا لها من شهادة مجيدة عظيمة ينطق بها الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه ، فإذا كنا نعرف أن الشهيد يُغفر له ما تقدم من ذنبه ، وأنه يشفع في كثير من أهله ، وأنه ينال من الثواب غاية ما يتمنى ، فكيف بثواب شهيدين ؟ ! (١) .

وندمت امرأة « الحكم » على ما اقترفت ، فقالت : « قتلني زوجي ، أمرني أن ألقي رحى على أصحاب محمد كانوا تحت الحصن ، مستظلين بفيئه ، فأدركت خلادَ بن سويد فشرخت رأسه فمات » . وسنعرف مصيرها الوبيل بعد قليل .

وحينما استشهد خلاد قال بعضهم لأمه — وهي عمرة بنت سعد بن قس — : يا أم خلاد ، قُتل خلاد . فجاءت أمه إليه متنقبة ، فقيل لها : قتل خلاد وأنت متنقبة ؟ فأجابت : إن كنت رزئت خلاداً ، فلا أرزأ حيائي . فعلم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال : أما إن له أجر شهيدين .

قيل : ولمَ ذاك يا رسول الله ؟

فقال : لأن أهل الكتاب قتلوه (٢) .

وكانت شهادة خلاد في السنة الخامسة من الهجرة ، وكان له من الأولاد :

---

(١) يروي التاريخ انهم نقلوا خلادا الى المدينة بعد اصابته فمات فيها (المصدر السابق) .

(٢) الطبقات الكبرى ، ج ٣ ص ٨٣ .

السائب بن خلاد بن سويد ، الذي صحب النبي صلى الله عليه وسلم ، واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على اليمن وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث ، وروى عنه ابنه خلاد ، وقد شهد السائب بدراً ، وولي اليمن لمعاوية ، ومات سنة إحدى وسبعين للهجرة (١) .

وكان لخلاد حفيد ، هو خلاد بن السائب بن خلاد بن سويد ، شهد عصر النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير ، وروى الحديث عن أبيه السائب ، وروى عن زيد بن خالد الجهني ، وروى عنه جماعة ، وهو ثقة .

وهكذا نرى خلاداً صحابياً ، ونرى ابنه السائب صحابياً ، ونرى حفيده وسميه صحابياً ، فهم ثلاثة نالهم شرف الصحبة : الجد خلاد ، والابن السائب ، والحفيد خلاد .

وكان لخلاد ولد ثان اسمه « الحكم » . رضوان الله على الجميع .

* * *

ولقد أراد رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أن يزيد خلاداً تقديراً وإكراماً ، فأسهم له بعد موته بنصيب كنصيب المجاهدين الأحياء في الغزوة ، ودفع بهذا النصيب إلى أهله

والأهم من ذلك كله أن المسلمين شدوا حينئذ عزائمهم ، وضاعفوا جهودهم ، وكأنهم أرادوا أن ينتقموا لمصرع زميلهم وشهيدهم : خلاد بن سويد ، وأراد الحق جل جلاله ألا يخيب مسعاهم ، وأن لا يضيع هداهم ،

---

(٢) التحفة اللطيفة ، ج ٢ ص ١٣٦ .

فحقق لهم أملهم ، وزكى عناءه عملهم ، وكتب لهم النصر المبين على يهود بني قريظة ، جزاء لصدق المؤمنين وصبرهم ونصرهم لربهم ؛ « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وجاء موقف القصاص العادل من بني قريظة الآثمين ، الذين خانوا عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد أن أمنهم على حياتهم وحريتهم وشعائرهم ، وأخذ عليهم المواثيق الغليظة ألا يخونوا ولا يغدروا ، ثم كفروا وتمردوا وفجروا ، وانضموا إلى المشركين أعداء الله والدين ضد المسلمين .

وعرض الرسول على هؤلاء الأخساء أن يختاروا بعد هزيمتهم من يحكم عليهم ، فظنوا أن سعد بن معاذ سيخفف عليهم ، لتحالف كان بينه وبينهم في الجاهلية (١) ، وهنا قال سعد : « قد آن لسعد ألاّ تأخذه في الله لومة لائم ».

وبعد أن استوثق من أن اليهود سيرضون بحكمه ، أصدر حكمه قائلاً : « إني أحكم فيهم بأن يقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرية والنساء، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار » .

وهنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع سموات » !

وبدأ تنفيذ هذا الحكم ، ولكن امرأة واحدة سيقت إلى القتل لا إلى السبي ، إنها تلك المرأة الخائنة اللعينة ، « نباتة » التي استجابت لإغراء زوجها الشيطان « الحكم القرظي » ، فألقت الرحى على الشهيد خلاد بن سويد فقتلته (٢) ، فنالت جزاءها وفاقاً ، وصدقت حين قالت : « قتلني زوجي » ! « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

ومضى الشهيد خلاد بن سويد إلى ربه لينال ثوابه الدائم في جنات النعيم رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

---

(١) انظر تفصيل الموقف في كتابي « الفداء في الاسلام » ، ص ١٠٦ .
(٢) الروض الآنف ، للسهيلي .

وحشي بن حرب الحبشي

من فضل الله تعالى على عباده أن فتح أمامهم باب التوبة على مصراعيه لينيبوا إليه نادمين ، ويستغفروه مخلصين ، فإذا هو بفضله ومنه يعفو عنهم ، ويغفر لهم ، ويغمرهم برحمته وكرمه ، مهما كان اعتسافهم في الماضي ، أو إسرافهم في الضلال ، لأنه سبحانه هو القائل :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .

ولقد يضل الإنسان ضلاله البعيد في ظلمات الجهل والجاهلية ، ويغرق حتى أذنيه في حمأة الإثم والرذيلة ، ويسرف على نفسه أو على الناس ، ثم تدركه عناية الله جل جلاله ، فيثوب إلى رشده ولبه ، ويعود إلى خالقه وربه ، ويأسف أشد الأسف على ما قدمت يداه ، ويذهب باحثاً في صدق وإخلاص عن طريق توبته وهداه ، ويحاول بكل ما استطاع أن يكون كأولئك المؤمنين الذين قال عنهم رب العزة : « ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ».

فيسلم وجهه إلى الله سبحانه ، ويغسل ماضيه الأسود بطاعته وتقواه، ذاكراً قول القرآن الكريم : « إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين » . فيتقبله ربه بقبول حسن ، ويرضى عنه ويرضيه : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » . وصلوات الله وسلامه على رسوله الهادي

الذي قال : « اتق الله حيثما كنت » ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

من هذا الطراز رجل بدأ مشركاً أثيماً ، ثم صار صحابياً كريماً . . . لوث يديه أولاً بجريمة شنيعة نكراء ، أزهق فيها روحاً زكية علية طاهرة ، ثم طهر يديه من جريمته بقتل روح خبيثة قذرة ، لعلها كانت من شر النفوس بين الناس.

إنه الصحابي أبو دسمة [1] وحشي بن حرب الحبشي الحمصي ، الذي كان من سودان مكة وعبيدها ، وكان من أبطال الموالي في الجاهلية ، وكان ماهراً في قذف الحربة ، وقلما يخطىء بها هدفاً يريده . ولكنه كان عبداً مملوكاً لجبير بن مطعم بن عدي الذي كان حينئذ مشركاً [2] ، والعبد وما ملكت يداه لسيده كما يقولون ، فهو مأمور مقهور مسير لأهواء مالكيه .

وكأن وحشياً كان يضيق بهذه العبودية كل الضيق ، ويتمنى أن يجد أي طريق للخلاص منها ونيل الحرية . . . وتهيأت أمامه الفرصة المغرية ، حينما جاءه سيده جبير قبيل غزوة أُحد وقال له : يا وحشي ، أخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة بن عبد المطلب بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق . (أي حر) . وذلك لأن حمزة رضي الله عنه كان قد قتل طعيمة في غزوة بدر [3] .

وأقبلت بنت طعيمة أيضاً ، وأخذت تزيد في إغراء وحشي ، فقالت له : يا وحشي ، إن أنت قتلت محمداً أو حمزة أو علياً في أبي — فإني لا أرى في القوم كفؤاً له غيرهم — فأنت عتيق ! . .

---

(١) بفتح الدال والسين والميم .
(٢) أسلم بعد ذلك .
(٣) الدرر ، ص ١١٨ . والسيرة الحلبية ، ج ٢ ص ١٣ .

واستمع وحشي إلى هذا الإغراء الخادع المثير ، وإنه لعبد جاهل، ومملوك مقهور ، وإنسان مغلق القلب دون الهداية والنور ، وقد ذاق ما ذاق ، واحتمل ما احتمل من ذل الرق وهوان العبودية ، وأسياده يأمرونه ويغرونه ويعدونه، وإن لم يستجب لهم طوعاً ، فهم سيعذبونه ، ويتوعدونه ، والحرية أمنية للعبد براقة خلاّبة جذابة ، ووسوس الشيطان إلى وحشي أن يفعل فعلته ، وأن يرتكب جريمته ، فخرج إلى غزوة أُحد متخفياً ، وقد حمل حربته الأثيمة ، وتربص للبطل الإسلامي العظيم سيد الشهداء : حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وطعنه بحربته طعنة لئيمة خسيسة ، نال بها عم النبي صلى الله عليه وسلم نعمة الشهادة .

يقول وحشي : «إني لأنظر إلى حمزة يهد الناس بسيفه (أي يقطع ويهدم) ، وقد عثر حمزة ، فانكشف الدرع عن بطنه ، فهززت حربتي ، حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه ، فوقعت في ثنته (تحت سرته) حتى خرجت من بين رجليه ، فأقبل نحوي فغُلب ، فوقع فأمهلته حتى إذا مات ، جئته فأخذت حربتي ، ثم تنحيت إلى المعسكر ، ولم يكن لي في شيء حاجة غيره »[١].

وهكذا انتظر وحشي حتى انتهت أنفاس حمزة الشهيد ، وانقطعت حركته وأقبل نحوه فانتزع حربته من جسم البطل الصريع ، وأطلق ساقيه للريح ، ثم عاد إلى أسياده يطلب منهم ثمن جريمته وهو الحرية .

واشتد الحزن برسول الله صلوات الله وسلامه عليه لمصابه الجلل في سيد الشهداء حمزة ، وحق له ذلك ، فقد شاهد ما فعله فجور الكفر وتجبر الثأر في جسم الشهيد من تمزيق وتقطيع ، حتى قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم » ولكن صوت الحق تنزل من فوق

---

(١) السيرة الحلبية ، ج ٢ ص ٢١ .

سبع سموات يقول : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

* * *

ومضت الأيام والأعوام ، وأخذت أنوار الإسلام تنتشر وتسطع وأخذت كلمة المسلمين تعز وتقوى ، وتوج الله ذلك كله بأن فتح مكة على عباده المجاهدين المخلصين ، فتحقق النصر الكبير .

وضاقت الأرض بما رحبت على وحشي بن حرب ، فجريمته النكراء ما زالت تجلله بعارها وشنارها ، وقد أصبح محمد سيد الجزيرة ومالك زمامها . ففر وحشي بجلده ، وهرب إلى الطائف حتى لا يقع في يد الرسول عليه الصلاة والسلام . وبينما كان وحشي في هم مقعد مقيم ، ينتظر القصاص العادل ما بين يوم وآخر ، جاءه أحد الناس وأخبره أن الرسول صلى الله عليه وسلم كريم مسماح ، ولا يقتل من أعان إسلامه كائناً من كان . قال له :

ويحك يا وحشي ، إنه لا يقتل أحداً من الناس دخل دينه .

وتأكد وحشي لنفسه من ذلك حتى اطمأن إليه ، ثم توجه إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام متخفياً [1] ، ورفع صوته بكلمة التوحيد وشهادة الإسلام، قائلاً مكرراً : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وعرف سيد الخلق أن الذي يقف أمامه هو وحشي بن حرب قاتل حمزة رضي الله عنه ، فثارت الذكرى في نفس الرسول لمصرع عمه الشهيد : وتذكر

---

(١) يروى أنه جاء مع وفد ثقيف في عام الوفود .

كيف جدعوا أنفه ، وقطعوا أذنيه ، وبقروا بطنه ، وأخرجوا كبده ، وأوسعوا فيه التمثيل ، وفعلوا ما فعلوا .

ثارت الذكرى الأليمة في الصدر النقي الذكي الطهور ، ويا لها من ذكرى تعصف بالجبال الرواسي . ولكن وحشياً قد دخل في الإسلام وأعان شهادته فعصم نفسه ، وغالب الرسول صلى الله عليه وسلم عاطفته ، وسأل وحشياً كيف قتل حمزة ، فقص عليه ما حدث .

وتروي السيرة أن الناس قالوا للنبي : يا رسول الله ، هذا وحشي .

فقال : دعوه ، فلإسلام رجل واحد أحب إلى من قتل ألف رجل كافر[1].

وخشي الرسول أن تتغير نفسه الشريفة على وحشي إذا كثرت رؤيته له ، لأن ذلك سيذكره على الدوام بمصرع عمه الشهيد ، فقال له : « غيِّب عني وجهك يا وحشي حتى لا أراك » .

وهمّ وحشي بالانصراف ، فعاد الرسول يقول له : « يا وحشي ، أخرج فقاتل في سبيل الله ، كما كنت تقاتل لتصد عن سبيل الله » ويا له من توجيه نبوي كريم ، يصدر عن قلب كبير رحيم .

* * *

وخرج وحشي والندم يمزق أحشاءه ، ويزلزل أعضاءه ، وعاهد ربه تعالى أن يكفر عن خطيئته الكبرى التي سلفت ، بحسن الجهاد وصدق البلاء

---

(١) الروض الأنف للسهيلي ، ج ٢ ص ١٣٢ .

في سبيل الله ، وحمل حربته التي سفك بها دم حمزة رضي الله عنه ، ومضى ليسفك بها دماء الطغاة البغاة الذين يمثلون السرطان في دنيا الإنسان .

ومضى الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى ربه ، وأقبل عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وجاءت معركة « اليمامة » التي أوقد نارها عدو الله مسيلمة بن حبيب المتنبيء الكذاب ، وخرج وحشي بن حرب مجاهداً في صفوف المؤمنين ، وقد عقد العزم على قتل مسيلمة إن استطاع ، وشاءت الأقدار أن تقدم إلى الناس صورة من صور التكفير والتطهير ، فقد ظل وحشي يتابع مسيلمة في المعركة ، حتى تهيأ له وتمكن منه ، فهز حربته في يده ، ثم سددها إلى الطاغية الكذاب ، فإذا هي تصيب منه مقتلاً ، وإذا بمجاهد أنصاري يُتبع رمية الحربة بضربة من سيف في يده ، فيلحق مسيلمة بمن سبقه من طواغيت الكفر والشرك : إلى جهنم وبئس المصير .

وارتفع صوت يقول مشيراً إلى مسيلمة : « لقد قتله العبد الأسود » وارتفع صوت وحشي يردد : لقد قتلت بحربتي خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : حمزة بن عبد المطلب ، ثم قتلت بها شر الناس : مسيلمة الكذاب . ودعا وحشي ربه أن يغفر له جريمته الأولى بمكرمته اللاحقة ، والله جل جلاله هو القائل : « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » ! .

ولم لا ندع وحشي بن حرب نفسه يحدثنا بلغته عن محنته كما نقلها ابن هشام ؟ . . يقول وحشي :

«كنت غلاماً لجبير بن مطعم ، وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد قال لي جبير : إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق . فخرجت مع الناس ، وكنت رجلاً حبشياً ، أقذف بالحربة قذف الحبشة ، قلما أخطيء بها شيئاً ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة

وأتبصره ، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق [١] يهز الناس بسيفه هزاً [٢] ما يقوم له شيء ، فوالله إني لأتهيأ له أريده، فاستتر منه بشجرة أو حجر ، ليدنو مني ، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال له : هلمّ إليّ يا ابن مقطعة البظور [٣] ، فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه .

وهززت حربتي ، حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه فوقعت في ثنته [٤] ، حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوي [٥] فغلب ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتي ، ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه ، ولم يكن لي بغيره حاجة ، وإنما قتلته لأعتق ، فلما قدمت مكة عتقت .

ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة هربت إلى الطائف ، فمكثت بها ، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلموا تعيّت عليّ المذاهب ، فقلت : ألحق بالشام ، أو اليمن ، أو ببعض البلاد .

فوالله إني لفي ذلك من همي ، إذ قال لي رجل : ويحك ، إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه ، وتشهد شهادة الحق ، فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يرعه إلاّ بي

---

(١) الجمل الأورق : الأسمر .
(٢) يهز هزا : من الهز وهو سرعة القطع .
(٣) البظور : جمع بظر ، وهو الهنة التي تقطعها الخافضة من فرج المرأة عند الختان ، وقوله : « يا ابن مقطعة البظور » دعاه بذلك لأن أمه كانت تختن النساء ، والعرب تطلق هذا اللفظ في معرض الذم ، وان لم تكن أم من يقال له خاتنة (النهاية) .
(٤) الثنة : ما بين السرة والعانة من أسفل البطن .
(٥) أي لينهض نحوي . وغلب : أي عجز .

قائماً على رأسه ، أتشهد بشهادة الحق ، فلما رآني قال : أوحشي ؟ قلت : نعم يا رسول الله . قال : اقعد فحدّثني كيف قتلت حمزة .

فحدثته ، فلما فرغت من حديثي قال : ويحك ، غيب عني وجهك فلا أرينك . فكنت أتنكب [1] رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان لئلاّ يراني ، حتى قبضه الله — صلى الله عليه وسلم —

فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم ، وأخذت حربتي التي قتلت بها حمزة ، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائماً في يده السيف وما أعرفه ، فتهيأت له ، وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى ، كلانا يريده ، فهززت حربتي إذا رضيت عنها دفعتها عليه ، فوقعت فيه ، وشد عليه الأنصاري فضربه بالسيف ، فربك أعلم أينا قتله ، فإن كنت قتلته فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قتلت شر الناس » .

وقد اختلف أهل السيرة في تحديد الرجل الذي اشترك مع وحشي في قتل مسيلمة ، فروى أنه عبد الله بن زيد بن عاصم المازني من الأنصار [2] ، وقيل إنه عدي بن سهيل ، وأنه أنشد :

ألم ترى أنّي ووحشيهـــم قتلت مسيلمـــة المفتتنْ
ويسألني الناس عن قتلـــه فقلت : ضربت ، وهذا طعن

وروى أن أبا دجانة شارك أيضاً في قتل مسيلمة .

* * *

---

(١) أي أتنحى وأعرض عنه .
(٢) انظر كتابي « الفداء في الاسلام » ص ٢١٤ .

ولقد شهد وحشي بن حرب غزوة اليرموك [1] وجاهد فيها ، وروى أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم سكن حمص وأقام فيها ، ومات بها في خلافة عثمان رضي الله عنهما [2] .

ألا إن الجهاد باب من أبواب الجنة ذو سعة ، يتسع للتقي فيزيده أجراً وثواباً ، ويتسع لغير التقي ، فيطهره وينقيه ، ويكفر عنه من سيئاته ، ويزيد له في حسناته ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وسيظل صوت القرآن الكريم يردد :

« انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

---

(١) اقرأ حديثها في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ص ٣٥٩ .
(٢) تقريب التهذيب ، ص ٥٣٩ .

الشاعر الشهيد

أبو ذؤيب الهذلي

لعل الداء الدوي العصي الذي أصيبت به الأمة المسكينة المنكوبة ، العديدة الأدواء ، الممزقة الأشلاء ، هو أنها تقول كثيراً ، ولا تعمل إلاّ قليلاً ، وأنها قد ترغي وتزبد ، وتهدد وتتوعد ، ثم لا يكون منها وراء ذلك تصديق أو تأييد ، لما توسعت فيه من ادعاء أو تهديد .

وقد صور شاعرنا « شوقي » أولئك الذين يعيشون على الأقوال دون الأعمال ، فقال عنهم إنهم : « أسود الكلام نعام الوغى » ، أو كما قال الأول في أمثال لهم : جسم البغال وأحلام العصافير » .

وهذا هو القرآن الكريم — كتاب العربية الأكبر — يبكت ويعرض بالذين ينتسبون إلى الإيمان ، ولا يوفون له بحقوقه وواجباته ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » .

كما أننا نفهم من التنزيل الإلهي الحكيم أن ضخامة الأقوال مع ضآلة الأعمال من شيم أهل النفاق . فلهم في الأجسام هامات وقامات ، ولهم في مجالات الكلام صولات وجولات ، ولكنهم أمثلة مؤسفة للجبن والخور ، فهم أخطر الفئات على المجتمع : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا

تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو ، فاحذرهم ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون » .

ولقد علمنا الإسلام أن أهل العزة والكرامة هم الذين يجمعون بين طيب المقال وحسن الفعال ، يقول القرآن : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » .

ولقد شاهدت الدنيا في صدر الإسلام رجالاً أحسنوا الجمع بين القول الجميل والعمل الجليل : تكلموا فأصابوا ، ودُعوا فأجابوا ، وعملوا فأتقنوا ، وجاهدوا فأحسنوا : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » .

* * *

وهذا واحد من هؤلاء :

إنه الشاعر المخضرم ، المجاهد الشهيد : أبو ذؤيب خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد الهذلي ، الذي لم يجد التاريخ علينا بكثير من أحداث حياته ، أو تفاصيل أيامه ، ولكنا نعرف أنه كان شاعراً بليغاً ، مقتدراً مؤثراً ، وكان أشعر قبيلته هذيل . سئل حسان بن ثابت شاعر الإسلام وشاعر الرسول : من أشعر الناس ؟ فقال : أشعر الناس حيٌّ هذيل ، وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب .

ويقول البغدادي : هو أشعر هذيل من غير مدافعة . ويقول محمد بن سلام . « كان أبو ذؤيب شاعراً فحلاً ، لا غميزة فيه ولا وهن » أي لا مطعن

فيه ولا ضعف . وتذكر « دائرة المعارف الإسلامية » أن أبا ذؤيب قد بز شعراء الجاهلية في تشدده في حبك قصائده وبنائها ، كما كان يفعل الشاعر الهذلي « ساعدة بن جؤية » الذي كان أبو ذؤيب راوية له ، وكلا الشاعرين يشتركان في وصف عسل الأبكار من النحل وجامعه ، وما يخامرهما من متعة الوصف الرقيق الدقيق للنحل ، وعمل الجامع للعسل ، وكذلك التناول الخاص لتراكم السحاب وهطول المطر الذي يعقبه . وكذلك كان أبو ذؤيب يفيض في النسيب حتى يشمل القصيدة كلها ، وتنطوي الموضوعات الأخرى في ثنايا هذا النسيب ، وكان مولعاً بوصف الأسلحة ومشاهد الصيد ، وفاق غيره في ذلك ، وكانت وحدة القصيدة تتجلى في بعض قصائده .

ولو ظل أبو ذؤيب الهذلي قوالاً بغير فعال لما شغلنا أمره كثيراً . ولقلنا فيه ما قاله الحق جل جلاله في الضالين من شعراء الأوهام والأحلام : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » . ولكنه كان فيما نفهم من أولئك الذين جمعوا بين بلاغة القول وروعة العمل ،والذين استثناهم الحق جل جلاله من طوائف الشعراء بقوله : « إلاّ الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظُلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

ولقد تأخر الزمن بإسلام أبي ذؤيب لسبب لا نستطيع أن نقطع به ، ثم انشرح صدره للإسلام ، فقدم « المدينة » عند وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأسلم وحسن إسلامه .

ويتحدث هو عن ذلك فيقول فيما يقول : «بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليل ، وأوجس أهل الحي خيفة ، وأشعرنا حزناً ، فبت بليلة باتت النجوم بها طويلة الأناة ، لا ينجاب ديجورها (1) ، ولا يطلع نورها ،

(1) لا ينكشف ظلامها .

فظللت أقاسي طولها ، وأقارع غولها [1] ، حتى إذا كان دوين السمر ، وقرب السحر ، خفت فهتف هاتف وهو يقول :

خطب أجــل أناخ بالإسلام بين النخيل ومعقد الآطام [2]
قبض النبي محمد ، فعيوننـــا تذري الدموع عليه بالتسجام

فوثب أبو ذؤيب عند ذلك فزعاً ، وقدم المدينة ولأهلها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج أهلوا بالإحرام والتلبية ، فسأل : ما الخبر ؟ فقالوا : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] .

فحزن لذلك حزناً شديداً ، وعاهد ربه على اتباع دعوته وسنته ، ودخل فيمن دخلوا على الجثمان الطاهر المسجى على فراشه ، وصلى مع من صلوا عليه جماعات وأرسالا ، وكأن قلبه قد أضاء بشعلة قوية نقية من الإيمان واليقين ، وحضر أبو ذؤيب عقب ذلك أول اجتماع للمسلمين للمشاورة في اختيار خليفة للرسول في سقيفة بني ساعدة ، وبايع فيمن بايعوا أبا بكر الصديق رضوان الله عليه ، وقرر الشاعر المؤمن أن يسكن المدينة ، لأنها مستقر النبي صلى الله عليه وسلم حياً وميتاً .

وكأنما خُلق أبو ذؤيب بالإسلام خلقاً جديداً ، وتبدل كثير من خلاله وصفاته ، فرحلت عنه حمية الجاهلية بأوضارها وأوزارها ، وأصبح جندياً من جنود الدعوة والعقيدة ، يجيد المقال ويجيد الفعال ، وأخذ يشارك بجهاده وجهوده في الفتوح والغزوات ، زمن أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، رضوان

---

(١) أقارع : أغالب . وغولها : ما يغتال فيها ، ويعني همها .
(٢) النخيل ومعقد الآطام : موضع . والتسجام : كثرة سيلان الدمع .
(٣) معجم الأدباء ، ج ١١ ص ٨٤ طبعة رفاعي .

الله على الجميع ، وامتحنته الأقدار بالشديد من الابتلاء والاختبار ، فصبر صبراً جميلاً ، واحتمل احتمالاً كريماً ، فقد كان له ستة أبناء ، فقد منهم خمسة تباعاً ، أصيبوا بالطاعون في عام واحد ، وخلفوا وراءهم ابناً له واحداً ، ورواية « العقد الفريد » تذكر أن الأبناء كانوا سبعة ، ماتوا كلهم إلاّ طفلاً [1] فرثاهم أبو ذؤيب بقصيدة بليغة مؤثرة ، لم يتنكر فيها للإيمان ، بل ثبت بها دعائم إيمانه ، وكأنه كان يتذكر قول ربه : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » . والقصيدة طويلة النفَس ، تقارب السبعين بيتاً .

وفي هذه القصيدة يقول أبو ذؤيب :

أمن المنون وريبها تتوجع ؟ والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أميمة ما لجسمك شاحباً منذ ابتذلت [2] ، ومثل مالك ينفع
أم ما لجنبك ما يلائم مضجعاً إلاّ أقض عليك ذاك المضجع ؟
فأجبتها : أما لجسمي أنه أودى بَنِيَّ من البلاد فودعوا
سبقوا هويَّ ، وأعنقوا لهواهم فتخرموا ، ولكل جنب مصرع [3]
فبقيت بعدهم بعيش ناصب وإخال أنّي لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا المنية أقبلت لا تدفع

(١) العقد الفريد ، ج ٣ ص ٢٠٦ . مطبعة الاستقامة .
(٢) ابتذلت : امتهنت نفسك .
(٣) هوى : هواي بلغة هذيل ، والمعنى : ماتوا قبلي . واعنقوا : اسرعوا . وتخرموا : أخذوا واحدا بعد واحد .

وإذا المنيــة أنشبت أظفــــارها ألفيت كــل تميمة لا تنفــع
لا بــد من تلف مقيم ، فانتظر أبأرض قومك أم بأخرى المضجع
ولقد أرى أن البكــاء سفاهــة ولسوف يدمع بالبكا من يفجع
وليــأتين عليك يــوم مـــرة يبكي عليك معنف لا يسمع
فلئن بهم فجع الزمــان وريبــه إنّي بــأهل مودتي لمفجّـــع
كم من جميع الشمل ملتئم الهوى كانوا بعيش نــاعم فتصدعوا
والنّفس راغبـــة إذا رغبتهـــا وإذا ترد إلى قليــــل تقنع

وهو يشير بهذا البيت إلى الطفل الذي بقي له ، وكأنه يقول إن الإنسان إذا فتح على نفسه أبواب الطمع تضاعف طمعها ، وتكاثرت رغباتها ، والحديث يقول : « لو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى معه الثاني ، ولو كان معه الثاني لتمنى معه الثالث ، ولا يملأ عين ابن آدم إلاّ التراب ، ويتوب الله على من تاب » . ولكن الإنسان إذا علم نفسه القناعة والرضى بالقليل استجابت له ، واكتفت بما يسر الله لها .

والقصيدة — كما تقول دائرة معارف البستاني — من أشهر الشعر الرثائي العربي ، لم يبق أديب إلاّ روى منها ، ولا كتاب في بابها إلاّ استشهد ببعض أبياتها ، وقد جمع فيها رقة العاطفة وطبيعة الحزن ، ومرارة النفس المتحققة من عجزها لدى حدثان الدهر ، إلى الاعتبار بشمول الموت ، وقناعة النفس بالزهيد الحاصل بعد انفساح الأمل ، وتنوع الرغائب والمطامع ، إلى دقة الوصف وحسن التصوير وضبط التصميم ، وبلاغة التعبير ومتانة السبك وقوة النفس ، ومقدرة التصرف بالغريب .

وبلغ من مكانة هذه القصيدة وتأثيرها أن المنصور حينما مات ولده الأكبر « جعفر » مشى المنصور في جنازته من بغداد إلى مقابر قريش ، وهي

مقبرة مشهورة ببغداد . ومشى الناس معه أجمعون حتى دفنه ، ثم عاد إلى قصره ، ثم أقبل على مولاه الربيع بن يونس ، وقال له : « يا ربيع انظر من في أهلي ينشدني (أمن المنون وريبها تتوجع) حتى أتسلى بها عن مصيبتي » .

وبحث الربيع عمن يحفظ القصيدة من أهل بيت المنصور ، فلم يجد أحداً يحفظها ، فرجع إلى المنصور وأخبره ، فقال : والله لمصيبتي بأهل بيتي ألاّ يكون فيهم أحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الأدب ، أعظم وأشد علي من مصيبتي بابني .

ثم قال المنصور للربيع : انظر هل في القوّاد والعوام من الجند من يعرفها فإني أحب أن أسمعها من إنسان ينشدها . وخرج الربيع فبحث حتى وجد شيخاً كبيراً مؤدباً قد انصرف من موضع تأديبه ، فسأله : هل تحفظ شيئاً من الشعر ؟ فأجابه المؤدب : نعم : أحفظ شعر أبي ذؤيب .

فقال له الربيع : أنشدني . فابتدأ الشيخ هذه القصيدة العينية ، فقال الربيع : أنت بغيتي .

وذهب بها إلى المنصور فأنشده القصيدة ، ولما سمع المنصور قول أبي ذؤيب « والدهر ليس بمعتب من يجزع » (١) قال : صدق والله ، فأنشدني هذا البيت مائة مرة ، ليتردد هذا المصراع علي . فأنشده ، ثم مر فيها ، فلما انتهى إلى قوله :

والدهر لا يبقى على حدثانـــه   جون السراة له جدائد أربع (٢)

---

(١) اعتبه : رجع الى ما يرضيه ، وترك ما يسخطه .

(٢) جون السراة : أسود الظهر او ابيضه ، فهو يطلق على الاسود والابيض ، ويريد بجون السراة حمارا . والجدائد : واحدها جدود بفتح الجيم ، وهي الأتان التي لا لبن لها .

قال المنصور : سلا أبو ذؤيب . ودفع المنصور إلى الشيخ بصرة فيها مائة درهم [١] .

* * *

وانتقل أبو ذؤيب من الرثاء والبكاء إلى خير العمل ، فذهب إلى عمر بن الخطاب وسأله : أي العمل أفضل يا أمير المؤمنين ؟

فأجابه : الإيمان بالله ورسوله .

قال أبو ذؤيب : قد فعلت ، فأيه أفضل بعده ؟ يعني : فأي العمل أفضل بعد ذلك ؟

أجاب عمر : الجهاد في سبيل الله .

فقال أبو ذؤيب مؤكداً عزيمته في الجهاد : ذلك كان عليّ ، وإني لا أرجو جنة ولا ناراً .

وحمل سلاحه ، وخرج إلى الجهاد في أفريقية ، ليجاهد أعداء الله تعالى وأعداء الناس من الروم ، وليحرر الأرض الطيبة العذراء لأهلها وأصحابها ، وظل يجاهد ويجاهد ، حتى نال نعمة الشهادة سنة سبع وعشرين للهجرة مناضلاً مغترباً [٢] ، مؤثراً ما عند الله على ما عند الناس ؛ وقيل إن أبا ذؤيب خرج للجهاد في أفريقية مع جيش عبد الله بن أبي سرح سنة ست وعشرين في زمن عثمان ، وأتم الجيش الفتح ، وأرسل القائد بشيرين إلى الخليفة ، هما عبد الله ابن الزبير وأبو ذؤيب ، فلما قدموا مصر مات أبو ذؤيب بها ، وقام بأمره ابن الزبير حتى واراه في لحده. وقيل بل مات في أرض الروم على حافة الميدان من جهة الأعداء ؛ فما كان وراء قبر أبي ذؤيب قبر يُعرف لأحد من المسلمين .

رضوان الله على الشاعر المجاهد الشهيد .

---

(١) الأغاني ، ج ٦ ص ٢٧٢ — ٢٧٤ .
(٢) الكامل لابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٥ .

ابو سفيان بن الحارث

حينما تأذنت رحمة الله تعالى بهداية العالمين ، عن طريق الإسلام دينه الخاتم الدائم ، وأنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم قوله : « وأنذر عشيرتك الأقربين » كان هذا تقريراً من الله سبحانه بأن أساس التفضيل والتقديم عند الله ليس الأنساب ولا القرابات ، وإنما الأمر كما قال القرآن المجيد : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وما أروع الرسول حين يقرر هذه الحقيقة لأهله وذوي قرابته ، فيقول لهم : « يا آل محمد ، لا يأتيني الناس بالأعمال ، وتأتوني بالأنساب ، اعملوا فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً » .

ولقد اختلفت الأحوال بهؤلاء الأقارب اختلافاً مبيناً ، فمنهم من استجاب وأناب ، بلا تردد أو ارتياب ، ومنهم من أعرض عن الرسول ونفر منه ، وأصر على عناده وكفرانه ، ومنهم من عادى النبي في أول الأمر ، واستمر على عداوته حيناً قليلاً أو طويلاً من الزمان ، ثم أدركته عناية الله فاهتدى إلى سواء السبيل ، وأقبل يكفّر بإيمانه وجهاده عما ارتكبه في أيام جحوده وكفرانه ، وصدق في توبته ، فمن الله عليه بمغفرته ، وختم له بخاتمة السعادة ، فقبضه على الإسلام ، وتلك هي الخاتمة الطيبة التي ينبغي أن يتطلع إليها كل عاقل ، وأن يسعى نحوها كل مقصر ، حتى ينقذ نفسه قبل فوات الأوان ، وحتى يكون من المستجيبين لقول الحق جل جلاله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا

الله حق تقاته ، ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

* * *

وهذا واحد من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينشأ في صباه رفيقاً للنبي ومتودداً إليه ، فلما بشر الرسول بالدعوة الهادية نفر هذا القريب منها ، وأعرض عنها ، وخرج على النبي وعاداه أشد العداء ، ثم تشاء له عناية الله بعد ذلك ما تشاء من الاهتداء ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

إنه الصحابي المجاهد أبو سفيان المغيرة [1] بن الحارث بن عبد المطلب ابن هاشم ، وهو ابن عم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأخوه في الرضاع أرضعتهما حليمة السعدية ، وكان أبو سفيان شاعراً ، فلما ظهر الإسلام لم يستجب له ، وأخذ يهجو النبي صلى الله عليه وسلم بقصائد شديدة من شعره الكافر [2] . وظل على ذلك سنوات وسنوات :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

ولقد روى الأصفهاني في « الأغاني » أن محمد بن سيرين قال : كان

---

(١) قيل ان اسمه هو « المغيرة » وقيل ان كنيته هي اسمه ، وأمه هي غزية بنت قيس بن طريف .

(٢) يذكر ابن سعد في الطبقات أنه كان مباعدا للاسلام شديدا على من دخل فيه (ج ٤ ص ٣٦) ويذكر ابن عبد البر في كتابه « الدرر » أنه كان من المجاهرين بالعداوة والظلم لرسول الله (ص ٤٦) .

يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة رهط من قريش [1] : عبد الله ابن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاصي ، فقال قائل لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه : اهج عنا القوم الذين قد هجونا .

فقال علي رضي الله عنه : إن أذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلت .

فقال رجل : يا رسول الله ، ائذن لعلي كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين هجونا .

قال : ليس هناك . أو : ليس عنده ذلك .

ثم قال النبي للأنصار : ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟

فقال حسان بن ثابت : أنا لها . وأخذ بطرف لسانه وقال ؛ والله ما يسرني به مقول [2] بين بُصْرى وصنعاء .

فقال له النبي : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟

قال حسان : إني أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين .

فكان ثلاثة من الأنصار يهجون المشركين ، وهم حسان بن ثابت وكعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضان المشركين بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر [3] .

---

(١) زاد في أسد الغابة رابعا هو ضرار بن الخطاب .
(٢) المقول : اللسان .
(٣) الاغاني ، ج ٤ ص ١٣٧ ، طبعة دار الكتب المصرية .

ثم آن للباغي أن يرتدع ، وللضال أن يهتدي ، فأضاءت شعلة الإيمان في صدر أبي سفيان بن الحارث قبيل فتح مكة ، وتوجه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليعلن إسلامه ، بعد تلك العداوة الشديدة الشرسة المسرفة ، فلما صار أمام وجهه ، وعرفه الرسول أعرض عنه بوجهه ، فتحول أبو سفيان حتى صار في مواجهة الرسول ، فأعرض عنه الرسول مرة ثانية .

وحق له أن يفعل ، فإنها عداوة عشرين عاماً أسرف فيها أبو سفيان إسرافاً معيباً . وعلمت أن المؤمنين السيدة أم سلمة بالأمر ، فتشفعت رضي الله عنها عند رسول الله صلوات الله وسلامه عليه [1] وأخذ أبو سفيان يردد كلمة الشهادة ويعتذر إلى الرسول ، فعفا عنه وقبل منه ، وقال لابن عمه علي : يا علي ، بصّر ابن عمك الوضوء والسنة ، ورح به إلي (أي عد به) .

ففعل علي ما أُمر به ، وحسن إسلام أبي سفيان ، وأخلص لله دينه [2] ، فأمر الرسول علياً بأن ينادي في الناس قائلاً : ألا إن الله ورسوله قد رضيا عن أبي سفيان بن الحارث فارضوا عنه .

ويروى أن أبا سفيان حينما انشرح صدره للإسلام جاءه علي بن أبي طالب ،ونصحه بأن يأتي النبي من قبل وجهه ، ويقول له : «تا الله لقد آثرك الله علينا ،وإن كنا لخاطئين ».وفعل أبو سفيان ذلك،فقال له الرسول : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » . فأنشده أبو سفيان أبياتاً منها قوله :

---

(١) كتاب الدرر ، ص ٢٢٨ .

(٢) يقول عنه ابن كثير في البداية والنهاية : « أسلم عام الفتح فحسن إسلامه جدا » ج ٧ ص ١٠٣ .

لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلب خيلُ اللات خيلَ محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدي فأهتدي [1]

وبدأ أبو سفيان مرحلة التكفير والتطهير ، فأقبل يهجو الشرك وأهله ، مقابل هجوه المسلمين بالأمس ، وشهد مع رسول الله غزوة فتح مكة ، وغزوة حنين ، وغزوة الطائف ، وكان ممن ثبت – ومعه ابنه جعفر – إلى جوار النبي في غزوة حنين ، عندما انكشف عنه من انكشف من الناس . ولقد سئل البراء فقيل له : يا أبا عمارة ، أوليتم يوم حنين ؟ فأجاب : أشهد أن نبي الله صلى الله عليه وسلم لم يول يومئذ ، كان يقود بغلته أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فما رئي من الناس أحد يومئذ أشد منه .

ولقد كانت غزوة حنين درساً قاسياً للمسلمين ، ولكن أبا سفيان شهر سيفه ، وجعل يدافع به عن رسول الله ، ويفديه بنفسه ، ورأى العباس هذا الصنيع ، فقال للنبي معجباً : يا رسول الله ، هذا أخوك وابن عمك أبو سفيان ابن الحارث ، فارض عنه .

فقال النبي : قد فعلت فغفر الله له كل عداوة عادانيها .

وقال أبو سفيان من شعره يوم حنين :

إن ابن عم المرء من أعمامه

---

(١) الاصابة ، ج ٤ ص ٩٠ .

بني أبيه ، قوة من قدامه
فإن هذا اليوم من أيامه
يقاتل الحرمي عن إحرامه
يقاتل المسلم عن إسلامه

وكذلك قال :

لقد علمت أفناء كعب وعامر غداة حنين حين عم التضعضع
بأني أخو الهيجاء، أركب حدها أمام رسول الله لا أتتعتع
رجاء ثواب الله ، والله واسع إليه تعالى كل أمر سيرجع

لقد آمن شعر أبي سفيان بعد طول كفران ! . .

والعجيب أن أبا سفيان كان له أخ سبقه إلى الإسلام ، واسمه « نوفل بن الحارث » وقد ترجم له ابن سعد في الطبقات ، وكان نوفل شاعراً ، وكانت أنفاسه في الشعر قريبة من أنفاس أخيه ، فمن شعر نوفل قوله :

حرام علي حرب أحمد ، إنني أرى أحمداً مني قريباً أواصره
وإن تك فهر ألبت وتجمعت عليه فإن الله لا شك ناصره

وقال نوفل أيضاً بعد أن أسلم : موجهاً حديثه إلى المشركين :

إليكم إليكم ، إنني لست منكم تبرأت من دين الشيوخ الأكابر
لعمرك ما ديني بشيء أبيعه وما أنا إذ أسلمت يوماً بكافر
شهدت على أن النبي محمداً أتى بالهدى من ربه والبصائر
وإن رسول الله يدعو إلى التقى وإن رسول الله ليس بشاعر
على ذاك أحيا ، ثم أبعث موقناً وأثوي عليه ميتاً في المقابر

ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عفا عن أبي سفيان وغفر له ، وأمر علياً بإعلان ذلك بين الناس ، ظل أبو سفيان بعد ذلك لا يستطيع أن يرفع رأسه في وجه الرسول الأكرم حياء منه ، وواصل التكفير عن ماضيه بكثرة الصيام والصلاة والعبادة والجهاد ، وتغيرت حاله تغيراً كلياً ، فقد محصه الإخلاص تمحيصاً ، وطهرته التوبة الصادقة تطهيراً ، وأعزته التقوى إعزازاً ، وشرفه صدق الكفاح والنضال تشريفاً ، وواصل الكفاح بلسانه وسنانه وجنانه ، حتى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « أبو سفيان أخي وخير أهلي ، وقد أعقبني الله من حمزة بن عبد المطلب أبا سفيان بن ا لحارث » .

ولذلك كان يقال لأبي سفيان بعد ذلك إنه « أسد الله وأسد الرسول » (١) .
ولكن ذلك لم يشتهر بين الناس كما اشتهر مثله عن سيد الشهداء حمزة رضوان الله عليه . وكذلك يروى أن الرسول قال فيه : « أبو سفيان بن الحارث سيد فتيان أهل الجنة » (٢) .

ولذلك حزن أبو سفيان حزناً شديداً حينما توفي رسول الله ، وقال فيه رثاء بليغاً منه قوله :

أرقت فبات ليلي لا يزول ... وليل أخي المصيبة فيه طول
وأسعدني البكاء ، وذاك فيما ... أصيب المسلمون بـه قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلت ... عشية قيل قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا ممـا عراها ... تكاد بنـا جوانبها تميل

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٤ ص ٣٦ . وجاء في البداية والنهاية لابن كثير انه يروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب أبا سفيان ابن الحارث ، وشهد له بالجنة . وقال له : « أرجو أن تكون خلفا من حمزة » ج ٧ ص ١٠٣ .
(٢) الاصابة ، ج ٤ ص ٩٠ . والطبقات ج ٤ ص ٣٦ .

فقدنا الوحي والتنزيل فينـا يروح بـه ويغدو جبرئيل
وذاك أحق ما سالت عليـه نفوس الناس ، أو كادت تسيل
نبي كان يجلو الشك عنـا بما يوحى إليه وما يقول
ويهدينـا فـلا نخشى ضلالاً علينا ، والرسول لنا دليـل
أفاطم إن جزعت فذاك عذر وإن لم تجزعي ذاك السبيل
فقبر أبيـك سيد كل قـبر وفيه سيد الناس الرسول (١)

* * *

وتوالت السنون بعد وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأبوسفيان ابن الحارث يوالي خطواته في سبل الخير والبر والنضال وبينما كان يؤدي الحج ازدياداً من الطاعة ، أصيب بجرح في رأسه ، وكان سبب موته بعد أيام (٢). وكان يقول قبيل وفاته لأهله : « لا تبكوا عليّ فإني لم أتنطف بخطيئة منذ أسلمت » ومعنى : « لم أتنطف » : لم أتلطخ بعيب ، ولم أتهم بريبة ، أي لم يرتكب ذنباً منذ إسلامه .

ومن عجيب ما حدث أنه تولى حفر قبره بنفسه ، وكان أخوه نوفل بن الحارث قد مات قبله بقليل ، فدعا أبو سفيان فقال : « اللهم لا تبقني بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بعد أخي ، وأتبعني إياهما » .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٤ ص ٥٥٨ .
(٢) يروى انه كان في « منى » فحلق له الحلاق ، فقطع له ثؤلولا كان على رأسه فمات منه ، والثؤلول البثر الذي يطفح على الجلد .

واستجاب الله دعاءه ، فمات من يومه سنة خمس عشرة [١] للهجرة بسبب جرحه ، فكانوا يقولون : إنه مات شهيداً . وصلى عليه عمر بن الخطاب ، ودفن في مقبرة البقيع .

وجاء في رواية أن عقيل بن أبي طالب رأى أبا سفيان بن الحارث يجول بين المقابر ، فقال له : يا ابن عمي ، مالي أراك هنا ؟ فقال : أطلب موضع قبري . فأدخله داره ، وأمره بأن يحفر في قاعها قبراً ، ففعل ، فقعد عليه أبو سفيان ساعة ثم انصرف ، فلم يلبث إلاّ يومين حتى مات ، فدفن فيه [٢] .

رضوان الله على الصحابي الشاعر المنيب المجاهد : أبي سفيان بن الحارث .

---

(١) وقيل : توفي سنة عشرين .
(٢) الاصابة ، ج ٤ ص ٩١ .

هاشم بن عتبة بن أبي وقاص

قد يتأخر بالإنسان الأصيل زمانه ، فلا يعيبه ذلك ولا ينال منه ، لأنه ينافس ويسابق ، فيتقدم ويسبق ، ولو أنه شهد عصر الماضين لكان متألقاً فيه ، بارزاً بين أهليه .وإذا كنا نعرف للسابقين الأولين من صحابة الرسول الكريم أفضالهم ونضالهم ، فإن ذلك لا يمنعنا أن نعرف للمتأخرين منهم في الزمن شأنهم ، فكم ترك الأول للآخر ، وهذا أحد شعرائنا يتوسع في الفخر والاعتزاز بنفسه فيقول :

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لا لم تستطعه الأوائل

وهذا صحابي شاب ، يتأخر به زمنه بعض الشيء ، فيدخل في الإسلام بعد حين من ظهوره ، وبعد أن انفسحت آفاق نوره ، ولكن هذا الشاب يسمو بفضله ، ويعلو بنضاله ، حتى كأنه ممن قيل فيهم : « ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين » . ونحن نعلم من هدى ربنا أن المسارعة إلى الطاعة صفة بارزة من صفات المؤمنين المحسنين ، ولذلك وصفهم القرآن المجيد أكثر من مرة بأنهم « يسارعون في الخيرات » ، وقال الحق جل جلاله في سورة آل عمران : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

ولقد حرص هذا الصحابي الشاب منذ أسلم على أن يسبق في الاستجابة

لصوت الضمير ، وأن يبادر إلى أداء الواجب ، وأن يسارع إلى مواقف الرجولة والبطولة والشرف طالباً رضا الله وحده ، فهو القائل في سورة الأنعام : « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » .

إنه الصحابي الجليل ، الخطيب البليغ ، الفارس الشجاع ، المناضل المشهور. أبو عمر [1] هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري ، الذي كان يحيا بعين واحدة ، فهو أعور ، ولكن ذلك لم يعبه ولم يحل بينه وبين الجهاد المشكور في سبيل الله عز وجل ، حتى اشتهر بلقب كريم هو لقب : « المرقال » . وتقول العرب : أرقل فلان في الحرب ، إذا أسرع ، وأرقل فلان الصحراء قطعها بعزيمة .

ولقد كان هاشم بن عتبة يرقل في الحرب إرقالاً واضحاً ، أي يسرع فيها إسراعاً ظاهراً ، فأطلق عليه عارفوه لقب « المرقال » [2] .

وقد أسلم هاشم يوم فتح مكة ، ولكنه عوض ما فاته بمضاعفة جهده في خدمة دينه ودعوته ، وأسهم في رفع كلمة الله بكل ما استطاع .

ولا يحسن بنا أن ننسى أنه من ذرية أخوال رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وأن عمه هو البطل المشهور المجاب الدعوات : سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

ولقد عقد سعد لابن أخيه هاشم لواء الإمارة على الجيش الذي أعده لقتال « يزدجرد » ملك الفرس ، فنهض هاشم بأعباء القيادة في موقعة « جلولاء »

---

(١) سماه بعضهم باسم « هشام » وهو وهم . انظر الاصابة لابن حجر ، ج ٣ ص ٥٦٣ .
(٢) في القاموس المحيط : « والمرقال هاشم بن عتبة ، لان عليا رضي الله تعالى عنه أعطاه الراية بصفين فكان يرقل بها » .

التي حدثت في السنة السادسة عشرة للهجرة ،ودارت فيها رحى الحرب بين المسلمين والفرس ، وسميت باسم « جلولاء الوقيعة » لشدة ما أوقعه المسلمون من تأديب وعقاب على طغاة الفرس المجرمين .

وكذلك حضر هاشم مع عمه سعد معركة « القادسية » المشهورة التي كانت أيضاً في السنة السادسة عشرة ، وكانت من أعظم وقائع المسلمين وأكثرها بركة ، ولم تقم بعدها للفرس قائمة أمام المسلمين [1] ، وكان لهاشم في هذه المعركة آثار حميدة مذكورة ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

وكان – وهو يحمل اللواء ويقاتل – يردد قوله عن نفسه :

أعور يبغي نفسه خــــلاصا مثل الفنيق لابساً دلاصا [2]
قد جرب الحرب ولا أناصا [3] لا دية يخشى ولا قصاصا
كل امرىء وإن كبا وحاصا [4] ليس يرى من موته مناصا

وقال هاشم يصور شجاعته وجهاده في سبيل الله عز وجل ، ونصرته للحق وأهله ، وهو يقاتل في صف الإمام علي :

سرنا إلى خير البرية كلهـــا على علمنا أنا إلى الله نرجع
نوقره في فضله ، ونجلــه وفي الله ما نرجو وما نتوقع
ونخصف أخفاف المطي على الوجا وفي الله ما نرمي ، وفي الله نوضع
دلفنا بجمع آثروا الحق والهدى إلى ذي تقى في نصره نتسرع

(١) معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٩٢ طبعة بيروت .
(٢) الفنيق : الجمل الذي لا يهان . والدلاص : الدرع الملساء اللينة .
(٣) أناص : هرب وفر . والمعروف أن يقال : ناص .
(٤) حاص : هرب .

نكافح عنه والسيوف شهيرة   تصافح أعناق الرجال فتقطع !

وحينما أراد الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه أن يخرج إلى مجاهدة الخارجين عليه والمتمردين على خلافته استشار أصحابه في ذلك ، فوقف المجاهد المرقال هاشم بن عتبة ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

أما بعد يا أمير المؤمنين ، فأنا بالقوم جد خبير ، هم لك ولاشياعك أعداء ، وهم لمن يطلب حرث الدنيا أولياء ، وهم مقاتلوك ومجاهدوك ، لا يبقون جهداً ، مشاحة على الدنيا ، وضناً بما في أيديهم منها ، وليس لهم أربة غيرها ، إلاّ ما يخدعون به الجهال من الطلب بدم عثمان بن عفان . كذبوا ليسوا بدمه يثأرون ، ولكن الدنيا يطلبون ، فسر بنا إليهم ، فإن أجابوا فليس بعد الحق إلاّ الضلال ، وإن أبوا إلاّ الشقاق فذلك الظن بهم ، والله ما أراهم يبايعون وفيهم أحد ممن يطاع إذا نهى ، ولا يسمع إذا أمر »[1] .

ولا عجب في هذه الاستجابة من هاشم لمناصرة الإمام علي ، فإن التاريخ يروي أنه حينما أخذ المسلمون يبايعون الإمام علياً رضوان الله عليه، بعد مصرع الشهيد ذي النورين عثمان رضوان الله عليه ، قال هاشم لبعض من كان معه حينئذ في الكوفة : تعال نبايع خير هذه الأمة الآن وهو علي . فأجابه : لا تعجل.

ولكن المرقال قد تعود الإسراع والمبادرة ، ولذلك وضع يده على يده الأخرى ، وقال : هذه لعلي ، وهذه لي ، وقد بايعت علياً . ثم أنشد يقول :

أبايع — غير مكترث — عليا   ولا أخشى أميراً أشعريا

---

(١) كتاب وقعة صفين ، ص ١٠٣ .

أبايعه ، وأعلم أن سأرضي بذلك الله حقاً والنبيّا [1]

وكأن هاشماً قد ذكر عند مبايعته تلك ما كان من أمر الرسول عليه الصلاة والسلام حينما بايع عن عثمان وهو غائب في غزوة الحديبية ، فقد روى التاريخ أن النبي دعا إليه عثمان بن عفان يومئذ ، وطلب إليه أن يذهب إلى أهل مكة ويخبرهم أن النبي لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً حرمته ، فخرج عثمان إلى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص[2] حين دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله ثم أجاره حتى بلغ عثمان رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به ، فقالوا لعثمان حين بلغ الرسالة : إن شئت أن تطوف بالبيت (الكعبة) فطف .

قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واحتبست قريش عثمان بن عفان عندها . وبلغ المسلمين أن عثمان قد قتل ، وغضب الرسول لتأخر عثمان ولما بلغه من خبر عن قتله ، فقال : « لا نبرح حتى نناجز القوم » . أي نقاتلهم .

ودعا النبي الذين معه إلى البيعة على الثبات حتى الموت ، فأقبلوا على المبايعة تباعاً ، لم يتخلف عنها إلاّ الجد بن قيس أخو سلمة ، حيث استتر من الناس . وبايع النبي عن عثمان ، فضرب بإحدى يديه الأخرى ، وقال : هذه عن عثمان !

* * *

---

(١) الاصابة ، ج ٣ ص ٥٦٢ .
(٢) انظر سيرته وصفحات بطولته في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ص ٣٣٣ وما بعدها .

ونعود إلى بطلنا المجاهد المرقال : هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، لنراه يتعجل المسير إلى الميدان وبيده اللواء ، ويقول له أحد رفاقه يستمهله : البث قليلاً ولا تعجل .

فيرد عليه المرقال قائلاً :

قد أكثروا لومي ، وما أقلا إني شريت [1] النفس لن اعتلا
أعور يبغي أهله محلا قد عالج الحياة حتى ملا
لا بد أن يفل أو يُفلا أشلهم بذي الكعوب شلا [2]
مع ابن عم أحمد المعلى فيه الرسول بالهدى استهلا
أول من صدقه وصلى فجاهد الكفار حتى أبلى

وفي معركة صفين الضارية التي خاضها الإمام « علي » ضد الخارجين عليه ، بادر هاشم إلى المعركة ، يحمل اللواء مع الإمام ، وهو يسارع نحو مواطن البذل والتضحية والفداء،وكان يقول للمجاهدين من حوله محمساً لهم وحاثاً على الإقدام والثبات : « « ألا من كانت له إلى الله حاجة ، ومن كان يريد الآخرة ، فليقبل » . ثم قال لهم وقد اشتد القتال بينهم وبين أعدائهم :

« لا يهولنكم ما ترون من صبرهم ، فوالله ما ترون منهم إلاّ حمية العرب وصبرها تحت راياتها وعند مراكزها ، وإنهم لعلى الضلال ، وإنكم لعلى الحق ، يا قوم ، اصبروا وصابروا واجتمعوا ، وامشوا بنا إلى عدونا على تؤدة ، رويداً ، واذكروا الله ، ولا يسلمن رجل أخاه ، ولا تكثروا الالتفات ،

---

(١) شريت : أي بعت نفسي لله .
(٢) يفل : الفل الهزيمة . وأشلهم : الشل الطرد . وذو الكعوب : الرمح.

واصمدوا صمدهم ، وجالدوهم محتسبين ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، وهو خير الحاكمين »[1] .

وظل هاشم يجاهد جهاد الأبطال ، مسجيباً لما يعتقده الحق والصواب ، وما زال يقاتل ويناضل ، صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، ثابتاً غير متردد ، حتى تكاثر عليه أعداؤه، وأصابوه إصابة قاتلة، فمضى إلى ربه شهيداً مجيداً ، وكأنه ممن قال فيهم رب العزة : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ، ولكن لا تشعرون » .

ولقد اشترك مع هاشم في الجهاد والاستشهاد البطل الإسلامي الخالد عمار ابن ياسر[2] الذي قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « يا عمار ، تقتلك الفئة الباغية » . وكان عمار يعجب بإقدام هاشم وإرقاله وإسراعه في الجهاد ، ويستزيده منه فيقول له : تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت في أطراف الأسنة ، وقد فُتحت أبواب الجنة ، وتزينت الحور العين ، اليوم ألقى الأحبة ؛ محمداً وحزبه !

وحملا معاً ؛ وجاهدا معاً ؛ ونالا نعمة الشهادة معاً ، ومضيا إلى ربهما معاً على طريق واحد ، هو طريق الجهاد حتى الاستشهاد !

يقول ابن مزاحم : ولما قتل هاشم جزع الناس عليه جزعاً شديداً ، وأصيب معه عصابة من أسلم من القراء ، فمر عليهم علي وهم قتلى حول أصحابه الذين قتلوا معه ، فقال :

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ٢ ص ٨١٧ .
(٢) انظر سيرته وبطولته في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ص ١٣٤ وما بعدها .

جزى الله خيراً عصبة أسلمية   صباح الوجوه ، صرعوا حول هاشم
يزيد ، وعبد الله بشر ، ومعبد   وسفيان ، وابنا هاشم ذي المكارم
وعروة لا يبعـــد ثناه وذكره   إذا اخترطت يوماً خفاف الصوارم(١)

وكذلك رثاه ابنه عبد الله بن هاشم بن عتبة عقب موته بعد أن أخذ الراية ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه ، فقال في استرجاع واحتمال ، وثبات على المبدأ والعقيدة :

« يا أيها الناس ، إن هاشماً كان عبداً من عباد الله الذين قدر أرزاقهم ، وكتب آثارهم ، وأحصى أعمالهم ، وقضى آجالهم ، فدعاه ربه الذي لا يعصى ، فأجابه ، وسلم الأمر لله ، وجاهد في طاعة ابن عم رسول الله ، وأول من آمن به ، وأفقههم في دين الله ، المخالف لأعداء الله المستحلين ما حرم الله ، الذين عملوا في البلاد بالجور والفساد ، واستحوذ عليهم الشيطان ، فزين لهم الإثم والعدوان ، فحق عليكم جهاد من خالف سنة رسول الله ، وعطل حدود الله ، وخالف أولياء الله .

فجودوا بمهج أنفسكم في طاعة الله في هذه الدنيا ، تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى والملك الذي لا يبلى . . . » .

وكذلك رثاه أبو الطفيل عامر بن واثلة الصحابي ، الذي كان آخر من مات من الصحابة ، وذلك سنة عشر ومائة ، فقال أبو الطفيل في المجاهد المرقال :

يا هاشم الخير ، جزيت الجنه   قاتلت في الله عدو السنّه

(١) وقعة صفين ، ص ٤٠٤ . واخترط الرجل السيف : سله .

والتاركي الحق ، وأهل الظنة   أعظم بما فزت به من منّة
صيرني الدهر كـأني شنّه   وسوف تعلو حول قبري رنه
من حوبة ، وعمة ، وكنة [1]

رضوان الله على المجاهد الشهيد المرقال . هاشم بن عتبة بن أبي وقاص .

---

(١) الشنة : القربة الصغيرة البالية . والرنة : صيحة النياحة . والحوبة : كل حرمة تضيع ان تركها الانسان ، كالأم والأخت والبنت . والكنة ــ بفتح الكاف ــ امرأة الابن وامرأة الأخ .

الحارث بن الصمة

إن احتمال الأذى في سبيل الله تعالى خلق من أخلاق المؤمنين الصابرين الصادقين المخلصين ، وهذا الخلق الكريم قد جعله رب العالمين مفتاحاً لرضاه ، وسبيلاً إلى رضوانه ، فقال عز وجل في سورة آل عمران عن عباده المؤمنين : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي ، وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » .

ولقد احتمل أسلافنا في صدر الإسلام ما احتملوا ، وقاتلوا وقتلوا ، فأعز الله لهم دينهم ، وأعلى لهم شأن دنياهم ؛ والله ذو الفضل العظيم .

وهذا واحد منهم :

إنه الصحابي الجليل : أبو سعد [1] الحارث بن الصمة بن عمرو بن عتيك ، الذي تحصن بالإسلام ، واعتصم باليقين ، ووقف إلى جوار الرسول الأمين ، عليه الصلاة والتسليم ، وبايعه في صدق وإخلاص على الموت في سبيل الله ، بلا تردد أو إبطاء [2] .

---

(١) نسبة الى ابنه سعد . وأم الحارث هي : تماضر بنت عمرو بن ربيعة ابن عامر .

(٢) أسد الغابة ، ج ١ ص ٣٩٦ .

وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحارث بن الصمة وصهيب ابن سنان ، وصهيب هو المجاهد المناضل الذي كان عبداً فأعزه الإسلام ، وشهد الغزوات كلها مع إمام الأمة رسول الله ، وضحى بكل ماله في سبيل الهجرة والدين ، فقد روت السيرة أن صهيباً حين أراد الهجرة قال كفار قريش وقد اعترضوا طريقه : أتيتنا صعلوكاً حقيراً ؛ فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك .

فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالي ، أتخلون سبيلي ؟

قالوا : نعم .

قال : فإني قد جعلت لكم مالي .

ودلهم على ماله فأخذوه ، ولما بلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « ربح صهيب ، ربح صهيب » ! ويروي أنه قد نزل في شأنه قول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد » . وهو الذي قال فيه سيدنا رسول الله : « صُهيب سابق الروم » !

وكذلك آخى رسول الله بين الحارث بن الصمة وعامر بن فهيرة (١) المجاهد الصابر المعذب في سبيل الله ، ودليل الرسول وأبي بكر في الهجرة ، وشهيد بئر معونة ، والأقران تلتقي بالأقران ، والأبطال ترتبط بالأبطال ، إن الصقور على أشكالها تقع ، إن النسور على أشكالها تقع !

ولقد خرج الحارث بن الصمة رضي الله عنه إلى غزوة بدر الكبرى ،

---

(١) انظر تفصيل الحديث عنه في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ص ٣١١ وما بعدها .

ناوياً الجهاد الخالص الصادق ، ولكن إرادة الله تعالى شاءت — ولا راد لمشيئته — أن تنكسر رجل الحارث في الطريق ، عند مكان يسمى « الروحاء » [1] ولم يشترك في القتال الفعلي ، ومع ذلك أعطاه النبي من غنائم الغزوة نصيباً كنصيب الذين قاتلوا ، و « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ».

وأقبلت غزوة أُحد ، وكأنما أراد الحارث بن الصمة فيها أن يعوض ما فاته من القتال والنضال يوم غزوة بدر ، وكأنه أراد ما أراده الصحابي الجليل ، الشهيد المجيد : أنس بن النضر رضي الله عنه ، فقد شاءت الأقدار أن يغيب هو الآخر عن غزوة بدر ، فجعل يقول : غبت عن أول قتال قاتله رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين ، أما والله ، أما والله ، لئن أشهدني الله قتالاً ، ليرين الله ما أصنع !

فلما جاءت غزوة أحد خرج أنس بن النضر يجاهد كأحسن ما يكون الجهاد ، فلما انكشف المسلمون في الغزوة بسبب مخالفة الرماة أمر الرسول ، هتف أنس فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه) وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء (يعني المشركين) . وتقدم نحو التضحية والفداء .

ولقيه سعد بن معاذ فقال له : أين يا سعد ؟ واهاً لريح الجنة ، والله إني لأجد ريحها دون أحد .

يقول سعد بن معاذ بعد ذلك . فما استطعت أن أصنع ما صنع أنس ، مضى حتى استشهد .

ولم يعرفوا جسم أنس بن النضر من كثرة ما أصابه من طعنات وضربات ،

---

(١) بين المدينة ومكة ، وهي من عمل « الفرع » ، وقيل سميت بالروحاء لانفتاحها ورواحها (معجم البلدان) .

فقد وجدوا فيه بضعة وثمانين جرحاً ، ما بين ضربة بالسيف ، وطعنة بالرمح ، ورمية بالسهم ، فما عرفته إلاّ أخته ، عرفته ببنانه . والبنان جمع بنانة ، وهي طرف الإصبع .

فكان الصحابة يتحدثون فيذكرون أن الله تعالى أنزل في شأن أنس بن النضر وأصحابه قوله تعالى في سورة الأحزاب : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً[1] »

* * *

ونعود إلى بطلنا الحارث بن الصمة .

خرج إلى غزوة أُحد يريد أن يعوض فيها ما فاته يوم غزوة بدر ، فأقبل لا يلوي على شيء ، يضرب ذات اليمين وذات الشمال ، كأنه جزء من قدر الله القاهر ، وحينما مال ميزان المعركة ضد المسلمين ، لحكمة أرادها الحق جل جلاله ، ثبت الحارث بن الصمة إلى جوار سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام ، ثبت ضمن ثلاثين بطلاً من عمالقة الصحابة رضوان الله عليهم[2] ، دافعوا عن رسول الله ببطولة وبسالة ، وكل منهم يقول لنبيه وإمامه وقائده : وجهي دون وجهك ، ونفسي دون نفسك ، وعليك السلام غير مودع . وأصيب الحارث يومئذ إصابات كثيرة احتملها بشجاعة ، وكانت أشدها ضربة أصابت عاتقه[3] .

وحينما عاد النبي مع ابن عمه علي إلى البيت وفيه السيدة فاطمة الزهراء

---

(١) عيون الاثر في المغازي والسير ، لابن سيد الناس ، ج ٢ ص ٣٣ .
(٢) شرح نهج البلاغة ، ج ٤ ص ٤٨٤ .
(٣) العاتق : موضع الثوب من المنكب .

ناول علي السيفَ لفاطمة قائلاً : أمسكي هذا السيف واغسليه غير ذميم ، فقد صدقني اليوم في القتال .

وهنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه : لئن كنت أحسنت القتال اليوم ، لقد أحسن عاصم بن ثابت (١) ، والحارث بن الصمة ، وسهيل بن حنيف ؛ وسيف أبي دجانة غير مذموم .

* * *

وظل الحارث بن الصمة بعد ذلك يواصل جهاده في محاريب العبادة ، وميادين النضال ، وساحات العمل الصالح ، لا يكل ولا يمل ، ولا يتأخر عن واجب ، ولا يقصر في احتمال ، حتى اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكون أحد المجاهدين الفدائيين في سرية « بئر معونة » مع قائدها البطل الإسلامي العظيم ، المسارع إلى لقاء الله في شوق ، الحريص على نعمة الشهادة (٢) المنذر بن عمرو الساعدي ، الذي لقبه التاريخ الإسلامي بذلك اللقب الرائع : « المعنق ليموت » !

وفي أثناء هذه السرية ترك الحارث بن الصمة أصحابه بعض الوقت ليقضي مهمة عارضة ، ثم عاد بعد حين إلى موقع رفاق السلاح وزملاء الجهاد ، فإذا هو يرى الطير تعكف على موقعهم ، فعلم أنهم قد لاقوا الشهادة في سبيل ربهم . وكان معه أحد زملائه : « عمرو بن أمية » . فقال له الحارث : ما ترى ؟

---

(١) راجع تفصيل الحديث عن بطولة عاصم بن ثابت في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ص ١٤٦ وما بعدها ، وعن بطولة سهل بن حنيف ص ٦٣ وما بعدها .

(٢) الطبقات لابن سعد ، ج ٣ ص ٦٧ . وقد جاء في كتاب «العبر» للذهبي عن شهداء بئر معونة : « فاستشهدوا ونزل فيهم قرآن ثم نسخ » ج ١ ص ٦ . وليس من السهل قبول مثل هذا .

فأجاب عمرو : أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم .
فقال الحارث : ما كنت لأتأخر عن موطن قُتل فيه المنذر .
وأقبل نحو الأعداء يهاجمهم وينازلهم ، وقاتل حتى نال الشهادة .

وما أسلم روحه حتى أشرعوا إليه الرماح فنظموه بها . ومضى إلى الرفيق الأعلى جديراً بقول خالقه : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » !

وكان استشهاده عليه الرضوان في شهر صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة ، فضرب هو ورفاقه للمؤمنين مثلاً في إيثار ما عند الناس ، وفي الوفاء بعهد الله الذي لا يضيع عنده حق من حقوق الوفاء : « ومن أوفى بعهده من الله » ، وصنعوا للأجيال نماذج لأولئك الذين كرم الله ذكرهم ، وخلد خبرهم ، فقال عنهم في قرآنه : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » .

* * *

وهذا هو ابن الحارث ، واسمه « سعد » يسير من وراء أبيه على سنته في الجهاد ، فيمضي إلى ساحات النضال غير حريص على الدنيا ، حتى ينال الشهادة في موقعة « صفين » مع سيف الله الغالب الإمام علي بن أبي طالب ، رضي عنه الله وكرم الله وجهه [1] .

ولا عجب في ذلك فإن الإمام علياً هو الذي مجد الحارث بن الصمة ونوه بجهاده وبطولته فقال :

---

(١) كتاب العبر للذهبي ، ج ١ ص ٣٨ .

يا رب ، إن الحارث بن الصمة   أهل وفـــاء صادق وذمة
أقبل في مهـــامـــهٍ ملمّة   في ليلـــة ظلمـــاء مدلهمّة
يسوق بالنبي هـــادي الأمة   يلتمس الجنـــة فيما ثمـــة

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

أبو حذيفة بن عتبة القرشي

جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أنه قال :

« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ،وأن يحب المرء لا يحبه إلاّ الله ،وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار » .

ولقد ازدان صدر هذه الأمة المؤمنة بكوكبة مشرقة متألقة من السابقين إلى الإسلام ، الذين باعوا الله أنفسهم وأموالهم ، وأخلصوا له أقوالهم وأعمالهم ، وأقاموا على صراطه المستقيم أحوالهم ، وجعلوا بيده وحده مبدأهم ومآلهم ، وثبتوا على دينهم وعقيدتهم فما بدلوا تبديلاً .

ولذلك كانوا أهلاً لعظيم النصر ، وواسع الأجر : « وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

ومن هؤلاء الصحابي الجليل ، المجاهد الشهيد : أبو حذيفة [1] ابن عتبة

(١) قيل ان اسمه هشيم أو هاشم أو هشم أو مهشم أو قيس أو عامر (انظر تهذيب الاسماء ج ٢ ص ٢١٢ . والدرر لابن عبد البر ص ١٢٢) وأم أبي حذيفة : هي فاطمة بنت صفوان بن أمية ، وكان له ولدان : محمد وعاصم . وكان ابو حذيفة رجلا طويل القامة حسن الوجه احول .

ابن ربيعة بن عبد شمس القرشي رضي الله عنه ، وهو الذي يقول عنه الإمام النووي في كتابه : « تهذيب الأسماء واللغات » : « وكان من فضلاء الصحابة ، جمع الله تعالى له الشرف والفضل [1] » .

وقد أسلم أبو حذيفة مبكراً ، قبل أن يدخل النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم ليدعو فيها ، وقد بادر أبو حذيفة وبكر إلى الإسلام على الرغم من أسرته المشركة المسرفة في عداوتها لله تبارك وتعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام .

واحتمل أبو حذيفة ما احتمل في سبيل ربه ونبيه ودينه ، فهاجر إلى الحبشة مرتين ، وهاجرت معه زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو [2] ، حيث ولدت له هناك ولده محمداً .

وحينما جاءت الهجرة الثالثة لأبي حذيفة ، وانتقل من مكة إلى المدينة ، آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبي حذيفة وبين عباد بن بشر المجاهد البطل الشهيد ، فقاسمه داره ومتاعه إلى حين ، ومن عجب أن الأخوين في الله تعالى تآخيا كذلك في الاستشهاد ، فنالا الشهادة في سبيل الله في يوم واحد ، كأنهما كانا على ميعاد .

وعقب الهجرة من مكة إلى المدينة أخذ أبو حذيفة ينهض بتبعات المؤمن المجاهد في سبيل الله ، فبدأ بالاشتراك في سرية كان أميرها الصحابي الجليل

---

(١) تهذيب الاسماء ج ٢ ص ٢١٢ .

(٢) يقول ابن عبد البر وهو يسرد اسماء المهاجرين الى الحبشة : « وابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة هاربا عن أبيه (أي فارا بدينه) ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو مراغمة لأبيها ، فارة عنه بدينها » الدرز ، ص ٥١ .

عبد الله بن جحش بن رئاب الذي بسطت سيرته في كتابي «الفداء في الإسلام[1]» وكان عدد هذه السرية تسعة مجاهدين فقط — وقيل كان عددها اثني عشر مجاهداً — وقد ذهبت هذه السرية الفدائية في تكتم واستخفاء إلى مكان يسمى « نخلة » بين مكة والطائف ، وهو على ليلة من مكة ، وهاجموا أعداء الله وأعداء الإسلام هناك ، وغنموا منهم غنائم كثيرة ، عادوا بها إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فكانت هذه أول غنيمة في الإسلام [2] .

ثم شارك أبو حذيفة في أول لقاء بطولي بين الإيمان والكفران ، وهو غزوة بدر الكبرى ، وكان والد أبي حذيفة (وهو عتبة بن ربيعة) في صفوف المشركين خلال هذه الغزوة ، وقد خرج مع طغاة الكفر يريدون القضاء على الإسلام والمسلمين ، فبلغ من وفاء أبي حذيفة لله ولرسوله وللإسلام أن هم بقتل أبيه المشرك ، فأبى عليه النبي ذلك ، ونهاه عنه ، فاستجاب أبو حذيفة للأمر استجابة الجندي المطيع لقائده الأمين طاعة مطلقة ، ومن ناحية أخرى لقي الوالد المشرك مصرعه يوم بدر ، ومضى مع أشباهه من قرناء السوء والشرك ليلقوا جزاءهم عند الله عز وجل .

وتطلع أبو حذيفة — واجماً حزيناً — إلى جثة أبيه المشرك تُلقى مع غيرها في القليب (أي البئر القديمة المهجورة) ، ولاحظ عليه الرسول ذلك ، فقال له : يا أبا حذيفة ، لعلك دخلك من شأن أبيك شيء ؟

فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى

---

(١) الفداء في الاسلام ص ٨٥ وما بعدها .
(٢) الدرر في اختصار المغازي والسير ، لابن عبد البر ، ص ١٠٨ .

الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر ، بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنني ذلك !

وقدر الرسول النبيل ما يدور بنفس أبي حذيفة من مشاعر متضاربة متجاذبة ، وما يمور في أعماقه من انفعالات متعارضة محتدمة ، فترفق به ، وقال له خيراً ، ودعا له بخير [١] .

وعاد أبو حذيفة إلى حمل السلاح مجاهداً في سبيل الله ، لم يضره أن مات على الشرك أبوه وعمه وأخوه أو غيرهم من أهله وقبيلته، ولم يزلزل كيانه أن كان قتل هؤلاء بأيدي المسلمين ، فالله أعلى وأكبر ، والعقيدة فوق الآباء والأبناء ، والله جل جلاله هو الذي يقول لعباده المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » .

* * *

ومضى أبو حذيفة مجاهداً ، فقاتل في غزوة أحد ، وغزوة الخندق (الأحزاب) ، ولم يتأخر عن مشهد أو موقف أو غزوة شارك فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ومضت الأيام ومن ورائها الأعوام ، وليس فيها هدوء ولا راحة ، بل كلها تعب ونصب ، وكفاح ونضال ، حتى لحق الرسول ــ صلوات الله

---

(١) يقول الله تعالى في سورة التوبة : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » . واقترفتموها : أي اكتسبتموها .

وسلامه عليه — بالرفيق الأعلى ، فتذكر أبو حذيفة قول الله جل جلاله في سورة آل عمران : « وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتاباً مؤجلاً (١) ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزي الشاكرين ، وكأين من نبي قاتل معه ربيون (٢) كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلاّ أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » .

تذكر أبو حذيفة هذا ، ثم تذكر بعد ذلك كلمة الصدّيق العظيم أبي بكر — رضوان الله عليه — وهو يقول في رثاء الرسول عليه الصلاة والسلام : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » .

تذكر أبو حذيفة هذا ، واعتبر به ، واستجاب له ، فواصل خطواته على طريق النضال والفداء ، وخرج في عهد أبي بكر إلى المعركة الشديدة العصيبة « معركة اليمامة » ، ليرفع مع رفاقه في الإيمان والسلاح كلمة الحق واليقين ، وليخفضوا نزوة التمرد والجموح ، وخرج معه أخوه في الله ، الذي آخى بينه وبينه رسول الله ، وهو عباد بن بشر .

خرج المجاهدان الأخوان في الإيمان والجهاد إلى ساحة المعركة ، وبذلا

---

(١) أي مؤقتا ، له أجل محدد لا يتقدم ولا يتأخر .
(٢) علماء : فقهاء ، أو جموع كثيرة .

ما بذلا من ضروب الثبات والإقدام والفداء ؛ وكما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما في أخوة الحياة ، جمع الحق جل جلاله بينهما في نعمة الشهادة ، ومضيا معاً إلى ربهما الكريم الشكور ، ليواصلا في رحابه ونعيمه أخوتهما الكريمة الباقية : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاّ المتقين ، يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون »(١) .

* * *

ومن أعمق العبر والعظات في حياة أبي حذيفة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه قبيل غزوة بدر : « من لقي منكم العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنما خرج (مع المشركين) مستكرهاً » . وسمع أبو حذيفة ذلك ، فأزله الشيطان إلى هفوة غير متعمدة أو مقصودة ، فقال : أنقتل آباءنا وإخواننا وعشيرتنا ، ولا نقتل العباس ، والله لئن لقيته لألحمنه السيف .

وتألم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من ذلك وتأثر ، فهو الصادق الأمين ، وهو الذي يعلم ما كان يقدمه العباس للدعوة الإسلامية وهو ما زال في مكة ، والقرآن يقول في شأن الرسول : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلاّ وحي يوحى » .

وفاء أبو حذيفة إلى وعيه ، وندم على عبارته ، واعتذر عنها ، وظل طيلة حياته يقول :

---

(١) سورة الزخرف ، الآيات ٦٧ ـ ٧٣ .

« والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلتها يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً ، إلاّ أن تكفرها عني الشهادة » . . .

يا لها من كلمة نبيلة جليلة ، جميلة في معناها ، ثقيلة في تبعتها . . .

وكأن أبا حذيفة ظل طيلة حياته لا ينسى تلك الجملة التي انزلق إليها لسانه بكيد من الشيطان اللعين ، وكأنه ظل طيلة حياته يحاول التكفير عنها ، وهو لا يرى في عبادته وطاعته ما يكون أهلاً لمحوها من سجله وتكفيرها عنه، ولذلك يحدث نفسه دائماً بأن الشهادة وحدها هي التي تليق بتحقيق هذا التكفير ، وظل يرجو ربه أن يمن عليه بتلك الشهادة حتى يهدأ ويستريح .

واستجاب القدر . . .

وتحقق للبطل المجاهد – بعد قرابة عشر سنوات – ما أراد ، فمحا آثار هفوته بنيله الشهادة في « معركة اليمامة » .

عليه من ربه واسع الرضا وسابغ الرضوان .

عكاشة بن محصن الأسدي

حينما تصفو النية لعمل الخير تتهيأ الأسباب من رب الأرباب ، فإذا العسير يسير ، وإذا البعيد قريب ، وحينما تشرق التقوى في قلب العبد يصبح المعبود جل جلاله ناصراً له وظهيراً : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ،ومن يتوكل على الله فهو حسبه،إن الله بالغ أمره،قد جعل الله لكل شيء قدراً » . وحينما تصدق الرغبة في الجهاد تتفتح أبواب الفوز والنصر : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم تقوم الأشهاد » .

ولقد كان حول رسول الله صلوات الله عليه وسلامه عليه صفوة رجال أشرقت صدورهم بالإيمان واليقين ، وإيثار ما عند الله تعالى على ما عند الناس ، فأجرى الله على أيديهم كل رائع وباهر ، حتى كأنهم لم يكونوا بشراً من عامة الناس ، بل كانوا كأنهم ملائكة من جند الرحمن ، يمشون بسطوة القدر وسلطان القضاء : « أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

ومن هؤلاء الصحابي الجليل ، والفدائي الشهيد : عكاشة بن محصن الأسدي (١) ، رضي الله عنه ، وهو الذي يقول فيه الإمام ابن كثير : « عكاشة ابن محصن الغنمي من المهاجرين الأولين ، وممن لا حساب عليه (٢) » . وهو

---

(١) عكاشة : بضم ففتح ، وبعضهم يشدد الكاف ، ومحصن : بكسر الميم (تهذيب الاسماء للنووي ، ج ١ ص ٣٣٨) .
(٢) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ص ٥٠٢ .

من أمراء السرايا الفدائية في الإسلام .

وكان عكاشة من أجمل الرجال صورة ، ولكنه اعتز بجمال الأخلاق ومحاسن الخصال أكثر من اعتزازه بجمال الشكل والصورة ، فكان من المتقين المتحرزين ، الذين يحفظون حق الله في أعمالهم وأقوالهم ، فلم يلم برذيلة ، ولم يتنكر لفضيلة .

وحينما هاجر عكاشة مع امرأته فراراً بدينهما ، واستجابة لربهما ، آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين المجذر بن زياد بن عمرو البلوي شهيد غزوة أحد ، عليه رضوان الله تبارك وتعالى ، فقد قتله الحارث بن سويد الصامت غدراً يوم أُحد ، ودفن المجذر مع عبادة بن نضلة ، والنعمان ابن مالك بن ثعلبة ، في قبر واحد ، وكلهم شهداء ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وقد انتصف الرسول عليه الصلاة والسلام للمجذر ، حيث تمكن النبي من قاتله الحارث بن سويد وأمر بقتله ، فتقدم عويم بن ساعدة فضرب عنق الحارث : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » ، « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » .

وحينما سأل الحارث النبي عن سبب أمره بقتله ، أجابه النبي قائلاً : بقتالك المجذر بن زياد ، وقيس بن زيد ، فلم ينبس الحارث بكلمة [1] .

ويا عجباً كل العجب ، كأن المؤاخاة الإيمانية التي عقدها الرسول بين المهاجرين والأنصار كانت بيد الله عز وجل ، فهناك ظاهرة نحب أن نرددها ونؤكدها ، وهي التشابه الغريب بين كل أخوين في الإسلام آخى الرسول بينهما في هذه المؤاخاة ، ففي أكثر الأحوال نجد بين الأخوين تشابهاً في الجهاد ،

---

(١) الدرر لابن عبد البر ، ص ١٦٠ و ١٦٤ .

وتشابهاً في الاستشهاد ، وتشابهاً في أمور أخرى ، والأشباه تلتقي بالأشباه ، والنظائر تقترن بالنظائر ، وفوق تدبيرنا لله تدبير .

* * *

وشهد عكاشة غزوات بدر وأُحد والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد أبلى في غزوة بدر بلاء حسناً ، وأخلص إخلاصاً عجيباً وهو يجاهد لربه ، حتى تكسر سيفه ، فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم عوداً من حطب ، وقال له : قاتل بهذا يا عكاشة .

وتناول المناضل المؤمن المخلص عود الحطب وهزه في يده ، فإذا خالق الخلق الذي يقول للشيء كن فيكون ، يجعل هذا العود من الخشب سيفاً متيناً ، يقاتل به عكاشة حتى يفتح الله سبحانه على رسوله وعلى المسلمين ، ويظل هذا السيف العجيب عند عكاشة يشهد به المشاهد مع رسول الله ، حتى نال الشهادة ، رضوان الله عليه [1] .

وتروي السيرة العاطرة حدثاً مشابهاً فتقول : انكسر سيف سلمة بن حريش يوم بدر ، فبقي أعزل لا سلاح معه ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قضيباً كان في يده من عراجين ابن طاب) ضرب من الرطب) فقال : اضرب به ، فإذا سيف جيد ، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيد [2] .

* * *

---

(١) الدرر ، لابن عبد البر ، ص ١١٤ .
(٢) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ص ٤٤٧ .

وأخذت بطولة عكاشة بن محصن تتجلى في السرايا التي ندبه لها رسول الله عليه الصلاة والسلام فخرج في سرية إلى «الغمر» ، وهو مكان ماء لبني أسد ، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة ، فحالفه التوفيق مع رفاقه ، وعادوا بالغنيمة والأجر ، واشترك في سرية مع المجاهد الشهيد عبد الله بن جحش بن رئاب [١] فجاهدوا وغنموا ، واشترك في غزوة ذي قرد ، وأرسله النبي أيضاً في سرية في شهر ربيع الآخر سنة تسع للهجرة [٢] .

وكانت هذه الروح البطولية الفدائية الفذة من الأسباب التي جعلت رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يعتز اعتزازاً ملحوظاً بعكاشة ، حتى روت السيرة العاطرة أن النبي قال لصحابته ذات يوم : منا خير فارس في العرب .

قالوا : من هو يا رسول الله ؟

فأجاب : عكاشة بن محصن .

فقال ضرار بن الأزور الأسدي : ذاك رجل منا يا رسول الله .

فقال النبي : ليس منكم ، ولكنه منا ، للحلف [٣] .

ولقد ثبت في صحيحي الإمامين البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر عكاشة بن محصن بالجنة ، وبأنه يدخل الجنة بغير حساب [٤] . وكان ذلك حينما أخبر الرسول قومه — نقلاً عن ربه تبارك وتعالى — أن سبعين ألفاً من أمته يدخلون الجنة بغير حساب ، وكان عكاشة حاضراً يسمع ، فقال للنبي : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم .

---

(١) انظر تفاصيل بطولته في كتابي « الفداء في الاسلام » ص ٨٥ — ٩٢ .
(٢) الطبقات لابن سعد ، ج ١ ص ١١٨ .
(٣) الروض الأنف للسهيلي ، ج ٢ ص ٧٣ .
(٤) تهذيب الاسماء للنووي ، ج١ ص ٣٣٨ .

فقال : « أنت منهم » . وفي رواية أنه قال : « اللهم اجعله منهم » . ودعاء الرسول مجاب .

ثم قام رجل آخر من الحاضرين فقال مقلداً عكاشة : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم .

فقال عليه الصلاة والسلام : سبقك بها عكاشة .

والله يختص برحمته وفضله من يشاء ، وفوق كل ذي علم عليم .

وجاء في كتاب « الروض الأنف » للسهيلي في تعليل قول الرسول : « سبقك بها عكاشة » ما خلاصته :

قيل : إن الرجل الذي قيل له ذلك كان منافقاً ، ولذلك لم يدع له الرسول صلى الله عليه وسلم . وهذا القول لا يصح ، لأنه جاء في مسند البزار وصف هذا الرجل بأنه « من خيار المهاجرين » .

وقيل : إن معنى قوله : « سبقك بها عكاشة » أي سبقك بهذه الصفة التي هي صفة السبعين ألفاً ، من ترك التطهير وغيره ، ولم يقل له النبي : لست منهم ولا على أخلاقهم ، لحسن أدبه عليه الصلاة والسلام ، وتلطفه في الكلام ، ولا سيما مع أصحابه الكرام .

ثم قال المؤلف ما نصه :

« والذي عندي في هذا أنها كانت ساعة إجابة ، علمها عليه السلام ، فلما انقضت قال للرجل ما قال ، يبين هذا حديث أبي سعيد الخدري ، فإنه قال فيه بعد ذكر عكاشة : فقام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : اللهم اجعله منهم ؛ ثم سكتوا ساعة يتحدثون ، ثم قام الثالث فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : سبقك بها عكاشة وصاحبه ، ولو قلت

لقلت ، ولو قلت لوجبت ، وهي في مسند ابن أبي شيبة ، وفي مسند البزار أيضاً ؛ ويقوي هذا المعنى أيضاً رواية ابن اسحاق ، فإنه زاد فقال فيها : سبقك بها عكاشة وبررت الدعوة ، فقف على ما ذكرته في تفسير حديث عكاشة ، فإنه من فوائد هذا الكتاب [١] » .

* * *

ولحق الرسول الكريم بربه تبارك وتعالى ، بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وترك الناس على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلاّ هالك ، وزلزلت الأرض زلزالها ، وبرزت قرون الفتنة تنشر ضلالها ، وخرجت أفاعي الردة تنفث سمومها ، وكان لا بد من وقفة الصدق ومعركة الحق ، حتى لا يتهدم ما تم بناؤه من دولة الإيمان ومجتمع اليقين .

وشمر الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، عن ساعد الجد والعزم ، وقال قولته المشهورة التي وعاها الزمن وقضى بها على الفتن : « والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه حتى يؤدوه » .

وقرن القول بالعمل ، فسير الكتائب المؤمنة هنا وهناك ، تطهر الأرض ، وتصون العرض ، وتؤدي الفرض . وكان عكاشة رضي الله عنه يومئذ في نحو الخامسة والأربعين من عمره ، فبادر إلى مكانه الطبيعي في طليعة المجاهدين ، وخرج مع الجيش بقيادة سيف الله المسلول خالد بن الوليد ، وهو الجيش المتجه إلى قتال طليحة بن خويلد الأسدي المتنبيء الكذاب حينئذ .

واحتاج الجيش إلى طليعة فدائية تمهد أمامه الطريق ، وتوجد منفذاً إلى

---

(١) الروض الأنف للسهيلي ، ج ٢ ص ٧٣ .

مقاتل الأعداء ، فتقدم لهذه المهمة الكبيرة الخطيرة بطلان عظيمان هما عكاشة ابن محصن الأسدي ، وثابت بن أرقم البلوي [1] ، وخاطرا بنفسيهما ، إيثاراً لما عند الله تعالى على ما عند الناس : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » .

والتقى البطلان بطليحة وأخيه في معركة قاسية . . .

وكانت النتيجة أن لقي البطلان عكاشة وثابت الشهادة في سبيل الله عز وجل ، بعد أن ناضلا أشرف نضال ، وأوجدا الثغرة التي أرادا .

وأقبل جيش المسلمين من ورائهما ، ورأوا جثة الشهيدين المجيدين مضرجتين بالدماء ، مثقلتين بالجراح . « وقد وجدوا في عكاشة جراحات منكرة » [2] ، فدفنوهما بدمائهما وثيابهما .

وكان ذلك في السنة الثانية عشر للهجرة ، في معركة « بزاخة » . وهي ماء لطيء — أو لبني أسد — في أرض نجد [3] . وقد انتصر جيش المسلمين على الأعداء انتصاراً باهراً ، بعد أن قدم عكاشة بن محصن الأسدي ، وثابت بن أرقم البلوي وأمثالهما ، ثمن هذا النصر من طاهر الدماء وصادق الفداء ، رضوان الله على الجميع .

* * *

هذا ، ولقد عز موت عكاشة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله

---

(١) لبطولة ثابت بن ارقم حديث يساق في مجال غير هذا المجال . وفي « تهذيب الاسماء » انه ثابت بن أرقم ، وفي « أسد الغابة » انه : ثابت بن أقرم .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٣ ص ٦٥ .

(٣) معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٠٨ . والاعلام ، ج ٥ ص ٤٣ .

عنه ، ولذلك نراه حينما التقى بطليحة بن خويلد الأسدي قاتل عكاشة يقول له في حزن وأسى :

أقتلت الرجل الصالح عكاشة بن محصن ؟

فأجابه طليحة معتذراً ومستغفراً : إن عكاشة سعد بي ، وأنا شقيت به ، وأنا أستغفر الله » (١)

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

يقول رسولكم الصادق المصدوق : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » .

وكذلك طريق الحرية والعزة والكرامة ، ليس طريقاً مفروشاً بالورود والرياحين ، ولكنه طريق مشقات وتبعات ، وإن العظائم كفؤها العظماء ، والله جل جلاله يقول : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ».

ويقول : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين » .
صدق الله العظيم .

---

(١) معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٠٨ .

جليبيب الأنصاري

من أعظم مفاخر الإسلام — وما أكثرها — أنه سبق الدنيا إلى تقرير الوحدة البشرية والأخوة الإنسانية، وأهدر المفاخرة بالأنساب والأحساب والألوان ، وجعل أساس التفضيل والتقديم والتكريم هو « التقوى » بما تشمل من التزام العمل الصالح ، واجتناب العمل السيء ، فقال القرآن الكريم : «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » .

وقال : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

وأوضح ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلاّ بالتقوى والعمل الصالح » . بل أشار الرسول إلى أن العبد الأسود قد يكون أميراً على السادة الأشراف ، فيلزمهم حينئذ شرعاً أن يخضعوا له ، وأن يسمعوا منه ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : « اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » (١) .

وكم شهد تاريخ الإسلام من أفراد حرموا كثرة المال ومسحة الجمال ،

---

(١) الزبيبة : النكتة السوداء .

ومع ذلك سابقوا فسبقوا ، وسادوا فقادوا ، لأن المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، ولأن الإنسان بحاله وفعاله ، لا بشكله وجماله ، ولأن الاعتداد عند رب العباد ليس ببياض البشرة ، ولا جمال الصورة ، ولا ضخامة الثروة ، ولا نسب الأسرة ، ولا ذيوع الشهرة ، وإنما الاعتداد عنده بطيب العنصر ، وسلامة الجوهر ، وصفاء المخبر : « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلاّ من أتى الله بقلب سليم » .

وكم من مظاهر براقة خادعة ، تستر وراءها قبائح مفزعة ، وقديماً قال القائل الحكيم :

جمال الوجه مع قبح النفوس   كقنديل على قبر المجوسي

وكم من شخص غلبت دمامته على وسامته ، ومع ذلك حسنت أعماله ، فزادت أفضاله ، حتى استحق أن يقال فيه :

فإن لم تك المرآة أبدت وسامة   فقد أبدت المرآة جبهة ضيغم[1]

والعبرة ليست بعلو النسب والحسب ، ولكن بكرم الأخلاق والأدب ، ولذلك يقول الشاعر :

لم يجدك[2] الحسب العالي بغير تقى   مولاك شيئاً ، فحاذر واتق الله
وابغ الكرامة في نيل الفخار به   فأكرم الناس عند الله أتقاها

ويقول أيضاً :

---

(١) الضيغم : من اسماء الاسد .
(٢) لم يجدك : لم ينفعك .

أقول لمن غدا في كل وقت يباهينـــا بأسلاف عظـــام
أتقنع بالعظام وأنت تدري بأن الكلب يقنع بالعظام ؟

ولقد قيل لأحد الأشراف وقد أساء عمله وخلقه :

قال النبي مقال صدق لم يزل يحلو لدى الأسماع والأفواه
إن فاتكم أصل امرىء ففعاله تنبيكم عـــن أصله المتناهي
وأراك تسفر عن فعال لم تزل بين الأنـــام عديمة الأشباه
وتقول : إني من سلالة أحمد أفأنت تصدق أم رسول الله ؟

* * *

ويقول الألوسي في تفسيره : « إن مدار كمال النفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى ، فمن رام نيل الدرجات العلى فعليه بها » .

وإذا كان تاريخ الحروب والمعارك قد حدثنا فأطال الحديث عن مقاتلين تألقت أسماؤهم وذاعت شهرتهم ، فقد انطوت صفحات التاريخ على سير عاطرة باهرة لمجاهدين مجهولين ، قاتلوا صامتين ، ونـــاضلوا صابرين ، واستشهدوا مخلصين ، فتلقتهم أبواب السماء بكل تكريم واحتفاء ، وإن لم يحتفل بهم أهل الغبراء ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

من هؤلاء صحابي جليل ، وفدائي شهيد ، لم يحفظ له التاريخ نسباً ، ولم يعرف له حسباً ، سوى أنه أنصاري من خيار المؤمنين المجاهدين ، وأن اسمه « جليبيب » (١) ، ولم نجد بين أيدينا ما نستدل به على أبيه أو جده ، ولا

---

(١) جليبيب : تصغير جلباب ، على وزن : قنديل .

ما نستدل به على أمه أو جدته ، ولا ما نستدل به على أهله أو قبيلته . . . جليبيب وكفى ! . .

وكان جليبيب ممن يحبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعنى بأمرهم ، وكان جليبيب رجلاً قصير القامة دميم الشكل فقير الحال ، لا يعتز إلاّ بإيمانه ويقينه ، وصدق نضاله وحسن أعماله .

وذات يوم عرض عليه رسول الله أن يتزوج [1] ، فقال له جليبيب :

إذن تجدني يا رسول الله كاسداً . (أي لا يرغب الناس في زواجي لدمامتي وفقري) .

فرد عليه المصطفى قائلاً : لكنك عند الله لست بكاسد [2] .

ثم ذكر جليبيب للرسول عليه الصلاة والسلام اسم فتاة يريد زواجها .

فأرسل النبي إلى والدي الفتاة يعرض عليهما هذه الرغبة ، وكأنهما لم يرغبا في ذلك ، لدمامة جليبيب وفقره ؛ ولكن الفتاة كانت مؤمنة فاضلة عاقلة ، ولعلها سمعت ما قاله الرسول في جليبيب : « لكنك عند الله لست بكاسد » ، ثم علمت برغبة جليبيب في زواجها ، وبعرض الرسول ذلك على أبويها ، وبترددهما في ذلك ، وتذكرت أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو

---

(١) روى حديث هذا الزواج أبو برزة الاسلمي ، أحد فضلاء الصحابة ، اشتهر بكنيته ، وهي كنية مفردة لا يعرف في الصحابة احد يكنى ابو برزة غيره ، واسمه نضلة بن عبيد ، أسلم قديما ، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة ، وغزا وجاهد ، وتوفي بخراسان او بالبصرة سنة ثنتين وستين ، او اربع وستين .

(٢) وفي رواية : (انك عند الله لست بكاسد) . (الاستيعاب على هامش الاصابة ، ج ١ ص ٢٦٠) .

الذي يعرض ، وأن الله تبارك وتعالى هو الذي يقول في حق هذا الرسول الكريم : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

ويقول أيضاً : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » .

فساءها موقف والديها ، وأرادت أن تمارس حقها في اختيار شريك حياتها بنفسها ، وأن توافق عليه برغبتها .

وأرادت قبل ذلك وبعده أن تحسن الاستجابة لرغبة الرسول وعرضه ، فتلت قول الله تعالى في سورة الأحزاب : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً » (١) .

وكأن الفتاة قد تذكرت قول النبي عليه الصلاة والسلام : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه) أي زوجوه) إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

فقالت الفتاة : « رضيت وسلمت لما يرضى لي به رسول الله صلى الله عليه وسلم » !

وحينما علم الرسول بقولها دعا لها فقال : « اللهم أصبب عليها الخير صباً ، ولا تجعل عيشها كداً » (٢) .

---

(١) ذكر ابن عبد البر في ترجمته لجليبيب انه قد نزل في قصته : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ... » . وقال ابن حجر : ولم ار ذلك في شيء من طرقه الموصولة من حديث انس ومن حديث ابي برزة (الاصابة ، ج ١ ص ٢٤٤) . والمعروف ان الآية نزلت في شأن زواج زيد بن حارثة بزينب بنت جحش ، فالظاهر هنا ان الفتاة قد استشهدت بالآية .

(٢) الكد : التعب ، يقال كد في عمله يكد كدا ، اذا تعب .

واستجاب رب القدر دعاء رسوله ، فكانت هذه الفتاة من أكثر قومها مالاً ونفقة .

* * *

ومضى الزوجان في حياتهما سعيدين هانئين ، يحفظان حق الله وحق العقيدة ، وكان جليبيب من خيار المجاهدين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يخرج معه إلى الغزوات ، ويشهد موكبه في المشاهد .

وكأنه كان يتمنى أن يلقى الشهادة في مشهد من أروع مواقف الجهاد ، فخرج مع النبي في إحدى الغزوات ، وأقبل على موقف البذل والتضحية والفداء . وبعد انتهاء القتال وتحقق النصر لكتائب الإيمان ، قال الرسول لصحابته :

هل تفقدون أحداً ؟

قالوا : نعم ، نفقد فلاناً وفلاناً .

فعاد الرسول يسأل : هل تفقدون أحداً ؟

فقالوا : نعم ، نفقد فلاناً وفلاناً .

ثم عاد الرسول يسأل للمرة الثالثة : هل تفقدون أحداً ؟

فقالوا : لا .

فرد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : لكني أفقد جليبيباً ، فاطلبوه في المعركة .

وأخذ الصحابة يبحثون عنه هنا وهناك ، حتى رأوا ، ويا جلال ما رأوا .

رأوا المجاهد غير الكاسد عند الله عز وجل ، قد لحق بربه ، بعد أن قتل سبعة من الأعداء ثم قتله أعداؤه .

فقال الصحابة للرسول : يا رسول الله ، هوذا جليبيب .

فوقف النبي صلوات الله وسلامه عليه أمام جثمان البطل الشهيد، وقال :

« قتل سبعة ثم قتلوه ، هذا مني وأنا منه » !

ثم أعاد جملته : « قتل سبعة ثم قتلوه ، هذا مني وأنا منه » !

ثم أعاد مرة أخرى : « قتل سبعة ثم قتلوه ، هذا مني وأنا منه » !

ثم انحنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جثمان البطل الشهيد ، وحمله على ساعديه ، فلم يكن له سرير سوى ساعدي خير الخلق [1] ، حتى حفروا له حفرته ، ودفنوه بثيابه ودمائه ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

وحفظ الله جل جلاله زوجة البطل الشهيد جليبيب بعد وفاته ، فلم يكن في المدينة أرملة أوسع منها خيراً وبركة ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

* * *

بهذه الجندية المجهولة الخالصة المخلصة ، استطاع أولئك الرجال الأبطال أن يحققوا لأنفسهم العزة في الحياة ، ورفيع الدرجات عند الله ، وكما تجردوا في نضالهم عن الشهوات والسيئات ، وتطهروا في جهادهم من الأغراض والأمراض ، تقبلهم ربهم بقبول حسن ، وأثابهم جنة عرضها السموات والأرض .

---

(١) جاء في كتاب اسد الغابة عن جليبيب : « فوضع على ذراعي النبي صلى الله عليه وسلم حتى حفر له ، فما كان له سرير سوى ذراعي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دفن » ج ١ ص ٣٤٨ طبعة التعاون . وانظر الاصابة ج ١ ص ٢٤٤ والاستيعاب على هامش الاصابة ، ج ١ ص ٢٦١ .

عمرو بن ثابت بن وقش الاشهلي

يقول الحق تبارك وتعالى :

« من يهدي الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً »

ومن هذا البيان الإلهي المشرق نفهم أن الهداية الربانية إذا حلت قلب إنسان فتحت أمامه مغاليق الحياة ، وأغنته عن الافتخار بأي عز أو جاه : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » .

ولقد يقضي الإنسان من حياته وقتاً قليلاً أو طويلاً ، وهو محروم من صحة العقيدة وقوتها ، فإذا ألوان من المطامع والمنافع تستبد به وتسيطر عليه ، وتتبعثر طاقاته وخطواته ذات اليمين وذات الشمال .

حتى إذا أضاء صدره بنور الإيمان الراسخ ، أقبل على حمى ربه ومولاه ، فلا يعرف طريقاً سواه ، « قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » .

ويصبح الإنسان بإيمانه مستعداً لبذل كل شيء في سبيل من أعطى كل شيء ، وهو الله جل جلاله ، رحمن الدنيا والآخرة .

ولذلك أجمع أهل العلم والحكمة على أن أصدق أنواع الجهاد وأزكاها هو ما كان خالصاً لوجه الله سبحانه ، منبعثاً من نفس مؤمنة واثقة بما عند

الله أكثر من ثقتها بما بين يديها : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » .

وإذا كان رب العزة هو الذي يهب النصر أو الأجر ، فإنه سبحانه لا يقبل من العمل إلاّ ما كان خالصاً لوجهه الكريم ، ولذلك يقول عزّ من قائل : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

ويقول : « ألا لله الدين الخالص » .

ويقول : « فاعبد الله مخلصاً له الدين » .

وعماد العمل المقبول عند الله هو صفاء النفس وصدق النية ، ولذلك يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه ».

وبالنية المخلصة يتضاعف العمل الصالح – ولو كان قليلاً في نظر الناس – فيصبح عظيماً جليلاً عند الله تعالى ، لأن لله موازين غير موازين البشر ، وهو القائل : « قل لا يستوي الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون » .

وقد يقوم غير المؤمن بأعمال تبدو في أنظار الناس كبيرة عظيمة ، ولكنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، لأن انعدام الإخلاص فيها يهوي بها إلى الحضيض ، والله جل جلاله يقول عن أهل الضلال والباطل : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » .

* * *

وهذا مثلاً رجل عربي ، كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعدنه طيب ، ولكن ضلال الدنيا والجاهلية حال بينه وبين صيانة هذا المعدن وتجليته ، فصد عن سبيل ربه زمناً ، وأعرض عن دعوته إلى حين ، ثم تفتح قلبه للإيمان ، فإذا هو مستجيب منيب ، وإذا هو على الصراط معتدل مستقيم ، وإذا هو شاهد عملي على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » .

إنه الصحابي المجاهد الشهيد: الأصيرم عمرو بن ثابت بن وقش الأشهلي(١)، الذي أخذ طريقه إلى الجنة دون أن يصلي في الإسلام صلاة واحدة كما تحدثنا السيرة العطرة . فقد كان عمرو بن ثابت شاكاً في الإسلام ، متردداً في قبوله والدخول فيه ، وكان قومه من المسلمين يدعونه إلى الإسلام فيقول : لو أعلم ما تقولون حقاً ما تأخرت عنه .

ثم جاءه العلم والفهم ، فنظر وتفكر وتدبر ، فاهتدى وانشرح صدره للإسلام ، وقذف الله في قلبه نور الإيمان ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ على أهبة الخروج مع المسلمين إلى غزوة أُحد ، فسارع عمرو بن ثابت بحمل سلاحه ، وتوجه إلى رسول الله وهو في بدء طريقه إلى الجهاد .

وأعلن عمرو إسلامه ، وانتظم في صفوف المجاهدين ، ولعل بعض المسلمين لم يره وهو يعلن إسلامه .

وبدأ القتال ، وجاهد عمرو بيقين وإخلاص ، وأبلى بلاء حسناً ، وأصر على أن يبقى في موطن البذل والتضحية والفداء ، حتى أصيب إصابات كثيرة قاتلة .

---

(١) في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » تحدثت حديثا وجيزا عن عمرو بن ثابت بن وقش ، ولكني هنا أفصل حديثه تفصيلا .

وسقط صريعاً بين الحياة والموت ، ورآه بعض من لم يعرف إسلامه ، فأقبل عليه متعجباً ، وقال له : ما جاء بك يا عمرو ؟

فأجاب : جاء بي الإسلام ، فقد آمنت بالله ورسوله ، وأخذت سيفي وحضرت ، فرزقني الله الشهادة . . . وما هي إلاّ لحظات ، ثم أسلم عمرو روحه إلى بارئها .

وهنا قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : إنه لمن أهل الجنة .

وهكذا مضى صدق الإيمان وصفاء النية وإخلاص العمل بعمرو بن ثابت ، ابن يومه في إسلامه ، إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول بعد ذلك للناس : أخبروني برجل يدخل الجنة لم يصل لله تعالى سجدة (أي صلاة واحدة) .

فإذا لم يعرفوا الجواب قال لهم أبو هريرة : هو أخو بني عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقش . رضوان الله تعالى عليه .

ويروي ابن كثير القصة بالعبارة التالية :

« عن أبي هريرة أنه كان يقول : حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل قط. فإذا لم يعرفه الناس سألوه : من هو ؟

فيقول : أصيرم بني عبد الأشهل : عمرو بن ثابت بن وقش .

قال الحصين : قلت لمحمود بن أسد : كيف كان شأن الأصيرم ؟

قال : كان يأبى الإسلام على قومه ، فلما كان يوم أُحد بدا له فأسلم ، ثم أخذ سيفه فغدا حتى دخل في عرض الناس ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة .

قال : فبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به .

فقالوا : والله إن هذا للأصيرم ، ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الحديث .

فسألوه فقالوا : ما جاء بك يا عمرو ، أحدب على قومك أم رغبة في الإسلام ؟

فقال : بل رغبة في الإسلام ، آمنت بالله وبرسوله ، وأسلمت ، ثم أخذت سيفي وغدوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقاتلت حتى أصابني ما أصابني .

فلم يلبث أن مات في أيديهم ، فذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنه من أهل الجنة »[1] .

* * *

والعجيب أن قبيلة هذا المجاهد الشهيد — الذي جاء به الإسلام إلى موطن الحق والصدق ، ابن يومه في إسلامه ، الذي مضى إلى طريق الجنة دون أن يصلي صلاة واحدة — قد أصبحت في التاريخ جديرة بأن تسمى « أسرة المؤمنين الشهداء » .

فقد أسلم جميع هذه القبيلة — بني عبد الأشهل — رجالاً ونساء في يوم واحد ، عقب إسلام سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير ، ولم يكن في هذه القبيلة منافق ولا منافقة ، فقد كانوا كلهم حنفاء مخلصين ، رضي الله عنهم أجمعين[2].

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ص ٧٣ . وهناك موقف مشابه كان للصحابي أسلم الاسود الراعي ، تحدثت عنه في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ص ٩٨ .
(٢) كتاب الدرر لابن عبد البر ، ص ٧٣ .

وكثر الشهداء أيضاً من قبيلة بني عبد الأشهل ، ففي غزوة أحد وحدها نال الشهادة من هذه القبيلة والد عمرو :وهو ثابت بن وقش ، وعم عمرو : وهو رفاعة بن وقش ، وأخو عمرو : وهو سلمة بن ثابت بن وقش ، وعمرو نفسه : وهو عمرو بن ثابت بن وقش [1] . رضوان الله على الجميع .

وتروي السيرة أنه في غزوة أحد كان ثابت بن وقش وحسل بن جابر شيخين كبيرين ، فقال أحدهما للآخر : ما ننتظر ؟ إنما نحن هامة اليوم أو غداً ، فلنلحق بالمسلمين حتى نرزق الشهادة .

وخرجا فسقط ثابت بن وقش في هذه الغزوة شهيداً [2] .

وقيل إن ثابت بن وقش وحسل بن جابر قال أحدهما للآخر : « ما بقي من أعمارنا إلا ظِمْء حمار » . والظمء ما بين الوردين ، والحمار أقصر الدواب ظمأً ، أي ما بقي من أعمارنا إلا القليل . وفي حديث بعضهم : « حين لم يبق من عمري إلا ظمء حمار » أي شيء يسير ، وإنما خص الحمار لأنه أقل الدواب صبراً عن الماء [3] .

وقيل إنهما كانا داخل الحصون مع النساء والصبيان ، لأنهما شيخان كبيران، فقالا : ما ننتظر ؟ فوالله إن بقي لواحد منا من عمره إلا ظمء حمار ، وإنما نحن هامة اليوم أو غداً ، أفلا نأخذ أسيافنا ، ثم نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .
(٢) النحفة اللطيفة ، ج ١ ص ٣٨٦ .
(٣) النهاية لابن الاثير ، ج ٣ ص ١٦٣ .

هذه صورة للإيمان والعمل الصالح القائم على النية الخالصة المخلصة لوجه الله عز وجل .

وعلى الوجه الآخر المقابل المضاد نشهد صورة للعمل المخادع الباطل .

فقد كان هناك شخص على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اسمه « قزمان » (١) وكان يتظاهر بالإسلام ، واشترك مع المسلمين في غزوة أحد أيضاً ، وكان قوياً شجاعاً ماهراً في الحرب ، وقاتل في هذه الغزوة قتالاً شديداً ، حتى صرع سبعة من الأعداء .

وأعجب بعض المسلمين بقوة « قزمان » فقال إنه من أهل الجنة ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال بنور النبوة : إنه من أهل النار .

فيا عجباً كل العجب ! . .

ما السر في ذلك ؟

فلننظر . . .

ظل قزمان يقاتل حتى أصيب بجراح خطيرة ، وسقط صريعاً على الأرض ، وجاءه بعض المسلمين يقولون له : هنيئاً لك أبا الغيداق الشهادة .

فقال لهم : بم تبشرونني ؟ والله ما قاتلنا إلاّ على الأحساب .

فقالوا له : بشرناك بالجنة .

فقال ساخراً : جنة الله من حرمل (٢) ، إنا والله ما قاتلنا على جنة ولا على نار ، وإنما قاتلنا على أحسابنا (٣) .

---

(١) بضم فسكون ، والقزمان : الرديء من كل شيء .

(٢) يقصد الارض التي يدفن فيها . وكان ينبت فيها نبات الحرمل ، اي ليس لي جنة الا هذه الارض .

(٣) وروي أنهم قالوا له : والله لقد ابليت اليوم يا قزمان فأبشر : فقال : بماذا أبشر ؟ فوالله ما قاتلت الا على أحساب قومي ولولا ذلك ما قاتلت . وروي انهم قالوا له : أبشر بالجنة . فقال : بماذا وما قاتلت الا عن أحساب قومي (الدرر ، ص ١٦١) .

ثم أخرج قزمان سهماً من كنانته ، وجعل يطعن به جسمه هنا وهناك في خبل ، ثم أخرج سيفه واتكأ عليه في جنون وقنوط ، فخرج السيف من ظهره ، فمات — منتحراً — كميتة الكلاب ، وأخذ طريقه إلى النار ، وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام حينما قال : « إنه من أهل النار » . وإنما كان ذلك لأنه قاتل بلا عقيدة ولا إيمان ، فصار عمله هباء منثوراً : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

* * *

وتروي السيرة قصة أخرى شبيهة بقصة قزمان حدثت في غزوة خيبر ؛ وقد جاءت بأكثر من رواية : عن الزهري عن المسيب عن أبي هريرة قال :

شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر ، فقال لرجل يدعي الإسلام : « هذا من أهل النار » .

فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة . فقيل : يا رسول الله ، الرجل الذي قلت إنه من أهل النار ، قاتل اليوم قتالاً شديداً ، وقد مات .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إلى النار .

فكاد بعض القوم يرتاب ، فبينما هم على ذلك إذ قيل : فإنه لم يمت ، ولكن به جراحة شديدة فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح ، فقتل نفسه .

فأُخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال: الله أكبر ، أشهد أني عبد الله ورسوله .

---

(١) ذكر ابن كثير هذه القصة ضمن غزوة خيبر .

ثم أمر بلالاً فنادى في الناس : « إنه لا يدخل الجنة إلاّ نفس مسلمة ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » .

وهذه الرواية في الصحيحين .

وحدث ابن أبي حازم عن أبيه عن سهل قال : التقى النبي صلى الله عليه وسلم والمشركون في بعض مغازيه [1] فاقتتلوا ، فمال كل قوم إلى عسكرهم وفي المسلمين رجل لا يدع من المشركين شاذة ولا فاذة [2] إلاّ اتبعها فضربها بسيفه .

فقيل : يا رسول الله ، ما أجزأ منا أحد ما أجزأ فلان .

قال : إنه من أهل النار .

فقالوا : أينا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار ؟

فقال رجل من القوم : لأتبعنه ، فإذا أسرع وأبطأ كنت معه ، حتى جرح فاستعجل الموت ، فوضع نصاب سيفه بالأرض ، وذبابه [3] بين ثدييه ، ثم تحامل عليه فقتل نفسه .

فجاء الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أشهد أنك رسول الله .

قال : وماذاك ؟

فأخبره فقال : إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وإنه من أهل النار ، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وإنه من أهل الجنة .

---

(١) الشاذة والفاذة بمعنى المنفردة . وقد فذ الرجل عن أصحابه اذا شذ عنهم وبقي فردا .

(٢) النصاب : الاصل . وذباب السيف طرفه الذي يضرب به .

وهذه الرواية رواها البخاري .

وحدث سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال : شهدنا خيبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل ممن معه يدعي الإسلام : هذا من أهل النار .

فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال حتى كثرت به الجراحة ، حتى كاد بعض الناس يرتاب . فوجد الرجل ألم جراحه ، فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهماً فنحر بها نفسه ، فاشتد رجال من المسلمين فقالوا : يا رسول الله ، صدق الله حديثك ، انتحر فلان فقتل نفسه .

فقال : قم يا فلان فأذن [1] : إنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وإن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر .

وهذه الرواية رواها البخاري أيضاً [2] .

* * *

إن الإخلاص في العمل سر من أسرار الله ، يودعه قلب من يشاء من عباده ، فيجري على يديه من العمل الصالح ما يجعله موضع الرضى والرضوان من الله الذي لا يضيع أجر المحسنين .

---

(١) المراد بالأذان هنا الاعلام والاخبار .
(٢) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ص ٧١ و ٣٦٠ .

أبو سنان وهب بن محصن الاسدي

إن المسارعة إلى الخير شعار المؤمنين الذين يحرصون على رضا الله تعالى والقرب منه ، ولذلك يقول الحق عز وجل في سورة آل عمران : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السموات والأرض ، أعدت للمتقين » .

وإن السبق إلى مواطن الفضل والبر سمة من سمات المفلحين الفائزين ، ولذلك يقول القرآن الكريم في سورة الواقعة : « والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم » .

وإن التنافس الكريم المحمود هو ما كان في مجالات الطاعة والإحسان . « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

ولقد كان تقدم المسلم على إخوانه في مكرمة أو فضيلة وسامَ شرف يسجله له التاريخ ، ويردده الدهر ؛ ولذلك جاءت في السيرة الإسلامية العطرة طائفة من « الأوليات » التي امتاز بها فريق من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأول من أسلم — مثلاً — السيدة خديجة رضي الله عنها .

وأول من هاجر إلى الحبشة ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وأول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة رضي الله عنه .

وأول من عقد له لواء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه .

وأول شهيد في الإسلام مهجع الصحابي رضي الله عنه .

وهكذا إلى آخر هذه « الأوليات » التي يفخر بها أصحابها ، لا بأموالهم ولا بأجسامهم ، ولا بأحسابهم أو نسبهم ، وإنما فخروا فيها بسبقهم في ميادين العمل الخالص لوجه الله عز وجل .

* * *

وهذا واحد من أولئك الأوائل :

إنه قد امتاز بأولية باهرة خالدة ، تكفيه شرفاً وتوسعه تكريماً ، حيث كان أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان ، ويا لها من بيعة إيمان وإحسان !

إنه الصحابي الجليل ، المناضل المقدام ، المسارع إلى الفداء والشهادة : أبو سنان وهب بن محصن الأسدي [1] ، أخو البطل الشهيد عكاشة بن محصن الأسدي الذي لقي الشهادة في حروب الردة [2] .

وقد سارع أبو سنان إلى الإسلام ، وسبق إلى الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشهد معه غزوات بدر وأُحد والخندق [3] ، ثم جاءت غزوة

---

(١) اختلفوا في اسم ابي سنان ، فقيل ان اسمه وهب ، وقيل : عبد الله ، وقيل غير ذلك ، ولكن الاصح ان اسمه وهب ، وكان لوهب ولد اسمه سنان بن ابي سنان ، وهو بدري مات سنة ثلاث وثلاثين (انظر الروض الانف ، ج ٢ ص ٢٣٥) .

(٢) ولوهب ايضا اخ اسمه « سنان بن محصن » ، وقد تحدثت عن بطولة عكاشة بن محصن في فصل سابق يراجع في صفحة ١٢٩ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٣ ص ٦٥ .

الحديبية [1] في السنة السادسة للهجرة .

وكانت هذه الغزوة نقطة تحول بارز في تاريخ النضال الإسلامي الطويل ، إذ انتقل بها المسلمون من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه بعد غزوة الخندق : لن يغزونا القوم بعدها نحن سنغزوهم .

ثم جاءت غزوة الخندق — غزوة الأحزاب — عقب ذلك ، لتكون باباً لفتح عظيم ، بل إنها كانت فتحاً في ذاتها ، لأنها كانت سبباً في فتح مكة ، ولذلك قال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، حيث اختلط المشركون بالمسلمين ، وسمعوا كلامهم ، وتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام . وذكر الألوسي أنه قد خفي كون ما كان في الحديبية فتحاً على بعض الصحابة حتى بينه رسول الله صلى الله عليه تعالى وسلم فقد أخرج البيهقي عن عروة قال :

أقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الحديبية راجعاً ، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : والله ما هـذا بفتح ، لقد صدرنا عن البيت ، وصُد هدينا . . .

وبلغ رسول الله ذلك فقال : بئس الكلام هذا ، بل هو أعظم الفتح ، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ، ويسألونكم القضية ،

(١) الحديبية : قرية متوسطة ، ليست بالكبيرة : سميت باسم بئر عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها أصحابه او لشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع ، وبين الحديبيه ومكة مرحلة ، وبينها وبين المدينة تسع مراحل (زاد المسيرة لابن الجوزي ، ج ٧ ص ٤٢٠ بالهامش) .

ويرغبون إليكم في الأمان ، وقد كرهوا منكم ما كرهوا ، وقد أظفركم الله عليهم ، وردكم سالمين غانمين ومأجورين ، فهذا أعظم الفتح . أنسيتم يوم أحد ، إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ،ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون ؟

وهنا قال المسلمون : صدق الله ورسوله ، هو أعظم الفتوح والله يا نبي الله ، ما فكرنا فيما ذكرت ، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا (١) .

وكذلك قال الإمام ابن عبد البر : « ليس في غزواته صلى الله عليه وسلم ما يعدل بدراً ، أو يقرب منها ، إلاّ غزوة الحديبية » (٢) .

* * *

وكان من خبر غزوة الحديبية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فيها معتمراً مع أصحابه ، وفيهم بطلنا أبو سنان وهب بن محصن الأسدي ، وكان النبي يريد بهذه الغزوة أن يدخل مكة ، ويطوف بالبيت الحرام ، لإقرار حق المسلمين في ذلك ، ولعله كان يريد من وراء ذلك أيضاً أن يجدد عهد المهاجرين بوطنهم مكة ، لكي يظلوا عازمين على العودة إلى موطنهم فاتحين منتصرين .

ولكن المشركين رفضوا ذلك ، ووقفوا في طريق موكب النور المؤمن ، فأرسل إليهم النبي عثمان بن عفان ليفاوضهم فاحتبسوه عندهم ، وأشيع أنهم قتلوه ، فأمر النبي مناديه بأن ينادي في الناس قائلاً :

---

(١) تفسير الالوسي ، ج ٢٦ ص ٧٧ طبعة المنيرية .
(٢) السيرة الحلبية ، ج ٢ ص ١٤٢ .

« ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره بالبيعة ، فأخرجوا على اسم الله تعالى ، فبايعوه »[1] . فسارع الصحابة إلى استجابة النداء .

وأقبلوا على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وهو واقف تحت شجرة كبيرة[2] في هذا المكان ، وأخذوا يبايعونه[3] على عدم الفرار ، وعلى الثبات حتى الاستشهاد أو الانتصار .

قال سلمة بن الأكوع : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت .

وقال جابر : بايعنا على أن لا نفر .

والخلاف لفظي ، لأن الذي لا يفر في الجهاد يكون على أتم الاستعداد للاستشهاد .

وقد ذكر السهيلي أنه قيل : بايعوه على أن لا يفروا ، ولم يبايعوه على الموت ، وقيل : بايعوه على الموت ، قال : وكلا الحديثين صحيح ، لأن بعضهم بايع على أن لا يفروا ولم يذكروا الموت ، وبعضهم قال : أبايعك على الموت[4] .

وشاءت الأقدار أن يكون أول من يبايع هذه البيعة العظيمة الكريمة هو أبو سنان ، فقد أقبل أولاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له في صدق وإخلاص : يا رسول الله أبسط يدك أبايعك .

---

(١) تفسير الالوسي ، ج ٢٦ ص ٩٧ .
(٢) روي انها كانت شجرة طلح ، وهي السمرة ، وفي القاموس أن الطلح شجر عظام ، وفي كتب التفسير الطلح شجر الموز .
(٣) انظر كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ، ص ٢٨٨ .
(٤) الروض الأنف ، ج ٢ ص ٢٣٥ .

فقال له النبي : على ماذا ؟

فأجابه أبو سنان : على ما في نفسك يا رسول الله .

فقال النبي : وما في نفسي ؟

فأجابه أبو سنان : الفتح أو الشهادة !

فسر الرسول من ذلك ، وبسط يده فبايع بها أبا سنان (١) .

يا لروعة الموقف ، ويا لجلال هذا الحوار ! . . إنا لنرى فيه هذا التجاوب الباهر بين القائد والجندي ، فهذا هو أبو سنان الجندي التابع ، يسارع بالاستجابة لأمر القائد المتبوع ، فيسأل النبي أن يبسط يده ليبايعه ، دون أن يخصص أبو سنان الأمر الذي يبايع عليه ، لأنه على استعداد لمبايعة الرسول على أي أمر مهما عظم ، وعلى أي واجب مهما جل ، لأن النبي لا يبايع إلا على الحق والخير والواجب : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » ، « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

والرسول القائد يريد أن يتأكد من سلامة التصور للموقف العصيب في عقل الجندي المخلص ، فيسأله : على أي شيء تبايع يا أبا سنان !

وهنا يأتي الجواب البليغ الرشيد : على ما في نفسك يا رسول الله .

وكأن أبا سنان يعرف تماماً ما بنفس الرسول في مثل هذا الموقف . وماذا يكون بنفس الرسول حينئذ سوى كلمة الحق ، وموقف الصدق ، ومنطق الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد ؟

---

(١) تهذيب الاسماء ، ج ٢ ص ١٤٦ بالهامش . ولقد حدث الشعبي بهذا الحديث رجلا من بني أسد ، ثم قال للرجل مادحا قبيلته : « فكانت هذه لقومك.» .

ويعود الرسول ليزيد الموقف إيضاحاً وجلاء ، حتى يسير المجاهدون على بصيرة ، فيسأل : وما في نفسي ؟ فيأتي الجواب الطبيعي الناشىء من حسن الإدراك لتبعات الموقف ، فيكون : الفتح أو الشهادة ! . .

ليت المجاهدين من أبناء الإسلام في كل مكان يتعلمون — قادة وجنوداً — من هذا الدرس البليغ الموحي أن تكون علاقة القائد بالجندي قائمة على صلاح القائد وتمام صفات القيادة الرشيدة عنده ، وعلى حسن الاستعداد والطاعة المطلقة — ولا أقول العمياء — من الجندي المخلص لقائده الأمين (١) .

* * *

وأقبل الصحابة من وراء أبي سنان يبايعون الرسول قائلين : نبايعك يا رسول الله على ما بايعك عليه أبو سنان . ويا له من وسام عظيم ، وشرف مجيد ، أن يكون أبو سنان طليعة المبايعين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان ، تلك البيعة التي يقول عنها الحق تبارك وتعالى في سورة الفتح : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

وقد نستطيع أن نفهم جلال هذه « الأولية » حين نجد كتب السيرة تحرص على ذكرها وتعيين اسم صاحبها ، فابن هشام يقول : « أول من بايع النبي صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان أبو سنان الأسدي (٢) » .

---

(١) في رواية أن أبا سنان قال للرسول : أبايعك على ما في نفسك . فقال : وما في نفسي ؟. فأجاب أبو سنان : أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهرك الله ، او اقتل (السيرة الحلبية ، ج ٢ ص ١٤٢) .

(٢) سيرة ابن هشام على هامش الروض الأنف ، ج ٢ ص ٢٢٩ .

ويقول النووي عن أبي سفيان : « قيل إنه أول من بايع بيعة الرضوان تحت الشجرة ، ثم بايع الناس على بيعته »[1] .

ويقول ابن عبد البر : « أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أبو سنان الأسدي »[2] .

ويقول ابن كثير : « وكان أول من بـــايع رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ أبو سنان وهو وهب بن محصن ، أخو عكاشة بن محصن[3] » .

ويقول ابن جرير الطبري : « كان أول من بايع بيعة الرضوان رجل من بني أسد يقال له أبو سنان »[4] .

ويقول السهيلي : « وقال موسى بن عقبة : أول من بايع : أبو سنان واسمه وهب بن محصن أخي عكاشة بن محصن ، وقال الواقدي : كان أبو سنان أسن من أخيه عكاشة بعشر سنين »[5] .

أرأيت كيف حرص هؤلاء الرواة والمؤرخون — كما حرص كثير غيرهم — على أن يذكروا اسم ذلك المبايع « الأول » في بيعة الرضوان ؟

إن ذلك يدل على أن السبق هنا امتياز طيب ، ينبغي أن ينص عليه ، وأن يفخر صاحبه به ، لأنه سبق في مجال طاعة الله ، ومسارعة إلى تحمل تبعة ينهض بها خيار الرجال ، وصلوات الله وسلامه على رسوله حينما رأى أبا دجانة

---

(١) تهذيب الأسماء ، ج ٢ ص ١٤٩ .
(٢) الدرر ، ص ٢٠٦ .
(٣) السيرة النبوية ، ج ٣ ص ٣٢٨ .
(٤) تفسير ابن جرير الطبري ، ج ٢٦ ص ٨٦ .
(٥) الروض الأنف ، ج ٢ ص ٢٣٥ .

وهو يختال في مشيته بين المجاهدين ، لأنه فاز بسيف رسول الله ، فقال له : « يا أبا دجانة ، إنها مشية يكرهها الله إلاّ في مثل هذا الموطن » ! . .

« وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

« والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم » .

وأكثر المؤرخين والمفسرين قد نصوا على أن أبا سنان هو الذي فاز بالأولية في هذا المقام المشهود ، فلا يضيرنا كثيراً بعد ذلك أن نجد بعض المصادر تقول إنه « سنان بن أبي سنان الأسدي » (١) .

وبعض المصادر تقول إن أول من بايع في الحديبية عبد الله بن عمر ، وقيل : سلمة بن الأكوع (٢) .

* * *

وقد سميت هذه البيعة بيعة الرضوان لأن الله تبارك وتعالى تفضل بعظيم رضاه وجليل رضوانه على هؤلاء الرجال الأبطال ، الذين يقلون عند الطمع ، ويكثرون عند الفزع ، والذين باعوا نفوسهم الكريمة العظيمة القويمة رخيصة لخالقها وبارئها جل جلاله ، ولذلك قال القرآن الكريم في سورة الفتح : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيماً » .

---

(١) انظر الروض الأنف ، ج ٢ ص ٢٣٥ . والسيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ص ٣٢٨ . والطبقات ، ج ٣ ص ٦٥ .
(٢) السيرة الحلبية ، ج ٢ ص ١٤٢ . واقرأ السيرة البطولية لسلمة بن الأكوع في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » من صفحة ٢٨٨ الى ص ٢٩٨ .

ومن لطائف ما حدث أن عثمان رضي الله عنه حينما احتبسه المشركون عرضوا عليه أن يطوف حول الكعبة إن شاء ذلك ، وعثمان يشاء ذلك ويحبه ويحرص عليه ، ولكن قائده غير موجود وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يأخذ لنفسه ما يرضيها ورسول الله بعيد غير موجود ؟ ولذلك رفض عثمان وقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحينما ظن بعض المسلمين أن عثمان انتهز الفرصة وطاف حول الكعبة وقالوا : قد خلص عثمان إلى البيت ، فطاف به دوننا .

رد عليهم النبي قائلاً : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون . فقال البعض : وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه ؟

فأجاب الرسول : ذلك ظني به ، أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف ، لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف به حتى أطوف .

ولما رجع عثمان أخبروه بهذا الحوار ، فقال : بئسما ظننتم بي ، دعتني قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت ، والذي نفسي بيده لو مكثت بها (يعني مكة) معتمراً سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية ، ما طفت حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي تصرف عثمان يقول صاحب الهمزية :

وأبي أن يطوف بالبيت ، إذ لم يَدْنُ منهُ إلى النبي فناءُ
فجزته عنها — ببيعة رضوا ن يدٌ من نبيه بيضاءُ
أدب عنده تضاعفت الأعما ل بالترك ، حبذا الأدباءُ

وصاحب الهمزية يريد أن يقول إن من العجيب أن ترك عمل الخير يكون

سبباً للثواب الكثير ، فعثمان قد ترك الطواف وهو مشروع ، ولكنه تركه لنية عظيمة قويمة ، ففاز على هذا الترك بأن كانت بيعته أعظم من غيرها ، لأن الرسول بايع عن عثمان وهو غائب [1] .

وبيان ذلك أن الرسول أراد أن يعطي درساً في تقدير المجاهدين العاملين ، بأن يحفظ حقهم وقدرهم ولو كانوا غائبين ، فعثمان غائب في مكة ، ولم يحضر المبايعة بشخصه ، ولكن روحه وهواه مع رسوله ، ولو كان حاضراً ما تأخر عن المسارعة إلى البيعة، وهو غائب في عمل يتصل بالجهاد والدعوة، فمن حقه — إذن — في تقدير الرسول النبيل أن يعد حاضراً ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إن عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله ، فأنا أبايع عنه » .

ثم وضع الرسول يده اليمنى في يده اليسرى ، وقال : « اللهم إن هذه عن عثمان ، فإنه في حاجتك وحاجة رسولك » ! . .

وهكذا يكون تكريم المجاهدين ، وتقدير المناضلين ! . .

ولقد رفع الرسول من مكانة هؤلاء الأخيار الأطهار الأبرار الذين بايعوه بيعة الثبات والجهاد حتى الاستشهاد ، فقال لهم : « أنتم خير أهل الأرض » . ثم أخبر عنهم بأنهم لا يدخلون النار ، فقال : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » . وقال أيضاً : « يا أيها الناس، إن الله قد غفر لأهل بدر والحديبية »[2].

وروى البخاري أن عبداً لحاطب جاء يشكوه إلى رسول الله صلى الله

---

(١) انظر السيرة الحلبية ، ج ٢ ص ١٤١ .
(٢) قال بعض العلماء ان الواو هنا بمعنى أو .

عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، ليدخلن حاطب النار . فرد عليه الرسول قائلاً : « كذبت ، لا يدخلها ، شهد بدراً والحديبية »[1] .

وروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : لا يدخل أحد النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة التي بايعوا تحتها .

فقالت حفصة كالمعترضة : بلى يا رسول الله (أي يدخلونها) .

فانتهرها النبي ، فأرادت أن تستفهم ، فقالت يقول الله تعالى في سورة مريم : « وإن منكم إلاّ واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً » .

فأرشدها الرسول إلى الجواب بأن تلا قول الله تعالى عقب ذلك مباشرة : « ثم ننجي الذين اتقوا ، ونذر الظالمين فيها جثياً » . أي باركين على الركب من شدة الهول وقسوة العقاب .

ويا عجباً كل العجب ، إن الغزوة الفاصلة الحاسمة التي احتاجت إلى بيعة على الثبات حتى الموت من ألف وأربعمائة صحابي بايعوا حينئذ[2] لم يحدث فيها قتال ، ولم تسل فيها دماء ، بل أدت إلى نصر كبير وفتح عظيم ، واستحقت أن ينزل بسببها قول الله تبارك وتعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً »[2] .

---

(١) هذا هو المشهور الاصح ، وقد روى الالوسي في تفسيره عدة روايات في عدد المبايعين ، ثم حاول الجمع بين الروايات بأنها بناء على عد الجميع ، او ترك الاصاغر والاتباع والاوساط ، او نحو ذلك (تفسير الالوسي ج ٢٦ ص ٩٧) .

(٢) ذكر كثير من المفسرين ان المراد بالفتح هنا هو ما كان في الحديبية . وانظر صفحة ١٧٤ من هذا الكتاب .

وعاش أبو سنان وهب بن محصن الأسدي ، مجاهداً مناضلاً ، وفياً نقياً ، حتى لحق بربه عند حصار المسلمين لبني قريظة »[1] .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

(١) في الدرر : « مات في الحصار الذي كان في بنى قريظة، ودفنه الرسول صلى الله عليه وسلم في مقبرة بني قريظة » ص ١٩٤ . وانظر الروض الأنف ج ٢ ص ٢٣٥ . والطبقات لابن سعد ، ج ٣ ص ٦٥ .

صلة بن أشيم العدوي

جرت العادة بأن كثيرين من الناس يُعرضون عن دعوة الحق ونداء الإيمان ، فيعبون من الشهوات عباً مسرفاً بلا ارعواء ، ويأكلون من الدنيا كما تأكل الأنعام بلا إبطاء .

وجرت العادة بأن قليلين من الناس يُعرضون عن الدنيا ، وينصرفون إلى العزلة والعبادة .

وكلا الفريقين على خطأ ، فالذين أسرفوا في التمتع بالدنيا كان واجباً عليهم أن يقتصدوا ويتعبدوا ، والذين اعتزلوا الحياة باسم التعبد كان واجباً عليهم أن يعمروا الدنيا التي خلقها الله لهم ، وأن يذكروا قول ربهم تبارك وتعالى في سورة القصص : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » .

وهناك صنف نادر ، كالمعدن الكريم العزيز الغالي ، وهو الصنف الذي يحسن أهله العملَ من أجل الحياة الفاضلة العالية القوية ، ويحسنون في الوقت نفسه الطاعة والعبادة والتقرب إلى الله تعالى ، فهم رهبان بالليل وفرسان بالنهار ، وهم الذين يصدق على كل واحد منهم قول القائل :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

* * *

وهذا واحد من هؤلاء :

إنه التابعي العابد ، والزاهد المجاهد ، والشهيد أبو الشهيد : أبو الصهباء صلة بن أشيم العدوي ؛ الذي يقول فيه ابن كثير : « من كبار التابعين من أهل البصرة ، كان ذا فضل وورع وعبادة وزهد »[1] .

ويقول عنه ابن سعد : « كان ثقة ، له فضل وورع »[2] .

وحق له أن يقال فيه ذلك ، فقد كان يكثر من الصلاة حتى يرهق جسمه ، فيأتي من مصلاه إلى فراشه حبواً أو زحفاً . وكان يقوم الليل متهجداً ، متعبداً ، ومع ذلك لا يباهي بعبادته ولا يفاخر ، بل كان يراها قليلة في حق الله جل جلاله ، ولذلك كان يقول عند الصباح : « اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار ، أو مثلي يجترىء أن يسألك الجنة » !

وكان إلى جوار تعبده وتهجده ، يسعى ويعمل ، ويشتغل ويكسب ، ذاكراً ربه خلال سعيه ، ليكون السعي كريماً طهوراً موصولاً ـ برضى الله سبحانه . وكان يقول : ما أدري بأي يومي أنا أشد فرحاً : بيوم أباكر فيه إلى ذكر الله ، أو يوم خرجت فيه لبعض حاجتي ، فعرض لي ذكر الله » . وهذا يذكرنا بقول الله تعالى في سورة الجمعة : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

وكان صلة بن أشيم رضي الله عنه يحرص الحرص كله على أن يجعل كسبه طيباً طاهراً حلالاً ، لا سحت فيه ولا شبهة ، وكان يقنع بالقليل ، لأنه يأكل ليعيش ، ولا يعيش ليأكل ، فكان يقول : « طلبت الدنيا من مظان

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٩ ص ١٥ .
(٢) الطبقات الكبرى ، ج ٧ ص ٩٧ .

حلالها ، فجعلت لا أصيب منها إلاّ قوتاً ، أما أنا فلا أعيل فيها ، وأما القوت فلا يجاوزني ؛ فلما رأيت ذلك قلت : أي نفسي ، جُعل رزقك كفافاً فاربعي . فربعت ولم تكدّ » (١) .

وكان صلة رضي الله عنه نموذجاً للصابرين « الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله ، وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » (٢) . ولذلك كان يرضى بكل ما يأتي به القضاء ، ويستسلم له استسلام الرضى واليقين . ولقد جاءه رجل ينعي إليه أخاه — أخا صلة — فأجابه صلة في هدوء : قد نعي إليّ أخي من قبل .

فعجب الرجل المخبر وقال : ما سبقني إليك أحد ينعاه !

فقال صلة : نعاه الله إلى من قبل ، أليس هو الذي يقول : « إنك ميت وإنهم ميتون » (٣) .

ومع ذلك كان صلة رضي الله عنه قوي الشخصية رائع المنظر مهيب الطلعة ، حاد الملامح نافذ النظرات ، كأن الله جل جلاله قد كساه رداء من الجلال يعلوه ، ولذلك رووا أنه كان يلقى الوحوش في الأدغال فلا يخافها ولا يخشاها ، بل كانت تهابه وتخشاه ، والفضل كله بيد الله .

حتى إن ابن كثير روى عن جعفر بن زيد أن « صلة بن أشيم » كان في

---

(١) مظان : مواضع ومصادر . وقوتا : قدر ما يمسك الرمق من الطعام ، وفي الحديث : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » . وأعيل : افتقر . وكفافا : لا يفضل منه شيء ، فهو بقدر الحاجة اليه . وفاربعي : اقتصري على هذا وارضي به . وتكد : الكد الاستعجال والتعب ، يقال : كد في عمله يكد كدا ، اذا استعجل وتعب .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٥٦ و ١٥٧ .
(٣) سورة الزمر ، الآية ٣٠ .

جهاد ، فدخل غيضة (وهي الشجر الملتف) وأخذ يصلي ، واقترب منه سبع ، فنظر إليه صلة وقال : أيها السبع ، إن كنت أُمرت بشيء فافعل ، وإلاّ فاطلب الرزق من مكان آخر . فولى الأسد ، وإن له لزئيراً تتصدع منه الجبال (١) .

* * *

وعلم صلة أن الزواج سنّة الإسلام ، وأن بناء الأسرة تبعة من تبعات الرجال ، فاستكمل دينه بالزواج ، وأحسن اختيار زوجته على طريقته ، فاختار بنت عمه العابدة الزاهدة الورعة : معاذ بنت عبد الله العدوية ، التي كانت من عابدات أهل البصرة ، والتي لقيت السيدة عائشة رضي الله عنها ، وروت عنها ، والتي توسع الشعراني في الحديث عنها توسعاً واضحاً الله أعلم بحقيقته (٢) .

وتروي سيرته أنه في يوم زواجه جاء ابن أخيه ، وذهب به إلى الحمام ليتطهر ويتطيب ، ثم دخل على عروسه بالليل ، ولكنه لم يقربها ، بل قام يصلي ، وقامت هي من ورائه تصلي أيضاً ، حتى مضى أكثر الليل .

ولما علم ابن أخيه في الصباح بذلك قال له : يا عمي ، أُهديت إليك بنت عمك الليلة ، فقمت تصلي وتركتها ؟

فقال له صلة : يا ابن أخي ، إنك أدخلتني بيتاً أول النهار ذكرتني به النار (يعني الحمام) ، وأدخلتني بيتاً آخر النهار ذكرتني به الجنة (يعني بيت العروس) فلم تزل فكرتي فيهما حتى أصبحت !

* * *

(١) البداية والنهاية ، ج ٩ ص ١٦ .
(٢) الطبقات للشعراني ، ج ١ ص ٥٦ .

لقد كان صلة رضي الله عنه رجلاً موصول الأسباب بالله ، يكاد نور الإيمان يتجسد من حوله ، وكان بسبب ذلك وبغيره رجلاً مجاب الدعوة ؛ ولقد ضاعت له بغلة على ظهرها متاع له ، وهو مال حلال طيب من حقه أن لا يضيع على صاحبه ، فدعا صلة ربه فقال : اللهم إني أسألك أن ترد بغلتي بثقلها (حملها) . وبعد قليل جاءت البغلة بما تحمل حتى وقفت بين يديه .

وأقبل رجل على صلة وقل له : ادع الله لي .

فقال له صلة : رغبك الله فيما يبقى ، وزهدك فيما يفنى ، ورزقك اليقين الذي لا يركن إلاّ إليه ، ولا يعول في الدين إلاّ عليه . فمضى الرجل مسروراً بهذه الدعوات الموجهة إلى الله ، وهو حسن الظن بما يأتيه من فضل الله .

وقال أبو السليل القيسي : أتيت صلة العدوي فقلت له : يا صلة ؛ علمني مما علمك الله .

فقال لي : أنت مثلي أو نحوي يوم أتيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أتعلم منهم .

فقلت : علمني مما علمك الله .

فقال : انتصح القرآن ، وانصح للمسلمين ، وكن في دعاء الله ما استطعت ، ولا تكونن قتيل العصا ، قتيل عمية جاهلية .

وقوله : « ولا تكونن قتيل العصا » أي إياك أن تكون قاتلاً أو مقتولاً في شق عصا المسلمين ، أي تفرقتهم وإحداث الفتنة بينهم . و « عمية الجاهلية » أي الضلالة ، كالقتال في العصبية والأهواء .

وعن فضيل بن زيد [١] : دخل على صلة بن أشيم فقال : إن الشهادة في الناس كثرت ، فإذا شهدت فاشهد شهادة يصدقك الله بها وأولو العلم من الناس ، أشهد أن الله أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد [٢] .

* * *

وكان لصلة بن أشيم العدوي أسلوب جذاب في التربية والتوجيه والنصح ، وهذا الأسلوب يقوم على اللين والتذكير والتعريض ؛ ولقد رأى صلة جمعاً من الشباب يلهون في إسراف ، فقال لهم كأنه يسألهم ويستفهم منهم : أخبروني عن قوم أرادوا سفراً ،فحادوا في النهار عن الطريق وناموا الليل ، فمتى يقطعون سفرهم ؟

وكرر لهم هذا السؤال .

وأدرك بعضهم مراده فقال لزملائه : والله يا قوم إنه لا يعني بهذا غيرنا ، نحن بالنهار نلهو ، وبالليل ننام .

وسارع إلى الإنابة والاستجابة .

وعن ثابت البناني أن صلة كان مع أصحابه ، فمر عليهم فتى يجرّ ذيله خيلاء ، فهم أصحاب صلة بأن يأخذوه بألسنتهم أخذاً شديداً ، فقال لهم صلة : دعوه أكفكم أمره .

---

(١) هو أبو حسان فضيل بن زيد الرقاشي ، يعد في البصريين ، وقد ذكره البخاري في تاريخه ، وخلائق لا يحصون ، وروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مغفل ، وروى عنه عامر الاحول ، وقال عنه يحيى بن معين : هو صدوق بصري ثقة . وكلمة « الرقاشي » بفتح الراء وتخفيف القاف ، نسبة الى رقاش ، وهي قبيلة معروفة من ربيعة (تهذيب الاسماء ، ج ٢ ص ٥١) .
(٢) الطبقات لابن سعد ، ج ٧ ص ٩٧ .

ثم أقبل صلة على الشاب بهدوء ، وقال له في تودد : يا ابن أخي ، لي إليك حاجة .

قال الفتى : وما حاجتك يا عماه ؟

فقال صلة : أحب أن ترفع إزارك .

قال الفتى : نعم ونُعمة عين [1] .

وسارع الفتى برفع إزاره ، فقال صلة لأصحابه : هذا أمثل مما أردتم ، لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم .

* * *

والأهم من هذا وذاك هو أن صلة بن أشيم العدوي — رضي الله عنه — كان مجاهداً فدائياً ، وكان يخرج من خلوة العبادة إلى ساحة الميدان ، فإذا صار في المعركة جعل السيف سواكه ، وجعل الرمح سبحته ، وجعل الجهاد قربته وطاعته .

وها هوذا في إحدى المعارك يتقدم ومعه زميله هشام بن عامر ، ليقوما وحدهما بتمهيد الطريق أمام الجيش . فأتيا بأعمال فدائية بطولية مذهلة للأعداء، حتى قال هؤلاء الأعداء : رجلان من العرب صنعاً بنا هذا ، فكيف لو قاتلونا كلهم ؟ أعطوا المسلمين حاجتهم (أي سلموا لهم ، وانزلوا على حكمهم) .

---

(١) نعمة عين : اي قرة عين . يعني : أقر عيني بطاعتك واتباع أمرك . ونعمة : بضم النون . وفي حديث الحسن : « اذا سمعت قولا حسنا فرويدا بصاحبه ، فان وافق قول عملا فنعم ونعمة عين ، آخه وأودده » أي اذا سمعت رجلا يتكلم في العلم بما تستحسنه ، فهو كالداعي لك الى مودته واخائه ، فلا تعجل حتى تختبر فعله ، فان رأيته حسن العمل فأجبه الى اخائه ومودته ، وقل له : نعم (النهاية في غريب الحديث ، ج ٥ ص ٨٤) .

وثابر صلة على الجهاد ، واستجاب لندائه كلما دعاه الداعي إلى النضال ، وحينما بلغ ابنه مبلغ الرجال صحبه معه في الجهاد .

وأقبلت معركة شرسة حاسمة بين المسلمين وأعدائهم ، وخرج الأب وولده مجاهدين . وقال الوالد لولده في أول المعركة : أي بني ، تقدم فقاتل حتى أحتسبك عند الله .

وسارع الإبن المؤمن بالاستجابة ، فانخرط في سلك المعركة ، وما زال يناضل حتى نال نعمة الشهادة في سبيل ربه ، على مرأى من والده ومشهد .

ثم أقدم الوالد على أثر ولده ، فناضل نضـــال الأبطال حتى نال — هو الآخر — نعمة الشهادة في سبيل الله .

وكأن صلة رضي الله عنه أراد أن يحقق لنفسه نعمتين : نعمة احتسابه لولده عند الله تعالى . ونعمة استشهاده في سبيل ربه . فهو حين أمر ابنه بالتقدم إلى النضال لم يفعل ذلك هواناً لابنه عليه ، ولا كراهية له ، وإنما أراد أن يعلمه موقف البطولة والفداء ، وأن يرشده إلى طريق النعيم في دار البقاء ، وهكذا فليكن توجيه الآباء للأبناء في المجتمع المؤمن الموصول الأسباب بحمى رب الأرض والسماء .

* * *

وجاء عقب ذلك نسوة إلى زوجة صلة ، إلى الزاهدة العابدة : معاذة بنت عبد الله العدوية ، أم الشهيد ، وزوجة الشهيد ، فقالت معاذة للنسوة : إن كنتن جئتن لتهنئتي فمرحباً بكن ، وإن كنتن جئتن لتعزيتي فارجعن .

ورواية الطبقات تقول : مرحباً بكن إن كنتن جئتن تهنئتي ، وإن كنتن

جئتن لغير ذلك فارجعن [1] .

ولقد ذكر ابن كثير أن صلة رضي الله عنه توفي شهيداً مع ابنه الشهيد في غزوة جهة بلاد فارس [2] .

وقال ابن سعد : « وكان صلة قتل شهيداً في بعض المغازي ، في أول إمرة الحجاج بن يوسف على العراق » [3] .

وكانت وفاته سنة سبع وسبعين للهجرة .

ولقد ذكر ابن سعد فيما ذكر عن صلة أن جابراً بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يكون في أمتي رجل يقال له صلة ، يدخل بشفاعته كذا وكذا [4] .

وأقول : إن الله تعالى هو الأعلم بحقيقة ذلك .

رضوان الله تبارك وتعالى على الشهيد والد الشهيد : صلة بن أشيم العدوي .

* * *

أما بعد . . .

فقد يكون من العسير علينا أن نبلغ ما بلغه صلة وأمثاله ، من اجتهاد في الطاعة وصدق في النضال ، ولكن هؤلاء يجب أن يكونوا أمامنا مثلاً علياً في حسن الجمع بين العبادة والعمل والجهاد ، وإذا لم نبلغ مراتبهم فلا أقل من السير على طريقهم ، والتشبه بهم :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبّه بالرجال فلاح !

---

(١) الطبقات لابن سعد ، ج ٧ ص ١٠٠ .
(٢) البداية والنهاية ، ج ٩ ص ١٦ .
(٣) الطبقات لابن سعد ، ج ٧ ص ١٠٠ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

أيمن بن أم أيمن

من الكلمات الحكيمة المأثورة عن أسلافنا في أمثالهم قولهم : « كن عصامياً ولا تكن عظامياً » . أي ابن نفسك بجهدك ، ولا تقتصر على الافتخار بآبائك الذين هلكوا وصاروا عظاماً في التراب .

وهذه كلمة بليغة ، ترشد الإنسان إلى طريق العزة والسيادة ، لأن من اتكل على حسبه ونسبه ، ظل هزيلاً ضعيفاً ، كشجرة اللبلاب التي لا تستطيع الاستقلال بذاتها ، ولا الاعتماد على نفسها ، بل لا بد لها من حامل تستند إليه وتعتمد عليه ، ويوم يتخلى عنها سندها تذبل ثم تزول : ولذا قال أحد الرجال الأبطال من أسلافنا أهل الشمم وطلاّب القيم :

لسنا وإن أحسابنا كرمت يوماً على الآباء نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ، ونفعل مثل ما فعلوا

وهذا هو القرآن الكريم — فوق كل ذلك — يأمر أمره الحكيم ، فيقول : (وقل اعملوا) . وهذا هو الرسول العظيم — عليه الصلاة والتسليم — يردد شعاره القويم ، فيقول : « يا آل محمد ، لا يأتيني الناس بالأعمال ، وتأتوني بالأنساب ، اعملوا فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً » .

ولقد أرتنا مدرسة سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام أن الله أعز بالإسلام قوماً ، وخفض به آخرين ، فكم من فاخرين بأنسابهم وحدها خسف بهم

الإسلام إلى الحضيض ، وكم من معتزين بعزة الله وحده ، بانين لأنفسهم بأيديهم وبفضل الله وحده ، رفعهم الإسلام إلى عليين ، وكأن الواحد من هؤلاء المؤمنين المجاهدين ، الأحرار الأخيار ، كان يقول لنفسه :

هأنذا . . .

إن لي ذاتي وحياتي . . .

وإن لي كياني وبنياني . . .

وفي صدري يقيني وإيماني . . .

وإن من فوقي ربي وخالقي . . .

وهو معيني ورازقي . . .

فلأسع منذ بداية الطريق . . .

هذه قدمي ، فلأحركها في تأييد خير أو مقاومة شر . . .

وهذه يدي ، فلأقم بها عمراناً ، أو فلأحطم بها طغياناً . . .

وهذا سلاحي ، فلأحرس به حقاً ، أو فلأدفع به باطلاً . . .

وهذه حياتي ، فلأعشها كريمة عزيزة ، أو فلأقدمها في ساحة الوفاء والفداء ، لتكون وديعة مصونة عند من لا تضيع لديه الأمانات أو تهون : (فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين) .

* * *

وهذا واحد من هؤلاء :

إنه الصحابي الجليل ، والمناضل المحمود : أيمن بن عبيد بن عمرو بن

بلال الحبشي الخزرجي . وهو ابن الصحابية الجليلة ، المجاهدة المشهورة : أم أيمن حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن ما نسب أيمن وما حسبه ؟

إن أباه رجل غير مشهور ، لا هو في العير ولا في النفير ، كما عير القدماء ، وقد مات هذا الأب وترك ابنه لأمه . وأمه جارية حبشية سوداء .

وهو لا يعتز بحسب ولا نسب ولا نشب ، بل هو يشتهر بأمه أكثر مما يشتهر بأبيه ، فيقال عنه غالباً : « أيمن ابن أم أيمن » . وأمه اشتهرت به أكثر مما اشتهرت باسمها أو باسم أبيها ، فيقال عنها غالباً : « أم أيمن » ، ولا يقال لها : « بركة بنت محصن » إلاّ نادراً ؛ فهو يتعرف بها ، وهي تتعرف به ، وهما لا يستندان إلى اعتزاز بنسب ، ولا اغترار بحسب .

ولكن الله أراد الخير لأيمن ، فكان يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتولى شأن مطهرته ، ويعاطيه حاجته . ولاحظته عين النبوة البصيرة بالرعاية والتأديب والتهذيب ، ولم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينشأ « أيمن » منحرفاً أو معتسفاً أو مدللاً ، بل حرص على أن ينشأ رجلاً عاقلاً فاضلاً ، ومؤمناً تقياً مناضلاً .

ولقد مر النبي على أيمن ذات يوم ومعه فتيان مثله قد حلوا أُزُرهم ، وجعلوها كالسياط ، وأخذوا يتضاربون بها في عنف وقسوة ، فغضب الرسول من ذلك ، وقال مؤنباً ومؤدباً : « لا من الله استحيوا ، ولا من رسوله استتروا » وعلمت أم أيمن بذلك فغضبت ، وجعلت تترضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول له : استغفر لهم يا رسول الله ؛ وبعد جهد وإبطاء استغفر لهم الرسول عليه الصلاة والسلام (١) .

---

(١) النهاية لابن الاثير ، ج ٢ ص ٣٦ .

وكان لهذا التوجيه النبوي أثره البليغ في تربية أيمن ، فبعد أن كان عرضة لاستجابته وساوس الشيطان ، وتضييع وقته في لهو الشباب وعبث الفتيان ، انصرف إلى الدين والجهاد ، وأخذ يعبر عن شجاعته ، ويرضي نزعة بطولته بالنضال في سبيل الله ، فكان من الشجعان الباذلين المضحين ، وختم حياته خاتمة طيبة ، حيث نال نعمة الاستشهاد في غزوة حنين الشديدة العصيبة ، التي كانت في السنة الثامنة للهجرة (١) ، والتي حدث فيها الاضطراب الشديد الأليم بين المؤمنين ، وقال فيها القرآن المجيد في سورة التوبة : (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلن تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) .

وبرغم أن كثيرين فروا من حول الرسول صلوات الله وسلامه عليه لهول الموقف ، وشراسة المعركة ، ودهشة المفاجأة ، ظل أيمن بن عبيد ثابتاً إلى جوار الرسول ، مع قلة قليلة ، حتى ذاق طعم الشهادة في سبيل الله ، عليه رضوان الله .

وفي استشهاد أيمن يقول العباس بن عبد المطلب :

نصرنا رسول الله في الدين سبعة وقد فر من قد فرّ عنه وأقشعوا
وثامننـــا لاقى الحمام بنفسه بما مسّه في الدين لا يتوجع

والسبعة الذين عناهم العباس هم : علي ، والعباس ، والفضل بن عباس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأبو بكر ، وعمر ، رضوان الله عليهم أجمعين . والثامن الذي لاقى الشهادة هو أيمن رضي الله عنه .

* * *

(١) وروى أنها كانت في السنة العاشرة .

وهذه والدته : أم أيمن .

إن اسمها « بركة بنت محصن بن ثعلبة » . يروى أنها كانت سوداء من الحبشة ، وكان يقال لها : « أم الظباء » ، وقد وقعت أسيرة في السبي الذي كان من جيش أبرهة صاحب الفيل ، بعد أن انهزم أبرهة ، فأخذها عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانت عنده وصيفة ، ثم ورثها والد النبي ، ثم ورثها النبي عن أبيه ، ثم حضنت النبي عليه الصلاة والسلام حتى كبر ، فأعتقها النبي حين تزوج خديجة رضي الله عنها ، وأكرمها وأحسن معاملتها ، فكان يقول لها حين يناديها : يا أُمَّه . وكان يقول عنها : « أم أيمن أمي بعد أمي » . وكان إذا نظر إليها فرح وقال : « هذه بقية أهل بيتي »[1] .

وقد زوجها النبي عليه الصلاة والسلام من عبيد بن عمرو ، فولدت له « أيمن » ، ثم مات عبيد ، فقال الرسول : « من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن » . فسارع زيد بن حارثة حبيب رسول الله إلى زواجها ، فولدت له أسامة بن زيد حبيب رسول الله كذلك .

ولكن ، لماذا أخبر الرسول بأن أم أيمن من أهل الجنة ؟

لأنها — والله أعلم بمراد رسوله — أسلمت قديماً في أول الإسلام ، وهاجرت إلى الحبشة ، ثم هاجرت إلى المدينة ، فهي صاحبة الهجرتين ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] ، وأخلصت في خدمته وطاعته ، وحينما اقتضت ظروف الجهاد أن تشترك فيه المرأة المسلمة سارعت أم أيمن إلى أداء واجبها

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٨ ص ١٦٢ .
(٢) انظر كتابي « الفداء في الاسلام » ص ٢٠٧ .

في الميدان ، فخرجت مجاهدة في غزوة أُحد ، وكانت تسقي الماء وتداوي الجرحى ، كما اشتركت في غزوة خيبر مع رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وتروي السيرة من إكرام الله جل جلاله لأم أيمن رضي الله عنها ، أنها عطشت عطشاً شديداً حين هاجرت ، لأنها هاجرت في يوم شديد الحر ، فدلى الله إليها دلواً من السماء ، فشربت حتى أراحت (١) .

ويورد ابن سعد هذا الخبر نقلاً عن عثمان بن القاسم بالعبارة التالية :

لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء ، فعطشت وليس معها ماء ، وهي صائمة ، فجهدها العطش ، فدُلّي عليها من السماء دلو من ماء ، برشاء أبيض ، فأخذته فشربت منه حتى رويت ، فكانت تقول : ما أصابني بعد ذلك عطش ، ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشت بعد تلك الشربة ، وإن كنت لأصوم في اليوم الحار فما أعطش (٢) .

وتروي السيرة العاطرة أيضاً أنه حينما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بكت أم أيمن ، فقيل لها : لمَ تبكين ؟

فقالت : أبكي على خبر السماء !

وفي رواية أنها قالت : إي والله ، لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيموت ، ولكني إنما أبكي على الوحي إذا انقطع عنا من السماء !

وفي رواية أنها بكت عقب وفاة الرسول ، فقيل لها : ما يبكيك ؟ قد أكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم فأدخله جنته ، وأراحه من نصب الدنيا .

---

(١) النهاية لابن الاثير ، ج ٢ ص ٢٧٤ .
(٢) الطبقات لابن سعد ، ج ٨ ص ١٦٢ .

فقالت : إنما أبكي على خبر السماء ، كان يأتينا غضاً جديداً كل يوم وليلة ، فقد انقطع ورفع ، فعليه أبكي [1] .

ويروى أن أبا بكر وعمر — رضوان الله عليهما — كانا يزوران أم أيمن بعد وفاة الرسول ، فبكت ، فقالا لها : أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقالت : بلى ، ولكني أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء .

فجعلا يبكيان معها .

ولعل بكاءها قد تكرر ، وتكرر سؤال الناس لها عنه، فتكررت إجابتها لهم.

ولذلك لم يكن عجيباً أن نجد أم أيمن ينطلق لسانها الحزين بالرثاء للرسول فتقول :

عين جودي ، فإن بذلك للدمـ ـع شفاء ، فأكثري م البكاء [2]
حين قالوا : الرسول أمسى فقيداً ميتاً ، كان ذاك كل البلاء
وأبكيا خير من رزئناه في الدنـ ـيا ، ومن خصه بوحي السماء
بدموع غزيرة منك ، حتى يقضي الله فيك خير القضاء
فلقد كان ما علمت وصولاً ولقد جاء رحمة بالضياء
ولقد كان بعد ذلك نوراً وسراجاً يضيء في الظلماء
طيب العود والغريبة والمعـ ـدن والخيم ، خاتم الأنبياء [3]

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٤ ص ٤٥٦ .
(٢) أصلها : من البكاء فحذفت النون من لفظة « من » .
(٣) الطبقات لابن سعد ، ج ٢ ص ٩٨ .

وتوفيت أم أيمن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر(١) .

ويروي التاريخ فيما يروي أن ابن أبي الفرات خاصم الحسن بن أسامة بن زيد ، فقال له : يا ابن بركة (يريد أم أيمن) لأن الحسن حفيدها ، فشكا الحسن ذلك إلى قاضي المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم . فقال أبو بكر لابن أبي الفرات : ما أردت إلى قولك : يا ابن بركة ؟ فقال : سميتها باسمها . فقال له : إنما أردت بهذا التصغير بها ، وحالها من الإسلام حالها ، ورسول الله يقول لها : يا أمه ، ويا أم أيمن ، لا أقالني الله إن أقلتك . وضربه سبعين سوطاً(٢) .

سلام على أم أيمن التقية النقية ، وسلام على أيمن المجاهد الشهيد .

---

(١) وقيل انها بقيت بعد مقتل عمر ، وماتت في أول خلافة عثمان (السيرة النبوية لابن كثير ج ٤ ص ٦٤٢) .
(٢) الطبقات لابن سعد ، ج ٨ ص ١٦٤ .

الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي

صدق الله العلي العظيم إذ قال : « إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ». فكم من أناس ضلوا عن سواء السبيل ، وأوغلوا في الشر إيغالاً بعيداً ، ثم أقاموا لأنفسهم ، فاستيقظت ضمائرهم في صدورهم ، وتنبهت عوامل الخير في مشاعرهم ، فوقفوا وقفة الحزم والعزم ؛ يغربلون الماضي ، ويستعرضون الحاضر ، ويهيئون للمستقبل ، فأدركتهم عناية الله جل جلاله ، فإذا هم على الصراط المستقيم بعد طول ضلال ،وإذا هم من أهل الفوز والفلاح . بعد أن كانوا من أهل الخسار والوبال .

ولقد شهدنا في صدر الإسلام أناساً لج بهم العناد حيناً قصيراً أو طويلاً من الزمن ، ثم فاءوا وعادوا إلى رحاب ربهم تائبين ، ماسحين بيد الصلاح والإصلاح على ما خلفه عهد الضلال من عيوب أو جراح ؛ والحلو يأتي على المر فيمحوه كما يقول الناس .

وما أسعد الإنسان حين تتهيأ له الفرصة فينتهزها قبل أن تصير غصة ، ليصلح فيها ما فسد ، ويسترد منها ما شرد ، ويستقيم عندها على الطريق إلى الأبد ، مجاهداً في الله حق الجهاد ، معرضاً نفسه لمواطن التضحية والاستشهاد ، مستمسكاً بقيم الوفاء والفداء ، غير مبال بحياته أو موته : « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير » .

وما أروع النداء الإلهي المحرض على المبادرة إلى الإنابة ، إذ يقول :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

* * *

من هؤلاء التائبين المنيبين : الصحابي الجليل ، والمجاهد الشهيد ، والجابر لتقصيره بصدق وفائه وروعة فدائه : أبو عبد الرحمن الحارث بن هشام ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر المخزومي ، وأمه هي أم الجلاس أسماء بنت مخربة بن جندل التميمية . وهو الذي انتهت إليه سيادة بني مخزوم ، وكان شريفاً مذكوراً في الجاهلية والإسلام (١) ، وكان يضرب به المثل في السؤدد والكرم ، ولذلك يقول الشاعر (٢) :

أظننت أن أباك — حين تسبني ... في المجد كان الحارث بن هشام ؟
أولى قريش بالمكارم والندى ... في الجاهلية كان والإسلام

وزوجة الحارث هي فاطمة بنت الوليد بن المغيرة (أُخت خالد بن الوليد) وقد ولدت له ابنه عبد الرحمن ، وبنته أم حكيم ، ولم يبق بعد الحارث من ولده سواها ، وكان المثل يضرب ببنات الحارث بن هشام في الحسن والشرف وغلاء المهر .

وهو ابن عم البطل الإسلامي الكبير خالد بن الوليد رضي الله عنه وابن عم حنتمة أم عمر بن الخطاب (٣) رضي الله عنه ، ومن عجيب صنع القدر

---

(١) الاصابة ، ج ١ ص ٢٩٣ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) في القاموس : هي بنت ذي الرمحين أم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وليست بأخت أبي جهل كما وهموا بل بنت عمه .

أنه أيضاً شقيق أبي جهل بن هشام عليه لعنة الله . ويا عجباً كل العجب لتفرق الطرق وتشعب المسالك ، وبعد الفرق بين هذا وذاك فأبو جهل — لعنه الله — مات ميتة الكلب في غزوة بدر كافراً ذليلاً ، والحارث أخوه مات في سبيل الله شهيداً جليلاً ، حتى صدق فيهما قول من قال :

أبوك أبي ، والجد لا شك واحد ... ولكننا عودان : آس وخروع [1]

وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ولقد تأخر إسلام الحارث حيناً من الزمان ، فاشترك في غزوتي بدر وأحد كافراً ، وقد انهزم في غزوة بدر وفر منها ، فعيروه بذلك ، وقال حسان ابن ثابت :

إن كنت كاذبة بما حدثتني ... فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة [2] ولجام

فاعتذر الحارث عن ذلك فقال :

الله يعلم ما تركت قتالهم ... حتى علوا فرسي بأشقر مزبد [3]
وشممت ريح الموت من تلقائهم ... في مأزق والخيل لم تتبدد [4]
وعلمت أني إن أقاتل واحداً [5] ... أُقتل ولا يضرر عدوي مشهدي

---

(١) الآسى : الريحان .
(٢) الطمرة : الفرس المستوفز للوثب .
(٣) يقصد بالاشقر الدم ، والمزبد : الذي يعلوه الزبد .
(٤) من تلقائهم : من لقائهم او من نحوهم .
(٥) واحدا : منفردا .

فصددت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد [1]

وقد قال الأصمعي عن هذه الأبيات : إنه لم يسمع بأحسن منها في الاعتذار عن الفرار ، وعلق عليها بعض الناس فقال : يا معشر العرب ، حسنتم كل شيء ، حتى حسنتم الفرار [2] .

ويروى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ذكر الحارث بن هشام ، وما كان من كرمه في الجاهلية ، وقراه الضيف وإطعامه الطعام ، فقال : « إن الحارث لسري (أي شريف صاحب مروءة) ، وإن كان أبوه لسريا ، ولوددت أن الله هداه للإسلام »[3] .

ومع أن الحارث كان يتقلب في وجوه من النعم ، وفنون من لذة العيش ، ويذكر ذلك ويتغنى به ، حتى يقول فيما يقول :

من كان يسأل عنا : أين منزلنا ؟ فالأقحوانـــة منّا منزل قمن
إذ نلبس العيش صفواً لا يكدره طعن الوشاة ، ولا ينبو به الزمن[4]

مع هذا : استجاب الحق جل جلاله لرجاء رسوله صلى الله عليه وسلم فأسلم الحارث يوم فتح مكة ، وكان قد استجار يومئذ بأم هانىء بنت عبد المطلب ، وبنت عم سيد الخلق رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وأراد أخوها

---

(١) مرصد : أي لطمعي في أن يعقب الله لي يوما يرصد الشر لهم ، ويمكنني منهم فأنتهز الفرصة ، وروي : سرمد ، أي طويل يمتد بلاؤه .
(٢) انظر شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج ١ ص ١٨٣ . والاصابة ج ١ ص ٢٩٣ . والاستيعاب على الاصابة ، ج ١ ص ٣٠٨ .
(٣) الاستيعاب على الاصابة ، ج ١ ص ٣٠٩ .
(٤) الاقحوانة : موضع قرب مكة ، وقمن : خليق وجدير .

الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه أن يقتل الحارث ، فشكت أم هانىء ذلك إلى النبي ، فقال لها : قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء !

وكانت أم هانىء تحت هبيرة بن أبي وهب المخزومي ، فلما كان يوم الفتح دخل عليها حَموان لها : عبد الله بن أبي ربيعة ، والحارث بن هشام المخزوميان ، فاستجارا بها وقالا لها : نحن في جوارك .

فقالت : نعم أنتما في جواري .

وبينما كانا عندها دخل عليهم فارس مدجج في الحديد وهي لا تعرفه ، ثم أسفر عن وجهه ، فإذا هو أخوها علي ، وحين نظر إليهما شهر السيف عليهما ، فحالت دونهما ، وألقت عليهما ثوباً ، وقالت لأخيها : أخي ، من بين الناس تصنع بي هذا ؟

فقال : أتجيرين المشركين ؟

وهم بهما مرة أُخرى ، فحالت دونهما قائلة : لا والله ، وابتدىء بي قبلهما .

فخرج علي ، وهنا أغلقت أم هانىء عليهما بيتاً وقالت لهما : لا تخافا .

وذهبت إلى خباء رسول الله صلى الله عليه وسلم في البطحاء ، فلم تجده ، ووجدت فاطمة ، فقالت لها :

ما لقيت من ابن أمي علي ، أجرت حموين لي من المشركين ، ففلت عليهما ليقتلهما .

وكانت فاطمة أشد على أم هانىء فقالت : لم تجيرين المشركين ؟.

وهنا طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه الغبار ، فلما رأى أم هانىء قال لها :

مرحباً بفاختة — وهو اسم أم هانىء —

فقالت : ماذا لقيت من ابن أمي علي؟ ما كدت أفلت منه ، أجرت حموين لي من المشركين ، فتفلت عليهما ليقتلهما .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كان ذلك له ، قد أجرنا من أجرت ، وأمنا من أمنت .

وأعلن الرسول ذلك بين الناس قائلاً عنهما : لا سبيل إليهما ، قد أجرناهما (١) .

* * *

وبهذا التحول الأساسي الخطير في مسيرة الحارث بن هشام تغيرت حياته تغيراً كلياً : كان كافراً فأصبح بنعمة الله مسلماً ، وكان رجل دنيا ومتاع ، فأصبح بتوفيق الله رجل جهاد ونضال ، وكان رجلاً يجود بماله وطعامه ، طلباً للفخر أو حسن السمعة ، فأصبح يجود بحياته وقلبه في سبيل ربه ، إيثاراً لما عند الله على ما عند الناس ، وما عند الله خير للأبرار .

وأخذ الحارث يشهد الغزوات ، ويقدم التضحيات ، وهو يردد شعاره الدال على يقينه بالبعث ، وحبه للقاء الله ، واستخفافه بالحياة ، فهو يقول كلما حمل على أعدائه في الميدان :

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ٥ ص ١٩٦ . طبعة بيروت .

إني بربي والنبي مؤمـــن والبعث من بعد الممات موقن
أقبح بشخص للحياة موطن

فهو مؤمن قوي الإيمان بالله تبارك وتعالى ، وبما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وهو موقن وطيد اليقين بالبعث بعد الموت وبلقائه ربه عزّ وجل ، لينال منه ثواب ما قدم وادخر ، وهو يرى أن الشخص يكون غير محمود إذا كان كل همه أن تطول حياته ، أو تمتد أعوامه في هذه الدنيا .

* * *

ولحق الرسول صلى الله عليه وسلم بربه عز شأنه ، وكان الحارث حينئذ مقيماً بمكة لبعض ظروف حياته ، وبعد قليل من ولاية أبي بكر أرسل الخليفة كتاباً إلى أهل مكة يستنفرهم إلى غزو الروم ، فاستجاب الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل (١) لنداء الخليفة ، وسارعوا إلى المدينة ، فتلقاهم أبو بكر وسلم عليهم ورحب بهم وحمد لهم استجابتهم ، ثم خرج الحارث إلى الجهاد في أرض الشام ، فشهد غزوة فِحْل وغزوة أجنادين وغيرهما (٢) .

واستقام الحارث على الصراط ، وكأنه لم يكن ذلك المشرك في ماضيه ، الذي عاند الإسلام حيناً من الزمان . وقد أكد التاريخ هذا المعنى ، فنجد الإمام ابن عبد البر يقول عنه : « ثم أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه ، وكان

---

(١) ويا عجبا كل العجب . ما أوسع الفرق بين الولد والوالد . لقد مات أبو جهل كما عرفنا ميتة الكلب يوم بدر ، ومات ابنه عكرمة يوم اليرموك مجاهدا شهيدا .

(٢) الطبقات لابن سعد ، ج ٧ ص ١٢٦ القسم الثاني ، و ج ٥ ص ٣٢٩ . وفحل ـ بكسر فسكون ـ موضع بالشام وكذلك أجنادين .

من فضلاء الصحابة وخيارهم ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، وممن حسن إسلامه منهم »[1] . ويعود ليقول : « وأسلم الحارث فلم ير منه في إسلامه شيء يكره »[2] .

ويقول أيضاً في موطن آخر : « وسائر المؤلفة قلوبهم منهم الخيّر الفاضل المجمع على خيره ، كالحارث بن هشام ، وحكيم بن حزام ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ؛ ومنهم دون هؤلاء ، وقد فضل الله النبيين وسائر عباده المؤمنين بعضهم على بعض وهو أعلم بهم »[3] .

ويقول ابن حجر : « أسلم يوم فتح مكة ، ثم حسن إسلامه »[4] .

* * *

ومضى أبو بكر رضي الله عنه إلى ربه ، وجاء عمر رضي الله عنه ، وهنا عزم الحارث بن هشام على أن يخرج من بيته مجاهداً في سبيل ربه ، فلا يعود إلى مكة موطنه ، حتى يموت أو ينال الشهادة ، وعلم أهل مكة بنيته الصارمة الحازمة ، فحزنوا لفراقه ، وخرجوا يودعونه في أسى ، فلما كان بأعلى البطحاء وقف بينهم وقال لهم :

« يا أيها الناس ، والله ما خرجت رغبة بنفسي عن أنفسكم ، ولا اختيار بلد على بلدكم ، ولكن كان هذا الأمر (يعني الإسلام والجهاد) فخرجت رجال والله ما كانوا من ذوي أسنانها ولا في بيوتاتها ، فأصبحنا والله ولو أن جبال مكة كانت ذهباً ، فأنفقناها في سبيل الله ، ما أدركنا يوماً من أيامهم ؛

---

(١) الاستيعاب على الاصابة ، ج ١ ص ٣٠٨ .
(٢) المرجع السابق ، ج ١ ص ٣٠٩ .
(٣) الدرر في اختصار المغازي والسير ، ص ٢٥٢ .
(٤) الاصابة ، ج ١ ص ٢٩٣ .

والله لئن فاتونا في الدنيا ، لنلتمسن أن نشاركهم به في الآخرة . أما لو أنا نستبدل داراً بدارنا ، أو جاراً بجارنا ، ما أردنا بكم بدلاً ، ولكنها النقلة إلى الله تعالى [1] » .

ويروي التاريخ أنه خرج يومئذ لله في سبعين من أهل بيته ، وظلوا في الجهاد إلى آخر حياتهم لم يرجع منهم إلا أربعة [2] .

ودارت الأيام والأعوام ، والصحابي الجليل الحارث بن هشام يحاول بكل ما استطاع من كفاح ونضال أن يجبر تقصيره ، وأن يعوض ما فاته من العمل لوجه الله ، حتى أقبل العام الثامن عشر بعد الهجرة ، وجاءت غزوة اليرموك المشهورة [3] ، وسارع إليها الحارث مع من سارع من خيار المجاهدين.

وفي فاتحة المعركة وقف عكرمة بن أبي جهل يقول :

من يبايع على الموت ؟

فسارع إليه الحارث بن هشام قائلاً : أنا ! . .

ثم يتبعه ضرار بن الأزور . . .

ثم يتبعهما أربعمائة من وجوه القوم ورؤسائهم ، كلهم بايعوا على الموت في سبيل الله ، وقرنوا القول بالعمل ، فأخذوا يقاتلون بقيادة البطل العظيم خالد ، حتى استأثرت الشهادة بأكثرهم [4] ، بعد أن حققوا لأمتهم نصرها ،

---

(١) أسد الغابة ، ج ١ ص ٤١٨ طبعة التعاون .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٤ ص ٦٥ طبعة دار المعارف .
(٣) اقرأ تفاصيل قصتها في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ص ٢٥٩ – ٢٦٧ .
(٤) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٤٠١ .

ولدعوتهم خيرها ، ومضوا إلى ربهم أمثلة خالدة لأهل الوفاء والفداء .

ويذكر التاريخ أن الحارث وعكرمة وعياش بن أبي ربيعة جرحوا جراحة الموت يوم اليرموك ، وأحس الحارث بالعطش ، فدعا بماء ليشربه ، فنظر عكرمة إلى الماء ، فقال الحارث : ادفعه إلى عكرمة ، فلما أخذه عكرمة نظر إلى عياش ، فقال عكرمة : ادفعه إلى عياش ، فما وصل إلى عياش حتى مات ، ولا وصل إلى واحد منهم حتى ماتوا [1] .

* * *

واقد كان الحارث بن هشام بجوار بطولته الرائعة في النضال ، رجلاً يحرص على التفقه في دينه ، والبحث عن العلم والمعرفة ، وها نحن أولاء نراه على سبيل المثال يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول له : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟

ويجيبه الرسول قائلاً : أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال : وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً ؛ فيكلمني فأعي ما يقول [2] .

ونراه أيضاً يسأل الرسول عليه الصلاة والسلام قائلاً :

يا رسول الله أخبرني بأمر أعتصم به .

فقال له النبي : أمسك عليك هذا . (وأشار إلى لسانه) .

وبعد ذلك أخبرنا الحارث فقال : « فرأيت ذلك يسيراً ، وكنت رجلاً قليل الكلام ، ولم أفطن له ، فلما رمته فإذا هو لا شيء أشد منه » !

---

(١) أسد الغابة ، ج ١ ص ٤١٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

هذا ، ولقد اختلف المؤرخون في تحديد وفاة المجاهد الشهيد : الحارث ابن هشام ، فأكثرهم قرروا أنه نال الشهادة في غزوة اليرموك .

ففي « أسد الغابة » أن الحارث خرج في عهد عمر إلى الشام مجاهداً بأهله وماله ، فلم يزل يجاهد حتى استشهد يوم اليرموك .

وفي « البداية والنهاية » أنه استشهد بالشام في السنة الثامنة عشرة .

وفي « تاريخ الطبري » أنه خرج بأهله إلى الشام ، فلم يزل مجاهداً حتى أصيب في بعض تلك الدروب .

وهذا هو المشهور والراجح الذي نميل إليه .

وذكر بعض المؤرخين أنه مات في طاعون عمواس في السنة الثامنة عشرة ، ولكنهم ذكروا هذا بعبارة :

« وقيل » ، واقتصر ابن سعد في الطبقات على ذكره (١) .

* * *

أما بعد ، فليتنا لا ننسى أبداً قول الحارث : « ولكنها النقلة إلى الله تعالى » . فهذه « النقلة » واجب كل مسلم ، في كل وقت من مراحل حياته . لا بد للمسلم من النقلة إلى الله تعالى بتصحيح الاعتقاد ، ولا بد له من النقلة إلى الله تعالى بالإعداد وحسن الاستعداد ، ولا بد له من النقلة إلى الله تعالى بالإخلاص في خدمة البلاد ، ولا بد له من النقلة إلى الله تعالى بطيب المعاملة للعباد ، ولا بد له من النقلة إلى الله تعالى بالجهاد ، ولا بد له من النقلة إلى الله تعالى بالموت أو الاستشهاد ، ولا بد للنقلة إلى الله تعالى من زاد وعتاد : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقوني يا أولي الألباب » .

---

(١) راجع أسد الغابة ج ١ ص ٤١٧ والبداية والنهاية ، ج ٧ ص ٩٣ . والعبر للذهبي ، ج ١ ص ٢٢ . وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٦١٣ . والطبقات لابن سعد ج ٥ ص ٣٢٩ . و ج ٧ ص ١٢٦ القسم الثاني .

اسامة بن زيد بن حارثة

إن شعار الأمة المؤمنة هو صدق الاعتقاد ، ودوام الاتحاد ، واتصال الجهاد ، حتى النصر أو الاستشهاد ، فهذه الأمة الراشدة الماجدة ، المهتدية بهدي ربها وكتابها ، السائرة على طريق نبيها ، تعرف منهجها ، وتوطد دعائم علمها وإيمانها ، وتستجيب بهدي قرآنها : « قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ، ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

وهي تحرص على اجتماعها ووحدتها ، لأن خالقها جل جلاله جعل أفرادها أبناء أسرة واحدة : « إنما المؤمنون إخوة » ، وطالبهم بألاّ يعرفوا طريق التفرق أو التمزق : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

ثم فرض عليهم الجهاد الخالص المخلص إلى يوم لقائه ، كلما دعا إليه داع أو اقتضاه موجب : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .

وعلمهم أن صدق الجهاد يؤدي إلى إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

ولقد ضرب المسلمون الأوائل أروع الأمثال في صدق الإيمان ، وعمق العلم ، وصفاء الأخوة ، وسمو الجهاد ، والاستمساك بمبادىء الوفاء والفداء ، حتى صنعوا — بفضل الله أولاً ، ثم بإخلاصهم وطهارة نفوسهم — نموذجاً

للأمة العاقلة الفاضلة المناضلة : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

* * *

وهذا واحد من هؤلاء المحقين الصادقين ، المجاهدين لعزة الإسلام ووحدة المؤمنين ، الذين جعلوا شعارهم قول ربهم : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » .

إنه الصحابي الجليل ، والمجاهد القائد الشاب ، الناشيء في طاعة الله وطاعة رسوله ، والعمل لخدمة الإسلام ورفعة المسلمين : أبو محمد (١) أسامة ابن زيد بن حارثة بن شراحبيل بن كعب الهاشمي ، الذي ولد بمكة ، ونشأ على الإسلام ، لأن أباه كان من أوائل الناس إسلاماً (٢) ، فشب أسامة حتى أدرك ، ولم يعرف إلاّ الإسلام لله تعالى ، ولم يدن بغيره (٣) :

وعاش في أسرة مؤمنة مجاهدة مضحية ، فأبوه زيد بن حارثة مات مجاهداً شهيداً في غزوة « مؤتة » ، وأخوه لأمه أيمن بن عبيد مات مجاهداً شهيداً في غزوة حنين ، وأمه هي أم أيمن حاضنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهي من السابقات إلى الإسلام ، ومن أهل الهجرتين ، وهي التي اشتركت في أكثر من غزوة كأحد وخيبر ، وهي التي كان يقول الرسول عنها : « أم أيمن أمي بعد أمي » . ويقول عنها : « هذه بقية أهل بيتي » !

---

(١) قيل : أبو محمد ، وقيل : أبو زيد ، وقيل : أبو حارثة ، وقيل : أبو يزيد ، وقيل : أبو خارجة . انظر التحفة اللطيفة ج ١ ص ٢٧١ وتهذيب الاسماء ج ١ ص ١١٣ .

(٢) انظر تفصيل بطولته في كتابي « الفداء في الاسلام » ص ١١٤ — ١٢١ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ٤٢ .

ولذلك ولغيره كان أسامة حبيباً لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وكان يقال له: « الحب بن الحب » والحب – بكسر الحاء – معناها الحبيب ، وذلك لأن أسامة كان محبوباً عند الرسول كما كان أبوه رضي الله عنهما . ولقد جاء في السيرة أن النبي كان يحب أسامة حباً شديداً ، وكان عنده كبعض أهله (١) ، وكان يجعله رديفه في الركوب – أي يركبه خلفه – في كثير من الأحيان .

وكان ينظر إلى أسامة كما ينظر إلى سبطيه وريحانتيه من الدنيا : الحسن والحسين ، رضوان الله على الجميع ، ولقد روى أسامة فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني والحسن بن علي ثم يقول : « اللهم أحبّهما فإني أحبهما » . وفي رواية أن النبي كان يقعد أسامة على فخذه مع الحسين ويقول : « اللهم إني أرحمهما فارحمهما » . وقال الرسول عن أسامة : « من كان يحب الله ورسوله فليحب أسامة » (١) .

بل والأعجب من هذا أن الترمذي روى بسند صحيح عن أسامة قال : كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ جاء علي والعباس يستأذنان ، فقلت : يا رسول الله ، علي والعباس يستأذنان . فقال : أتدري ما جاء بهما ؟ قلت : لا أدري . فقال : لكني أدري .

فأذن لهما فدخلا ، فقالا : يا رسول الله ، جئنا نسألك أي أهلك أحب إليك ؟ قال : فاطمة بنت محمد . فقالا : ما جئنا نسألك عن أهلك . قال : أحب أهلي إلي من قد أنعم الله عليه وأنعمت عليه أسامة بن زيد . قالا : ثم من ؟

---

(١) الطبقات ، ج ٤ ص ٤٢ .
(٢) روى ذلك السخاوي في التحفة ج ١ ص ٢٧١ وذكر انها رواية صحيحة غريبة .

قال : ثم علي بن أبي طالب قال العباس : يا رسول الله ، جعلت عمك آخرهم ؟
قال : لأن علياً قد سبقك بالهجرة [1] .

أي : أن أحب أهلي إلي بعد فاطمة هو من قد أنعم الله عليه بالإسلام وأنعمتُ عليه بالعتق — وهو أسامة — نظراً إلى أبيه زيد بن حارثة حيث كان مملوكاً للسيدة خديجة ، فوهبته للنبي صلى الله عليه وسلم فأعتقه .

وأسامة هذا كان أفطس الأنف أسود اللون كأنه الليل كما يعبر التاريخ ، ولكنه كسب هذه المكانة بطهارته وصفائه ، وصدقه ووفائه ، ونضاله وفدائه ؛ فقد آثر الإسلام واهتدى بهديه ، وهاجر مع النبي ، واحتمل في سبيل الله ما احتمل ، وتفقه في دينه ، وروى مائة وثمانية وعشرين حديثاً ، وكان يتطوع بالقربات والنوافل ، حتى إنه حرص خلال حياته على صوم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع ، حتى بعد أن تقدمت به السن ، اقتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام .

وعرف أسامة طريق النضال من أجل الإسلام وهو ما زال يافعاً ، وكان لا يفخر بمال أو نسب ، بل كان يعتز كل الاعتزاز برضى الرسول عنه وحبه له ، لأن حب الرسول دليل على حب الله ، ولذلك جعل أسامة نقش خاتمه هكذا : « أسامة حب رسول الله » .

وكان الرسول يكلف أسامة من حين إلى حين بشؤون تتصل بأهله، فنحن نراه صلى الله عليه وسلم يستخلف أسامة مع عثمان بن عفان رضوان الله عليهما ، ليقوما على تمريض « رقية » بنت الرسول وزوجة عثمان ، وقد

---

(١) التاج الجامع للاصول ، ج ٣ ص ٣٨٠ .

ماتت رقية والمسلمون يجاهدون في غزوة بدر ، فاشترك أسامة وعثمان وغيرهما في تجهيزها ودفنها [1] .

وكان أسامة رجلاً عفّ اللسان طيب القول . ولعل من شواهد ذلك أنه لما حدثت فتنة الإفك حول السيدة عائشة رضي الله عنها ، سأل النبي أسامة عن رأيه ومشورته ، فأثنى أسامة خيراً وقال خيراً . ثم قال : يا رسول الله ، أهلك ، ولا نعلم عليهن إلاّ خيراً [2] .

ولقد اشترك أسامة في سرية فدائية في السنة السابعة من الهجرة وهو دون العشرين بسنوات ، كما يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما علم بأن خالد بن الوليد أخذ الراية يوم غزوة « مؤتة » قال : فهلا إلى رجل قُتل أبوه ؟ يعني أسامة [3] . ويستفاد من هذا الخبر أن أسامة كان ممن جاهد في غزوة مؤتة ، كما كان النبي يراه أهلاً للقيادة يومئذ .

وكان أسامة ممن ثبت إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين ، بعد أن وقع الاضطراب الأليم الذي وقع فيها [4] .

* * *

ولم يكن حب الرسول لأسامة إلاّ لله وفي الله ، وعلى صراط الخضوع الكامل والخشوع الشامل أمام أمر الله ونهيه ، ومما يدل على ذلك أن القوم أرادوا من أسامة أن يشفع عند النبي في أمر المرأة المخزومية التي سرقت ، حتى

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٢ ص ٤٥٨ .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٢ ص ٦١٥ .
(٣) الطبقات ، ج ٤ ص ٤٣ .
(٤) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٧٤ .

لا يقيم عليها الحد ، واستجاب أسامة لرجائهم ، وشفع لها عند النبي ، وهنا لم يذكر الرسول شيئاً سوى أمر الله وحقه ، لأن حق الله فوق كل حق ، فقال لأسامة غاضباً أو عاتباً :

« أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟ إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » !

وكذلك يروى أن الرسول بعث أسامة على جيش ذات مرة ، وكانت أول تجربة لأسامة في القتال ؛ فقاتل أسامة ببأس وشجاعة .

يقول أسامة عن ذلك البعث : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم وقد أتاه البشر بالفتح ، فإذا هو متهلل وجهه ، فأدناني منه ثم قال : حدثني . فجعلت أحدثه فقلت : فلما انهزم القوم أدركت رجلاً ، وأهويت إليه بالرمح ، فقال : لا إله إلا الله ، فطعنته فقتلته .

فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : ويحك يا أسامة ، فكيف لك بلا إله إلا الله ؟ ويحك يا أسامة ، فكيف لك بلا إله إلا الله ؟

فلم يزل يرددها علي حتى لوددت أني انسلخت من كل عمل عملته ، واستقبلت الإسلام يومئذ جديداً ، فلا والله لا أقاتل أحداً قال لا إله إلا الله ، بعدما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

* * *

(١) الطبقات ، ج ٤ ص ٤٨ . ولذلك اعتزل أسامة فتنة الصراع بين علي ومعاوية .

ومن الدروس الموجهة المرشدة أننا نرى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه – قبيل وفاته بقليل – يعين أسامة قائداً على جيش المسلمين المتهيىء للذهاب إلى غزو الروم ، وكان أسامة حينئذ دون العشرين من عمره [1] ، وكان في هذا الجيش أمثال أبي بكر وعمرو أبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وقتادة ابن النعمان ، وغيرهم من كبار الصحابة ، ولكن الرسول المعلم أراد بذلك أن يدرب الشباب على القيادة أولاً ، وأن يمجد ذكرى والد أسامة المجاهد الشهيد ثانياً ، وأن يعلم الأمة أن القائد إنما هو رمز ، فإذا أصبح في موطن القيادة وجب على الجميع أن يسمعوا له ويطيعوا ، وأن يكونوا معه ومن ورائه يداً واحدة ووجهة واحدة وقلباً واحداً ، وبذلك تتعود الأمة الاجتماع على لواء الوحدة والتآلف .

ولقد حلا لبعض ضعاف الإيمان والنفوس أن يعلقوا على تأمير أسامة بما يفيد الانتقاد لصغر سنه ، وبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الناس قد طعنوا في إمارة أسامة بن زيد ، وقد كانوا طعنوا في إمارة أبيه من قبله ، وإنهما لخليقان لها – أو كانا خليقين لذلك – فإنه لمن أحب الناس إلي ، وكان أبوه من أحب الناس إليّ إلاّ فاطمة ، فأوصيكم بأسامة خيراً » .

وهناك رواية أخرى تقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر رجلاً أعلمه وندب الناس معه ، فلما عين أسامة أمر أن يخرج معه سروات الناس وخيارهم ، فلما طعن في إمارته من طعن ، خطب النبي فقال : إن

---

(1) توفي النبي ولأسامة عشرون سنة ، او تسع عشرة ، او ثماني عشرة (تهذيب الاسماء ج ١ ص ١١٥) .

ناساً طعنوا في تأمير أسامة ، كما طعنوا في تأميري أباه ، وإنه لخليق للإمارة ، وإن كان لأحب الناس إليّ من بعد أبيه ، وإني لأرجو أن يكون من صالحيكم ، فاستوصوا به خيراً (١) .

ولكن الرسول أصابه المرض فشغل ذلك الناس ، وجعل النبي يقول : « أنفذوا جيش أسامة » فتجهز الناس ، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون (٢) أي جمعوا ما استطاعوا من العدد والعدة .

واشتد المرض على الرسول : « ودخل عليه أسامة حينئذ ، فجعل النبي يرفع يده إلى السماء ، ثم يضعها على أسامة ، فعرف أسامة أن النبي يدعو له » (٣) وانتظر أسامة فلم يخرج بالجيش ، وبعد قليل لحق الرسول بربه تبارك وتعالى ، واشترك أسامة في غسل الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان هذا شرفاً يطمع فيه الكثيرون .

وتولى أبو بكر رضي الله عنه أمر المسلمين ، فكان أول ما أصر عليه وشرع فيه هو إنفاذ جيش أسامة إلى غايته كما أوصى الرسول ، وجعل أبو بكر ذلك مقدماً على أمور كثيرة وقال : « والله لأن تخطفني الطير أحب إليّ من أن أبدأ بشيء قبل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . » .

وحينما عرض عليه بعض المسلمين أن يؤجل أو يتلبث رفض غاضباً وقال : « والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته » .

ونادى أبو بكر في الناس عقب وفاة الرسول بيوم أو بيومين فقال :

---

(١) الطبقات ، ج ٤ ص ٤٦ .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ١٨٤ .
(٣) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ص ٣٧٠ .

« ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلاّ خرج إلى عسكره بالجرف »[1].

وزاد الخليفة الأول في تكريم الجيش وقائده ، فخرج يودعهم ماشياً على قدميه ، والقائد الشاب فوق صهوة جواده . وعز على القائد أن يركب والخليفة يمشي ، فقال لأبي بكر :

يا خليفة رسول الله ، إما أن تركب وإما أن أنزل .

فأجاب الخليفة قائلاً في عزم وإصرار : والله لا تنزل ولا أركب ، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة[2] ؟

ومضى القائد الشاب بالجيش إلى غايته ، وكان أسامة موفقاً مظفراً ، وجاهد جهاداً كريماً ، وأوجع أعداءه وعاد بغنائم ، بعد أن مكث مع جيشه في أرض المعركة أربعين يوماً[3] .

* * *

وعرف أبو بكر لأسامة مكانته ، واستخلفه على المدينة في بعض الأحيان ، وكان عمر كلما لقي أسامة قال له : « السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، أمير أمره رسول الله ، ومات وهو علي أمير »[4] .

ولقد فضل عمر أسامة في العطاء على ابنه عبد الله ، فسأله ابنه عن ذلك ، فأجابه : لأن زيداً كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ،

---

(١) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة جهة الشام .
(٢) انظر تفصيل هذا الموقف ومواقف أخرى لأسامة في كتابي « بطولات اسلامية وعربية » المجموعة الاولى ، ص ٨٩ .
(٣) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٢٢٧ .
(٤) التحفة اللطيفة ، ج ١ ص ٢٧٢ .

وكان أسامة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، فآثرت حب رسول الله على حبي » .

ويروي ابن سعد في « الطبقات » هذا الخبر بعبارة أوسع هي كما يلي :

عن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب فضل المهاجرين الأولين ، وأعطى أبناءهم دون ذلك ، وفضل أسامة بن زيد على عبد الله بن عمر ، فقال عبد الله ابن عمر : فقال لي رجل : فضل عليك أمير المؤمنين من ليس بأقدم منك سناً ، ولا أفضل منك هجرة ، ولا شهد من المشاهد ما لم تشهد .

قال عبد الله : وكلمته (يعني أباه) فقلت : يا أمير المؤمنين ، فضلت علي من ليس هو بأقدم مني سناً ، ولا أفضل مني هجرة ، ولا شهد من المشاهد ما لم أشهد .

قال ومن هو ؟

قلت : أسامة بن زيد .

قال : صدقت لَعَمْرُ الله ، فعلت ذلك لأن زيد بن حارثة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمر ، وأسامة بن زيد كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عبد الله بن عمر ، فلذلك فعلت (١) .

* * *

ولقد كان أسامة — إلى جوار جهاده ووفائه وفدائه — رجلاً باراً بأمه ، ولقد بلغ من بره بها أن كانت النخلة قد بلغت ألف درهم ، فأقدم أسامة

---

(١) الطبقات ، ج ٤ ص ٤٩ .

على نخلة فنقرها ، وأخرج جمارها ، وأطعمه أمه ، فقالوا له : ما يحملك على هذا وأنت ترى النخلة قد بلغت ألف درهم ؟

فقال : إن أمي سألتنيه ، ولا تسألني شيئاً أقدر عليه إلاّ أعطيتها !

ولقد تزوج أسامة أكثر من زوجة ، وكان له أولاد من البنين والبنات ، ويروي التاريخ أنه كان له بنت تسمى « فاطمة » وكانت تقيم في « المزة » وهي ضاحية من ضواحي دمشق ، وأدركت عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه [1] وهو خليفة ، فدخلت عليه ، فقام لها ومشى إليها ، وجعل يده في يدها ، ومشى حتى أجلسها في مجلسه ، وجلس بين يديها ، وجعل يقول لها محرضاً على أن تطلب ما تريد :

حوائجك يا فاطمة ! حوائجك يا فاطمة !

وما ترك لها ، حاجة إلاّ قضاها .

ورجته أخيراً أن يجهزها ويحملها إلى أخيها ، فاستجاب لها وحقق ما أرادت !

وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل أصحاب الفضل !

* * *

كان أسامة رضي الله عنه مقيماً في المدينة ، مرافقاً لرسول الله عليه الصلاة والسلام في أغلب أوقاته ، فلما لحق الرسول بربه ، انتقل أسامة إلى « وادي

---

(١) راجع تفاصيل سيرته العاطرة في كتابي « خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز » في جزءين ، او في مسرحيتي « الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز » . او كتاب « عمر بن عبد العزيز » لابن كثير بتحقيقي وتعليقي .

القرى » فسكنه زمناً ، ثم انتقل الى دمشق ، ثم عاد إلى المدينة فأقام فيها إلى أن مات ، سنة أربع وخمسين للهجرة .

ومن عجيب صنع القدر أن أسامة المجاهد ، القائد قبل أن يبلغ العشرين ، قد أدركته الوفاة — وقد قارب السبعين (١) — في « الجرف » وهو الموضع الذي عسكر فيه بجيشه كما عرفنا ، حينما أمره الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكأن القدر قد صنع هذا ليربط بين ذكريات الجهاد عند أسامة واللحظة التي يلقى فيها ربه تبارك وتعالى ، ليثيبه بقدر ما كافح وناضل في سبيل الله والإسلام.

وقد اختلفوا في سنة وفاته ، فقيل : سنة أربع وخمسين ، وقيل سنة ثمان وخمسين ، وقيل سنة تسع وخمسين ، وقيل سنة أربعين ، ولكن الإمام ابن عبد البر يقرر أن الصحيح هو أن وفاته كانت سنة أربع وخمسين ، وكذلك ذكر الإمام الذهبي في كتابه « العبر » (٢) .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه !

* * *

أما بعد ، فما العظة التي نأخذها وقد طفنا بسيرة هذا البطل المجاهد ؟ . . . إنها عظة الإيمان والعمل ، عظة الإخلاص في الكفاح ، عظة الاجتماع على كلمة الحق ودعوة الصدق .

فلنثبت في القلوب عقيدتنا ، ولنعرف في جلاء ووضوح خطتنا وطريقتنا ، ولنحصن بالإيمان والعلم أركان أمتنا ، ولنصن بالنفائس والنفوس وحدتنا ، ولنعد لتحقيق الحرية والعزة والكرامة عدتنا ، ولنجعل النصر أو الشهادة غايتنا ، ولنمض في طريق النضال باذلين جهدنا وطاقتنا .

« وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين » .

---

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ج ١ ص ٢٧٢ .
(٢) تهذيب الاسماء ، ج ١ ص ١١٥ . وكتاب العبر ، ج ١ ص ٥٩ .

جرير بن عبدالله البجلي

قد يبرع الإنسان في التحدث عن البطولة والتضحية والإقدام ، ولكنه يتقاعس عن مواقف الوفاء والفداء ، ويبقى مع الخوالف أو يفر مع اللئام ، فلا يكون له بين الثابتين مقام .

وقد يكون الإنسان وسيم الشكل ، ولكنه قبيح الفعل ، فلا يكون له بين أهل الفضل ميزان ، وقديماً قيل :

جمال الوجه مع قبح النفوس   كقنديل على قبر المجوسي

وقد يحرم الإنسان جمال الشكل والصورة ، ولكنه يوهب حسن العمل وروعة المسعى ، حتى يستحق أن يقال فيه ما قاله الأول :

فإن لم تك المرآة أبدت وسامة   فقد أبدت المرآة جبهة ضيغم

وقد يتسع فضل الله على الإنسان ، فيجمع له بين جمال الشكل وحسن الفعل . وهذا مثل هو يوسف الصديق عليه السلام ، كان رائعاً في جماله ، حتى قيل فيه : « ما هذا بشراً ، إن هذا إلاّ ملك كريم » .

ومع ذلك ضرب مثلاً رائعاً في العفة والفضيلة ، حيث أبى أن يستجيب للمراودة المغرية الفاتنة المزلزلة : « معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون » . وقال : « رب ، السجن أحب إلى مما يدعونني إليه » .

ويوسف أيضاً هو الذي أنقذ « مصر » من السنوات العجاف ذوات القحط والجوع ، بفضل الله أولاً ، ثم بخبرته الاقتصادية ، وبراعته في التوجيه ، وإخلاصه في الإصلاح .

* * *

وهذا رجل من صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، يجمع بين جمال الصورة ، وصواب الفكرة ، ودوام العبادة ، واتصال الجهاد :

إنه الصحابي الفاضل ، والعابد المناضل ، أبو عمرو [1] جرير بن عبد الله ابن جابر بن مالك البجلي [2] الكوفي ، الذي يقول عنه الإمام النـــووي : « ومناقبه كثيرة » [3] . وكان سيد قومه ، وكانت قبيلته « بجيلة » متفرقة ، فجمعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وجعل عليهم جريراً كبيراً لهم [4] ، كان يقال عنه : إنه رجل لولاه ما عرفت عشيرته [5] .

ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما جالسه بسط له رداءه ، وقال : « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » .

وكان مع هذا جميل الصورة فارع القامة ، حتى قال عنه عمر بن الخطاب : « جرير يوسف هذه الأمة ، وهو سيد قومه » .

وقال عنه عبد الملك بن عمر : « رأيت جريراً كأن وجهه شقة قمر » .

---

(١) وقيل أبو عبد الله (أسد الغابة ، ج ١ ص ٣٣٢ طبعة التعاون) .
(٢) نسبة الى قبيلته «بجيلة» ، وهي بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة، نسبوا اليها (تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ص ١٤٧) .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٨ .
(٤) أسد الغابة ، ج ١ ص ٣٣٢ .
(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ٤ ص ٣٣ .

ويقول عنه ابن كثير : « وكان من أحسن الناس وجهاً ، وكان مع هذا من أغض الناس طرفاً » . وقد سأل جرير رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة ، فأجابه النبي : أصرف نظرك .

وكان جرير جهير الصوت ، ويرى أن الرسول عليه الصلاة قال له في حجة الوداع : استنصت لي الناس . أي ناد فيهم ليسكتوا ويستمعوا إليّ .

* * *

ولقد سعى جرير في شهر رمضان من السنة العاشرة للهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلن إسلامه (١) ، وكان الرسول قد بشر صحابته بمجيء جرير ، وقال لهم عنه : « يدخل عليكم من هذا الباب رجل على وجهه مسحة ملك » .

وبعد قليل دخل جرير ، فنظر الناس جميعاً إليه ، فكان كما أخبر الرسول ، وذكر الناس ذلك لجرير ففرح به ، وحمد الله تبارك وتعالى عليه . ويروي جرير ذلك الموقف بلسانه فيقول :

« لما دنوت من المدينة أنخت راحلتي ، ثم حللت عيبتي ، ثم لبست حلتي ، ثم دخلت ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ، فرماني الناس بالحدق . فقلت لجليسي : يا عبد الله ، هل ذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال : نعم ، ذكرك بأحسن الذكر : بينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته ، وقال : سيدخل عليكم من هذا الباب — أو من هذا الفج — من خير ذي يمن ، إلاّ أن على وجهه مسحة ملك .

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ١٥٨ . وكان اسلامه قبل وفاة الرسول بأربعين يوما .

فحمدت الله عز وجل على ما أبلاني »[1] .

وبايع جرير بيعة الإسلام ، وتحدث عن تلك البيعة فقال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم .

وفي رواية ثانية أن جريراً قال : يا رسول الله ، اشترط علي ، فأنت أعلم بالشروط .

فأجابه : أبايعك على أن تعبد الله وحده ، لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتنصح للمسلم ، وتبرأ من الشرك .

وفي رواية ثالثة أن الرسول قال له : يا جرير ، أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وأني رسول الله ، وأن تؤمن بالله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، ونصلي الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة[2] .

ولعل القول قد تكرر . وقد التزم جرير بذلك .

وكذلك قال جرير : أما إني بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر ، وإن كان عبداً حبشياً[3] .

واستقام جرير على الطريق ، وآثر الإسلام وقدمه على كل ما عداه ، وأقبل على الجهاد يمارسه ويألفه ويؤديه لوجه الله .

وأنعم الله عليه بحب رسول الله له ، حتى روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحهما أن جرير بن عبد الله قال : ما حجبني رسول الله صلى الله عليه

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير، ج٤ ص ١٤٩ . وقد رواه احمد والنسائي.
(٢) المرجع السابق ، ج ٤ ص ١٥١ .
(٣) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٥٣١ .

وسلم منذ أسلمت ، ولا رآني إلاّ تبسم وجهي ؛ ولقد شكوت إليه إني لا أثبت على الخيل ، فضرب بيده على صدري وقال : اللهم ثبته ، واجعله هادياً مهدياً .

واستجاب الله دعاء حبيبه ورسوله ، فصار جرير بطل جهاد ، وعلم إقدام ووفاء .

وأحب جرير رسول الله حباً شديداً بلغ منه مبلغاً جعله يخدم كل من كان يخدم الرسول . ولقد تحدث أنس بن مالك فقال :

خرجت مع جرير في سفري ، فكان يخدمني ، فقلت له : لا تفعل .
فقال : إني رأيت الأنصار تصنع برسول الله صلى الله عليه وسلم أشياء (١) آليت ألا أصحب أحداً منه إلاّ خدمته (٢) !

واللافت للنظر هنا أن جريراً كان أكبر سناً من أنس بن مالك .

وهكذا يجمع جرير بين الرغبة القوية في إتقان الجهاد ، والشعور النبيل نحو كل من خدم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فجرير يجد في نفسه عيباً يتصل بمدى صلاحيته للجهاد ، وهو أنه لا يحسن ركوب الخيل والثبات فوق ظهرها ، ولعله حاول ذلك ثم حاول فلم يستطع ، ولكنه حريص على أن يكون جندياً حسن الأداء لواجبه في الميدان ، ولذلك يلجأ إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام يسأله أن يدعو ربه تبارك وتعالى حتى يرزقه الثبات فوق الخيل !..
يا لجلال الأخيار من الرجال !

* * *

---

(١) يعني انهم يخدمون الرسول .
(٢) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ص ١٤٧ .

واستعان النبي بجرير في طائفة من الأعمال النضالية الهادفه إلى توطيد كلمة التوحيد ، والتحصين لتوحيد الكلمة ؛ فبعثه إلى هدم « ذي الخلصة » (١) فهدمه وقضى على فتنة أهله المصرين على الوثنية والإشراك .

وذو الخلصة بيت أصنام لدوس وخثعم ، كانوا يعظمونه في الجاهلية ، وقيل إنه بيت كانت تعبده خثعم وبجيلة ، وكانوا يقولون عنه « الكعبة اليمانية » ويقولون للكعبة المشرفة التي بمكة « الكعبة الشامية » .

وكانوا يلبسونه القلائد ، ويعلقون عليه بيض النعام ، ويذبحون عنده ، وكان بداخل البيت صنم يسمى « الخلصة » ، وكان هذا الصنم مروة بيضاء عليها نقش كهيئة التاج (٢) .

وقد جاء في الصحيحين عن جرير قال :

كان في الجاهلية بيت لخثعم يقال له : ذو الخلصة والكعبة اليمانية ؛ فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أنت مريحي من ذي الخلصة والكعبة اليمانية ؟

فنفرت إليه في مائة وخمسين فارساً من أحمس ، فكسرناه ، وقتلنا من وجدنا عنده فأتيناه فأخبرناه ، فدعا لنا ولأحمس .

وفي رواية أنه بارك على خيل أحمس ورجالها خمس مرات .

وفي رواية أخرى أن الرسول قال لجرير : يا جرير ، ألا تكفيني ذا الخلصة ؟

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ١٥٨ . وقد روي في ضبط كلمة «الخلصة» وجوه أشهرها فتح الخاء واللام .
(٢) انظر معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٨٣ .

فقال : بلى يا رسول الله .

وخرج مع جمع من قبيلته « بجيلة » ، وحدثت معركة مات فيها فئتان من خثعم . وانتصر جرير ورفاقه ، وهدم بيت ذي الخلصة ، وأضرم فيه النار فاحترق .

وأرسله النبي إلى جهات أخرى للغرض نفسه ، حيث بعثه إلى ذي الكلاع وذي ظلم وذي ظليم ، فوفقه الله توفيقاً كبيراً .

وبعد وفاة الرسول استعان أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجرير بن عبد الله البجلي في حروب الردة ، فوجهه إلى أكثر من جهة ، فنفر مستجيباً لأمر الخليفة الراشد ، وجاهد جهاداً كريماً (١) .

وكان لجرير أثر عظيم في فتوح العراق ، كمعركة القادسية وغيرها (٢) .

واشترك جرير في الجهاد مع البطل الفاتح المثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه ، وكان جرير أميراً على جانب من الجيش الإسلامي حينئذ (٣) .

وكذلك اشترك جرير في الجهاد مع البطل الفاتح سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (٤) .

وكذلك اشترك جرير في الجهاد مع البطل الفاتح النعمان بن مقرن في نهاوند (٥) .

يا لروعة المجاهد الموصول الجهاد ، المناضل المستمر النضال .

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٣٢٢ و ٤٢٧ .
(٢) أسد الغابة ، ج ١ ص ٣٣٢ . والبداية والنهاية ، ج ٧ ص ٤٣ .
(٣) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٤٦٣ و ٤٦٦ .
(٤) المرجع السابق ، ج ٣ ص ٤٧٢ و ٥٧٥ و ٥٧٨ .
(٥) المرجع السابق ، ج ٤ ص ١١٥ و ١٢٩ .

كأنه لا يحيى إلاّ ليجاهد ، فهو يتنقل من ميدان إلى ميدان ، ومن معركة إلى معركة ، ومن زمالة قائد فاتح إلى زمالة قائد فاتح ، وجرير لا يكل ولا يهون.

وكان جرير بن عبد الله يحث قومه على الجهاد في كل مناسبة ، ويقول لهم فيما يقول :

« لا يكونن أحد أسرع إلى هذا العدو ، ولا أشد عليه منكم ، للذي لكم فيه (كأنه يعني الغنيمة) ، ونية إلى ما ترجون ، فإنما تنتظرون إحدى الحسنيين : الشهادة والجنة ، أو الغنيمة والجنة » .

* * *

ومع هذا الجهاد الموصول المستمر الدائم من جرير بن عبد الله البجلي كان حريصاً على العلم والتفقه في الدين، ولقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة حديث ، وروى عنه الحديث أنس بن مالك ، وقيس بن أبي حازم ، والشعبي ، وآخرون من أعلام الأمة .

وكان فوق هذا وذاك رجلاً مهذباً صاحب ذوق وأدب .

وقد يدل على ذلك أنه كان ذات يوم بمجلس الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، فشم الخليفة ريحاً خرجت من أحد الجالسين ، فقال عمر : عزمت على صاحب هذه الريح إلاّ قام فتوضأ .

فقال جرير : أو نقوم كلنا فنتوضأ يا أمير المؤمنين !

فأعجب عمر به : وقال له : نعم السيد كنت في الجاهلية ، ونعم السيد أنت في الإسلام !

وأعظم بشهادة يقولها عمر الفاروق ! . .

والعجيب أن جريراً صاحب هذا الذوق النبيل هو الذي ظل قرابة أربعين عاماً يجاهد ويجالد ، ويقاتل ويناضل ، حتى لقي ربه عز وجل وهو على طريق الوفاء والفداء مقيم ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

وقد توفي جرير على الأصح سنة إحدى وخمسين للهجرة في بلـــدة « قرقيسيا » وهي عند مصب نهر الخابور ، جانب منها على الفرات ، وجانب على الخابور ، كما ذكر ياقوت في « معجم البلدان » .

وكان جرير قد نزل الكوفة ثم تحول عنها إلى قرقيسيا التي أقام بها حتى وفاته .

يقول الذهبي في « العبر » إن جريراً توفي على الأصح سنة إحدى وخمسين بقرقيسيا (١) .

وجاء في « أسد الغابة » أنه توفي سنة إحدى وخمسين ، وقيل سنة أربع وخمسين (٢) .

وقيل إنه مات بالسراة (٣) . والسراة كما جاء في « معجم البلدان » جبل ممتد ، وقيل سلسلة من الجبال تمتد من الطائف إلى صنعاء ، وكانت بجيلة — قبيلة جرير — تقيم في السراة الوسطى (٤) .

وفي « تهذيب الأسماء واللغات » واعتزل علياً ومعاوية ، وأقام بالجزيرة ونواحيها ، حتى توفي سنة أربع وخمسين رضي الله تعالى عنه (٥) .

---

(١) العبر ، ج ١ ص ٥٧ طبعة الكويت .
(٢) أسد الغابة ، ج ١ ص ٣٣٣ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) معجم البلدان ، ج ٣ ص ٢٠٤ طبعة بيروت .
(٥) تهذيب الاسماء ، ج ١ ص ١٤٧ .

وفي « البداية والنهاية » : « ولم يزل مقيماً بالجزيرة حتى توفي في السراة ، سنة إحدى وخمسين ، قاله الواقدي ، وقيل : سنة أربع ، وقيل سنة ست وخمسين »[1] .

* * *

ليت هذه السير العاطرة تحفزنا أن نوطد في الأعماق إيماننا ، ونشغل بالعمل الجاد والجهاد الصادق سواعدنا وأيماننا ، ونبذل كل نفيس لنحرر أرضنا وأوطاننا ، وطريق ذلك أن نتخذ من جهاد أجدادنا شعارنا وعنواننا ، « وعلى الله قصد السبيل » .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٥٦ .

اسماء بنت يزيد بن السكن

إن الإسلام يقرر لنا أن الجهاد يلزم الرجال أولاً ، وما دام الرجال يكفون ويغنون ، فلا ضرورة تلجىء النساء إلى الاشتراك الفعلي المباشر في المعركة ؛ وإذا احتاج الموقف ، أو تطلبت المعركة جهد المرأة ، خرجت المرأة المسلمة إلى الجهاد ، دون إذن من زوجها أو أبيها ، لأن الزحف عام ، والموقف يتطلب كل الجهود بلا إبطاء ، ويتأكد وجوب النضال على المرأة إذا تخاذل الرجال أو استنوقت الجمال .

ومن واجبنا أن نتذكر نماذج رائعة قدمتها المرأة المسلمة في صدر الإسلام ، فقد نسيت هذه المرأة المؤمنة — حينئذ — زينتها ونعومتها ، وخرجت مع أشقائها عند اللزوم تقاتل وتناضل ، في شجاعة وإقدام .

وهذا نموذج منها يتمثل في الصحابية الجليلة ، المجاهدة البطلة : أم عامر(١) أسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع بن امرىء القيس الأوسية الأشهلية الأنصارية بنت عم معاذ بن جبل رضي الله عنهما . وهي التي وفدت على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في السنة الأولى للهجرة ، وبايعته بيعة الإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالآية الواردة في سورة الممتحنة ، وهي :

« يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا

---

(١) وروي ان كنيتها ايضا : ام سلمة .

يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » .

ولذلك قالت أسماء : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ علينا ألاّ يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن . . . الآية .

وكانت مبايعتها في صدق وإخلاص ، حتى تروي السيرة العطرة أن أسماء كانت تضع حينئذ في يديها سوارين كبيرين من ذهب ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : ألقي السوارين يا أسماء ، أما تخافين أن يسورك الله بأساور من نار ؟

فسارعت أسماء – دون أي تردد أو جدال – فنزعتهما وألقتهما أمام رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وأخذت أسماء بعد ذلك تسمع من الرسول حديثه الشريف ، حتى كانت تسأله عن دقائق الأشياء والأمور ، وهي التي سألته عن طريقة تطهر المرأة من الحيض ، ولا حياء في الدين ، وقد كانت قوية الشخصية ، ويقول عنها ابن عبد البر : « كانت من ذوات العقل والدين » (١) .

وكانت تنوب عن نساء المسلمين في مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بهن ، ولقد أتته ذات مرة فقالت له :

يا رسول الله ، إني رسول مَن ورائي من جماعة نساء المسلمين ، كلهن يقلن بقولي ، وهن على مثل رأيي . إن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء ،

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ، على هامش الاصابة ج ٤ ص ٢٣٣ .

فآمنا بك واتبعناك ، ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات ، قواعد بيوت ، ومواضع شهوات الرجال ، وحاملات أولادهم ، وإن الرجال فضلوا بالجمعات وشهود الجنائز والجهاد ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربينا أولادهم ، أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله ؟

فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه فقال :

هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه ؟

فقالوا : بلى يا رسول الله .

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام :

انصرفي يا أسماء ، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها [1] ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرت للرجال .

فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] .

* * *

وكانت أسماء تخدم النبي في دعوته بما استطاعت ، ولذلك روي عنها أنها قالت : إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليه سورة المائدة كلها ، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة [3] . وكان

(١) اي حسن المصاحبة في الحياة الزوجية والمعاشرة (النهاية ، ج ١ ص ١٤١) .
(٢) الاستيعاب على هامش الاصابة ، ج ٤ ص ٢٣٣ .
(٣) الوفا بأحوال المصطفى ، ص ١٧١ .

الرسول يعرف لها قدرها ، ولذلك روت أسماء قالت : مرّ بي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في نسوة ، فسلم علينا ، فرددنا عليه السلام .

وكانت أسماء من أخطب نساء العرب ، ومن ذوات الشجاعة والإقدام ، وكان يقال لها « خطيبة النساء » ، وكانت تحسن الحوار والمباحثة ، كما شهدنا حينما اختارها النساء المسلمات لتذهب إلى النبي فتسأله عن مكانة المرأة في نظر الإسلام .

وكأن أسماء كانت تطوي في صدرها التطلع إلى المشاركة في الجهاد ، ولكن الظرف لم يكن حينئذ يتطلب ذلك . ومضت الأيام والأعوام ، وأقبلت السنة الثالثة عشرة للهجرة — بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بسنوات — وأقبلت معها معركة « اليرموك » ، وهي المعركة العصيبة الشديدة التي دارت رحاها على أرض العرب المغتصبة ، وفيها أعطى المسلمون أعداءهم الروم درساً لم ينسوه أبداً .

وفي هذه المعركة اشتركت المرأة المسلمة بنصيب كبير من الجهاد ، وقد لاحظت وأنا أطالع في الجزء السابع من كتاب « البداية والنهاية » لابن كثير أنه حينما تحدث عن معركة « اليرموك » ذكر اشتراك المرأة المسلمة في نضالها أكثر من مرة ، فهو تارة يقول عن المجاهدين المؤمنين : « فقاتلوا قتالاً شديداً ، حتى قاتلت النساء من ورائهم أشد القتال » .

وتارة يقول : « وساق خالد إلى النساء من وراء الجيش ، ومعهن عدد من السيوف وغيرها ، فقال لهن : من رأيتموه مولياً فاقتلنه » .

وتارة يقول : عن أبي سفيان بن حرب المشترك في هذه المعركة : « ثم ذهب إلى النساء فوصاهن ، ثم عاد فنادى : يا معشر . أهل الإسلام ، حضر

ما ترون ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجنة أمامكم ، والشيطان والنار خلفكم » .

وتارة يقول : « واستقبل النساء من انهزم من سرعان الناس ، يضربنهم بالخشب والحجارة ، وجعلت خولة بنت ثعلبة تقول :

يا هارباً عن نسوة تقيات فعن قليل ما ترى سبيات
ولا حصيات ولا رضيات

فتراجع الناس إلى مواقفهم » .

وتارة يقول : « وقد قاتل نساء المسلمين في هذا اليوم ، وقتلن خلقاً كثيراً من الروم ، وكن يضربن من انهزم من المسلمين ، ويقلن : أين تذهبون وتدعوننا للعلوج [1] ؟ فإذا زجرنهم لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال » .

وتارة يقول : « وقد أتلف في هذا اليوم جماعة من الناس. انهزم عمرو ابن العاص في أربعة ، حتى وصلوا إلى النساء ، ثم رجعوا حين زجرهم النساء » [2] .

* * *

وخرجت المناضلة أسماء بنت يزيد مع الجيش الإسلامي إلى معركة « اليرموك » ، لتكون مع أخوات لها وشقيقات ، خلف المجاهدين للمعاونة والتأييد ، وأخذت أسماء تبذل جهدها ، فهي تناول السلاح ، وتسقي الماء ، وتضمد الجراح ، وتشد من عزائم المناضلين .

---

(١) العلج : الرجل القوي الضخم . والعلج : الرجل من كفار العجم وغيرهم . والجمع أعلاج وعلوج (النهاية ، ج ٣ ص ٢٨٦) .
(٢) البداية والنهاية ، لابن كثير ، ج ٧ ص ٥ و ٨ و ٩ و ١١ و١٣ و١٤ .

ولكن الموقف يشتد ، والمعركة تتأزم ، والحرب تتصاعد ، والعدو يتبجح . وحينئذ نسيت أسماء بنت يزيد أنها أنثى ، ولم تذكر إلاّ أنها مسلمة مؤمنة ، تستطيع أن تجاهد بما في وسعها وطاقتها ، ولم تجد أمامها إلاّ عمود خيمة ، فحملته ، وانغمرت به في الصفوف ، وأخذت تضرب به في أعداء الله ورسوله ذات اليمين وذات الشمال ، حتى أكد التاريخ في مصادره الأمينة الوثيقة أن أسماء قتلت يومئذ بعمود الخيمة تسعة رجال من الأعداء . يقول عنها الإمام ابن حجر : « هي أسماء بنت يزيد بن السكن ، شهدت اليرموك ، وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسطاطها ، وعاشت بعد ذلك دهراً » (١) .

وخرجت أسماء من المعركة سالمة لم تمت ، وإن أصابتها جراح ، وشاء لها القدر الحكيم أن تظل على قيد الحياة بعد ذلك سبعة عشر عاماً ، ولم تمت إلاّ حدود السنة الثلاثين من الهجرة ، عليها رضوان الله تبارك وتعالى (٢) .

---

(١) الاصابة في تمييز الصحابة ، ج ٤ ص ٢٢٩ .
(٢) تراجع تفاصيل غزوة اليرموك في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ص ٢٥٩ ـ ٢٦٧ .

صهيب بن سنان الرومي

علمنا الإسلام العظيم أن الحرص على الحياة أو المال يجعل الإنسان عبداً لهما ، أسيراً عندهما ، فهو يتوهم الموت مترصداً له في كل مكان ، ولذلك يحجم ولا يقدم ، ويهرب ولا يثبت ، ظناً منه أن ذلك ينجيه ، مع أن ربه يناديه، بقوله في سورة النساء : (أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة) .

وهو يجمع المال ويكنزه ، ويحجزه عن حقوقه وتبعاته ، ظناً منه أن المال يعصمه ويصونه ، فإذا هو يذله ويهينه ، كما قال الله تعالى في سورة الهمزة : (الذي جمع مالاً وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبذن في الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، إنها عليهم مؤصدة ، في عمد ممددة) [1] .

ولقد وصم القرآن الكريم شرار الخلق برذيلة الحرص الدنيء ، فقال في سورة البقرة : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله

(١) عدده : جعل عدة للنوازل ، او عده مرة بعد أخرى . وأخلده : تركه خالدا في الدنيا . ولينبذن : ليطرحن . والحطمة : التي تحطم كل ما يطرح فيها . وتطلع على الأفئدة : تعلو اوساط القلوب وتشتمل عليها، ومؤصدة : مطبقة .. وعمد ممدة : أعمده .

بصير بما يعملون) .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم محذراً الخنوع لهذا الحرص : « يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان (أي رذيلتان) الحرص على المال ، والحرص على العمر » . وتقول الحكمة البليغة البالغة : « أذل الحرص أعناق الرجال » .

ولقد كان حول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه رجال أعلام ، بذلوا أموالهم في خير ما تبذل فيه الأموال ، فأغناهم ربهم وشكر لهم وجزاهم خيراً ، وبذلوا لله أرواحهم في سبيل الوفاء والفداء ، فأعزهم بارئهم وأعلى شأنهم وخلد آثارهم ، ورضوان الله تبارك وتعالى على أبي بكر الصديق حين دعا إلى الحرص المجيد المحمود ، فقال : « احرص على الموت توهب لك الحياة » (١) .

* * *

وهذا واحد من أولئك الأعلام :

إنه الصحابي الجليل ، المجاهد الموصول الجهاد : أبو يحيى صهيب بن سنان بن مالك بن عمرو ، من قبيلة النمر بن قاسط ، وهو المشهور بصهيب الرومي ، الذي يصفه أبو نعيم بقوله : « السابق المهاجر ، المطعم المتاجر ، لماله بذول ، ولنفسه قتول (٢) ، ولدينه عقول ، وبربه تعالى يجول ويصول »(٣) .

وصهيب عربي الأصل وإن قيل له « الرومي » (٤) ، فأبوه من أشراف

---

(١) قال هذا لسيف الله خالد بن الوليد ، فاستجاب للنصح ، فانتفع به في جهاده ، وارتفع به عند ربه .

(٢) يقصد بالنفس هنا أهواءها .

(٣) حلية الأولياء ، ج ١ ص ١٥١ . وأم صهيب هي : سلمى بنت قعيد ابن مهيض .

(٤) يقول محمد بن سيرين : « صهيب من العرب ، من النمرين قاسط » أنظر الطبقات لابن سعد ج ٣ ص ١٦١ . وقيل ان اصله من اليمن (البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٧ ص ٣١٧) .

العرب في الجاهلية ، وكان والياً على البصرة من جهة كسرى ، وكانت منازل قومه في أرض الموصل ، وهناك ولد صهيب في قرية تسمى « الثني » على شاطىء الفرات ، ثم أغارت الروم عليهم ، وأخذوا صهيباً أسيراً وهو صغير ، ونشأ بينهم فأصابت لسانه لكنة منهم ، ولذلك كانوا يقولون عنه « الرومي » ، ثم باعوه بعد ذلك ، ثم اشتراه عبد الله بن جدعان في مكة ، وبعد حين أعتقه ، فاشتغل صهيب بالتجارة ، وكان فيها ماهراً ، وكان من أرمى العرب سهماً ، وكان له بأس شديد .

وحين أشرقت شمس الإسلام بادر إليه صهيب مسرعاً ، فدخل في دين الله ، ولذلك قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صهيب سابق الروم » ، ولم يتقدمه في الإسلام غير بضعة وثلاثين رجلاً ، ثم كان من أوائل الذين أعلنوا عن إسلامهم ، وتعرضوا لألوان التعذيب من جبابرة الشرك والطغيان .

يقول عبد الله بن مسعود : « كان أول من أظهر إسلامه سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد »[1] .

وتروي السيرة أن عمار بن ياسر لقي صهيب بن سنان على باب دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ورسول الله فيها ، فقال له : ما تريد ؟

فسأله صهيب : ما تريد أنت ؟
قال عمار : أريد أن أدخل على محمد فأسمع كلامه .
فقال صهيب : وأنا أريد ذلك .

---

(١) الدرر لابن عبد البر ، ص ٤٣ و ٤٤ .

يقول عمار : « فدخلنا عليه ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ، ثم مكثنا يومنا على ذلك حتى أمسينا ، ثم خرجنا ونحن مستخفون »[1] .

* * *

وحينما أراد صهيب الهجرة — عقب هجرة الرسول وصاحبه — تبعه نفر من المشركين يريدون منعه ، وقالوا له فيما قالوا من سفه الكلام : جئتنا صعلوكاً حقيراً ، فلما كثر مالك هممت بالرحيل ؟ هذا ما لا يكون .

فنزل صهيب عن راحلته ، وسل سيفه ، وأخرج سهامه ، وقال لهم : يا معشر قريش ، لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً ، وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ، افعلوا ما شئتم .

ثم أضاف قوله : وإن شئتم دللتكم على مالي وثيابي بمكة ، وخليتم سبيلي .

قالوا : نعم .

ورضوا بذلك ، واستوثق منهم لإخلاء سبيله ، ثم ترك لهم كل ما يملك ، بعد أن دلهم على مكانه ، وبلغ الخبر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقول : « ربح صهيب ، ربح صهيب » !

ثم جاء صهيب إلى الرسول ، فلما رآه الرسول قال له : ربح البيع يا أبا يحيى ، ربح البيع يا أبا يحيى . وفي هذا نزل قول الحق جل جلاله في سورة

---

(١) الطبقات ، ج ٣ ص ١٦٢ .

البقرة : (ومن الناس من يشري نفسه (١) ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد » .

ورواية « الحلية » (٢) تقول إنه ذهب معهم ، ودلهم على مكان نقوده ومتاعه ، بعد أن استوثق منهم بأن يطلقوا سراحه ، وفعلوا ، وقدم على الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فلما رآه النبي قال له : يا أبا يحيى ، ربح البيع ، يا أبا يحيى ربح البيع ، يا أبا يحيى ربح البيع !

وعجب صهيب لأن الرسول قد عرف ما حدث ، فمن ذا الذي أخبره ؟ فقال صهيب : يا رسول الله ، ما سبقني إليك أحد ، وما أخبرك إلاّ جبريل .

ويسوق أبو نعيم في « حلية الأولياء » ما نفهم منه أن صهيباً كان أول من هاجر بعد الرسول وصاحبه ، وأن الرسول كان قد بعث إلى صهيب ليصحبه في الهجرة ، ولكن صهيباً كان في صلاة حينئذ ، وما كاد يعلم بهجرة الرسول حتى سارع فحمل سلاحه وهاجر خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ويظهر أن الرسول وأبا بكر كانا قد وعدا صهيباً بأن يصاحبهما عند الهجرة ، ثم شغلتهما الأحداث عن ذلك ، ولذلك نجد صهيباً — كما يروي ابن سعد في الطبقات — يقول حين هاجر لأبي بكر كالعاتب : وعدتني بأن نصطحب ، فخرجت وتركتني .

وكذلك قال صهيب للرسول صلوات الله وسلامه عليه : وعدتني يا رسول الله بأن تصاحبني ، فانطلقت وتركتني ، فأخذتني قريش فحبسوني ، فاشتريت نفسي وأهلي بمالي .

---

(١) يبيع نفسه لربه طلبا لمرضاته ورضوانه .
(٢) ج ١ ص ١٥٢ .

فقال النبي : ربح البيع .

فقال صهيب : يا رسول الله ، ما تزودت إلاّ مداً من دقيق عجنته بالأبواء حتى قدمت عليك [1] .

وهناك رواية أخرى يقول فيها صهيب : « وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وخرج معه أبو بكر ، وكنت قد هممت معه بالخروج ، فصدني فتيان قريش ، فجعلت ليلتي تلك أقوم لا أقعد ، فقالوا : قد شغله الله عنكم ببطنه . ولم يكن شاكياً ، فناموا ، فخرجت .

ولحقني منهم ناس بعدما سرت ، يريدون ليردوني ، فقلت لهم : إن أعطيتكم أواقي من ذهب تخلون سبيلي ، وتوفون لي ؟ ففعلوا ، فتبعتهم إلى مكة ، فقلت : احفروا تحت أسكفة الباب ، فإن بها أواقي ، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين .

وخرجت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء ، قبل أن يتحول منها ، فلما رآني قال : يا أبا يحيى ، ربح البيع . فقلت : يا رسول الله ، ما سبقني إليك أحد ، وما أخبرك إلاّ جبرائيل عليه السلام » [2] .

* * *

---

(١) الطبقات لابن سعد ، ج ٣ ص ١٦٣ . والمد : رطل وثلث بالعراقي ، عند الشافعي وأهل الحجاز ، وهو رطلان عند أبي حنيفة وأهل العراق . وقيل ان أصل المد مقدر بأن يمد الرجل يديه فيملأ كفيه طعاما (النهاية) . والأبواء اسم موضع قرب ودان .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ص ٢٢٣ . ومن الغريب ان السخاوي يقول في التحفة اللطيفة عن صهيب : « وهاجر قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم » ج ٢ ص ٣٠٨ .

ونزل صهيب عقب هجرته في دار سعد بن خيثمة ، وكان العزاب قد نزلوا بداره ، وقيل إن صهيباً نزل على خبيب بن إساف [1] . وآخى رسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم بين صهيب بن سنان والمجاهد الثابت الشهيد : الحارث بن الصمة .

وانطلق صهيب يضحي بكل شيء في سبيل ربه ؛ ضحى بالشباب والمال والتجارة ، وآثر ما عند الله على ما عند الناس ، وشهد غزوة بدر ، وغزوة أُحد ، وغزوة الخندق ، وسائر المشاهد كلها مع رسول الله [2] ، وقد تحدث صهيب بنعمة الله عليه في ذلك ، فقال :

« لم يشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهداً قط إلاّ كنت حاضره .

ولم يبايع بيعة قط إلاّ كنت حاضرها .

ولم يسر سرية قط إلاّ كنت حاضرها .

ولا غزا غزاة قط ، أول الزمان وآخره ، إلاّ كنت فيها ، عن يمينه أو شماله .

وما خافوا أمامهم قط إلاّ كنت أمامهم .

ولا ما وراءهم إلاّ كنت وراءهم .

وما جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين العدو قط ، حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم » [3] .

ويا لها من كلمات ! . .

---

(١) الدرر لابن عبد البر ، ص ٨٣ .
(٢) الطبقات ، ج ٣ ص ١٦٣ .
(٣) حلية الأولياء ، ج ١ ص ١٥١ .

ومع هذا الجهاد الموصول الدائب من صهيب رضي الله عنه ، كان يعمل ويكسب ويربح ، وينفق من ماله بسعة ، ولا عجب فهو الذي روى عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله في الحث على الإنفاق : « لا يدخل الجنة إلاّ من قال بالمال هكذا وهكذا : يمنة ويسرة »[1] . وكان يطعم الطعام الكثير ، وحينما سأله عمر بن الخطاب عن ذلك قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « خياركم من أطعم الطعام ، ورد السلام ؛ فذلك الذي يحسلني على أن أطعم الطعام » . ثم استشهد بقوله تعالى : (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين »)٢ .

ويروى أن عمر قال لصهيب مستفهماً : يا صهيب ، اكتنيت وليس لك ولد ، وانتميت إلى العرب وأنت رجل من الروم ؟

فأجابه : أما قولك : اكتنيت وليس لك ولد ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كناني بأبي يحيى ، وأما قولك : انتميت إلى العرب ، وأنت رجل من الروم ، فإني رجل من النمر بن قاسط ، سبيت من الموصل بعد أن كنت غلاماً ، قد عرفتَ أهلي ونسبي !

وليس هذا استخفافاً من عمر رضي الله عنه ، فقد كان عمر يجل صهيباً ويعرف له قدره ، وإذا كان بعض المأفوفين قد استهانوا بمكانة صُهيب ، لأنه كان في أول أمره عبداً مملوكاً ، فإن الله قد أعز بالإسلام قوماً ، وخفض بالكفر آخرين ، والشاعر المؤمن قد قال :

أبي الإسلام ، لا أب لي سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم

---

(١) قال : بمعنى فعل ، والعرب تقول : « قال بيده » أي أخذ ، « وقال برأسه » أي أشار .
انظر كتابي « سلاح الشعر » ص ١٧ . الطبعة الاولى .
(٢) الحلية ، ج ١ ص ١٥٣ .

وهذا هو التاريخ يروي أن عمر صار أميراً للمؤمنين ، وقدم إلى بابه جماعة من الأشراف الكبار يطلبون الإذن عليه ، وفيهم أمثال سهيل بن عمرو وعتيبة بن حصن والأقرع بن حابس ، وهم من الذين كانوا عظماء في الجاهلية ، ثم تأخروا في دخولهم الإسلام ، وكان عند الباب إلى جانبهم عمار بن ياسر ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وهم الذين سبقوا إلى الإسلام ، وكانوا يمثلون المستضعفين في الأرض ، المعذبين بين الناس ، المحتملين للأذى بسبب تبكيرهم في الاستجابة للإسلام .

وبعد قليل خرج الآذن من عند عمر يقول : أين عمار بن ياسر ؟ أين سلمان الفارسي ؟ أين صهيب الرومي ؟ . فاستجابوا للنداء فدعاهم إلى الدخول فدخلوا .

وبقي الآخرون أشراف الأمس ينتظرون الأذن بعد ذلك ، وقد تمعرت وجوههم (أي تغيرت غضباً وغيظاً وحنقاً) ، فقال لهم سهيل بن عمرو — وكان رجلاً عاقلاً — : لم تتمعر وجوهكم ؟ دُعوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر اليوم ، لأنتم غداً لهم أحسد [1] !

وزاد عمر في تكريم صهيب ، فقد اختار عمر في آخر حياته ستة من أعلام الصحابة ، لكي يختار المسلمون منهم واحداً يكون خليفة بعد عمر ، وقال عمر للمسلمين : وليصل بكم صهيب ! فاتخذوه إماماً ، وبعد قليل لقي عمر ربه فقدم المسلمون صهيباً ليصلي على عمر بهم إماماً . يقول ابن سعد :

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ، ج ٥ ص ٦٧ . ويقصد بقوله : «دعوا ودعينا» أننا جميعا دعينا الى الاسلام فسارع هؤلاء الى الدخول في دين الله ، وتأخرنا نحن عنهم .

« لما توفي عمر نظر المسلمون ، فإذا صهيب يصلي بهم المكتوبات [1] بأمر عمر ، فقدموا صهيباً فصلى على عمر » [2] .

* * *

وكان صهيب إلى جوار هذا يعني برواية الحديث النبوي ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة وسبعة أحاديث ، « وكان مع فضله ودينه فيه دعابة وفكاهة وانشراح » [3] .

والعجيب أن المجاهد الموصول الجهاد : صهيب بن سنان — على الرغم من شهوده جميع الغزوات والمشاهد ، وعلى الرغم من تعرضه للأخطار والمهالك — عاش ثم عاش حتى طال عمره ، وحتى بلغ السبعين أو زاد عليها ، حيث توفي في السنة الثامنة والثلاثين للهجرة رضوان الله عليه . وقيل توفي سنة تسع وثلاثين بالمدينة [4] ، وقال ابن سعد : إنه توفي في شوال سنة ثمان وثلاثين وهو ابن سبعين سنة بالمدينة ، ودفن بالبقيع [5] .

وجاء في « التحفة اللطيفة » أنه مات عن سبعين ، أو ثلاث وسبعين ، وقيل عن أربع وثمانين سنة [6] .

وكانت وفاته في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه ، وصلى عليه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

تحية وسلاماً على المجاهد الموصول الجهاد صهيب بن سنان !

---

(١) فرائض الصلاة الخمس .
(٢) الطبقات ، ج ٣ ص ١٦٤ .
(٣) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٣١٨ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) الطبقات ، ج ٣ ص ١٦٤ .
(٦) التحفة اللطيفة ، ج ٢ ص ٣٠٩ .

أبو خيثمة الأنصاري

إن الشعور بالتبعة إحساس عميق مرهف ، ينبعث من طوايا النفس المؤمنة ، فيوقظ هداها ، ويسدد خطاها ، ويلزمها طريق الصواب والواجب ، لا تحيد عنه ولا تتنكر له . ولقد يكون المؤمن وحيداً منفرداً ، ليس معه من البشر أحد يراقبه أو يحاسبه ، ويحاول الشيطان أن يوسوس إليه بتفريط أو إهمال ، ولكنه يتذكر على الدوام أن الله معه حيثما كان ، فيستعيذ بربه ، ويستعصم ببابه ، وتردد خفقات قلبه قبل أن تردد لهاة لسانه قوله : الله معي ، الله ناظر إليّ ، الله رقيب عليّ ، الله يراني .

وكأنه خير من يعتبر بقول القائل :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل : خلوت ، ولكن قل : علي رقيب
ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

لأن الله تبارك وتعالى هو الذي يقول في سورة التوبة : « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب » .

ويقول في سورة يونس : « وما تكون في شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل ، إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين » .

ويقول في سورة الزخرف : « أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون » .

ويقول في سورة الحديد : « الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير » .

ويقول في سورة المجادلة : « ألم ترَ أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ، ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم » .

* * *

وهذا الوازع الديني الحي القوي هو خير ما يزدان به المجاهد المؤمن التقي ، فهو لا يخرج إلى ساحة التضحية والفداء مكرهاً أو مرغماً ، بل ينفر إليها مسارعاً بدافع من إيمانه ، وحافز من يقينه ، وربما توافرت أمامه الفرص للتخلص من فريضة الجهاد ، أو الاعتذار عن النضال ، ولكنه لا يسيء استغلال شيء من هذا ، لأن ضميره التقي يأبى عليه ذلك ، فهو من قوم قد قال فيهم الحق جل جلاله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وهذا واحد منهم :

إنه الصحابي التقي الوفي ، المحاسب المراقب ، المجاهد العابد : أبو خيثمة مالك بن قيس بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم الخزرجي الأنصاري . وهو مشهور بكنيته « أبو خيثمة » ، وقد اختلفوا في اسمه . فقيل إنه : مالك بن

قيس ، وهذا هو الأشهر ، وقيل إنه عبد الله بن ثعلبة [١] . وقال ابن عبد البر : « ولا أعلم في الصحابة من يسمى أبا خيثمة غيره ، إلاّ عبد الرحمن بن أبي سبرة ، والد خيثمة وابن عبد الرحمن صاحب ابن مسعود ، فإنه يكنى أبا خيثمة » [٢] .

ولقد أسلم أبو خيثمة وحسن إسلامه ، وشهد غزوة أُحد وباقي المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يجاهد بوحي من ضميره وشعوره ، لا بدافع المباهاة أو المراءاة أو المكاثرة .

ثم أقبلت غزوة تبوك التي كانت في شهر رجب سنة تسع للهجرة [٣] ، وكانت في زمن عسرة وجدب وحر ، وقد طابت الثمار وآن أوان القطاف ، والطريق إلى الغزو طويل ، والعدو متجبر متنمر — وهو الروم — وغزوة تبوك هي التي نزل فيها قول الله تبارك وتعالى فيما نزل : « انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون » .

ونزل فيها في سورة التوبة أيضاً : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون » .

---

(١) انظر الاصابة ، ج ٣ ص ٣٣٣ . والسيرة النبوية لابن كثير ، ج ٤ ص ١٤ ، وتهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ٢٢٤ .
(٢) الاستيعاب على هامش الاصابة ، ج ٤ ص ٥٢ .
(٣) انظر كتابي : « فدائيون في تاريخ الاسلام » ص ١٥٥ .

وكذلك نزل فيها في السورة ذاتها : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » .

* * *

ولقد كان أبو خيثمة رضي الله عنه غائباً عن المدينة حينما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك ، وبعد أيام عاد إلى المدينة في وقت شديد الحرارة ملتهب القيظ ، فعلم أن رسول الله قد خرج للجهاد ، فعجل بالذهاب إلى بيته ، فرأى زوجيته ، وكل منهما في عريش داخل بستانه ، وكل منهما قد بردت له ماء ، وهيأت له طعاماً ، ورشت الماء أمام عريشها ، وتزينت للقاء زوجها .

إنها فرصة طيبة يا أبا خيثمة ، فانتهزها . . .

الحر شديد ، وأنت قادم من سفر ، والمكان ظليل جميل ، والماء البارد يلطف حرارة الجو ، والطعام شهي تفوح رائحته ، وزوجتاك قد استعدتا للقائك بالزينة والبهجة ، وتنافستا في توفير ما تحب ، فأقبل وخذ حظك من المتاع ، ولا عليك فأنت لم تكن حاضراً عند خروج الجيش . . .

هكذا تحدثت رغبة النفس ، أو وسوسة الشيطان .

ولكن أبا خيثمة لم يتحرك ، وكأن رجليه قد سمرتا في الأرض ، وتطلع الصحابي الأبي صاحب النفس الزكية اللوّامة [1] ، وأحد النظر إلى زوجتيه معاً ، كأنه يعاتبهما أو يؤنبهما ، ثم قال في ألم عميق :

« رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح [2] والريح والحر ، وأبو خيثمة

---

(١) اللوامة : المتقية التي تلوم النفوس المقصرة في التقوى يوم القيامة على تقصيرها ، او التي تلوم نفسها ابدا وان اجتهدت في الطاعة ، او هي نفس آدم فانها لم تزل تلوم على ما خرجت به من الجنة .

(٢) الضح ـ بكسر الضاد ـ ضوء الشمس اذا استمكن من الارض .

في ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم ؟ ما هذا بالنّصَف – أي بالإنصاف – والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتّى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهيآ لي زاداً » .

وفي رواية أن أبا خيثمة بلغ بستانه ، وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فقال : « ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح ؟ ما هذا بخير » .

وتناول أبو خيثمة سلاحه ، وركب دابته وانطلق مسرعاً يحاول اللحاق برسول الله عليه الصلاة والسلام . وفي الطريق التقى بعمير بن وهب الجمحي الذي تخلف هو الآخر لعذر عرض له ، ولكن الاشتراك في التخلف لم يخفف عن أبي خيثمة شعوره العميق بالتقصير .

وحينما اقترب الرفيقان من موكب الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، قال أبو خيثمة لعمير : إن لي ذنباً فلا عليك أن تتخلف عني حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإنما قال هذا من عميق إحساسه بالتبعة ، وصادق رغبته في التطهر من الإثم ، وتقدم أبو خيثمة فسبق زميله في المسير ، وتطلع المرافقون للرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فرأوا شخصاً مقبلاً نحوهم ، فقالوا للرسول : هذا راكب على الطريق مقبل .

فقال صلى الله عليه وسلم : كن أبا خيثمة ! وهذا تعبير لفظه الأمر ، ولكن معناه الدعاء ، كما تقول : سلم سلمك الله . وقيل إن معنى كن ، هو خبر . يقال للرجل يرى من بعيد : كن فلاناً ، أي هو فلان .

وما كاد النبي يتم كلمته حتى كان الذين حوله قد تبصروا القادم وعرفوه، فقالوا مؤيدين ما هتف به سيد الخلق . يا رسول الله ، هو والله أبو خيثمة .

وأقبل أبو خيثمة خاشع الطرف ، خافض الهامة ، وئيد الخطوات ، خافق القلب . أقبل على قائده ورائده وسيده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلم عليه فرد عليه السلام وقال له : أولى لك يا أبا خيثمة (١) .

وهنا أخذ أبو خيثمة يشرح لرسول الله ما كان من أمره ، ويعتذر إليه في صدق وإخلاص ، فقبل النبي عذره ، وتفهم أمره ، وقدر إخلاصه وشعوره ، فقال له خيراً ، ودعا له بخير .

وفي هذه الحادثة يقول أبو خيثمة :

لما رأيت الناس في الدين نافقوا ... أتيت التي كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدي لمحمد ... فلم أكتسب إثماً ولم أغش محرما
تركت خضيباً في العريش وصرمة ... صفايا كراماً بُسرها قد تحمما
وكنت إذا شك المنافق أسمحت ... إلى الدين نفسي شطره حيث يمّما (٢)

* * *

وقد ذكر المفسر البيضاوي أن القرآن الكريم قد أشار إلى حادثة أبي خيثمة حين قال في سورة التوبة :

---

(١) « أولى لك » كلمة تلهف ، تقال للرجل اذا أفلت من عظيمة .

(٢) الروض الأنف ، ج ٢ ص ٣١٨ . والخضيب : المرأة المخضوبة ، يعني زوجته . والصرمة : القطعة من الابل ، وهو يريد هنا الطائفة من النخل . والصفايا : الكثيرة التمر . وتحمم : أخذ في الإرطاب فتلون بالسواد .

« ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبون بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصيب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً ، إلاّ كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلاّ كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » .

* * *

ومضى أبو خيثمة — رضي الله عنه — في ركاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، يؤدي واجبه ، ويناضل قدر استطاعته ، وامتدت به الحياة بعد وفاة رسول الله ، فجاهد ما جاهد في عهد أبي بكر رضوان الله عليه ، وجاهد ما جاهد في عهد عمر رضوان الله عليه ، وجاهد ما جاهد في عهد عثمان رضوان الله عليه ، وجاهد ما جاهد في عهد علي رضوان الله عليه .

ثم جاهد بعد ذلك زمناً ، لأنه عاش إلى عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وتأبى الأقدار الحكيمة إلاّ ما تشاء ، فالمجاهد الذي حرص على المسارعة إلى ميدان التضحية والفداء ، سلم وغنم ، وعاش وامتد به العيش عشرات من السنين ، وفوق تدبيرنا لله تدبير : « قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

والمجاهد الذي راقب ربه ، وخاف ذنبه ، وحاسب نفسه ، وسارع إلى ما يرضي بارئه ، قد حفظه البارىء المصور ، وحقق له هداه ، وزانه برضاه .

إن لله في صدر المؤمن الصادق شعلة قدسية نستطيع أن نسميها « الوازع الديني » ، ونستطيع أن نسميها « الضمير الحي » ونستطيع أن نسميها المراقبة لله عز وجل ، ومهما كان اسمها فإنها شعلة إلهية في صدر المؤمن لا يتم إخلاصه إلاّ بها في مواطن التضحية والفداء .

المقداد بن عمرو البهراني

لا ينبغي أن ينسينا كر الغداة أو مر العشي أن ملاك الأمر في حياة الأمة وعزتها هو استشعار روح الجهاد والفداء ، والاعتصام الدائم بحبل الله خالق الأرض والسماء ، وما أكثر النماذج التي تتجلى لنا في أهل القدوة والأسوة من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وهذا واحد منهم :

إنه الصحابي السابق إلى الفداء : أبو سعيد [1] المقداد بن عمرو بن ثعلبة الكندي البهراني الحضرمي ، الذي يصفه أبو نعيم في كتابه « حلية الأولياء » بقوله : « السابق إلى الإسلام ، والفارس يوم الحرب والإقدام ، ظهرت له الدلائل والأعلام ، حين عزم على إسقاء الرسول عليه السلام والإطعام [2] ، أعرض عن العمالات ، وآثر الجهاد والعبادات ، معتصماً بالله تعالى من الفتن والبليات » [3] .

وقد أسلم المقداد في أول الدعوة ، وكان أحد سبعة أظهروا إسلامهم في

---

(١) وقيل : أبو عمرو ، وقيل أبو الاسود ، والسبب في ذلك ان الاسود ابن عبد يغوث الزهري تبنـاه ، وهو حليف له ، ولذلك كان يقـال للمقداد : المقداد بن الاسود حليف بني زهرة .
(٢) سيأتي بيان لهذه العبارة .
(٣) حلية الأولياء ، ج ١ ص ١٧٢ .

مطلع البعثة ، فأخذهم المشركون فألبسوهم دروع الحديد على أجسادهم وعذبوهم في لهب الشمس ، فاحتملوا راضين ، ضاربين المثل في إيثار ما عند الله على ما عند الناس .

يقول عبد الله بن مسعود : « أول من أظهر إسلامه سبعة [1] : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد ، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله تعالى بعمه ، وأما أبو بكر فمنعه الله تعالى بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون ، وألبسوهم دروع الحديد ، ثم صهروهم في الشمس » .

ثم زاد الاضطهاد ، وضاقت البلاد ، فأرغم المقداد على ترك وطنه وهاجر مع من هاجر إلى الحبشة ، ثم عاد فهاجر إلى المدينة ، وهناك آخى الرسول بينه وبين المجاهد الشهيد طلاب الشهادة : عبد الله بن رواحة [2] أحد الأبطال الثلاثة الشهداء في غزوة مؤتة .

وإن نسينا فلا يليق بنا أبداً أن ننسى أن المقداد بن عمرو هو الذي نهض واقفاً بين الصحابة من المهاجرين والأنصار ، قبيل غزوة بدر ، وقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، بل نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى « برك الغماد » [3] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، ولنقاتلن

---

(١) هناك خلاف في ترتيب أوائل المسلمين .
(٢) انظر تصوير بطولته في كتابي « الفداء في الاسلام » ص ١٢٢-١٢٢ .
(٣) برك الغماد ــ بكسر الباء وسكون الراء ، ثم كسر الغين ــ ، موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر ، وقيل : بلد باليمن ، او اقصى معمور الارض .

عن يمينك ، وعن يسارك ، وبين يديك ، ومن خلفك ، حتى يفتح الله عليك .

فقال له الرسول خيراً ودعا له ، وشاركه سعد بن معاذ في مثل هذا المعنى ، كما جاء في كتاب معجم البلدان .

ولقد علق عبد الله بن مسعود على موقف المقداد فقال :

« لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما في الأرض من شيء ؛ كان رجلاً فارساً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه ، فأتاه المقداد على تلك الحال ، فقال : أبشر يا رسول الله ، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن والذي بعثك بالحق لنكونن من بين يديك ، ومن خلفك ، وعن يمينك ، وعن شمالك ، أو يفتح الله لك » .

وهكذا يكون الرجال الشرفاء ، والجنود الأوفياء ، والمجاهدون الأتقياء ، الذين يستحقون النصر ، ويفوزون بالرفعة والعلاء . ولذلك قال عبد الله بن مسعود أيضاً : « شهدت من المقداد بن عمرو مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عدل به : أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يدعو على المشركين يوم بدر ، فقال : يا رسول الله ، إنا لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن امض ونحن معك ؛ فكأنه سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

* * *

ولقد رووا عن المقداد أنه كان يقال له : فارس رسول الله ، وأنه أول من عدا به فرسه في سبيل الله ، ولذلك قال الإمام النووي : « لم يثبت أنه شهد بدراً فارس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غير المقداد » .

ولعل هذه الفروسية المبكرة المتوحدة عنده كانت — إلى جوار استعداده البطولي المؤمن — سبباً في سرعة استجابته لنداء الاستغاثة وصوت النجدة ، فما سمع المقداد صوتاً يطلب المعاونة أو الإغاثة إلاّ لباه مسرعاً ، لا يسبقه في ذلك إلاّ شخص واحد ، هو سيدنا رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام .

ولذلك تروي السيرة العطرة أن المشركين أغاروا ذات ليلة على بعض المسلمين الذين كانوا في أطراف المدينة ، وارتفعت الصيحات تطلب النجدة ، فكان أول مجيب من الصحابة هو الفارس المقدام : المقداد بن عمرو ، وهناك وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سبقه ، فكان المقداد في هذا الموقف ثاني اثنين ، مما جعل الرسول يثني عليه ، ويحمد له استجابته لنداء الحق والواجب ؛ ولا عجب ، فالله جل جلاله يقول للأخيار من عباده في سورة الأنفال : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون » .

وكان المقداد — إلى جوار بطولته وشجاعته وجهاده الفدائي في المواطن — موضع ثقة الرسول عليه الصلاة والسلام فيما يؤتمن عليه من أسرار وواجبات ، وهذه منزلة لا يبلغها الصحابي من نفس النبي العظيم إلاّ بجدارة واستحقاق.

ومن الشواهد على ذلك أن المقداد كان ثالث اثنين — هما علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام — أرسلهم النبي سراً وراء المرأة التي استخدمها حاطب بن أبي بلتعة ، لتحمل خطاباً من المدينة إلى المشركين في مكة ، تنبئهم أن الرسول وصحبه يستعدون لفتح مكة .

ولكن المقداد لم يكن ليغتر أو ينخدع ببلوغه هذه المكانة من نفس المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، بل كان صاحب شخصية أمينة متواضعة ، يؤثر ما عند الله على ما عند الناس ، ويضايقه ما يجد في مفاخر الحياة الدنيا من إسباب لتضليل النفس ، وإخراجها عن صراطها المستقيم .

ولقد ولاه الرسول عملاً من الأعمال ، وجعله فيه أميراً ، فلما عاد سأله الرسول : كيف وجدت الإمارة يا مقداد ؟ فرد عليه في صراحة وإخلاص قائلاً : يا رسول الله لقد جعلتني الإمارة أنظر إلى نفسي كما لو كنت فوق الناس ، وهم جميعاً دوني ، والذي بعثك بالحق لا أتأمر على اثنين بعد اليوم أبداً.

ولقد حدّث المقداد عن نفسه (١) فذكر أنه أقبل مع صاحبين له ، قد كادت تذهب أسماعهم وأبصارهم من الجهد والتعب ، فجعلوا يعرضون أنفسهم على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يجدون لهم متسعاً ، حتى انطلق بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته ، وكان عند الرسول ثلاث أعنز يحتلبونها ، فكان يوزع اللبن عليهم ، وكانوا يحفظون للنبي نصيبه إذا كان غائباً ، ثم يأتي النبي فيدخل فيسلم تسليماً يسمع اليقظان ولا يوقظ النائم . فقال الشيطان للمقداد موسوساً إليه : لو شربت هذه الجرعة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يأتي الأنصار فيتحفونه . وما زال الشيطان بالمقداد — كما يعبر المقداد نفسه — حتى شربها ، ثم عاد الشيطان بعد ذلك يثير الندم في نفس المقداد ويقول له : ما صنعت ؟ ما صنعت ؟ إن الرسول سيأتي فلا يجد شرابه ، فيدعو عليك فتهلك .

وكان الرفيقان قد شربا نصيبهما وناما ، وأما المقداد فلم يأخذه النوم وظل أرقاً قلقاً ، وكانت عليه شملة إذا وضعها على رأسه ظهرت قدماه ، وإذا وضعها على قدميه ظهر رأسه. وجاء النبي صلى الله عليه وسلم كما كان يجيء ، وصلى ما شاء له الله أن يصلي ، ثم نظر إلى شرابه فلم يجد شيئاً ، فرفع يديه في هيئة الدعاء ، فقال المقداد لنفسه : يدعو عليّ الآن فأهلك .

وهنا قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : اللهم أطعم من أطعمني ، واسق من سقاني .

---

(١) انظر حلية الأولياء ، ج ١ ص ١٧٣ .

وتأثر المقداد بهذا الدعاء ، وأخذ سكينه ، واتجه نحو الأعنز ليختار منها عنزاً يذبحها لرسول الله عليه الصلاة والسلام. وبينما هو يجسهن ويتحسسهن وجدهن مليئات باللبن ، فأخذ إناء كبيراً حلب فيه حتى امتلأ ، ثم جاء به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وناوله فشرب ، ثم نـاول الرسول المقدادَ فشرب ، ثم ناول المقداد الرسول فشرب ، ثم ناول الرسول المقداد فشرب .

ثم ضحك المقداد حتى استلقى على الأرض لما حدث ، فقال له الرسول مداعباً وملاطفاً : إحدى سوآتك يا مقداد . فقص عليه المقداد ما حدث لم يكتم منه شيئاً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما كانت إلاّ رحمة من الله عز وجل ، لو كنت أيقظت صاحبيك فأصابا منها » ؟ .

فأجابه المقداد : « والذي بعثك بالحق ما أبالي — إذا أصبتها أنت ، وأصبت فضلتك — من أخطأت من الناس » .

وهكذا تكون براءة النفوس الطاهرة التي لا تعرف الخداع ولا الكذب .

* * *

وواصل المقداد جهاده الفدائي البطولي ، واشترك في فتح الإسلام لمصر ، وطالت حياته ، وكثرت مناقبه ، وهو على طريق الحق ثابت لا يتحول ولا يتبلبل ، وكان يفخر بنعمة الإسلام كل الفخر ، ويعدها كبرى النعم ، ولا عجب فالله تعالى يقول في سورة الحجرات : « بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان » .

ولقد قيل له يوماً في أخريات حياته : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت ،

فقال : ما يحمل أحدكم على أن يتمنى مشهداً غيبه الله عز وجل عنه ، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه ؟ والله لقد عاصر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أقوام كبهم الله عز وجل على مناخرهم في جهنم ، لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم الله عز وجل لا تعرفون إلاّ ربكم ، مصدقين بما جاء به نبيكم عليه السلام ، وقد كفيتم البلاء بغيركم . والله لقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعث عليه نبي من الأنبياء ، في فترة وجاهلية ، ما يرون ديناً أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، حتى أن الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله عليه قفل قلبه للإيمان ، ليعلم أنه قد هلك من دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حميمه في النار ، وإنها للتي قال الله عز وجل : « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً » .

وكان المقداد لا يقبل الدنية في دينه ولا في دنياه ، ولا يسكت على ضعف أو باطل ، ويردد قوله : « لأموتن والإسلام عزيز » .

ولا غرو فقد كانت روح النضال مسيطرة على المقداد ، وكان يحرص على الجهاد طيلة حياته ، حتى في الوقت الذي كان له حق التخلف عنه بهذا العذر أو ذاك ، ولقد رآه أحد الناس يريد الغزو ، فقال له : لقد أعذر الله إليك . فأجاب : أتت علينا سورة البعوث (1) : « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعملون » .

بمثل هذه الروح استحق المقداد أن يقول فيه وفي أمثاله رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل أمر بحب أربعة ، وأخبرني أنه يحبهم » .

قيل : يا رسول الله ، سمّهم لنا .

---

(1) يعني سورة التوبة .

فقال : علي منهم (يقول ذلك ثلاثاً) وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان [1] .

* * *

توفي المقداد رضي الله عنه بالجرف ، وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة ؛ نحو الشام ، وقيل على عشرة أميال منها وهو نحو الشام ، كانت به أموال لأهل المدينة ، وحمل المقداد على رقاب الرجال إلى المدينة .

وقيل : توفي بالمدينة في خلافة عثمان سنة ثلاث وثلاثين للهجرة ، وهو ابن سبعين سنة ، وصلى عليه عثمان، وأوصى إلى الزبير بن العوام . رضوان الله على الجميع .

إن فم النبوة الطهور قد قال : « خيركم من طال عمره وحسن عمله ، وشركم من طال عمره وساء عمله » ، وشأن المجتمع الفاضل العاقل أن يحرص أبناؤه على حسن استغلال أيامهم وأعوامهم في خير ما تنفق فيه الأعمار ، حتى يكسبوا خير الدنيا ، ونعيم العقبى ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

---

(١) رواية الحلية : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » : « ان الله تعالى أمرني بحب اربعة ، واخبرني انه يحبهم ، وانك يا علي منهم ، والمقداد ، وأبو ذر ، وسلمان » رضي الله تعالى عنهم .

شعار تضحية وفداء

رأيتني منذ نكبتنا سنة ١٩٦٧ م وأنا أحرص على أن أحدث الجموع التي أؤمها في صلاة الجمعة ، في مسجد الرفاعي بالقاهرة، أو في غيره ، عن أعلام التضحية والفداء في تاريخ الإسلام ، ورأيتني أكرر في قراءة الركعة الأولى من صلاة الجمعة قول الله تبارك وتعالى في سورة التوبة :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ، التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين » .

ورأيتني أكرر في الركعة الثانية قول الله جل جلاله في سورة الصف :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين » .

ولقد سألني كثير عن الدافع الذي دفع إلى ذلك التكرار ، فأجبت بأن

هذه الآيات الواعظات الهاديات ، تدعونا إلى صدق الجهاد ، وترسم لنا طريق العزة والنصر ، وتذكر لنا صفات المجاهدين الظافرين . ولا شك أن أول واجبات الأمة – إذا ذاقت هوان الهزيمة والاحتلال – هو أن يصبح أبناؤها ويمسوا عاملين على غسل العار ، وتحرير الديار ، والأخذ بالثأر ، ولا يجوز بحال من الأحوال أن يشغلهم شاغل عن هذا الواجب المقدس ، الذي لا حياة لهم ولا كرامة دونه .

وما زلت أذكر يوم جمعة أقبل بعد الهزيمة المنكرة بقليل ، وحينما انتهيت من الصلاة وقد تلوت فيها الآيات السابقة ، أقبل نحوي أحد الشيوخ الفضلاء الطاعنين في السن ، وقال لي ، لقد تأثرت كثيراً بمعاني الآيات الكريمة التي تلوتها في الصلاة ، وهي مناسبة جداً لما نحن فيه ، وليتك تظل تتلوها حتى تلوح لنا بشائر النصر من عند الله عز وجل .

ونفذت كلمات الشيخ الراجية إلى قلبي فجذبته وشغلته ، وقلت في نفسي ولنفسي : ولم لا تستجيب لهذا التوجيه ؟ ومن عجيب صنع المقادير أن هذا الشيخ انتقل إلى رحمة ربه عقب ذلك بأيام دون أن أراه ، وظلت كلماته تدوي في رأسي كأنها تأتيني من العالم الآخر الذي انتقل إليه : ليتك تظل تتلو هذه الآيات حتى تلوح لنا بشائر النصر من عند الله عز وجل . ومضت الأسابيع وأنا أعاود تلاوتها ، وظل هاتف من الأعماق يناديني ، وكأنه يقول لي كلما توالت الأيام : لا تستطل المدة ، ولا تسأم من المعاودة ، فالنصر آتٍ بإذن الله متى صدق أبناء الإسلام ، وعملوا بما في هذه الآيات من توجيهات : « وذكر فإن الذكر تنفع المؤمنين » .

* * *

والحقيقة أن التكرار في مثل هذه المواطن ليس عيباً ، بل قد يكون أمراً

مستحسناً ، ونحن نفيء إلى كتاب الله المعجز ، وهو القرآن الكريم ، فنجده قد ارتضى التكرار طريقاً للبيان في أكثر من موطن ، فهو قد كرر قول الله تبارك وتعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » أكثر من ثلاثين مرة في سورة واحدة غير طويلة هي سورة « الرحمن » .

وهذا هو المفسر الآلوسي يقول في كتابه « روح المعاني » : إن هذا التكرار أحلى من السكر إذا تكرر ، وذكر عن السيد المرتضى أن هذا التكرار في سورة الرحمن إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المتعددة ، فكلما ذكر – سبحانه – نعمة أنعم بها ، وبخ على التكذيب بها . ومثل هذا التكرار موجود بكثرة في كلام العرب وأشعارهم ، فقد قال مهلهل قصيدة في رثاء « كليب » كرر فيها عدة مرات قوله : « على أن ليس عدلاً من كليب » ، كما أن هناك قصيدة أخرى من أشعار حرب البسوس تكررت فيها عبارة : « قربا مربط النعامة مني » مرات كثيرة .

وكذلك كرر القرآن المجيد قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » مرات في سورة القمر ، كما كرر في السورة ذاتها قوله تعالى : « فكيف كان عذابي ونذر » .

وكرر الحديث القدسي كلمة : « يا عبادي » عشر مرات في الحديث التالي :

« يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا .

يا عبادي ، كلكم ضال إلاّ من هديته ، فاستهدوني أهدكم .

يا عبادي ، كلكم جائع إلاّ من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم .

يا عبادي ، كلكم عار إلاّ من كسوته ، فاستكسوني أكسكم .

يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم .

يا عبادي ، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني .

يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .

يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً .

يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل واحد مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي ، إلاّ كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلاّ نفسه » . رواه مسلم .

* * *

ولقد كان للمسلمين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شعارات جهاد يرددونها ويعيدونها ويؤكدونها ، مثل قولهم : « يا أصحاب سورة البقرة » ، « يا منصور أمت » ، « حم لا ينصرون » . ويذكر ابن الأثير في كتابه « النهاية في غريب الحديث » أن الشعار من شأنه التكرار ، لأنه مأخوذ من لفظ « الشعار » وهو الثوب الذي يلي الجسد ، لأنه يلي شعره ويلازمه ، وذكر ابن الأثير أن كلمة : « يا منصور أمت » كانت من شعارات الصحابة في الغزو ، أي علامتهم التي كانوا يتعارفون بها في الحرب (١) .

---

(١) النهاية في غريب الحديث ، ج ٢ ص ٤٧٩ طبعة الحلبي .

وروت لنا السيرة العطرة أن النبي صلوات الله وسلامه عليه كان يقول عند كل قرية يدخلها في جهاده :

« اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ؛ ونعوذ بك من شرها ، وشر أهلها ؛ وشر ما فيها » .

وقد أخرج النسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك لكل قرية دخلها ، وعن كعب الأحبار : « والذي فلق البحر لموسى ، إن صهيباً حدثني أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرَ قرية يريد دخولها إلاّ قال حين يراها اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإنا نسالك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها ، وشر أهلها ، وشر ما فيها » . وفي رواية : « والذي فرق البحر لموسى إنها كانت دعوته حين يرى العدو »[1] .

وقد جاء في صحيح مسلم ، عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان ، قالت :

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة « ق » كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس[2] ، وفي رواية قالت : لقد كان تنورنا (الذي يخبز فيه وهو الفرن) وتنور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً ، سنتين أو سنة وبعض سنة ، وما أخذت (ق والقرآن المجيد) إلاّ على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس .

---

(١) التراتيب الادارية ، ج ١ ص ٣٨٤ .
(٢) تفسير الجمل ، ج ٤ ص ١٨٨ .

وفي رواية ثالثة : ما حفظت (ق) إلاّ من في رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب بها كل جمعة ، وكان تنورنا وتنور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً [1] .

وكذلك كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يكرر قراءة سورة ق في المجامع الكبار ، كعيد الفطر ، وعيد الأضحى ، مع تكرارها في الجمع ، وقد أخرج مسلم وأحمد وغيرهما عن أبي واقد الليثي أن النبي كان يقرأ في العيد بسورة ق وسورة اقتربت ، وكذلك كان النبي كثيراً ما يقرؤها في صلاة الفجر ، وقد روى مسلم أنه كان يقرأها في الركعة الأولى من صلاة الفجر [2] . ولعل السر في هذا التكرار لسورة ق هو اشتمالها على الحديث عن ابتداء الخلق ، وعن البعث والحساب ، والجنة والنار . . . الخ)[3] .

* * *

وهذا هو قتادة بن النعمان رضي الله عنه [4] ، كان أحد صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكان يلتزم في كل صلاة يؤم فيها الناس قراءة سورة الإخلاص ، وهي : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » . فكلمه في ذلك بعض الذين يصلون وراءه . وسألوه : لماذا لا يقرأ بسورة أخرى ؟ فأجابهم : ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم ذلك تركتكم .

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ص ٢٢٠ .
(٢) تفسير روح المعاني ، ج ٢٦ ص ١٥٥ طبعة المنيرية .
(٣) تفسير ابن الجوزي ، ج ٨ ص ٣ . وتفسير الجمل ، ج ٤ ص ١٨٨ .
(٤) اقرأ سيرته في كتابي : « فدائيون في تاريخ الاسلام » ، ص ٥٥ وما بعدها .

فلما أتاهم النبي صلوات الله وسلامه عليه أخبروه بذلك ، فقال الرسول لقتادة : وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة ؟

قال قتادة : إني أحبها .

فقال له النبي . حبك إياها أدخلك الجنة (١) .

قال العلماء : والتبشير بالجنة هنا يدل على الرضى بما فعله قتادة ، ويدل على جواز تخصيص بعض القرآن بالتلاوة والاستكثار منها لداع أو لسبب ، ولا يعد هجراناً لباقي القرآن الكريم (٢) .

وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يكرر التنفير من بعض الكبائر بصورة ملحوظة ، فقد روى الشيخان عن أبي بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم بأكبر الكبائر ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور — أو قول الزور — قال : فما زال يقولها حتى قلنا : ليته سكت .

ومعنى هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من ذكر شهادة الزور ، وتكرار التنفير عنها ، حتى تمنينا سكوته .

ثم إن الآيات التي كررتُ قراءتها جزء منها موجود في سورة التوبة . « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . . » الخ . وجزء منها موجود في سورة الصف : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة

---

(١) رواه الترمذي ، واخرجه البخاري تعليقا (نيل الاوطار للشوكاني ، ج ٢ ص ٢٢٨) وانظر ص ٦١ من كتاب (فدائيون في تاريخ الاسلام) ففيه رواية أخرى .
(٢) نيل الاوطار ، ج ٢ ص ٢٢٨ .

تنجيكم من عذاب أليم » الخ . وفي الجزءين عبر وعظات فيها بلاغ لقوم يعقلون ، فهي تحدثنا عن الصفقة التي يعقدها الله تبارك وتعالى مع المخلصين من عباده ، وهي أن يجاهدوا حتى ينتصروا أو يستشهدوا ، ولهم في مقابل ذلك جنة عرضها السموات والأرض .

وفي الآيات أيضاً إرشاد إلى طريق التجارة مع الله تعالى ، وهي تجارة رابحة مضمونة ، لا تخسر ولا تخيب . وفي الآيات أيضاً حديث عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها أهل الفوز والنصر من المجاهدين ، فهم « التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله » .

وفي الآيات كذلك إخبار عما يكون لهؤلاء المتصفين بهذه الصفات : « يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب » .

وفي الآيات تأكيد لأن هذه البشريات العظيمة الجليلة ، إنما تكون لمن آمن واهتدى ، واعتصم بحبل الله القوي المتين ، ولذلك ختمت الآيات في موضعيها بقوله سبحانه: « وبشر المؤمنين » وهذا يزكيه قوله تعالى في موطن آخر : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، ونصرنا لله إنما هو الإيمان به والإقبال عليه ، وأداء ما فرضه ، وتجنب ما نهى عنه ، وبذلك نكون من الفائزين .

* * *

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

لا تقطنوا : « ومن يقنط من رحمة ربه إلاّ الضالون » ؟

لا تيأسوا : « إنه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون » .

واصلوا العمل : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

أخلصوا لله الجهاد : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

بين الوفاء والفداء

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأُصلّي وأُسلّم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه، وأتباعه وأحبابه، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ؛ وأستفتح بالذي هو خير : (رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا ، وإِلَيْكَ أَنَبْنَا ، وإليكَ المَصِير) .

قبس من كتاب الله

« أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كما هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار » .

« سورة الرعد »

تصدير

هناك بين الوفاء والفداء خيط رقيق ، وثيق عميق ، يربط بين هذين المعنيين الجليلين أوثق رباط .

فالوفاء كلمة جليلة المدلول ، فيها معنى التزام الطريق ، والحفظ للعهد ، والثبات على الاعتقاد .

والفداء كلمة ثقيلة التبعات ، لأن مفهوم الفداء هو التضحية بكل غالٍ ونفيس ، حتى الحياة ، في سبيل التوفية بالعهد ، والصدق في الوعد .

وحينما تحدثت في الجزء الثاني من كتابي « أخلاق القرآن » ذلك الحديث الذي انفسح واتسع عن فضيلة « الوفاء » ، ذكرت أنه حسب الوفاء شرفاً وتمجيداً أن الله تبارك وتعالى جعله صفة من صفاته ، فقال : « ومن أوفى بعهده من الله » ؟ . .

كما أثنى الحق جل جلاله على أبي الأنبياء وخليل الرحمن « إبراهيم » بفضيلة الوفاء ، فقال : « وإبراهيم الذي وفى » .

ووعد سبحانه بعظيم الأجر وجزيل الثواب لمن جاهد نفسه حتى لازم شرعة الوفاء ، فقال : « بلى من أوفى بعهده وأتقى فإن الله يحب المتقين » . وقال : « ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

والأمم التي تبعث نهضتها ، وتحقق عزتها ، محتاجة دائماً إلى هذين الأمرين العظيمين : الوفاء والفداء ، ليكون الوفاء تاج قيمها ومبادئها ، وليكون الفداء سنتها وشعارها . وامتنا الماضية في مسيرتها نحو استرداد مكانتها ، واستيفاء كرامتها ، محتاجة أكثر من غيرها إلى هاتين الفضيلتين ، مع إحكام الربط بينهما ، ليكون أحدهما اعتقاداً ، والآخر استعداداً ، فيثمر ذلك الالتحام ثمرته ، من حياة أفضل ومسيرة أكرم .

وإذا كانت مقتضيات حياتنا النضالية الحاضرة المستمرة ، تتطلب ذلك وتلح فيه ، فإن من فضل الله علينا أن مواريثنا الروحية والتاريخية تنطوي على أمثلة رائعة لحسن الجمع بين الوفاء والفداء .

وهذه طائفة من تلك الأمثلة ، ظلت عبر القرون مجهولة أو مطوية ، لا يقف عليها ، أو يتطلع إليها ، أو يتأمل فيها ، أكثر أبناء هذه الأمة .

ولقد طمح القلم اليوم — كما طمح من قبل أكثر من مرة — أن تكون تجلية هذه الأمثلة المجهولة من قبل ، معواناً على تثبيت عقيدة الوفاء ، وإذكاء روح الفداء ، في عصر استبان فيه لكل ذي عينين أن طريقنا لا يعتدل ولا يستقيم ، إلا إذا كان على جانبيه رائدان أمينان ، هما العلم والإيمان .

« وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين » .

د . أحمد الشرباصي

النعمان بن بشير بن سعد الانصاري

من نعم الله الكبرى على الإنسان أن يوفقه إلى الكلم الطيب الصادق يقوله ويصدع به ، ويكون معه العمل الصالح يلازمه ويصاحبه ، لأن المنطق الكريم عنوان التفكير السليم والاعتقاد القويم .

ولعل هذا بعض ما يشير إليه الحق جل جلاله حينما يصف الفائزين من عباده بأنهم « الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » . فالجهر المخلص بعقيدة التوحيد ترجمان لما في القلب من إيمان وطيد ، والاستقامة على الطريق تطبيق بصير لما آمن به الإنسان في قلبه ، وترجم عنه بلسانه ، ولهذا أوجز رسول الله صلى الله عليه وسلم النصيحة لمن جاءه يطالبها فقال له : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك .

فأجابه الرسول : قل آمنت بالله ثم استقم .

ومن هنا قال أئمتنا أن الإيمان ينهض على ثلاث دعائم ، هي الاعتقاد بالجنان ، والإقرار باللسان ، والأداء للأركان .

وإذا كان الكلام سهلاً ميسوراً ، فإنه لا يقام له عند العقلاء ميزان إلا إذا كان معه أو من ورائه تطبيق وسلوك والتزام ، وهذا التطبيق يبدأ في منطق الدين بالأساس الأول ، وهو المحافظة على أداء الشعائر والعبادات ، ثم يقترن ذلك بحسن المعاملة مع الناس في مختلف الحالات ، ولا يزال الإنسان يحيا عابداً

صالحاً مصلحاً ، مجاهداً مناضلاً فاضلاً ، مقبلاً على ساحات الوفاء والفداء ، بلا تردد أو إبطاء ، واثقاً بما عند الله أكثر من وثوقه بما بين يديه ، راضياً بما يسوقه الله تعالى إليه ، مردداً شعار المجاهدين المؤمنين : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، حتى يلقى الله وهو على سواء الطريق .

وهكذا كان الأخيار الأبرار من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام : نظروا فاعتبروا ، وعرفوا فاغترفوا وسلكوا فملكوا ، وعملوا فحققوا ، وجاهدوا فصدقوا ، ومضوا إلى ربهم مقبلين على خير الثواب لديه ، فنعم عقبى الدار : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه » .

وهذا واحد من هؤلاء :

إنه الصحابي ابن الصحابي وابن الصحابية ، المجاهد الحميد الشهيد ، أبو عبد الله النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن جلاس [1] الأنصاري [2] .

ووالد النعمان صحابي جليل ، ومجاهد شهيد ، بايع بيعة العقبة الثانية ، وشهد غزوتي بدر وأحد والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذاق نعمة الشهادة سنة اثنتي عشرة في غزوة عين التمر .

---

(١) بالجيم المضمومة ، وقيل : خلاس ـ بفتح الخاء وتشديد اللام « تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ١٢٩ » .

(٢) الى النعمان تنسب بلدة « معرة النعمان » في سورية ، بلد أبي العلاء المعري ، مر بها النعمان ، فمات له ولد عندها ، فدفنه فيها فنسبت اليه. انظر ما كتبه ياقوت في معجم البلدان ج ٥ ص ١٥٦ طبعةبيروت.

وأم النعمان هي عمرة بنت رواحة الصحابية الفاضلة ، التي أسلمت وبايعت الرسول ، وهي أخت الصحابي البطل ، المجاهد الشهيد : عبد الله ابن رواحة أحد أبطال غزوة « مؤتة » (١) .

ولقد ولد النعمان في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة ، وكان أول مولود من الأنصار بعد الهجرة .

يروى أنه ولد على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة ، وقيل في مولده غير ذلك ، ولكن ما ذكرناه هو الأصح والأشهر (٢) . وجاء في كتاب الأغاني في شأن النعمان : « يقال إن النعمان بن بشير أول مولود ولد بالمدينة بعد قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إياها ، وقد قيل ذلك في عبد الله بن الزبير ، إلاّ أن النعمان أول مولود ولد بعد مقدمه عليه السلام من الأنصار » (٣) .

وعقب مولد النعمان جاءت به أمه تحمله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحنكه « أي دلك حنكه بتمر مضغه » ، وبشر أمه بأنه سيعيش حميداً ، ويقتل شهيداً ، ويدخل الجنة (٤) .

وببركة هذا الدعاء عاش النعمان في خير وسعة ، وكتب الله له حسن الخاتمة بالشهادة .

وكان النعمان بن بشير رضي الله عنه رجلاً كريماً جواداً ، شاعراً قوالاً (٥) أميراً خطيباً ، يقول عنه سماك بن حرب : « كان النعمان من أخطب من سمعت » .

---

(١) تحدثت عن بطولته في كتابي « الفداء في الاسلام » .
(٢) انظر « الفداء في الاسلام » ص ١٢٢ ــ ١٣٢ .
(٣) الاغاني ج ١٦ ص ٢٩ طبعة دار الكتب المصرية .
(٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٤ .
(٥) تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١٣٠ .

وكان إذا خطب على المنبر أكثر من قراءة القرآن الكريم ، وأنعم بذلك من طريقة ، فإن القرآن هو الرائد والقائد : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » .

وللنعمان بن بشير ديوان شعر مطبوع . وقد نشأ في أسرة يقول أفرادها الشعر ، ولذلك جاء عنه في كتاب الأغاني هذه العبارة :

« والنعمان بن بشير هو من المعروفين في الشعر سلفاً وخلفاً ، جده شاعر ، وأبوه شاعر ، وعمه شاعر ، وهو شاعر ، وأولاده وأولاد أولاده شعراء » . ومن أولاده ولد اسمه : عبد الله ، كان شاعراً ، وولد آخر اسمه إبان ، كان شاعراً مكثراً . وله ولد ثالث اسمه يزيد ، كان شاعراً مكثراً مجيداً ، وأخوه إبراهيم بن بشير بن سعد ، كان شاعراً مكثراً ، وله ابنة تسمى « حميدة » كانت شاعرة ذات لسان (1) .

ولقد وقف النعمان على المنبر يوماً ـ كما قص الأصبهاني ـ فقال للناس : أتدرون ما مثلي ومثلكم ؟ قالوا : لا . قال : مثل الضبع والضب والثعلب ، فإن الضبع والثعلب أتيا الضب في وجاره ، فنادياه ، يا أبا الحسل .

فقال : سميعاً دعوتما .
قالا : أتيناك لتحكم بيننا .
قال : في بيته يؤتى الحكم .
قالت الضبع : إني حللت عيبتي .
قال : فعل الحرة فعلت .
قالت : فلقطت تمرة .

---

(1) الاغاني ج ١٦ ص ٤٣ و ٥١ و ٥٢ .

قال : طيباً لقطت .

قالت : فأكلها الثعلب .

قال : لنفسه نظر .

قالت : فلطمته .

قال : بجرمه .

قالت : فلطمني .

قال : حر انتصر .

قالت : فاقض بيننا .

قال : قد فعلت .

* * *

ولكن هذا الرجل الشاعر ، الخطيب ، الجوال في مناحي الكلام ، الذي يستجيب فيه أحياناً لتوقد مشاعره ، أو شجون نفسه ، أو هوى قلبه ، كان رجلاً عملياً نضالياً ، وقد يدلنا على ذلك انه استجاب لدعوة الإسلام وهو ما زال في باكورة فتوته ، ثم أقبل عقب ذلك مع زميل له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجوانه في أن يخرجا معه إلى الجهـــاد ، ولكن النبي استصغرهما وردهما)١ .

وهذا يدلنا على أن النعمان لم يكن رجل كلام يشققه وينمقه فحسب ، بل كان مع هذا أو قبله رجل ميدان ، يريد — حتى قبل الأوان — أن يندفع إلى معترك النضال والطعان ، ولذلك لم يكن غريباً بعد هذا أن نشهد النعمان بن بشير وهو يشترك في كثير من المعارك والحروب .

---

(١) الاغاني ، ج ١٦ ص ٢٨ .

وكأن شخصية النعمان قد أعجبت أباه ، فأراد أن يخصه بشيء من ماله دون أخوته ، ولكن أم النعمان رفضت ذلك ، حتى يوافق عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا تحرز منها واحتياط .

يقول النعمان في ذلك : أعطاني أبي عطية ، فقالت أمي عمرة لأبي : لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتى أبي رسول الله ، فقال له : يا رسول الله ، ابني من عمرة أعطيته عطية ، فأمرتني أن أشهدك ، فقال له النبي : أأعطيت كل ولدك مثل هذا ؟ قال : لا . قال النبي : فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم .

ولم يغضب النعمان من ذلك ولم يتألم ، لأنه يؤمن بقول الله عز من قائل : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وإذا كان في الناس أناس كثيرون يعتزون بأنسابهم ، ويفخرون بأحسابهم ، ويتباهون بآبائهم وأجدادهم . فقد كان النعمان بن بشير يعتز اعتزازاً كبيراً بلقب « الأنصار » ، لأنه اللقب الكريم الذي يشير إلى أنهم نصروا الإسلام ، وأعزوا رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وكان الأنصار يحبون دائماً أن يصفهم الواصف بوصف « الأنصار » ، وأن ينادي عليهم المنادي باسم « الأنصار » ، لا باسم قبائلهم أو عشائرهم ، وحق لهم ذلك ، فهذا هو تعبير القرآن الكريم عنهم ، فقد قال في سورة التوبة : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم » .

وقال أيضاً : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه

في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم » .

ولقد أراد بعض الأشخاص أن ينادي على الأنصار بأسماء قبائلهم ، فلم يستجيبوا له ، وفي طليعتهم النعمان ، وحينما نادى عليهم باسم « الأنصار » أجابوا ، وفي ذلك قال النعمان :

يا سعد ، لا تعد النداء فما لنا   نسب نجيب به سوى « الأنصار »

نسب تخيره الإلـه لقومنـا   أثقـل بـه نسباً على الكفّار

وتقلبت الأيام والأحداث بالنعمان بن بشير ، وطوحت به الدنيا ذات اليمين وذات الشمال : بايع لعبد الله بن الزبير ، واستعمله معاوية على حمص ، ثم على الكوفة ، واستعمله عليهما بعده يزيد بن معاوية ، وتولى القضاء بدمشق.

وظل يجمع بين روعة المقال ، وروعة الفعال ، وروعة النضال ، وهو حامل نفسه — قدر طاقته — على سواء السبيل ، يخاف المعصية ويخشى العقاب ويردد قوله : « إن الهلكة كل الهلكة أن تعمل السيئات في زمن البلاء » . ويحاول ما وسعته المحاولة أن يربط قلبه بالله ، لأنه الذي روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن واقع الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وأن لكل ملك حمى ، إلاّ وأن حمى الله محارمه ، إلاّ وأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

وقد روى النعمان الحديث عن أبيه ، وروى أكثر من مائة حديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وقتل النعمان شهيداً بالشام ، في قرية من قرى حمص ، في ذي الحجة

سنة أربع وستين ، وقيل سنة ستين ، وقيل سنة خمس وستين . قتله أعداؤه في قرية يقال لها « بيرين » ، قتله رجل اسمه خالد بن خلي المازني الكلاعي [1] ، وبعد أن قتله أعداؤه قطعوا رأسه ، وذهبوا به فألقوا الرأس في حجر زوجته !

وقد رثته بنته بأبيات قالت فيها :

ليت ابن مرنة وابنه كانوا لقتلك واقيه
وبني أميـة كلهم لم يبقَ منهم باقيه
جـاء البريـد بقتلـه يـا للكلاب العـاويه
يستفتحـون برأسه دارت عليهـم فانيه
فـلأبكـين سريرة ولأبكـين عـلانيه
ولأبكينك مـا حييت مـع السباع العـاويه

سلام على المجاهد الحميد الشهيد : النعمان بن بشير ، ورضوان الله تبارك وتعالى عليه .

---

(١) انظر معظم البلدان ج ١ ص ٥٢٦ . والاعلام ، ج ٩ ص ٤ . والبداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٤ .

هاشم بن عامر بن أمية الأنصاري

تمر في تاريخ الأمم أوقات عصيبة رهيبة ، تحتاج فيها إلى أفراد أفذاذ من أبنائها ، يهبهم الله قوة الحس وسمو النفس ، وصدق الإيمان وعمق اليقين ، وروح الإقدام وروعة الاقتحام ، فيقومون بأعمال بطولية فدائية — أو كما يعبر أبناء العصر : بأعمال انتحارية — يردون بها على أمتهم كرامتها وسمعتها ، ويذكرون الناس بأن الإيمان إذا عمر قلباً ، وتمكن منه ، صار الموت عند صاحبه — في سبيل الله — أحلى وأعلى وأغلى من الحياة في ظل الضيم والهوان .

وفي تاريخ أمتنا المؤمنة نماذج كثيرة لهؤلاء الباذلين المضحين المفتدين ، يمر بالخاطر منهم الآن ، الحسين أبو الشهداء ، بطل كربلاء ، والمجاهد المقدام : أبو عبيد بن مسعود الثقفي صاحب موقعة الجسر ، وعبد القادر الحسيني شهيد معركة القدس في فلسطين . أين الآن فلسطين يا جموع العرب والمسلمين ؟ . . ردها الله على العرب والمسلمين .

وما أشد حاجة أمتنا الآن إلى الاهتداء والاقتداء بمدرسة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، التي خرجت الكثيرين ممن باعوا أنفسهم لله ربهم ، وبادروا إلى مصارعهم في مواطن الحق ، لا يريدون عرضاً ولا طمعاً ولا متاعاً ، ولا يحسبون حساب الحياة والموت ، بل يريدون فقط ابتغاء وجه الله العلي الكبير .

وهذا واحد من هؤلاء . . .

إنه البطل الإسلامي ، الصحابي الجليل : هشام بن عامر بن أمية بن زيد الأنصاري ، الذي كان يسمى في الجاهلية باسم : « شهاب » ، فلما دخل في الإسلام غير النبي — صلى الله عليه وسلم — اسمه إلى « هشام » (1) .

وقد كان هشام من سلالة مؤمنين مجاهدين، فأبوه عامر بن أمية اشترك في غزوة بدر ، وأنعم بما لأهل بدر من فضل وذكر ، وقدر وأجر . ثم اشترك عامر في غزوة أُحد العصيبة ، ونال فيها نعمة الشهادة (2) ، بعد أن أبلى في سبيل الله بلاء حسناً .

وكان الشهداء يوم أُحد كثيرين ، والأحياء من المجاهدين فيها قد أصيبوا بجراح وطعنات ، حتى ضعفوا عن أن يحفروا لكل شهيد قبراً مستقلاً ، فسألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام : ماذا يصنعون ؟

فقال لهم : احفروا وأوسعوا وأعمقوا ، واجعلوا الرجلين والثلاثة في القبر الواحد .

فسألوه : ومن نقدم منهم ؟

فقال : قدموا أكثرهم قرآناً .

قال هشام بن عامر وهو يروي الخبر : فقدموا أبي بين يدي اثنين من الأنصار (3) .

وفي رواية أن الرسول كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ، ثم يقول : أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ . . فإذا أشير إلى أحدهما

---

(1) الاصابة ، ج ٣ ص ٥٧٣ .
(2) الاستيعاب على هامش الاصابة ، ج ٣ ص ٩ .
(3) أسد الغابة ، ج ٥ ص ٤٠٣ .

قدمه في الدفن ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة [1] .

ونفهم من رواية هشام السابقة أن والده كان حريصاً على تلاوة القرآن الكريم وحفظه ، ومن جعل القرآن سميره وأميره وظهيره فقد فاز فوزاً عظيماً .

ولذلك حق للسيدة عائشة رضي الله عنها أن تقول عن والد هشام : « نعم المرء كان عامر » !

ولقد دخل هشام على السيدة عائشة بعد استشهاد أبيه ، فقالت له : « نعم المرء كان أبوك عامر » [2] .

* * *

ونشأ هشام بن عامر شجاعاً مقداماً ، مضحياً جسوراً ، وطالت به حياة الكفاح والنضال ، حتى تألق نجمه ، ومما يدل على ذلك أن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه اختار أبا موسى الأشعري ليكون قائد الجيش ، وقال له :

يا أبا موسى ، أني مستعملك ، وأني أبعثك إلى أرض قد باض فيها الشيطان وفرخ ، فالزم ما تعرفه ، ولا تستبدل فيستبدل الله بك ! . .

فقال له أبو موسى : يا أمير المؤمنين ، أعني بعدة من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار ، فإني وجدتهم في هذه الأمة وهذه الأعمال كالملح لا يصلح الطعام إلاّ به .

فقال له عمر : فاستعن بمن أحببت .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ص ٨١ و ٨٤ .
(٢) الاستيعاب ، ج ٣ ص ٩ .

فاستعان أبو موسى بتسعة وعشرين رجلاً ، كان منهم هشام بن عامر [1] .

* * *

وفي سنة ثمان وعشرين للهجرة قاد هشام بن عامر جيشاً فتح به مدينة « اصطخر » في بلاد فارس ، وهي — كما يذكر ياقوت — من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها ، ومن أقدم المدن فيها وأشهرها ، وبينها وبين شيراز اثنا عشر فرسخاً ، وكانت فيها قبل الإسلام خزائن الملوك [2] .

وبعد ذلك بحين اشترك هشام في معركة القسطنطينية عاصمة ديار الروم يومئذ ، وهي « اصطنبول » [3] ، وكان سمك سورها واحداً وعشرين ذراعاً .

وتطلع هشام إلى صف الأعداء الواقف في وجه المجاهدين المسلمين ، وهم بحاجة إلى اقتحامه وإحداث ثغرة فيه ، فاندفع نحوه هشام بلا ارعواء ولا إبطاء ، وقذف بنفسه على الصف ، وأخذ يجاهد ويجالد ، حتى أحدث فيه الثغرة المرجوة ، ودفع ثمنها ، وكان الثمن حياته ، حيث نال نعمة الشهادة ، ومضى إلى ربه عظيماً كريماً ، بعد أن أدى واجبه الجهادي خير الأداء ، وفتح أمام رفاقه طريق الظفر والانتصار .

وخيل إلى بعض الناس أن هذا التصرف من هشام فيه مخالفة لأمر الله عز وجل ، لأنه يقول في سورة البقرة : « وانفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » .

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٧١ .
(٢) معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٢١ طبعة بيروت .
(٣) كذلك رسمها ياقوت . انظر كتابي « الفداء في الاسلام » ص ١٦٨ . الطبعة الثانية .

وقال هذا البعض : يرحم الله هشام بن عامر ، لقد ألقى بيده إلى التهلكة .

وسمع هذا التعليق أبو هريرة رضي الله عنه فاستنكره وقال : لا والله ما ألقى هشام بيده إلى التهلكة ، ولكنه التمس قول الله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة لله ، والله رءوف بالعباد »[1] .

وكان أبو هريرة على حق في هذا الاستنكار ، لأن الآية الأولى السابقة تحث على الإنفاق في سبيل الله للاعداد والاستعداد ، وتحذر الوقوع في الهلاك والخسران إذا كان هناك امتناع عن هذا الانفاق ، فكأن إلقاء الأيدي إلى التهلكة يراد به ما يعقب البخل والشح من خسار وبوار .

ولذلك ورد عن ابن عباس انه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى الجهاد ، قام إليه أناس من الأعراب حاضرون بالمدينة فقالوا : بماذا نتجهز ؟ فوالله ما لنا زاد ، ولا يطعمنا أحد . فنزل قوله تعالى : « وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

أي تصدقوا يا أهل الميسرة في سبيل الله وطاعته ، ولا تمسكوا بأيديكم عن الإنفاق على الضعفاء والفقراء فتهلكوا ، لأنهم إذا تخلفوا عنكم في الجهاد غلبكم العدو فتهلكوا[2] .

وتعرض السدي لتفسير قوله تعالى ؛ « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فقال : « انفق ولو عقالاً ، ولا تلق بيدك إلى التهلكة فتقول : ليس عندي شيء.

وكذلك قال حذيفة وابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وجمهور الناس :

---

(١) انظر تفسير الطبري ، ج ٢ ص ٣٢١ . وتفسير القرطبي ، ج ٣ ص ٢١ والاصابة ج ٣ ص ٥٧٣ .
(١) تفسير القرطبي ، ج ٢ ص ٣٦٢ .

المعنى لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بأن تتركوا النفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة « الفقر » فيقول الرجل : ليس عندي ما أنفقه .

وقال ابن عباس : انفق في سبيـــل الله ، وإن لم يكن لك إلاّ سهم أو مشقص ، أي نصل عريض ، أو سهم له نصل يرمى به (١) .

وتعرض الأستاذ الإمام محمد عبده لتفسير الآية ، فاستحسن ما ذكره تفسير الجلالين من أن المراد بالإنفاق في سبيل الله هو الإنفاق في الجهاد والطاعة ، وأن التهلكة هي الإمساك والامتناع عن الجهاد ، واستنكر أن يكون المراد : لا تقاتلوا إلاّ حيث يغلب على ظنكم النصر وعدم الهزيمة .

كما ذكر أن تفسير « التهلكة » هنا بالإسراف لا يلتئم مع الأسلوب قبله وبعده .

ولكن الذي يلتئم ويناسب هو : إذا لم تبذلوا في سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد ، فقد أهلكتم أنفسكم (٢) .

وأما الآية الثانية السابقة : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » فهي حث رائع على أن يبيع المسلم نفسه في سبيل رضا ربه ، ولا يتردد في التضحية بها مز أجل خالقه ، ولذلك جاء في تفسير المنار :

« إن هذا البيع لا يتحقق إلاّ إذا كان المؤمن يجود بنفسه وبماله في سبيل الله إذا مست الحاجة لذلك ، فكيف إذا ألجأت إليه الضرورة كجهاد أعداء الملة والأمة عند الاعتداء عليهما ، أو الاستيلاء على شيء من دار الإسلام ، وحينئذ يكون فرضاً عينياً على جميع الأفراد ، فمن قدر على الجهاد بنفسه

---

(١) المرجع السابق .
(٢) تفسير المنار ، ج ٢ ص ٢١٤ . الطبعة الثالثة .

وجب عليه ، ومن قدر عليه بماله وجب عليه ، ومن قدر عليه بهما معـاً وجب عليه .

وسبيل الله هي الطريق الموصلة إلى مرضاته ، وهي التي يحفظ بها دينه ، ويصلح بها حال عباده ، ومعنى هذا أنه لا يكتفى من المؤمن أن يكسب الحلال ، ويتمتع بالحلال ، وينفع نفسه ولا يضر غيره ، وأن يصلي ويصوم ، لأن كل هذا يعمله لنفسه خاصة ، بل يجب أن يكون وجوده أوسع ، وعمله أشمل وأنفع ، فيساعد على نفع الناس ودرء الخطر عنهم ، بحفظ الشريعة ، وتعزيز الأمة بالمال والأعمال ، والدعوة إلى الخير ، ومقاومة الشر ، ولو أفضى ذلك إلى بذل روحه .

فإن قصر في واجب يتعلق بحفظ الملة وعزة الأمة ، من غير عذر شرعي ، فقد آثر نفسه على مرضاة الله تعالى ، وخرج من زمرة كملة المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى ، وكان أكبر إجراماً ممن يقصر في واجب لا يضر تقصيره فيه إلاّ بنفسه . ذلك أن الحكمة في تربية النفس بالأعمال الحسنة والأخلاق الفاضلة ، هي أن ترتقي ويتسع وجودها في الدنيا ، فيعظم خيرها وينتفع الناس بها ، وتكون في الآخرة أهلاً لجوار الله تعالى ، مـع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم ، وجعلوا أكثر أعمالهم خدمة للناس وسعياً في خيرهم ، فإن الله تعـالى لم يشتر أنفس المؤمنين من الحظوظ والشهوات الشخصية الخسيسة لأجل نفعه سبحانه ، أو دفع الضر عنه جل شأنه ، فهو غني عن العالمين ، إنما شرع هذا ليكون المؤمن باتساع وجوده وعموم نفعه سيد الناس »[(١)] .

* * *

---

(١) تفسير المنار ، ج ٢ ص ٢٥٣ .

وإذا كان البطل الإسلامي الجسور هشام بن عامر قد ألقى بنفسه على الصف وهو فرد ، والصف جماعة ، فقد ذكر القرطبي [1] آراء العلماء في اقتحام الرجل الحرب ، وحمله على العدو وحده ، فقالت طائفة : لا بأس أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم ، إذا كان فيه قوة ، وكان لله بنية خالصة ، فإن لم تكن فيه قوة فذلك من التهلكة .

وقيل : إذا طلب الشهادة ، وخلصت النية ، فليحمل لأن مقصوده واحد منهم .

وقيل : أما أن يحمل الرجل على مائة ، أو على جملة العسكر ، أو جماعة اللصوص والمحاربين الخوارج ، فلذلك حالتان : ان علم وغلب على ظنه أنه سيقتل من يحمل عليه وينجو فحسن ، وكذلك لو علم وغلب على ظنه أنه مقتول ، ولكنه سيحدث نكاية في العدو ، أو سيؤثر أثراً ينتفع به المسلمون فجائز أيضاً .

وقال محمد بن الحسن : لو حمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده ، لم يكن بذلك بأس ، إذا كان يطمع في نجاة أو نكاية في العدو ، فإن لم يكن كذلك فهو مكروه ، لأنه عرض نفسه للتلف في غير منفعة المسلمين .

فإن كان قصده تجرئة المسلمين على الأعداء حتى يصنع المسلمون مثل صنيعه فلا يبعد جوازه ، لأن فيه منفعة للمسلمين على بعض الوجوه .

وإن كان قصده إرهاب العدو ، وليعلم صلابة المسلمين في الدين ، فلا يبعد جوازه .

---

(١) الجامع لاحكام القرآن ، ج ٢ ص ٢٦٣ .

وإذا كان فيه نفع للمسلمين ، فتلفت نفسه لإعزاز دين الله ، وتوهين الكفر ، فهو المقام الشريف الذي مدح الله به المؤمنين في قوله : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

* * *

والموقف الرائع الذي وقفه هشام بن عامر في معركة القسطنطينية يذكرنا بما رواه ابن جرير الطبري ، وهو أن عمر رضوان الله عليه بعث جيشاً ، فحاصروا أهل حصن ، وتقدم رجل من بجيلة ، فقاتل حتى قتل ، فأكثر الناس فيه يقولون : ألقى بيده إلى التهلكة .

فبلغ ذلك عمر ، فقال : كذبوا ، أليس الله يقول : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد »[1] .

ويذكرنا أيضاً بما روي عن أسلم بن عمران قال :

كنا بمدينة الروم ، فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم ، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد ، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله ، يلقي بيديه إلى التهلكة .

فقام أبو أيوب الأنصاري فقال : يا أيها الناس ، إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل ، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، لما أعز الله الإسلام ، وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله صلى الله

---

(١) جامع البيان ، ج ٢ ص ٣٢١ .

عليه وسلم : إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله قد أعز الإسلام ، وكثر ناصروه ، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ؟

فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم يرد علينا ما قلنا : « وانفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها ، وتركنا الغزو . فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن في بلاد الروم (١) .

* * *

ومع هذه الروح البطولية الجهادية ، والنزعة الفدائية الاستشهادية ، عند هشام بن عامر لم ينس — عليه الرضوان — حق العلم والفقه عليه ، لأنه يذكر قول ربه : « وقل رب زدني علماً » .

ويذكر قول رسوله عليه الصلاة والسلام : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » .

ولذلك عني برواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه الحديث كثير من التابعين ، مثل سعيد بن جبير ، وحميد بن هلال ، وغيرهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

سلام على المجاهد الشهيد القاذف بنفسه في مواطن الهول ومواقف الصدق : هشام بن عامر الأنصاري .

سلام عليه بين أهل الوفاء والفداء .

---

(١) تفسير القرطبي ، ج ٢ ص ٣٦١ . وهذا الخبر رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح ، وانظر تفاصيل البطولة عند أبي أيوب الانصاري في كتابي « الفداء في الاسلام » ص ١٦٤–١٧١ الطبعة الثانية .

أبو عبيد بن مسعود الثقفي

جرت عادة كثير من السلاطين في قديم الزمان على تخليد آثارهم وتمجيد ذكرهم بشتى الطرق والوسائل ، ومنها نقش أسمائهم على الآثار ، والمنشئات وغير ذلك ، ومنها نسبة المحامد والمفاخر إلى ذواتهم زوراً وبهتاناً ، ولكن هذا التخليد لم يفلح في كثير من الأحيان ، بل لقد حدثنا التاريخ أن السلطان المتأخر في الزمن كان يمحو آثار السلطان المتقدم عليه ، وكلما أقبل خلف من هؤلاء الجبابرة لعن سلفه ، والله ينتقم ممن يشاء بمن يشاء ، وهكذا لم ينجح ذاك التخليد ولا ذلك التمجيد ، بل كان كل منهما عرضاً زائلاً وأمنية كاذبة ، لأنه قام على الباطل ، ولو أن شيئاً من ذلك قام على كريم المبادىء أو خالد العقائد ، لاستقر ودام ، وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله زال وانفصل .

وها نحن أولاء ننظر في تاريخ الإسلام ، وفي سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، فنجد أبطالاً كثيرين من صحابته ورجاله ، خلدت أسماؤهم ، وبقيت أنباؤهم ، بما قدموا في سبيل الله والحق والخير ، وبما ضربوه من أمثلة الوفاء والفداء ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وهذا واحد منهم ، تعطرت صفحات التاريخ بسيرته وبطولته ، دون أن يعتمد في ذلك على مال أو نشب ، أو ضخامة حسب ونسب ، بل بإقدام على الموت والشهادة في موطن الهول والبأس . ذلكم هو الصحابي الجليل ، المجاهد

الشهيد ، صاحب الجسر : أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي ، رضي الله عنه ، الذي كان من سادة الصحابة[1] والذي نال نعمة الاستشهاد في سبيل الله ، في موقعة من أخلد مواقع الجهاد ، وهي موقعة « الجسر » ، الذي ظل وسيظل مقترناً باسم أبي عبيد ، فيقال : « جسر أبي عبيد » ، ويقال : « أبو عبيد صاحب الجسر » ، ويقال عن كل شهيد من شهداء هذه الموقعة : « استشهد يوم جسر أبي عبيد »[2] .

فما نبأ هذا الجسر ؟ . . وما قصة موقعته ؟ . . وما قصة صاحبه ؟ . .

لقد كان أبو عبيد من النماذج النادرة في الشجاعة والإقدام والقيادة ، وكان لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ، وكان لا يحب طريق الراحة والسلامة بقدر ما يحب طريق المصاعب والمخاطر ، ولذلك ظل يناضل ويقاتل في سبيل دينه وربه ، حتى تولى أمر المسلمين الخليفة الراشد الثاني عمر ابن الخطاب رضوان الله عليه ، فجهز أول جيش ليوجهه إلى تحرير العراق من طغيان الفرس ، واختار عمر أبا عبيد ليكون قائد هذا الجيش وأميره ، وقد أتى أبو عبيد بالأعاجيب بعد الأعاجيب في قتاله ونضاله ، مستشعراً روح القرآن المجيد القائل :

« انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

وكان عمر قد ندب الناس إلى الخروج لقتال الفرس ، فتباطأ بعض الناس ، لأن هذه الدعوة جاءت عقب وفاة أبي بكر الصديق ، والحزن لفقده ما زال

---

(١) كتاب العبر للذهبي ، ج ١ ص ١٧ .
(٢) الاستيعاب على الاصابة ، ج ٤ ص ١٢٤ . وابو عبيد هو والد صفية بنت أبي عبيد التي تزوجها الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضوان الله عليهما « الاعلام ، ج ٨ ص ٧٠ » .

متمكناً من النفوس ، وكان أول من استجاب هو أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، وتبعه في الانتداب والاستجابة مجاهدان آخران ، هما سعد بن عبيد ، وسليط ابن قيس ، ثم تتابع الناس بعد ذلك .

وهنا قال بعض الناس لعمر : اجعل عليهم أميراً رجلاً من السابقين من المهاجرين والأنصار .

فقال عمر : لا والله ، لا أفعل ، إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو ، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع ، وأجاب إلى الدعاء ، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً (أي استجابة) .

ثم دعا عمر أبا عبيد وولاه القيادة ، ثم قال لرفيقيه اللذين تبعاه قبل الناس : أما انكما لو سبقتماه لوليتكما ، ولأدركتما بها إلى ما لكما من القدمة . (أي السبق والتقدم في الفضل) .

ثم التفت عمر إلى المجاهدين ، وقال لهم :

« سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : « ليظهره على الدين كله » . والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومولي أهله مواريث الأمم .

ثم هتف عمر : « اين عباد الله الصالحون » [1] .

وكان من خبر وقعة الجسر — كما يروي ياقوت — أن أبا بكر رضي الله عنه ، أمر خالد بن الوليد وهو بالعراق بالمسير إلى الشام لنجدة المسلمين ، ويخلف بالعراق المثنى بن حارثة الشيباني [2] ، فجمعت الفرس جموعها لمحاربة

(١) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٤٤٥ .
(٢) انظر تفاصيل بطولته في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ص ٢٥٤— ٢٥٨ .

المسلمين ، وكان أبو بكر قد لحق بربه . فأرسل المثنى إلى عمر من يخبره بذلك ، فندب عمر الناس إلى الخروج لقتال الفرس فهابوهم ، وكان أول من استجاب هو أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، فقدموا إلى بانقيا — وهي ناحية من نواحي الكوفة بالعراق — فأمر أبو عبيد بإقامة جسر على الفرات ، ويقال : بل كان الجسر قديماً هناك لأهل الحيرة ، يعبرون عليه إلى ضياعهم ، فأصلحه أبو عبيد (١) .

وبدأت معركة الجسر في شهر شعبان من السنة الثالثة عشرة للهجرة (٢) ، وكانت الموقعة على نهر الفرات ، عند نجران ، وهو موضع كان بين الكوفة وواسط (٣) .

وكان أبو عبيد قد خاض معركة ضد الفرس بين الحيرة والقادسية ، وشتت شملهم ، وقتل الكثير منهم ، وأسر كبيرهم « جاقان » ، ولم يطلق سراحه حتى افتدى نفسه بفدية كانت لمصلحة المسلمين .

وحين أحس الفرس بمرارة الهزيمة جمعوا بزعامة « يزدجرد » جموعاً ضخمة ، وتراءى الجمعان ، وتقابل الجيشان على شاطىء نهر الفرات (٤) ، وبينهما ذلك الجسر المقام على النهر .

وأرسل الفرس إلى أبي عبيد يستخفون بأمره فيقولون له كالهازئين : إما أن تعبروا إلينا ، وإما أن نعبر إليكم .

---

(١) معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٤٠ ، طبعة بيروت .
(٢) وفي رواية ان المعركة كانت في السنة الرابعة عشرة للهجرة ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٤٢ . ولعلها بدأت سنة ثلاث عشرة ، واستمرت بتوابعها الى سنة اربع عشرة .
(٣) العبر ، ج ١ ، ص ١٧ .
(٤) الاستيعاب ، ج ٤ ، ص ١٢٥ .

فقال بعض المسلمين للقائد أبي عبيد : مرهم فليعبروا هم إلينا .

وأحس أبو عبيد بمرارة الألم من استخفاف الفرس ، وبلذعة الأسى من تخوف بعض الجنود ، فهتف بين الجنود : ما هم بأجرأ على الموت منا . ونادى باقتحام الجسر .

لقد كان أبو عبيد خواض غمرات وشدائد ، وكأنه مفطور على الإقدام والاقتحام ، فلم يتريث ولم يتلبث ، وخصوصاً بعد أن أحس روح الخوف في بعض الجنود .

فعل هذا مع أن الخليفة الراشد عمر كان قد أوصاه قبيل المعركة فقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلاّ الرجل المكيث (أي الرزين) الذي يعرف الفرصة والكف » (١) .

فلماذا فعل أبو عبيد ما فعل ؟

لقد غاظه استخفاف الفرس به وبزملائه من جهة ، وتخوف بعض المسلمين العبور إلى الفرس من جهة أخرى ، فأرادها حملة فدائية ، لا يحرص فيها المجاهد على الحياة ، ولا يهاب فيها الموت ، بل لعله يحرص فيها على الموت أكثر من الحياة ، ليضرب مع زملائه مثلاً رائعاً دافعاً إلى البذل والفداء ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، ولتكن نتيجة المعركة بعد ذلك ما تكون . . .

وهناك أكثر من رواية لهذا الموقف ، فيروي ياقوت أن الفرس قالت لأبي عبيد : إما أن تعبر إلينا ، أو نعبر إليك ، فقال : بل نحن نعبر إليكم ،

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٤٥ .

فنهاه أهل الرأي عن العبور ، فلج وعبر ، فكانت الكسرة على المسلمين (١) .

وفي « دائرة المعارف » للبستاني (٢) أن عمر جعل أبا عبيد على زهاء ألف رجل ، وأمره بالمسير إلى العراق لقتال الفرس ، وهو أول جيش سيره عمر ، وكان مع أبي عبيد : المثنى بن حارثة ، وعمرو بن حزم ، وسليط بن قيس ، وساروا حتى نزلوا الثعلبية ، فقال سليط :

يا أبا عبيد ، إياك وقطع هذه اللجة ، فإني أرى للعجم جموعاً كثيرة ، والرأي أن تعبر بنا إلى ناحية البادية ، وتكتب إلى أمير المؤمنين عمر ، فتسأله المدد ، فإذا جاءك عبرت إليهم ، فتناجزهم الحرب .

فتعجل أبو عبيد بالجواب غاضباً على فطرته فقال : جبنت والله يا سليط !..

فقال المثنى بن حارثة : والله ما جبن ، ولكنه أشار عليك بالرأي ، فإياك أن تعبر إليهم ، فتلقي نفسك وأصحابك وسط أرضهم ، فتنشب بك مخالبهم .

وكأن هذا لم يخفف من غضبة أبي عبيد لاستخفاف الفرس ، بل زاد في غضبته ، وأمر بالعبور ، فعبروا وعبر المثنى وسليط معهم ، وعبأ أبو عبيد أصحابه ، وجعل نفسه في القلب شأن القائد الذي لا يضن بنفسه ، ولا يضحي بجنوده .

فزحف إليهم العجم ، فرشقوهم بالنشاب ، حتى كثرت في المسلمين الجراحات ، فحمل المسلمون حملة رجل واحد ، وكشفوا العجم ، ثم أن العجم ثابوا ، وحملوا على المسلمين . . .

---

(١) معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٤٩ .
(٢) دائرة المعارف بادارة فؤاد افرام البستاني ، طبعة بيروت ج٤ ص ٤٣٦ .

وهكذا واجه المسلمون معركة غير متكافئة ، فهم ستة آلاف ، والفرس عشرات وعشرات من الألوف ، وارداد القتـــال شراسة ، لأن الفرس استخدموا الفيلة التي لم يكن للعرب بها عهد . ولذلك يذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » أن الفرس جاءوا معهم بأفيلة كثيرة ، عليها الجلائل قائمة ، لتذعر خيول المسلمين ، فجعلوا كلما حملوا على المسلمين فرت خيولهم منها ، ومما تسمع من جلاجلها التي عليها ، ولا يثبت منها إلا القليل على قسر .

وإذا حمل المسلمون عليهم لا تطاوع الخيول بالإقدام على الأفيال ، ومع ذلك فتك المسلمون بستة آلاف من أعدائهم . وأمر أبو عبيد المجاهدين بأن يقتلوا الفيلة أولاً ، فاحتوشوها فقتلوها عن آخرها ، وبقي منها فيل عظيم أبيض ، فتقدم نحوه أبو عبيد ، وضربه بالسيف فقطع ذلومه ، فثار الفيل هائجاً ، وصاح صيحة هائلة ، وواصل أبو عبيد طعناته حتى صرع الفيل ، ومال الفيل بجسمه الهائل نحو الأرض ، فوقع فوق أبي عبيد ، فنال الشهادة في سبيل ربه ، ونال معه الشهادة أخوه وابنه ، رضوان الله على الجميع ، واشتد البلاء عقب ذلك على المسلمين (١) .

ومن يدري لعل الله أراد ذلك الابتلاء العصيب للمسلمين في موقعة الجسر ، ليضرب هؤلاء الشهداء مثلاً في التضحية ، ولفيجروا براكين الغضب في صدور من وراءهم من المجاهدين ، فينتقموا لإخوانهم وشهدائهم ، فيكون النصر المبين من وراء ذلك ، وهذا ما كان .

لقد أقبل البطل الإسلامي القعقاع بن عمرو ، وجعل يهتف مع رفاقه : يا لثارات أبي عبيد ، وأصحاب يوم الجسر ! . . واستطاع هؤلاء المجاهدون أن يثأروا للشهداء من أولئك الأعداء (٢) .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٢٨ . طبعة ١٩٦٦ بيروت .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٥٤٣ .

وكذلك أقبل المثنى بن حارثة الشيباني البطل المقدام مع جمع من المجاهدين ، فهاجم الفرس ، وأسر أميرين من أمرائهم ، وأسر معهما بشراً كثيراً ، وضرب أعناقهم ، ثم استنجد بالمسلمين في العراق ، ليمدوه بالامداد ، وأرسل إليه عمر بمدد كبير ، ودارت بين المثنى والفرس معركة سميت « معركة البويب » والبويب اسم مكان قريب من الكوفة ، وكانت المعركة في شهر رمضان من السنة الثالثة عشرة ، فأمر المثنى جنوده بالفطر ، فأفطروا عن آخرهم ليكون ذلك أقوى لهم (١) .

وكان المثنى يهتف بهم قائلاً : « يا معشر المسلمين ، عاداتكم ، انصروا الله ينصركم » ودارت رحى الحرب ، وأخلص المسلمون كفاحهم وجهادهم لربهم ، حتى ركبوا أكتاف أعدائهم ، وأوسعوا فيهم القتل ، وغنموا منهم غنائم كثيرة ضخمة . يقول ابن كثير : « وذلت لهذه الوقعة رقاب الفرس ، وتمكن الصحابة من الغارات في بلادهم فيما بين الفرات ودجلة ، فغنموا شيئاً عظيماً لا يمكن حصره » .

وهكذا انتهى الابتلاء العصيب بالنصر المبين ، وصدق العلي الكبير إذ يقول :

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ».

لقد اشتدت النكبة على المسلمين يوم الجسر ، حتى قال حسان بن ثابت :

لقـــد عظمت فينـــا الرزية ، إننـــا
جـــلاد على ريب الحوادث والـــدهر
على الجسر قتلى ، لهـــف نفسي عليهم

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٢٩ .

فيــا حسرتا مــاذا لقينــا من الجسر ؟

ولكن المسلمين بعد ذلك انتصفوا لأنفسهم ، وعصفوا بقائد الفرس « مهران » ومن معه ، حتى قال في ذلك الأعور العبدي :

هاجت لأعور دار الحي أحزانا   واستبدلت بعـد عبد القيس حسانا
وقد أرانا بهــا والشمل مجتمـع   إذ بالنخيلة قتلى : جند مهرانا
إذ كان سار المثنى بالخيول لهم   فقتــل من فرس وجيــلانــا
سما لمهران والجيش الــذي معه   حتى أبادهم مثنى ووحدانا (١)

وكان استشهاد أبي عبيد في آخر شهر رمضان من السنة الثالثة عشرة (٢) ، واستشهد يومئذ معه ، ثمانمائة ، وقيــل : ألف وثمانمائة ، وقيــل أربعة آلاف ، ما بين قتيل وغريق ، رحمة الله عليهم . ولكن الانتقام أو الانتصاف كان أوسع ، فقد ذكر التاريخ أن الفرس في هذا الصراع قد فقدوا ما يقرب من مائة ألف ما بين قتيل وغريق (٣) .

ومضت الأيام والأعوام والأجيال ، وكلما قيل في تاريخ الإسلام اسم « أبو عبيد » دون تحديد ، عرف كل متصل بتاريخ الإسلام أن المقصود هو ذلك البطل العظيم : أبو عبيد بن مسعود الثقفي .

وكلما قيل في تاريخ الإسلام كلمة « صاحب الجسر » بلا تحديد ، عرف كل متصل بتاريخ الإسلام أن المقصود هو ذلك المجاهد المقدام أبو عبيد بن مسعود الثقفي .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٣٠ .
(٢) وقيل في أول شوال « الاستيعاب ج ٤ ص ١٢٥ » . وقد رثاه ابــو محجن الثقفي .
(٣) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٢٩ .

وكلما قيلت كلمة : « الجسر » بلا تحديد ، عرف كل متصل بتاريخ الإسلام أن المقصود به هو جسر أبي عبيد بن مسعود الثقفي .

ولذلك يقول ياقوت : « إذا قالوا الجسر ، ولم يضيفوه إلى شيء ، فإنما يريدون الجسر الذي كانت فيه الوقعة بين المسلمين والفرس قرب الحيرة »[1] .

سلام على ذلك المجاهد الشهيد صاحب الجسر ، وعليه من الله سوابغ الرحمة والرضوان .

---

(١) معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٤٠ .

معاذ بن الحارث بن الأرقم الأنصاري

قد يكون الوقوع في الخطأ مقسوماً للإنسان ، وظاهرة تصاحب حياته ، لنسيانه وضعفه ، والإسلام العظيم يعترف بهذا ويقرره ، ولكنه في الوقت نفسه يدعو الإنسان المخطىء إلى النهوض من العثرة ، والإفادة من التجربة والخبرة ، والمسارعة إلى نور الفكرة بعد زوال السكرة ، فحث الإسلام الإنسان على الشعور بالذنب ، والندم على ارتكابه ، والمبادرة إلى تركه ، مع إخلاص التوبة والاستغفار منه .

والقرآن المجيد — مع استنكاره الخطأ — يحمد أولئك الذين يشعرون بالتقصير ، ويحاولون التكفير ، لأنهم يدللون بذلك على يقظة ضمائرهم ، وقوة الوازع الديني عندهم ، وعدم إصرارهم على الخطأ والإثم .

ولذلك يقول القرآن الكريم عن أهل الجنة : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلاّ الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .

ويقول عن طائفة من خيار المؤمنين المنيبين : « ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً » .

ويقول عن جماعة من الصديقين أهل القلوب الرقيقة الحية ، والنفوس

المستجيبة الخاشعة : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » .

ولقد كان من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم كواكب وأقمار من صحابته ورجاله ، لا نقول أنهم من أهل العصمة أو التنزه عن الخطأ ، فما منا من أحد إلاّ ويؤخذ منه ويرد عليه ، ما خلا صاحب الروضة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولكنا نقول أنهم كانوا أمثلة طيبة في الإيمان والجهاد، ونماذج حية للوفاء والفداء واحتمال البلاء .

وكان أحدهم إذا أخطأ أو هفا — عن سهو أو نسيان أو تقصير — خشع وبكى ، وأحس بالخطر ، وندم على ما فعل ، ومحا خطأه بالتوبة والطاعة والاجتهاد فيما يحبه الله ويرضاه .

وهذا واحد من هؤلاء :

إنه الصحابي الجليل أبو حليمة (١) معاذ بن الحارث بن الأرقم بن عوف الأنصاري الخزرجي ، المشهور بمعاذ القارىء (٢) ، وهو يعد في أهل المدينة ، ولعله قد اشتهر بلقب « القارىء » لكثرة قراءته القرآن ، وتدبره لمعانيه ، وتأثره بما فيه ، ومن جعل القرآن سميره وأميره وظهيره فقد فاز فوزاً عظيماً .

وكان معاذ القارىء مجاهداً بطلاً ، اشترك في غزوة الخندق ، وهي غزوة الأحزاب العصيبة التي كانت اختباراً شديداً لعزائم المؤمنين ، ولولا فضل الله على الأخيار من عباده لنالهم ما نالهم من الانكسار والاندحار ، ولذلك يقول

---

(١) وقيل : أبو الحارث ، ولكن الكنية الاولى أشهر .
(٢) جاء في الاستيعاب : غلب عليه معاذ القارىء وعرف بذلك « الاستيعاب على هامش الاصابة ج ٣ ص ٣٤٦ » .

القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً » .

وإذا كان المنافقون والذين في قلوبهم مرض قد قالوا يوم الأحزاب : « ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً » وكانوا كما صورهم القرآن الكريم بقوله : « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلاّ قليلاً ، أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ، أشحة على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً » .

إذا كان هؤلاء قد بدوا يوم الأحزاب كذلك ، فإن خيار المؤمنين المجاهدين من أمثال معاذ القارىء ، كانوا كما وصف القرآن الكريم : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً »[1] .

وشهد معاذ القارىء مواقف أخرى للكفاح والنضال ، وفي السنة الثالثة عشرة من الهجرة اشترك في « موقعة الجسر » التي دارت رحاها بين المسلمين

---

(١) في بعض الروايات : ان معاذا لم يشهد الخندق ، وقيل انه شهد من حياة النبي صلى الله عليه وسلم ست سنين « الاصابة ج ٣ ص ٤٠٧ . تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ١٠١ » .

ومجوس الفرس على نهر الفرات ، لتحرير العراق من جبروت فارس ، والتي قادها البطل الإسلامي الشهيد «أبو عبيد بن مسعود الثقفي» المشهور بلقب «صاحب الجسر» .

وحينما اشتد البلاء على المسلمين في هذه المعركة الضروس ،ونال أبو عبيد نعمة الشهادة على أرضها ، اضطر معاذ القارىء إلى الانسحاب من أرض المعركة ، مع مجموعة من رفاقه ، ولكنه ندم على ذلك ندماً موجعاً ، وحزن حزناً شديداً ، وخاصة أنه كان يجد في القرآن الكريم الذي يكثر قراءته وتدبره ، قول ربه جل جلاله : «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الإدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلاّ متحرفاً للقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير»[1] .

وكان معاذ كلما قرأ هذه الآية بكى فاشتد منه البكاء ، وخاف على نفسه فاشتد منه الخوف ، وكأن شبح فراره يراوحه ويغاديه، فيفسد عليه صحوه ونومه ، وأكله وشربه ، وكأنما كان يسترجع فيما يسترجع الآيات التي وردت في سورة الأحزاب ، في شأن غير المؤمنين الصادقين ، فيخشى — وهو التقي الصادق — أن يكون منهم .

وهذه الآيات تقول : «وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون أن بيوتنا عورة وما هي بعورة أن يريدون إلاّ فراراً ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا

---

(١) فلا تولوهم الادبار : اي لا تنهزموا أمامهم : ومتحرفا لقتال : أي مائلا يمينا أو شمالا ، للاستدراج أو المكيدة للعدو : ومتحيزا الى فئة : اي متأخرا الى الوراء لينضم الى جماعة من المسلمين يتقوى بها .

الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلاّ يسيراً ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار ، وكان عهد الله مسئولاً ، قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل واذن لا تمتعون إلاّ قليلاً » .

كان معاذ يبكي ثم يبكي ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رآه كذلك اشفق عليه ، وخفف عنه ، وقال له : « لا تبك يا معاذ ، أنا فئتك ، وإنما انحزت إلي » .

وكذلك كان عمر الفاروق يقول لرفاق معاذ الذين انسحبوا معه : لا تجزعوا يا معشر المسلمين ، أنا فئتكم ، إنما انحزتم إلي . أيها الناس ، أنا فئتكم ، أنا فئة كل مسلم (١) .

بل لقد قال عمر عن الشهيد أبي عبيد صاحب الجسر : « لو تحيز إلي لكنت له فئة » !

ولقد روت السيرة العطرة أن جماعة من المجاهدين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطروا إلى الانسحاب في إحدى السرايا ، وكان فيهم الصحابي العظيم عبد الله بن عمر ، ثم ندموا على ذلك ندماً شديداً وخجلوا أن يدخلوا المدينة ، فقالوا لأنفسهم :

كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟

ثم قالوا : ندخل المدينة ليلاً فلا يرانا أحد ، ثم نعرض أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان لنا توبة أقمنا ، وإن كان لنا غير ذلك ذهبنا .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٥٩ والاستيعاب على هامش الاصابة ج ٣ ص ٣٤٦ .

واتجهوا إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، قبل صلاة الفجر ، وقابلوه قائلين في ألم دفين : يا رسول الله ، نحن الفرارون !

فترفق بهم وقال لهم : بل أنتم العكارون (أي الكرارون) أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين .

ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وقبلوا يد رسول الله عليه الصلاة والسلام(١) .

* * *

وحينما جمع عمر المسلمين على صلاة القيام (صلاة التراويح) في المسجد خلال شهر رمضان ، اختار معاذاً القارىء ليكون للناس إماماً يصلي بهم هذه الصلاة . وكأنه فعل ذلك ليسمع الناس صوت معاذ المؤثر وهو يرتل في الصلاة آيات القرآن الذي يحفظه ويعكف عليه . وكان معاذ يقنت في رمضان ، فيردد لربه تلك الدعوات الخاشعات التي يضمنها رجاءه إلى ربه أن يعفو عنه ، وأن يمحو ما يضايقه ، وهو شعوره بالحزن العميق لانسحابه يوم الجسر .

وإلى جوار هذا كان معاذ القارىء يعنى بالحديث النبوي الشريف ، فيرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن أبي بكر وعمر وعثمان (٢) .

وقد روى الحديث عن معاذ كثير ، أمثال نافع مولى ابن عمر ، وعمران ابن أبي أنس ، وسعيد المقبري ، وأبي الوليد البصري ، وغيرهم (٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج٢ ص ٢٩٣ . وفي سند هذه الرواية كلام .

(٢) الاستيعاب على هامش الاصابة ج ٣ ص ٣٤٦ . والاصابة ج ٣ ص٤٠٨ والعبر للذهبي ج ١ ص ٦٨ .

(٣) الاصابة ج ٣ ص ٤٠٧ .

ومما رواه معاذ عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : « منبري على ترعة من ترع الجنة » .

* * *

وظل معاذ القارىء يناضل ويجاهد في سبيل ربه بكل ما يستطيع ، وطال عمره وامتد ، حتى بلغ تسعة وتسعين عاماً ، ومضى عليه بعد موقعة الجسر التي انسحب منها نصف قرن من الزمان ، أي خمسون سنة كاملة .

ثم خرج رضي الله عنه سنة ثلاث وستين من الهجرة ليشترك في موقعة « الحرة » المشهورة .

وفي هذه المعركة نال معاذ القارىء نعمة الشهادة في سبيل الله عز وجل (١) .

وكأنه كان يتمنى — وهو يجود بآخر أنفاسه فوق أرض المعركة — أن يجعل الله استشهاده تتمة لغفران ما أتاه من انسحابه يوم موقعة الجسر .

وربك هو الواسع المغفرة ، وهو صاحب الفضل العظيم .

---

(١) العبر ، ج ١ ص ٦٨ . والاصابة ، ج ٣ ص ٤٠٧ .

زيد بن الدثينة الانصاري

إن أخس ما في أعدائنا من أهل الشرك والكفر والبغي هو الغدر والخيانة ، مع المكر السيىء الوضيع ، والاحتيال الحقير المهين ، الذي لا يقيم أي وزن للوعد أو العهد أو الشرف أو مكارم الأخلاق .

وهذه الرذائل المسفة المؤسفة كانت في أعدائنا بالأمس ، وهي في أعدائنا اليوم ، وستصاحبهم في الغد : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

ولقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه صحابته وأتباعه ما لقوا من غدر المشركين ولؤم اليهود ، ولكن الله جل جلاله زان هؤلاء الأتباع الأخيار بفضيلتي الوفاء والفداء ، فجعلهم يصرون على الحق ، ويثبتون على كلمة الصدق ، مستجيبين لقـــول ربهم عز من قائل في ختام سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

* * *

وهذا واحد من هؤلاء الصحاب الأبرار الأخيار :

إنه الصحابي الجليل زيد بن الدثنة [1] بن معاوية بن عبيد بن عامر بن بياضة الأنصاري الخزرجي البياضي ، رضي الله عنه [2] . وقد شهد غزوتي بدر وأحد ، وأبلى فيهما بلاء حسناً ، ثم ابتلاه الله — جلت حكمته — بموقف من مواقف الابتلاء والاختبار ، دفع فيه حياته الغالية ، ولكنه مضى إلى ربه شهيداً مجيداً ، وأبقى من ورائه مثلاً في الاحتمال ، والثبات على العقيدة ، وعمق الحب لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

فقد حدث في أواخر السنة الثالثة للهجرة أن انتهز المشركون فرصة الامتحان العصيب الذي مر بالمسلمين في غزوة أُحد الأليمة ، وأرادوا أن يوقعوا بالمسلمين عن طريق الخيانة والغدر ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم عدد من قبيلتي عضل [3] والقارة اللتين كان أهلهما يضمرون أشد البغض والعداوة لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وتظاهروا بالإسلام ، وقالوا له : إن فينا إسلاماً وخيراً ، فابعث معنا نفراً من أصحابك ، يفقهوننا في الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شعائر الإسلام !

ولأمر ما يعلمه الله أرسل النبي عليه الصلاة والسلام معهم عدداً من أصحابه . قيل أنهم ستة ، وقيل أنهم سبعة ، وقيل أنهم عشرة ، وكان منهم زيد بن الدثنة ، وفي أثناء الطريق ، وحينما بلغوا موضعاً يسمى « الرجيع » — وهو الاسم الذي نسبت إليه البعثة — صعدوا رابية تسمى « الهداة » ، وهنا

---

(١) الدثنة : بفتح الدال ، وكسر المثلثة ، والنون بعدها مفتوحة (انظر الاصابة ج ١ ص ٥٤٨ . وأسد الغابة ، مجلد ٢ ص ٢٨٧ . وروى أن الدثنة بفتح الدال ، وكسر الثاء ، وفتح النون المشدودة ، من قولهم : دثن الطائر ، اذا طار حول وكره ولم يسقط عليه ، انظر الاغاني ج ٤ ص ٢٢٥ بالهامش ، ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٣٣) .

(٢) الاصابة ، ج ١ ص ٥٤٨ . والاستيعاب ج ١ ص ٥٣٥ . وأسد الغابة ج ٢ ص ٢٨٦ .

(٣) الاغاني ، ج ٤ ص ٢٢٥ . وعضل : بفتح العين والضاد .

فوجئوا بمرافقيهم من عضل والقارة يستصرخون عليهم كمين الخيانة والغدر حيث هاجمهم مائة رجل من المشركين الاخساء أكثرهم من قبيلة هذيل ، وحينما هم أولئك الصحابة الكرام بمهاجمة أعدائهم قالوا لهم : « لكم العهد والميثاق — إن نزلتم إلينا — إلاّ نقتل منكم رجلاً » .

فأبى ذلك جانب من هؤلاء الصحاب الكرام ، وقاوموا حتى سقطوا شهداء ، وكان من هذا الجانب الشهيد العاصم : عاصم بن ثابت رضوان الله عليه (١) .

والخدع بالحيلة الماكرة جانب آخر ، فسلموا أنفسهم لأعدائهم ، وكان من هذا الجانب زيد بن الدثنة الأنصاري الذي أسره أولئك الخونة ، وقيدوه بالأغلال ، وذهبوا به إلى مكة ليبيعوه فيها بيع العبيد (٢) .

وباعوه فعلاً إلى ألد الأعداء حينئذ ، وهو صفوان بن أمية بن خلف ، الذي كان مشركاً في ذلك الوقت ، لم ينفتح قلبه للإسلام بعد ، ثم أسلم صفوان بعد ذلك ، بعد أن شهد غزوة حنين كافراً ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، وشهد معركة اليرموك ، وتوفي بمكة سنة اثنتين وأربعين ، وقيل توفي في عهد عثمان ، وقيل يوم الجمل (٣) .

ووالد صفوان هو أمية بن خلف الكافر اللعين ، عدو الله وعدو الرسول ، الذي مات كافراً في غزوة بدر ، ولعل صفوان كان يريد — وهو ما زال

---

(١) تراجع تفاصيل بطولته في كتابي : « فدائيـون في تاريـخ الاسلام » ص ١٤٦ .

(٢) راجع في القصة : تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٣٨ . والطبقات لابن سعد ، ج ٢ قسم ١ ص ٣٩ . وعيون الاثر ج ٢ ص ٤١ و ٤٢ . والاغاني ج ٤ ص ٢٢٥ . واسدالغابة ، ج ٢ ص ٢٨٧ . والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٢٣ . والاصابة ج ١ ص ٥٤٨ . والاستيعاب ج ١ ص ٥٣٥ .

(٣) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ص ٢٤٩ .

في ظلمات الجاهلية — أن ينتقم لأبيه ، فلما سيطر صفوان على زيد بن الدثنة ، قيده بالأغلال ، وأخذ في تعذيبه ، ولكن البطل الصابر احتمل ما لحق به ثابتاً مؤمناً ، ثم أمر صفوان عبداً له يسمى « نسطاس » [1] بأن يقود زيداً المكبل بالأغلال إلى مكان يسمى « التنعيم » ليقتلوه .

والتنعيم موضع بجوار مكة في الحل ، وهو بين مكة وسرف ، على فرسخين من مكة ، وقيل على أربعة فراسخ ، وسمي بالتنعيم — كما روى ياقوت الحموي — لأن جبلاً عن يمينه يقال له : نعيم ، وآخر عن شماله يقال له : ناعم ، والوادي يسمى : نعمان ، ومن التنعيم يحرم المكيون بالعمرة [2] .

وهناك في هذا المكان تجمع الاخساء حول زيد ، وأخذوا — كما في بعض الروايات — يرمونه بالنبال ليفتنوه عن دينه وإسلامه ، فلم يزدد رضوان الله عليه إلاّ إيماناً وتثبيتاً [3] .

* * *

وكان ممن حضر هذا المشهد أبو سفيان بن حرب — وكان لم يسلم بعد — فراعه من زيد هذا الصبر العجيب على طول التعذيب ، فدنا منه وقال له ، كأنه يستخدم آخر سهم في جعبته لاختبار زيد :

— يا زيد ، نشدتك الله ، أتحب أن محمداً عندنا الآن مكانك ، فتضرب عنقه ، وإنك في أهلك ؟

---

(١) أسلم نسطاس بعد ذلك وحسن اسلامه (الاصابة ج ٣ ص ٥٢٣) .
(٢) معجم البلدان لياقوت ، ج ٢ ص ٤٩ . طبعة بيروت .
(٣) عيون الاثر ، ج ٢ ، ص ٤٣ . والسيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ، ص ١٣٠ .

فبماذا أجاب زيد ؟

هل فكر في النجاة والسلامة ؟ . .

هل سارع إلى باب الخلاص بعد أن أصابه ما أصابه ؟

هل تردد أو تلجلج في النطق بما يليق به أن يقوله ويؤكده في هذا المجال ؟

لا والذي برأ النسم ، وأوجد من العدم .

بل أقام زيد الدليل على أنه من أولئك الأصحاب الأخيار الذين كانوا يفدون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسهم وآبائهم وأمهاتهم ، لأن الحق جل جلاله يقول في سورة الأحزاب : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . ولأن الرسول الصادق المصدوق يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » .

ولذلك رفع زيد صوته يعلن به جوابه لأبي سفيان ، قال :

والله ما أحب أن محمداً الآن ، في مكانه الذي هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالس في أهلي .

فازداد أبو سفيان تعجباً ، وقال مقراً على الرغم منه بالحق الساطع :

— ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً [1] !

* * *

وأخيراً يئس القوم من هذا المؤمن ، المناضل الأعزل ، الصابر الأمثل ، فأقدموا على تنفيذ القتل فيه ، فسألهم أن يمهلوه حتى يصلي لربه ركعتين .

---

(١) أسد الغابة ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

يقول ابن سعد في « الطبقات » عن زيد بن الدثنة ورفيقه في الشهادة خبيب ابن عدي : « فحبسوهما حتى خرجت الأشهر الحرم ، ثم أخرجوهمـــا إلى التنعيم فقتلوهما ، وكانا صليا ركعتين ركعتين قبل أن يقتلا ، فخبيب أول من سن ركعتين عند القتل »[1] .

وعقب انتهاء زيد من ركعتيه اللتين جعلهما كأنهما اللقاء التمهيدي له مع ربه ، أقبل طواغيت الشرك على المجاهد المفرد الأعزل ، وقطعوا رقبته ، لتصعد روحه إلى بارئها ، لتنال كريم جزائها : « إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

ويروي بعض الرواة عن عبد الله بن عباس انه قال : [2]

لما قتل أصحاب الرجيع قال ناس من المنافقين : يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا ، لا هم أقاموا في أهليهم ، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم . (يعنون النبي صلى الله عليه وسلم) .

فأنزل الله عز وجل في هذه الواقعة قوله عن المشركين »[3]

« ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ، ولبئس المهاد » .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٢ قسم ١ ، ص ٤٠ .
(٢) انظر عيون الاثر ، ج ٢ ، ص ٤٣ . والسيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ، ص ١٣٢ .
(٣) في سورة البقرة ، الآيات ٢٠٤ و ٢٥٠ و ٢٠٦ .

ثم أنزل الله سبحانه عقب ذلك في شأن زيد ورفاقه قوله :

« ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد »[١].

* * *

هذا ولقد رثى شاعر الإسلام حسان بن ثابت أبطال بعثة الرجيع ، وحمل على أعدائهم الحونة ، فقال فيما قال :

لعمري لقد شانت هذيل بن مدرك ... أحاديث كانت في خبيب وعاصم
أحاديث لحيان صلوا بقبيحها ... ولحيان جرامون شر الجرائم
هم غدروا يوم الرجيع ، وأسلمت ... أمانتهم ذا عفة وتكرم
رسول رسول الله غدراً ، ولم تكن ... هذيل توقى منكرات المحارم
لعل هذيلاً أن يروا بمصابه ... مصارع قتلى ، أو مقاماً لمأتم
ونوقع فيها وقعة ذات صولة ... يوافي بها الركبان أهل المواسم
بأمر رسول الله ، ان رسوله ... رأى رأي ذي حزم بلحيان عالم
قبيلة ليس الوفاء يهمهم ... وإن ظلموا لم يدفعوا كف ظالم
محلهم دار البوار ، ورأيهم ... إذا نابهم أمر كرأي البهائم[٢]

رضوان الله تبارك وتعالى على شهداء بعثة الرجيع ، رضوان الله على الجميع .

(١) هناك أقوال أخرى في سبب نزول هذه الآيات .
(٢) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ، ص ١٣٣ و ١٣٤ .

قثم بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي

من أكبر عيوب الجبابرة من السلاطين والملوك — خلال عصور التاريخ — أنهم يستغلون مناصبهم ونفوذهم لصالحهم وصالح أولادهم وأهليهم ، فهم يضنون بهؤلاء الأقارب عن مظان الخطر والتضحية ، وهم يقذفون في الوقت نفسه بالكثير من الناس إلى مواطن الهلاك والدمار ، وهم يخصون أنفسهم وأولادهم وأهليهم بالنعيم والتدليل ، ويحرمون غيرهم حقوقهم ، ويكلفونهم فوق ما يطيقون .

ونحن نؤمن بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو إمامنا ومرشدنا وقائدنا . فهل كان كهؤلاء ؟ معاذ الله . وكيف يفعل قليلاً أو كثيراً من ذلك ، وهو الذي أرسله ربه رحمة للعالمين ، وجعله مثلاً أعلى للعدالة والإنصاف ، وجلى فيه القدوة الحسنة للمؤمنين : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً » .

وكيف وهو الذي كان يقول لابنته فاطمة أعز الناس عليه : « يا فاطمة بنت محمد ، اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً » . ويقول عنها : « وأيم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » . ويقول لآل بيته : « يا آل محمد ، لا يأتيني الناس بالأعمال وتأتوني بالأنساب ، اعملوا فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً » .

مع أن آل البيت النبوي الطهور هم الذين قال فيهم الحق جل جلاله :

«إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» . ولم يستغل آل هذا البيت الكريم مكانتهم ولا منزلتهم ليغنموا أو يستحوذوا ، بل طبقوا شرعة الوفاء والفداء على أنفسهم ، قبل أن يطالبوا بها سواهم .

وهذا واحد من آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، يعطينا مثلاً طيباً في هذا المجال :

إنه الصحابي الجليل ، الباذل المعطاء ، الورع النقي ، المناضل المغترب ، المجاهد الشهيد : قثم بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي ، وكلمة «قثم» معناها الكثير العطاء بين الناس (١) ، وهو اسم صادف مسماه ، وانطبق عليه معناه (٢) .

وقد جمع قثم — رضي الله عنه — طائفة من المحامد والمفاخر ، فهو أولاً ابن عم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهو ثانياً ابن العباس بن عبد المطلب الذي عاون الرسول كثيراً في مسيرة الدعوة ، وهو ثالثاً أخو عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن ، وهو رابعاً كان قوي الشبه برسول الله ، حتى قال ابن كثير عنه : «كان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم» (٣) . وهو خامساً أخ في الرضاع لأبي الشهداء الحسين بن علي رضوان الله عليهما . وقد روي أن أم الفضل — والدة قثم — قالت لرسول الله عليه الصلاة والسلام : يا رسول الله ، رأيت في نومي كأن في بيتي عضواً من أعضائك .

فقال لها الرسول : «خيراً رأيت ، تلد فاطمة غلاماً ترضعينه بلبن ابنك قثم» .

---

(١) تاج العروس شرح القاموس ، ج ٩ ، ص ١٦ .
(٢) وامه هي أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية . (الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ، ص ١٠١ ، القسم الثاني) .
(٣) البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٧٨ . وانظر كذلك الاصابة ج ٣ ، ص ٢١٨ . وكتاب العبر للذهبي ، ج ١ ، ص ٦١ .

وكذلك كان ، حيث ولدت السيدة فاطمة ابنها الحسين ، ورضع مع قثم بن العباس من والدته أم الفضل (١) .

وكان الرسول يحب قثم بن العباس ، ويحمله بين يديه ، ويجعله معه فوق دابته .

* * *

وفوق ذلك كله نشأ قثم نشأة بطولية ، وتربى على الشجاعة والإقدام ، وتعرض للتضحية والاقتحام ، ومما يدل على ذلك أنه كان أحد القلة التي ثبتت إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة « حنين » العصيبة ، فلم يفر كما اضطر غيره إلى الفرار (٢) .

وقد ثبت مع قثم من آل الرسول : علي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وابنه جعفر ، والفضل بن العباس ، وهذا يؤكد أن آل بيت الرسول كانوا في الطليعة .

وظل قثم يحرص على صحبة الرسول والنضال تحت لوائه ، وحينما تأذن الحق سبحانه بأن ينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى كسب قثم مفخرة جديدة ، هي أنه كان آخر الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث كان أحد خمسة تولوا غسل الرسول وتكفينه ونزول قبره لدفنه ، وهؤلاء الخمسة هم : علي بن أبي طالب ، والفضل بن العباس ، وأخوه قثم بن العباس ،

---

(١) الاصابة ، ج ٣ ، ص ٢١٨ . وفي تهذيب الاسماء للنووي عن قثم : « وكان اخا الحسين بن علي من الرضاعة » . ولكن رواية الاصابة تقول انه الحسن ، والخطب في الاختلاف يسير : « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » . انظر تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

(٢) الدرر لابن عبد البر ، ص ٢٣٩ .

وشقران مولاه، وأسامة بن زيد ، وكان آخرهم خروجاً من القبر هو قثم، وبذلك كان آخر الناس عهداً بحبيب الرحمن محمد عليه الصلاة والسلام [1].

وعني المؤرخون بتسجيل هذه المحمدة ، فيقول الطبري : اشترك قثم بن العباس في غسل الرسول ، وكان ممن نزاوا قبره ، وكان آخر الناس عهداً برسول الله [2] .

ويقول مؤرخ الإسلام الذهبي عن قثم : «وهو آخر من طلع من لحد النبي صلى الله عليه وسلم» [3] .

ويقول النووي عن قثم : «وهو صحابي ، وغلط بعضهم فذكره في التابعين ، والصواب أنه صحابي ، فكان قثم آخر الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وسلم» [4] .

ولقد كان المغيرة بن شعبة يزعم أنه آخر الناس عهداً بالنبي ، ولكن النووي يروي أن الإمام علي بن أبي طالب كان في العمرة ، فجاءه جماعة من العراق ، وسألوه عن من كان آخر الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجابهم الإمام علي بقوله : «أظن المغيرة بن شعبة يحدثكم أنه كان آخر الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وسلم» ؟ .. فقالوا : أجل ، وعن هذا جئنا نسألك . فأجابهم : «أحدث الناس عهداً به قثم بن العباس» [5] .

وكان قثم بن العباس كريماً جواداً ، وقد انقطع لمدحه على كرمه وفضله

---

(١) الاستيعاب ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢١١ و ٢١٤ .
(٣) العبر ، ج ١ ، ص ٦١ .
(٤) تهذيب الأسماء واللغات ، ج ٢ ، ص ٥٩ .
(٥) المرجع السابق .

الشاعر الحجازي داود بن سلم المشهور بالادلم والمتوفى سنة مائة وعشرين ، ومن شعره في مدح قثم قوله يخاطب ناقته :

عتقت من حـــل ومن رحلة يـــا ناق ، إن أدنيتني من قثم
إنك إن أدنيتني منـــــه غـــداً حالفني اليسر ، ومـــات العدم
في كفه بحر ، وفي وجهـــه بدر ، وفي العرنين منه شمم [1]
أصم عن فعل الخنـــا سمعـــه ومـــا عن الخير به من صمم
لم يدر ما « لا » و « بلى » قد درى فعافهـــا ، واعتاض منها « نعم » [2]

وواصل قثم رضي الله عنه خطواته التقية النقية على طريق الحق والصدق والنضال ، واستعان به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، فأسند إليه القيام بشئون « المدينة » [3] . ثم ولاه رعاية مكة شئون مكة والطائف ، فلم يزل قثم والياً على مكة حتى استشهد الإمام علي رضوان الله عليه [4] .

وانتفع قثم في ولايته على مكة بتوجيه الإمام ونصحه وارشاده .

كتب الإمام علي إلى قثم وهو عامله على مكة يقول له : «

« أما بعد ، فأقم للناس الحج ، وذكرهم بأيام الله ، واجلس لهم العصرين، فأفت المستفتي ، وعلم الجاهل ، وذاكر العالم ، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلاّ لسانك ، ولا حاجب إلاّ وجهك .

---

(١) العرنين : طرف الانف . وشمم : ارتفاع .
(٢) الاستيعاب ، ج ٣ ، ص ٣٦٥ . ومعجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٩٥ و٩٧.
(٣) البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٧٨ . وتاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٤٥ .
(٤) الاستيعاب ، ج ٣ ، ص ٢٦٣ . وتاريخ الطبري ، ج ٤ ص ٤٥٥ .

ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها ، فإنها إن ذيدت عن أبوابك في أول وردها ، لم تحمد فيما بعد على قضائها .

وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة ، مصيباً به مواضع المفاقر والخلات ، وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا ، لنقسمه فيمن قبلنا .

ومن أهل مكة ألا يأخذوا من ساكن أجراً ، فإن الله سبحانــــه يقول : (سواء العاكف فيه والباد) . فالعاكف : المقيم به ، والبادي الذي يحج إليه من غير أهله ، وفقنا الله وإياكم لمحابه ، والسلام » .

وقد أمره الإمام في هذه الوصية – كما يعبر ابن أبي الحديد – أن يقيم للناس حجهم ، وأن يذكرهم بأيام الله ، وهي أيام الانعام ، وأيام الانتقام ، لتحصل الرغبة والرهبة ، وأن يجلس لهم العصرين ، أي في الغداة والعشي .

ثم قسم له ثمرة جلوسه لهم ثلاثة أقسام : إما أن يفتي مستفتياً من العامة في بعض الأحكام ، وإما أن يعلم متعلماً يطلب الفقه ، وإما أن يذاكر عالماً ويباحثه ويفاوضه .

ثم نهاه عن اتخاذ السفراء والوسطاء والحجاب بينه وبينهم ، بل ينبغي أن يكون سفيره لسانه ، وحاجبه وجهه ، أي يلقى الناس ويواجههم مباشرة .

وحذره أن يصد صاحب الحاجة عن لقائه ، لأن هذه الحاجة إن « ذيدت » أي طردت ودفعت ، ولم تقض في أول أمرها ، فإن قضاءها بعد ذلك يكون غير محمود .

وكلمة « المفاقر » معناها الحاجات . يقال : سد الله مفاقره ، أي أغنى فقره ، وقريب من هذا معنى كلمة « الخلات » [1] .

وينبغي أن نتذكر أن قثم بن العباس من الصحابة الذين لهم رواية في الحديث ، روى عنه أبو إسحاق السبيعي حديثاً أخرجه النسائي في كتاب خصائص علي .

هذا وقد خرج قثم مجاهداً في سبيل ربه ، فغزا في إقليم خراسان من بلاد الفرس ، وكان عليها سعيد بن عثمان بن عفان والياً ، فقال لقثم : أضرب لك بألف سهم ؟ . .

فقال له قثم : بل أخمس [2] ، ثم أعط الناس حقوقهم ، ثم اعطني بعد ما شئت .

ويعلق محمد بن سعد في كتابه « الطبقات الكبرى » على هذا الخبر بقوله : وكان قثم ورعاً فاضلاً » [3] .

فقثم لم يكن يتطلع في جهاده إلى المتاع أو المال ، وإنما كان يجاهد ابتغاء وجه الله عز وجل ، وكأنه قد وعى خير وعي قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله [4] » .

---

(١) شرح نهج البلاغة ، ج ٥ ، ص ٢١٨ — ٢٢٠ .
(٢) أي اعزل الخمس المشار اليه في قوله تعالى : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .
(٣) الطبقات الكبرى ، ج ٧ ، ص ١٠١ ، القسم الثاني .
(٤) البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٧٨ ، والاصابة ، ج ٣ ، ص ٢١٨ . والاستيعاب ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ .

ثم خرج قثم مجاهداً مع سعيد بن عثمان في معركة « سمرقند » سنة خمس وخمسين للهجرة ، وما زال يقاتل في سبيل الله ويناضل ، حتى نال نعمة الشهادة ، ورقد هناك في قبره بسمرقند [١] ، بعيداً عن داره ، غريباً عن آله ، لينهض جدثه شاهداً على أن لله تعالى عباداً أخلصوا له عقيدتهم ويقينهم ، فانساحوا في جنات الأرض ، يرفعون لواء الحق ، وينشرون دعوة العدل .

وحينما وصل نبأ استشهاد قثم إلى أبيه العباس بن عبد المطلب لم يزد على أن قال : « أنا لله ، وانا إليه راجعون » [٢] .

ولا عجب فهو قد تذكر حق التذكر قول الله جل جلاله : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

ويذكر الذهبي في كتابه « العبر » أن قثم بن العباس اشترك في غزوة سمرقند مع سعيد بن عثمان ، واستشهد يومئذ قثم سنة ست وخمسين . ولكن الرواية الأولى أكثر شهرة .

وكذلك اختلفوا في قبره ، فقيل انه في سمرقند ، وهذا هو الأصح ، وقيل في مرو ، وقيل في خراسان ، رضوان الله تعالى عليه [٣] .

---

(١) جاء في كتاب النهاية لابن الاثير : « حينما نعى قثم الى أبيه العباس استرجع . أي قال : انا لله وانا اليه راجعون » ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٢) العبر ، ج ١ ، ص ٦١ .

(٣) رحل ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي ، وذكر في رحلته انه زار قبر « قثم بن العباس » الذي استشهد في سمرقند ، ووصف لنا القبر وقبته . وفي سنة ١٩٥٧م ذهب كاتب اسلامي الى سمرقند وزار القبر ، وقال ان القبر والقبة تعرضا للبلى .

وينبغي أن نتذكر التفرقة بين « قثم بن العباس بن عبد المطلب » شهيد سمرقند ، و « قثم بن العباس بن عبد الله بن العباس » الذي ولاه المنصور العباسي أمرة اليمامة سنة ثلاث وأربعين ومائة والمتوفى سنة تسع وخمسين ومائة [1] .

(١) الاعلام ، ج ٦ ، ص ٣٦ .

مرثد بن أبي مرثد الغنوي

ما أعجب ما صنع الإسلام العظيم بالأوائل من المسلمين ! . .

لكأنما قد خلقهم ربهم خلقاً جديداً ، بعد أن طهر حواسهم . وزكى نفوسهم ، وقوم عقولهم ، وعدل ميولهم ، وأقامهم على الصراط المستقيم .

كانوا صرعى آثام ورذائل ، فحلاهم بالمكارم والفضائل ، وكانوا يطلبون اللذة عن طريق الجنس والخمر ، فسما بهم إلى متعة الإيمان وروعة اليقين ، وكانوا يتقاتلون على أتفه الأسباب ، فأبدلهم بذلك شرف الجهاد في سبيل رب الأرباب ، وبذلك صاروا خير أمة أخرجت للناس — كما قال القرآن المجيد — يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله ، ولا يخضعون لأحد سواه .

وبذلك علموا أبناء الحياة كيف يترفعون عن سفاسف الأمور وحقائرها وكيف يهيمون بالمعالي والمحامد ، تحت ظلال القرآن الحكيم الذي قال فيه رب العزة : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم : صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » .

وهذا واحد من مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كان في جاهليته شاباً منطلقاً مع هواه ، يخادن المرأة، ويعرف طريق المتعة الحرام ، فلما أشرق بنور الإيمان قلبه اعتدل واستقام ، فكان مثلاً طيباً لشباب الإسلام الذين قال القرآن الكريم في أخوة لهم من قبل : « إنهم فتية آمنوا بربهم ، وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم ، إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذن شططاً » .

إنهالصحابي ابن الصحابي ، المؤمن الفاضل ، العابد المناضل ، الشهيد المجيد : مرثد بن كناز بن الحصين بن يربوع الغنوي — نسبة إلى قبيلته غني — وكان أبوه أبو مرثد كناز بن الحصين من كبار الصحابة وفضلائهم ومجاهديهم، شهد غزوات بدر وأُحد والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وآخى الرسول بين كنـــاز وعبادة بن الصامت، وكان أبو مرثد يحمل اللواء في سرية قادها حمزة بن عبد المطلب على رأس سبعة أشهر من الهجرة النبوية ، وظل كناز يجاهد ويناضل حتى توفي في خلافة أبي بكر الصديق ، في السنة الثانية عشرة للهجرة ، وقد بلغ السادسة والستين من عمره ، رضوان الله تعالى عليه [1] .

وأما فتانا البطل مرثد بن كناز الغنوي فقد آخى الرسول بينه وبين أوس ابن الصامت بن قيس الأنصاري ، الذي شهد بدراً والمشاهد كلها مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان شاعراً إسلامياً مجيداً ، وسكن القدس — أين القدس الآن يا عرب يا مسلمون ؟ — وتوفي بالرملة في فلسطين — أين الآن الرملة وفلسطين يا عرب يا مسلمون ؟ — سنة اثنتين وثلاثين، وهو ابن اثنتين

---

(١) وقيل في السنة الحادية عشرة . انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٣ ، ص ٣٢ . وأسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٥٠٠ ، طبعة دار الشعب ، وتاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ .

وسبعين سنة (١) .

وكان مرثد من أمراء السرايا ، وأبطال الوفاء والفداء ، في صدر الإسلام : شهد غزوة بدر وأحد ، ولم يكن هناك في غزوة بدر غير فرسين ، أحدهما لمرثد ، والآخر للمقداد بن عمرو (٢) . وقد تبادل مرثد وعلي بن أبي طالب مع النبي ركوب دابة واحدة في طريق الغزوة (٣)، ولما أراد مرثد وعلي أن يتنازلا للنبي عن نصيبهما في الركوب رفض ذلك ، وقال : « ما أنتما بأقدر مني على المشي ، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر » .

وكان مرثد يقوم بمهمة فدائية أخرى لها شأنها ، فقد كان قوي البدن صلب العضلات ، فكان يذهب إلى مكة سراً ، ويحمل الأسرى المسلمين الضعاف ليلاً ، ويعود بهم إلى المدينة . وحدث ذات مرة أن رأته امرأة بغي اسمها « عناق » كان يخادنها في الجاهلية ، فدعته إلى المبيت عندها فرفض ، فألحت عليه بإغراء وإثارة ، فقال لها : إن الله قد حرم الفاحشة ، فدلت عليه قومها ، ولكن الله تعالى أنجاه حتى أنقذ الأسير أخاه في الإسلام وعاد إلى المدينة.

ويروي ابن الأثير في كتابه « النهاية » أن عناق قالت بعد أن يئست منه : يا أهل الخيام . هذا الدلدل الذي يحمل أساراكم . والدلدل هو القنفذ ، شبهته بالقنفذ لأنه أكثر ما يظهر بالليل ، ولأنه يخفي رأسه في جسده ما استطاع .

ويروي ابن عبد البر هذه الحادثة في كتابه « الاستيعاب » فيقول عنه :

« وكان يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة ، قال : وكان بمكة

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ، ص ١٣٠ . وأسد الغابة ، ج ٥ ، ص ١٣٨ ، طبعة دار الشعب .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ .
(٣) الدرر لابن عبد البر ، ص ١١١ .

بغي يقال لها : عناق . وكانت صديقة له ، وكان وعـد رجلاً أن يحمله من أسرى مكة . قال : فجئت حتى انتهيت إلى حائط من حيطان مكة في ليلة قمراء ، فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلي بجانب الحائط ، فلما انتهت إلي عرفتني ، فقالت :

مرثد ؟ . . . قلت : مرثد .

قالت : مرحبا وأهلاً ، هلم فبت عندنا الليلة .

قلت : يا عناق ، إن الله حرم الزنى .

قالت : يا أهل الخباء ، هذا الذي يحمل الأسرى .

فأتبعني ثمانية رجال ، وسلكت الخندق ، حتى إذا انتهيت إلى كهف أوغار فدخلته، وجاءوا حتى قاموا على رأسي ، وأعماهم الله عني ، ثم رجعوا ، ورجعت إلى صاحبي فحملته ، وكان رجلاً ثقيلاً ، حتى انتهيت إلى الأذخر ، ففككت عنه كبله ، ثم جعلت أحمله حتى قدمت المدينة . فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، انكح عناق ؟ ..

فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد علي شيئاً ، حتى نزلت هذه الآية : « الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة » الآية ، فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لا تنكحها »[(1)] .

والآية السابقة هي قول الله تعالى في سورة النور : « الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلاّ زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » .

---

(1) الاستيعاب ، ج ٣ ص ٤١٢ . والاذخر اسم موضع . وكبله : قيده .

وقصة « عناق » مع مرثد تذكرنا بقصة يوسف مع امرأة العزيز ، فإن « عناق » أرادت من مرثد ما أرادت ، وألحت في مطلبها ثم ألحت ، وأنه لصديق لها في الجاهلية ، وبينهما من الذكريات السابقة المثيرة ما بينهما ، ولكن الإسلام قد أشرق في صدره ، فأبى واستعصم ، حتى يئست منه ، فدلت قومها عليه ليوقعوا به الأذى ، ولكن الله أنجاه .

وكذلك أمر يوسف من قبل ، فقد اصطنعت له امرأة العزيز ما اصطنعت لإغرائه ، ولكن برهان ربه أبى عليه ، فاستعصم ، فآذته حتى سجنته ، ولكن الله برأ ساحته .

يقول التنزيل المجيد : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك . قال معاذ الله انه ربي أحسن مثواي ، انه لا يفلح الظالمون ، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين » .

وافترت فادعت عليه أنه هو الذي حاول الاعتداء عليها ، وأغرت به زوجها : « قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، قال هي راودتني عن نفسي ، وشهد شاهد من أهلها » . وتبين للعزيز صدق يوسف وكذب زوجته فقال لها : « انه من كيدكن ان كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

ولكنها ظلت تطارده حتى أدخلته السجن : « قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » . فلبث في السجن بضع سنين ، ثم أظهر الله فضله ونبله ، واعترفت امرأة العزيز بالحقيقة : « قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وانه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء

إلاّ ما رحم ربي ، ان ربي غفور رحيم ، وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ، قال : اجعلني على خزائن الأرض أني حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

ولقد جاء في تفسير ابن كثير أن رجلاً من المؤمنين أستاذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في زواج امرأة يقال لها « أم مهزول » كانت تسافح ، وتشترط له أن تنفق عليه ، فتلا عليه الرسول الآية [1] .

والإمام أحمد بن حنبل يذهب إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب ، فإن تابت صح العقد عليها ، وإلاّ فلا ، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى : « وحرم ذلك على المؤمنين » [2] .

وجاء رجل إلى عبد الله بن عباس فقال له : إني كنت ألم بامرأة آتي منها ما حرم الله عز وجل علي ، فرزق الله من ذلك توبة ، فأردت أن أتزوجها !.. فقال أناس : إن الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة .

فقال له ابن عباس : ليس هذا في هذا ، انكحها ، فما كان من اثم فعلي ! .. [3]

ونعود بعد هذا إلى بطلنا مرثد بن أبي مرثد كناز الغنوي :

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .

لقد اختار النبي صلوات الله وسلامه عليه مرثد بن كناز أميراً وقائداً للسرية الفدائية التي عرفت في السيرة العطرة باسم « سرية الرجيع » .

ونسبت هذه السرية أحياناً إلى أميرها ، فكان يقال عنها : « سرية مرثد الغنوي »[1] .

و « الرجيع » اسم مكان ، ويقول ياقوت في معجمه انه الموضع الذي غدرت فيه قبيلتنا عضل والقارة بالسبعة نفر الذين بعثهم رسول الله عليه الصلاة والسلام منهم عاصم بن ثابت حمي الدبر[2] ، وخبيب بن عدي ، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي ، وهو ماء لهذيل قرب الهداة بين مكة والطائف ، وبه بئر معاوية ، وليس ببئر معونة ، هذا غير ذاك[3] .

وكانت هذه السرية بعد الهجرة بثلاث سنوات ، حيث وقعت في شهر صفر من السنة الرابعة[4] ، وكذلك جاء في كتاب « أمتاع الأسماع » ان غزوة الرجيع كانت في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً ، وكذلك جاء في الاستيعاب » . وقيل إنها كانت في آخر سنة ثلاث ، وابن إسحاق يقول أن أميرها هو مرثد ، ولكن ابن شهاب يقول أن أميرها هو عاصم بن ثابت[5] .

وكانت السرية متجهة إلى مكة لمهاجمة أعداء الله وأعداء الإسلام من المشركين ، وكان عدد المجاهدين قليلاً كما سبق — سبعة أو ستة — وفي

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ١٥٤ . وانظر اسد الغابة ، ج ٥ ، ص ١٣٨ طبعة دار الشعب .
(٢) انظر تفاصيل سيرته وبطولته في كتابي « **فدائيون في تاريخ الاسلام** » ص ١٤٦ والصفحات التالية لها .
(٣) معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٩ . طبعة بيروت .
(٤) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٥٣٨ . ويذكر ان عددهم سبعة .
(٥) انظر امتاع الاسماع ، ج ١ ، ص ١٧٤ . والاستيعاب ، ج ٣ ، ص ٤١٠ .

الطريق فأجاهم مائة من الأعداء ، وأحاطوا بهؤلاء السبعة الكرام ، وحاولوا خديعتهم واغراءهم بالوعد بالإبقاء على حياتهم إذا هم سلموا أنفسهم .وأكدوا لهم بذلك العهد والميثاق ، ولكن مرثد بن كناز أدرك روح الغدر والخيانة في كلامهم ، فأبى أن يستسلم لهم ، وكيف يصدق وعد لمشرك معتد مع مؤمن ، والقرآن المجيد يقول : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلاّ الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المتقين ، كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون » ! . .

وكانت هناك معركة شرسة غير متعادلة ولا متكافئة ، وظل البطل مرثد يناضل ويناضل ، حتى سقط شهيداً في ساحة المعركة [1] ، كما استشهد معه آخران : أحدهما هو البطل الإسلامي الجليل عاصم بن ثابت ، رضوان الله على الجميع .

* * *

وبجوار بطولة الشهيد المجيد مرثد بن كنـــاز الغنوي في ميدان الجهاد والاستشهاد ، كان راوية للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن الأحاديث التي رواها قول النبي عليه الصلاة والسلام : « إن سركم أن تقبل

---

(١) الاصابة ، ج ٣ ، ص ٣٧٨ . والتهذيب ، ج ١٠ ، ص ٨٣ .

منكم صلاتكم ، فليؤمكم خياركم – أو علماؤكم – فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين ربكم »[1] .

وهكذا يبين لنا الإسلام أن علو المكانة لا يستند إلى نسب أو نشب ، انمـــا يستند إلى العلم والعمل الصالح ، وإلى اليقين والتقوى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

* * *

هذا ولشاعر الإسلام حسان بن ثابت شعر رثى به شهداء سرية الرجيع ، وفيه يقول :

صلى الإله على الذين تتـــابعوا يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا
رأس السرية مرثـــد وأميرهم وابن البكير إمامهم وخبيب
وابن لطارق ، وابن دثنة منهم وافاه ثم حمامه المكتوب
والعاصم المقتول عند رجوعهم كسب المعالي ، انه لكسوب
منع المقادة أن ينالوا ظهره حتى يجالد ، انه لنجيب[2] !

ومرثد هو صاحبنا وبطلنا : مرثد بن أبي مرثد كناز الغنوي ، وابن البكير هو : خالد بن البكير الليثي ، وخبيب هو : خبيب بن عدي ، وابن لطارق هو : عبد الله بن طارق ، وابن الدثنة هو : زيد بن الدثنة ، والعاصم هو : عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح .

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

---

(١) الاصابة ، ج ٣ ، ص ٣٧٨ .
(٢) معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٩ . وهناك من ينكر نسبة هذه الابيـــات الى حسان ، انظر السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

طلحة بن عبد الله

حين تجتاز الأمة مرحلة خطيرة من تاريخ نضالها مع أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر عن يمين وشمال ، تتطلب الكثير من ألوان القوة والاستعداد ، ومن بين هذه الألوان ، القدوة الطيبة الرائعة ، التي تجذب ببهائها ، ويهتدى بسناها ، وما أحوجنا إلى أن نقلب صفحات تاريخنا المؤمن ، نتلمس منه مواطن القدوة ، ومشاهد الأسوة ، لعل الله جل جلاله يبعث الهامد ، ويحرك الجامد ، ويأخذ بالنواصي إلى منهج الأوائل البطولي المؤمن ، ولن يصلح أمر هذه الأمة في حاضرها إلا بما صلح به في أولها : « فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده » وهو سبحانه على كل شيء قدير .

وهذا مثل من السابقين يحتذى به ، ويرجع إليه :

إنه الصحابي الجليل : أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان ، رضي الله عنه ، الشهيد الحي ، الذي سبق في التاريخ ، وشهد عصر النبوة الطاهر العاطر ، وخلف من ورائه الذكر الحميد المأثور .

إنه أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام في أوله ، فكان أحد أفراد الطليعة المباركة التي كان الواحد منها يوزن بألف ، ومنذ عمر الإيمان قلبه ظل وفياً لعهده ، ماضياً في طريقه ، لا يغدر ولا يخون ، ولا ينحرف ولا يمين ، حتى لقي ربه الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

إنه أحد العشرة المبشرين بالجنة على لسان النبوة الصدوق الطهور ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، كما أخبرنا عمر الفاروق رضوان الله عليه .

ولقد أسلم طلحة على يد أبي بكر ، وهو ابن عمه ، وأبو بكر هو الرجل المبارك السباق إلى الخيرات عليه رضوان الله ، ولما ذهب طلحة مع أبي بكر ، ونطق بالشهادتين أمام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وخرجا من عنده ، هاجمهما نوفل بن خويلد مع بعض أتباعه ، وكان طاغية متجبراً ، وله عصبيته القوية بين أهله ، حتى كان يقال له : « أسد قريش » ، وربطهما في حبل واحد ، تعذيباً لهما من أجل إسلامهما .

ولذلك كان أبو بكر وطلحة يقال لهما ، « القرينان » . وأكرم بها من تسمية خلدت ذكرى احتمالهما العذاب والابتلاء في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل .

ووقف طلحة بعد إسلامه إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يهتدي بهديه ، ويأتمر بأمره ، ويستجيب لرغبته ، فكأنه الآلة الدائرة المسخرة المهيأة المطواعة التي لا تتأبى على أي عمل من أعمال الطاعة أو الخير .

وجاء وقت الهجرة ، فنال طلحة شرف الهجرة من مكة إلى المدينة إيماناً واحتساباً ، فكان من المهاجرين السابقين الأولين ، وآخى النبي بمكة قبل الهجرة بين طلحة والزبير بن العوام ، ثم آخى بالمدينة بينه وبين أبي أيوب الأنصاري ، كما يقول السخاوي في كتابه : « التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة » ، ويذكر النووي في كتابه : « تهذيب الأسماء واللغات » أن الرسول آخى بين طلحة وسعد بن أبي وقاص ، رضوان الله على الجميع .

ولمح الرسول عليه الصلاة والسلام مخايل الإخلاص والصدق واليقين في طلحة ، فأخذ يختاره لجلائل المهمات ، وعظائم التبعات ، فكلفه مثلاً مع سعيد بن زيد بأن يتابعا تحركات قافلة المشركين ، قبيل غزوة بدر ، فقاما بالمهمة خير قيام ، بلا غش ولا تزيد ولا خداع ، وحينما بدأت غزوة بدر كان طلحة غائباً في عمل من أعمال الخير التي تعاون على تحقيق المنعة والقوة للمسلمين ، فلم يستطع شهود الغزوة ، ولكن الرسول قدر إخلاصه ووفاءه ، فجعله كمن شهدها ، وأعطاه منها سهمه ، وأخبره بأن له مثل ثواب أهلها .

ويا لها من مكانة سامية ، حين يبلغ المؤمن المخلص في نضاله وإخلاصه ما يجعله حاضراً وهو غائب .

ولقد روي عن الإمام علي رضي الله عنه أن أحد المجاهدين معه قال له بعد إحدى المعارك : وددت أن أخي فلاناً كان شاهداً ، ليرى ما نصرك الله به على أعدائك . فقال له الإمام : أهوى أخيك معنا ؟ . . فقال : نعم . قال الإمام : فقد شهدنا .

وليس المهم هنا هو أن يأخذ طلحة مالاً أو يحوز كسباً ،وإنما المهم هو ما يدل عليه هذا التقدير النبوي من تشريف وتكريم ، فقد كان طلحة رجلاً تاجراً ، وكان يكسب الكثير الطيب ، وكان يسهم بالجليل العظيم من مكاسبه في نصرة الإسلام ، ومعاونة المجاهدين ،وتأييد معركة الحق والإيمان ضد الباطل والكفران.

ثم شهد طلحة غزوة « أُحد » وما بعدها من الغزوات والمشاهد ، وفي غزوة أُحد هذه ظهرت دلائل مؤكدة لإيمان طلحة ويقينه ، وصدقه في الجهاد ، ورغبته في الاستشهاد ، وكان أحد أربعة وصفتهم السيرة العاطرة بأنهم أبلوا بلاء حسناً في غزوة أحد ، وهم : علي بن أبي طالب سيف الله الغالب ، وحمزة

ابن عبد المطلب سيد الشهداء ، وأبو دجانة صاحب عصابة الموت ، وطلحة ابن عبيد الله الشهيد الحي .

وقاتل طلحة في أول المعركة ما قاتل ، وحينما أقبلت ساعة الهول ، وتحول الانتصار إلى انكسار ، ثبت طلحة إلى جوار الرسول ، مع القلة التي ثبتت ، لم يفر ، ولم يتراجع ، بل ظل يقاوم ويدافع ، ويحرص مع قلة الصادقين الصابرين على حراسة النبي ، وصد كل عدوان عنه .

وحينما سقط الرسول صلى الله عليه وسلم في إحدى الحفر ، والسيوف والرماح والنبال والسهام تتجاوب وتتراشق عن يمين وشمال ، سارع طلحة واحتضن رسول الله ، وظل محتضناً له حتى خرج الرسول من الحفرة وعاد إلى وقفته الثابتة المناضلة ، وتعددت الإصابات في جسم النبي الكريم ، برغم الجهد الكبير الذي بذله مثل طلحة بن عبيد الله ، وكان على الرسول درعان ، وبه تعب ، فأراد أن يعتلي صخرة ، ليشرف من فوقها على سير المعركة ، ولكنه لم يستطع أن يعلوها ، فانحنى له طلحة ، وصعد الرسول فوق ظهره ، ثم ارتفع به طلحة شيئاً فشيئاً ، حتى بلغ الصخرة ، واستوى عليها ، وظل طلحة يناضل ويقاوم .

وحينما رأى طلحة ضربة أثيمة موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سارع فوقى الرسول منها بيده ، فأصابها الشلل ، وقطعت إحدى أصابعها ، وهنا قال سيد الخلق الناطق بالصدق :

« أوجب طلحة » أي فعل ما يوجب له الجنة عند ربه عز وجل .

وتكاثرت الجراح في جسم طلحة يومئذ ، حتى أصابه بضع وسبعون ، ما بين ضربة بسيف ، وطعنة برمح ، ورمية بسهم ، وأجهده نزيف الدم

من جسمه ، وحينما دنا أبو بكر وأبو عبيدة من الرسول ليعالجا ما أصاب وجهه الكريم من جراح ، أشار لهما إلى طلحة ، وقـال لهما : « عايكما بصاحبكما ، دونكم أخاكم » . .

وفي أعقاب المعركة أصيب طلحة بإغماء من جراء إصابته الشديدة ، فصب أبو بكر الماء على وجهه فاستفاق ، وما كاد يسترد وعيه حتى قال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

فأجابه أبو بكر : إنه بخير . ففرح طلحة وقال : الحمد لله كل مصيبة بعده جلل (أي قليلة) .

وهكذا يكون صدق الحب لرسول الله ، وإخلاص الجهاد في سبيل الله . ولذلك كان أبو بكر رضي الله عنه إذا جاء ذكر ليوم أحد يقول : « ذلك يوم كان كله لطلحة » .

* * *

ثم يقبل التكريم النبوي العظيم لهذا الحرص النبيل من طلحة على صدق الجهاد ، وهذا التعرض البطولي لمواطن الاستشهاد ، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » .

ولقد جرى العرف بيننا على أن نطلق كلمة « الشهيد الحي » على من تعرض لموقف التضحية بالنفس في موطن من مواطن الجهاد والاستشهاد ، ولكن الأقدار أبقت حياته برغم تمنيه الشهادة ، وتطلبه ما عند الله عز وجل ، ولقد يخيل لبعضنا أن هذا تعبير طريف مستحدث ، ولكنه كما يبدو لنا الآن مقتبس من ضوء النبوة العظمى على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وهذه الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر رضوان الله عليهما تروي عن رسول الله انه قال : « طلحة ممن قضى نحبه وما بدلوا تبديلاً » . أي من الشهداء ، لأن النحب هو النذر ، وقضى فلان نحبه : أي أدى نذره ، وحقق وعده .

وتلك إشارة من الرسول عليه الصلاة والسلام إلى قول الله جل جلاله : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » .

ولنذكر جيداً أن هذه الآية جاءت عقب آية سابقة لها تقول: « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً » .

وروت السنّة النبوية أن أعرابياً سأل رسول الله عمن « قضى نحبه » وبعد قليل من السؤال أقبل طلحة ، فقال النبي : أين السائل عمن قضى نحبه ؟..

قال الأعرابي : أنا يا رسول الله .

فأشار النبي إلى طلحة وقال للسائل : هذا ممن قضى نحبه .

وكذلك قال عليه الصلاة والسلام : « طلحة والزبير جاراي في الجنة » . وأكرم بها من بشرى ، وأنعم به من جوار ينال به طلحة نعيم الخلود وشرف الأبد ، حين يجاور في الفردوس الأعلى إمام الأنبياء وسيد المرسلين ، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

* * *

وحينما تهيأ المسلمون لغزوة « تبوك » في وقت عسرة وشدة وجدب

وقحط ، ظهر اللؤم اليهودي الخسيس ، حيث اجتمع نفر من المنافقين في دار « سويلم اليهودي » وكانت عند بئر يقال لها « جاسوم » .

وتآمر الاخساء ضد المسلمين ، وأخذوا يحرضون من يستجيب لهم على ترك الخروج مع الرسول للجهاد ، فبعث النبي طلحة ومعه بعض المسلمين ، فأشعلوا النار في وكر الفتنة وعش المؤامرة ، وهو بيت ذلك اليهودي الخائن ، فكان هذا العقاب التأديبي ردعاً وزجراً لأمثاله من سلالة القردة والخنازير .

وكان طلحة مع ذلك رجلاً نقي القلب ، صافي النفس ، يفرح للخير الذي يناله أي أخ له في الإسلام ، ولذلك نراه يفرح حينما تاب الله تبارك وتعالى على كعب بن مالك ، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك ، وقد قص الله علينا قصتهم في سورة التوبة .

وجاء كعب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب نزول قبول توبته من عند الله عز وجل ، فسارع طلحة إلى كعب ، وحياه وهنأه بفضل الله عليه ، مما أثر في نفس كعب حتى قال وهو يروي قصته : « والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره » . وكان كعب لا ينسى لطلحة هذا الصنيع .

وإلى جوار هذا كان طلحة رجلاً يحسن عمل الدنيا ويتقنه ، ويكسب الكثير بجده وجهده ، وما كان يكسب ليكنز ويطغى ، بل كان يكسب وينفق ، ويتوسع في الإنفاق والبذل والتبرع ، وحسبنا أن نعلم أنه قد تبرع بسبعمائة ألف درهم في إحدى الغزوات .

ولذلك استحق أن يسميه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه : « طلحة الخير » و « طلحة الجود » و « طلحة الفياض » ، تقديراً لكثرة ما قدم ، ولفخامة ما أعطى ، وعظم ما أنفق في سبيل الله : « إنما المؤمنون الذين

آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .

ولقد قال قبيصة بن جابر : « صحبت طلحة بن عبيد الله ، فما رأيت رجلاً أعطى بجزيل مال منه من غير سؤال » .

ومع الجهاد ، والاحتساب ، والاكتساب ، والإنفاق ، كان طلحة حريصاً على طلب العلم والتفقه في الدين ، ولذلك روى الكثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، سمعها ووعاها ، وحفظها وأداها ، وقد أثبت البخاري ومسلم وغيرهما هذه الأحاديث .

وظل طلحة ثابتاً على إيمانه ويقينه ، وجهاده وإحسانه ، حتى مات شهيداً في « معركة الجمل » سنة ست وثلاثين للهجرة ، ودفن في مدينة البصرة ، رضوان الله تعالى عليه .

ولما رأى الإمام علي رضي الله عنه جثة طلحة بكى حتى اخضلت لحيته بدموعه ، ثم قال يخاطبه : إني أرجو أن أكون أنا وأنت ممن قال الله فيهم : « ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين » .

هكذا رسم لنا أسلافنا المنهاج على طريق الحق والنضال ، فلم تكن بطولتهم قوة في الأبدان ، أو براعة في الطعان ، فحسب ، بل كانت بطولتهم قائمة على الإيمان واليقين ، وعلى الكفاح والنضال ، وعلى أداء سائر الواجبات والأعمال ، وعلى العلم النافع ، والخلق النبيل . . .

وسيرة طلحة إنما هي نفحة من نفحات تاريخنا العظيم ، المليء بمواطن القدوة ، ومواقف الأسوة ، فما أجدرنا بأن نستلهم من ماضينا لحاضرنا ، وأن نمضي على طريق سلفنا ، فنؤمن كما آمنوا ، ونصدق كما صدقوا ، ونجاهد كما جاهدوا ، لنفوز كما فازوا .

« إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » .

مالك بن الحارث : الأشتر النخعي

إذا كان فقه الإسلام قد تحدث عن الزكاة التي شرعها الله في المال ، صامتاً كان أم ناطقاً ، فإن هذه الزكاة هي الزكاة الشرعية الفقهية المادية التي تعارف عليها جمهور المسلمين ، ولكن الإسلام بروحه ومبادئه قد دعا إلى ألوان أخرى من الزكاة ، فحث مثلاً على الشجاعة التي تعد عند أهل الوفاء والفداء زكاة للقلب المؤمن الموقن .

وحث على بذل العلم ، وهو زكاة العقل الزكي البصير .

وحث على الجهر بكلمة الحق المبينة البليغة ، وهي زكاة اللسان الصادق الطهور .

وإذا اجتمعت للمسلم صفات العطاء والفداء ، والعلم والبيان ، فقد أكمل الله له جوانب الخير ، وأوسع عليه في أبواب البر ، والله يختص برحمته ونعمته من يشاء ، وهو صاحب الفضل العظيم .

وهذا رجل من أعلام صدر الإسلام ، نراه يتألق ضمن الشجعان الأجواد العلماء الفصحاء ، الذين جاهدوا في ميادين النضال والبذل ، كما جاهدوا في مجالات العلم والقول : وهو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي ، المعروف بالأشتر .

وقد توافرت له بسطة في الجسم ، فكان طويلاً عملاقاً .

وتوافرت له بسطة في العلم ، فكان فقيهاً خطيباً شاعراً .

وتوافرت له كثرة في المال ، فكان كريماً معطاء .

ثم كان بعد ذلك مجاهداً بطلاً فاتحاً . . .

ولقد لقب بلقب « الأشتر » لأنه اشترك في معركة اليرموك في السنة الخامسة عشرة ، فذهبت عينه فيها ، وانقلبت جفونه ، وانقلاب الجفون يسمى « الشتر » في لغة العرب .

وبجوار ذلك كان الأشتر يلقب بلقب « الأفعى »[1] لعمق خبرته وسعة حيلته في الحرب ، ولذلك كان يردد قوله :

إني أنا الأشتر ، معروف الشتر إني أنا الأفعى العراقي الذكر

وكان ماهراً في ضربة السيف السريعة الخاطفة ، ولذلك كانوا يسمون سيفه « اللج » أي بريق الماء الجاري ، وطالما ضرب الأشتر أعداءه بسيفه الضربات المتوالية المتلاحقة .

وكان يقول إذا تكاثر عليه أعداؤه في القتال : « الغمرات ثم ينجلينا »[2] . والغمرات هي الشدائد والمتاعب التي تغمر الإنسان وتحيط به . أي أني أصبر في الشدائد وأتحملها ، لأنها ستنجلي وتذهب ، ويبقى بعد ذلك : العمل المجيد الذكر الحميد للرجال الأبطال .

وكان الأشتر النخعي رجلاً لا يقيم كبير ميزان للبقاء في الحياة الدنيا ،

---

(١) انظر مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٥٧ .
(٢) قيل ان العبارة للاغلب العجلي . انظر مجمع الامثال للميداني .

ولا يحرص على طول الإقامة فيها ، ما دام ينال رضا ربه ورضوانه ، وكان لا يهاب الموت ولا يخشى المنية ، بل كان يرجو ربه أن ينيله نعمة الشهادة في سبيله ، وفي ميدان نضاله ضد أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المسلمين ، فكان يردد قوله :

يا رب ، قيض لي سيوف الكفره ۝ واجعل وفاتي بأكف الفجره
فالقتل خير من ثيـاب الحبره ۝ لا تعدل الدنيا جميعاً وبره
ولا بعوضاً ، في ثواب البرره ! [1]

ولقد كان الإمام علي بن أبي طالب — رضي الله عنه وأرضاه ، وكرم الله وجهه وأعلاه — يعجب بالأشتر النخعي ، ويقدر بطولته وشجاعته ، حتى قال الإمام لأصحابه : « ليت فيكم مثله اثنين ، بل ليت فيكم مثله واحداً [2] ».

ولذلك قال بعض الشيعة : « الله أم قامت عن الأشتر ، لو أن إنساناً يقسم أن الله تعالى ما خلق في العرب ولا في العجم أشجع منه إلاّ أستاذه (علياً) عليه السلام لما خشيت عليه الاثم » [3] .

وحينما ولى الإمام علي الأشتر النخعي على مصر ، كتب إلى أهلها كتاباً يصف فيه الأشتر وصفاً مجيداً ، وفي هذا الكتاب يقول الإمام :

---

(١) شرح نهج البلاغة ، ج ٢ ، ص ٨٤٠ . وفي كتـاب « وقعة صفين » ، ص ٤٨٨ جاءت الابيات هكذا :

في كـل يـوم هامتي مقيره ۝ بالضرب ابغي منة مؤخـره
والدرع خير من برود حبره ۝ يا رب جنبني سبيل الكفره
واجعل وفاتي بأكف الفجره ۝ لا تعدل الدنيا جميعا وبره
ولا بعوضا في ثواب البرره

(٢) شرح نهج البلاغة ، ج ١ ، ص ٤٤١ .
(٣) المرجع السـابق ، ص ٤٢٤ .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين ، إلى أمة المسلمين الذين غضبوا لله حين عصي في الأرض ، وضرب الجور بأرواقه على البر والفاجر ، فلا حق يستراح إليه ، ولا منكر يتناهى عنه .

سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو . أما بعد فقد بعثت إليكم عبداً من عبيد الله ، لا ينام أمام الخوف ، ولا ينكل عن الأعادي حذار الدوائر ، أشد على الكفار من حريق النار ، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه سيف من سيوف الله ، لا نابي الضريبة ، ولا كليل الحد ، فإن أمركم أن تقدموا فاقدموا ، وأن أمركم أن تنفروا فانفروا ، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلاّ بأمري ، وقد آثرتكم به على نفسي ، لنصحه لكم ، وشدة شكيمته على عدوكم ، عصمكم الله بالهدى ، وثبتكم على اليقين ، والسلام »(١) .

ووصفه الإمام في رسالة أخرى بقوله : « فإنه ممن لا يخاف رهقه ولا سقاطه ولا يطؤه عما الإسراع إليه أحزم، ولا الإسراع إلى ما الإبطاء عنه أمثل (٢) » .

والتاريخ يحدثنا بأن الأشتر كان من أخلص الناس للإمام علي ، وكان أحد القادة لجيوشه ، وقد حارب معه طويلاً ضد الروم ، على الحدود الشمالية لبلاد الشام ، وأظهر الأشتر خبرة وبراعة في الحرب ، وقيادة الجيش ، وقد اهتدى الأشتر إلى طريقة إقامة الجسور العائمة فوق الأنهار لنقل الجيوش والعتاد ، ومن أمثلة ذلك أنه طلب من أهل مدينة « الرقة » أن يتكاتفوا لإقامة

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٩٦ . وشرح نهج البلاغة ، ج ٢ ، ص ٣١٣ . وفي ص ٣٣١ رواية أوسع لهذا الكتاب .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٦٧ .

جسر من الزوارق فوق نهر الفرات ، لينقل عليه جنود الجيش المناضل المؤمن(١).

وكان الإمام علي يوجه الأشتر ويوصيه في شئون القتال والنضال ، كان يقول له : « وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلاّ أن يبدوك ، حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع ، ولا يجرمنك شنآنهم (٢) على قتالهم قبل دعائهم ، والاعذار إليهم مرة بعد أخرى » (٣) .

وفوق خبرة الأشتر ومخادعته في الحرب ومراوغته للأعداء ، كان في بعض المواقف يعرض نفسه للمهالك ، ويخاطر بها مواجهة ، ومن أمثلة ذلك أنه قاد جمعاً من طلائع المجاهدين ، وقد تعمم معهم بعمائم خضر ، ثم تعاهدوا فيما بينهم أن يقاتلوا حتى ينتصروا أو يموتوا شهداء ، وأراد الله لهم البقاء ، فغلبوا وعادوا بحميد الأجر ورائع الثناء . وكذلك كان الأشتر يعلم أهله دروس الوفاء والفداء ، ولذلك كان يشرك ابنه إبراهيم معه في المعارك ، ويحثه على الإقدام والتضحية .

* * *

ومما يتألق تألق الشمس في سيرة الأشتر النخعي ذلك العهد العلوي الذي وجهه إليه الإمام أمير المؤمنين على ابن أبي طالب رضي الله عنه،وهو أطول عهد كتبه الإمام ، وأجمعه للمحاسن (٤) ، وفي فاتحة هذه الوصية الجليلة يقول الإمام للأشتر حين ولاه على مصر وأعمالها :

---

(١) دائرة المعارف ، ج ٣ ، ص ٤١١ .
(٢) ولا يجرمنك شنآنهم : لا يحملنك بغضك لهم .
(٣) تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٦٧ .
(٤) اورد ابن أبي الحديد هذا العهد بأكمله في شرحه « نهج البلاغة » وعلق عليه تعليقا طويلا ، انظر الجزء الخامس ، ص ٢٣ – ٩٤ .

« هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين : مالك بن الحارث الأشتر ، في عهده إليه ، حين ولاه مصر : جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها .

أمره بتقوى الله ، وإيثار طاعته ، واتباع ما أمر به في كتابه ، من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلاّ باتباعها ، ولا يشقى إلاّ مع جحودها وإضاعتها ، وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه ، فإنه — جل اسمه — قد تكفل بنصر من نصره ، وإعزاز من أعزه .

وأمره أن يكسر من نفسه عند الشهوات ، وينزعها عند الجمحات ، فإن النفس إمارة بالسوء ، إلاّ ما رحم الله » .

وفي أثناء هذا العهد الطويل الجليل يقول الإمام علي للأشتر النخعي :

« فالجنود بإذن الله حصون الرعية ، وزين الولاة ، وعز الدين ، وسبيل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلاّ بهم ، ثم لا قوام للجنود إلاّ بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ، ويكون من وراء حاجتهم » .

ثم يختم هذا العهد بقوله :

« وأنا أسأل الله — بسعة رحمته ، وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة — أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه ، من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه ، من حسن الثناء في العباد ، وجميل الأثر في البلاد ، وتمام النعمة ، وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة ، انا إليه راغبون ، والسلام على رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين » . . . . . .

ولذلك لم يكن عجيباً أن نرى الأشتر النخعي يحب قائده ورائده الإمام علياً حباً شديداً ، ويعرف له قدره ويمجد ذكره ، ولقد وقف الأشتر يوم « ذي قار »[1] بين يدي أمير المؤمنين علي فقال فيما قال :

« الحمد لله الذي من علينا فأفضل ، وأحسن إلينا فأجمل . وقد سمعنا كلامك يا أمير المؤمنين ، ولقد أصبت ووفقت ، وأنت ابن عم نبينا وصهره ، ووصيه وأول مصدق به ، ومصل معه .

شهدت مشاهده كلها ، فكان لك الفضل فيها على جميع الأمة ، فمن أتبعك أصاب حظه ، واستبشر بفلجه[2] ، ومن عصاك ورغب عنك فإلى أمه الهاوية » .

* * *

وإلى جوار بطولة الأشتر ، وبذله في ميادين القتال والنضال ، كان جواداً معطاء ، يبذل من ذات يده الكثير الغزير ، وكان جريئاً في مقاومة المآثم والمظالم التي يرتكبها الآثمون الظالمون من الحاكمين .

فهو يعترض عليهم ، ويقف في طريقهم ، ويندد بسيئاتهم ، إذا لم يستمعوا ولم يرتدعوا . وكان رجلاً يغار على حقوق الناس ، ويدعو إلى سيادة العدل والحق بينهم ، ويقاوم الاستبداد والاحتكار .

ولقد حاول بعض الحاكمين أن يستغل أرض السواد بالكوفة لصالح قبيلته قريش قائلاً : إنما هذا السواد بستان لقريش .

---

(١) ذو قار : موضع قريب من البصرة ، وهو المكان الذي كانت فيه الحرب بين العرب والفرس .
(٢) الفلج : الفوز والظفر .

فأنكر عليه الأشتر هذا الادعاء ، وقال له : أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبنا إلا أن يكون كأحدنا (١) .

وكان الأشتر يردد قوله داعياً ربه :

« اللهم ، أسوأنا نظراً للرعية ، وأعملنا فيهم بالمعصية ، فعجل له بالنقمة »(٢).

وإلى جوار بطولته في الميدان ، وإعطائه للمال ، وحرصه على خير الناس وإصلاح المجتمع ، كان حريصاً على العلم يطلبه كلما تيسر له ، وعلى التفقه في الدين كلما وجد إلى ذلك سبيلاً .

وكان صاحب شعر جيد وخطابة بليغة ، وتجلت بلاغته أحسن ما تجلت في خطبه وكلماته التي كان يحث فيها زملاءه وجنوده على صدق الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد .

وقف الأشتر يخطب الناس في « قناصرين » فكان مما قاله :

« الحمد لله الذي خلق السموات العلى : الرحمن على العرش استوى ، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . أحمده على حسن البلاء ، وتظاهر النعماء ، حمداً كثيراً ، بكرة وأصيلاً ، من هداه الله فقد اهتدى ، ومن يضلل فقد غوى . أرسل محمداً بالصواب والهدى ، فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، صلى الله عليه وسلم .

ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدر ، أن ساقتنا المقادير إلى أهل هذه

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٣٢٣ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٢٦ .

البلدة من الأرض ، فلفت بيننا وبين عدو الله وعدونا ، فنحن بحمد الله ونعمه ، ومنه وفضله ، قريرة أعيننا ، طيبة نفوسنا ، نرجو بقتالهم حسن الثواب ، والأمن من العقاب . معنا ابن عم نبينا ، وسيف من سيوف الله علي بن أبي طالب ، صلى مع رسول الله ، لم يسبقه إلى الصلاة ذكر حتى كان شيخاً ، لم تكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ولا سقطة ، فقيه في دين الله تعالى ، عالم بحدود الله ، ذو رأي أصيل ، وصبر جميل ، وعفاف قديم .

فاتقوا الله ، وعليكم بالحزم والجد » .

وفي موقف آخر يقول :

« . . . فطيبوا عباد الله نفساً بدمائكم دون دينكم ، فإن الفرار فيه سلب العز ، والغلبة على الفيء ، وذل المحيا والممات ، وعار الدنيا والآخرة ، وسخط الله واليم عقابه » .

ومن مواقفه المذكورة انه دعا بالحارث بن همام النخعي ، فأعطاه لواءه ، وقال له :

يا حارث ، لولا أعلم إنك تصبر عند الموت ، لأخذت لوائي منك ، ولم أحبك بكرامتي .

فقال : والله يا مالك لأسرنك أو لأموتن ، فاتبعني .

ثم تقدم باللواء ، وارتجز فقال :

يا أخا الخيرات ، يا خير النخع   وصاحب النصر إذا عم الفزع
وكاشف الخطب إذا الأمر وقع   ما أنت في الحرب العوان بالجذع[1]

(١) الحرب العوان : التي قوتل فيها مرة بعد مرة . والجـذع : الصغير السن .

قد جزع القوم وعموا بالجزع   وجرعوا الغيظ، وغصوا بالجرع
إن تسقنا الماء فليست بالبدع   أو نعطش اليوم فجند مقتطع
ما شئت خذ منها، وما شئت فدع

فقال له الأشتر:

ادن مني يا حارث.

فدنا منه، فقبل رأسه، وقال:

لا يتبع رأسه اليوم إلاّ خير...

ثم صاح الأشتر في أصحابه قائلاً:

فدتكم نفسي، شدوا شدة المحرج الراجي للفرج، فإذا نالتكم الرماح فالتووا فيها، فإذا عضتكم السيوف فليعض الرجل على نواجذه، فإنه أشد لشئون الرأس (١)، ثم استقبلوا القوم بهامكم (٢).

وهذا المجاهد المقاتل المناضل، الذي كان يطيح برءوس أعدائه في الحرب ذات اليمين وذات الشمال وكان يخافه الناس في الميدان، ويفرون من لقائه، نراه إنساناً رقيق العاطفة نبيل الشعور سريع التأثر بالكلمة البليغة، فيستجيب لرجائها، ويكون عند ظن قائلها.

لقد كلف الإمام علي بن أبي طالب الأشتر النخعي بمقاتلة رجل يقال له: الاصبغ بن ضرار الأزدي، واستطاع الأشتر أن يأسره بغير قتال، وجاء به ليلاً فشده وثاقاً، وتركه حتى الصباح، وكان الاصبغ شاعراً مفوهاً، فأيقن انه مقتول، فرفع صوته حتى يسمعه الأشتر، فقال:

---

(١) الشئون هنا: جمع شأن، وهو موصل قبائل الرأس. والهام: جمع هامة وهو الرأس.
(٢) شرح ابن أبي الحديد، ج ١، ص ٧٢٦.

ألا ليت هذا الليل أصبح سرمداً على النـــاس لا يأتيهم بنهـــار
يكون كذا حتى القيامة ، إنني أحاذر في الاصباح يوم بواري
فيا ليل أطبق ، ان في الليل راحة وفي الصبح قتلي ، أو فكاك أساري
ولو كنت تحت الأرض ستين وادياً لما رد عني ما أخاف حذاري
فيا نفس مهلاً ، ان للموت غاية فصبراً على ما ناب يا ابن ضرار
أأخشى ولي في القوم رحم قريبة أبى الله أن أخشى و « مالك » جاري
ولـــو انه كـــان الأسير ببلـــدة أطاع بها ، شمرت ذيل أزاري
ولو كنت جار الأشعث الخير فكنى وقل من الأمر المخوف فراري
وجار سعيد ، أو عدي بن حاتم وجار شريح الخير ، قر قراري
وجار المرادي الكريم ، وهـــانىء وزحر بن قيس ، ما كرهت نهاري
ولو أنني كنت الأسير لبعضهم دعوت فتى منهم ففكّ أساري
أولئك قومي لا عدمت حياتهم وعفوهم عني ، وستر عواري

فتأثر الأشتر بأبياته ، وذهب إلى الإمام علي وقال له :

يا أمير المؤمنين أن هذا رجل أصبته أمس ، وبات عندنا الليل ، فحركنا بشعره ، فإن ساغ لك العفو عنه فهبه لنا .

فقال الإمام علي : هو لك يا مالك ! . .

* * *

ولما كان أهل الباطل لا يطيقون الصبر على ضياء الحق ، فإن المفسدين في الأرض يقفون لأهل النضال بالمرصاد . وكذلك كان الأمر مع البطل الفاتح : مالك بن الحارث الأشتر النخعي ، فإن الإمام علياً ولاه على مصر ، فترصد

له الأعداء في طريقه ، ودسوا عليه رجلاً خائناً يسمى « الجايستار » من أهل الكتاب ، فخدع الأشتر ، وقدم إليه شربة من عسل وضع فيها سماً ، وهو يتظاهر بخدمة الأشتر وإكرامه ، فمات الأشتر مسموماً بها رضوان الله تبارك وتعالى عليه [1] .

وروي من بعض الوجوه أن الأشتر قتل بمصر بعد قتال شديد ، ولكن الصحيح إنه مات مسموماً قبل أن يبلغ مصر [2] .

ولما علم الإمام علي بمصرع الأشتر قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين ، اللهم أني احتسبه عندك ، فإن موته من مصائب الدهر ، رحم الله مالكاً ، فلقد وفى بعهده ، وقضى نحبه ، ولقي ربه ، مع أننا قد وطنا أنفسنا أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنها من أعظم المصيبات » [3] .

ثم كتب الإمام علي رسالة إلى محمد بن أبي بكر ، وفيها يقول عن الأشتر يرثيه :

« . . . ألا أن الرجل الذي وليته مصر ، كان رجلاً لنا مناصحاً ، وهو على عدونا شديد ، فرحمة الله عليه ، فقد استكمل أيامه ، ولاقى حمامه ، ونحن عنه راضون ، فرضي الله عنه ، وضاعف له الثواب ، وأحسن له المآب » [4] .

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٠٤ .
(٢) شرح ابن أبي الحديد ، ج ٢ ، ص ٢١٢ . وقد جاء في كتاب « العبر » للذهبي عن الاشتر : « يقال انه سم ، وكان الاشتر من الابطال الكبار ، وهو سيد قومه وخطيبهم وفارسهم » ، ج ١ ، ص ٤٥ .
(٣) شرح ابن أبي الحديد ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٣١٤ . وانظر تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٩٧ .

وكانت وفاة الأشتر سنة سبع وثلاثين للهجرة ، أو سنة ثمان وثلاثين ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

ما أحوج الأمة المؤمنة إلى أن تتعلم روائع الدروس من أمثال تلك النفوس ، لتؤدي زكاة نفوسها بالجهاد ، وزكاة أيديها بالمال ، وزكاة عقولها بنشر العلم ، وزكاة قلوبها بتوطيد الإيمان فيها مع ذكر الله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني

من حقائق الإسلام البديهية أن الله تبارك وتعالى جعل الدنيا دار عمل ولا حساب فيها ، وجعل الآخرة دار حساب ولا عمل فيها ، وذلك ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويفرق بين الصالح والطالح ، ويرتب على ذلك — بعدله وفضله — أمر الثواب والعقاب ، ومن هنا قال الحق سبحانه في سورة التوبة : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

ولقد علم الإسلام أتباعه أن الثبات على المبدأ ، والدوام على الصراط ، والاستمرار في الطاعة ، هو شعار الذين رضي عنهم ربهم . وتقبل منهم ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل » . وقال : « خيركم من طال عمره وحسن عمله ، وشركم من طال عمره وساء عمله » .

وإذا كنا نرى في تاريخ صدر الإسلام شباباً أفضوا إلى ربهم مجاهدين مخلصين ، وهم في ربيع العمر وضحوة الحياة ، فإننا نرى من ورائهم كذلك شيوخاً امتدت بهم أعمارهم ، وتواصلت منهم أعمالهم الصالحة ، فما انحرفوا ، ولا اعتسفوا ، وما بدلوا تبديلاً .

وهذا واحد منهم ، يبلغ المائة أو يزيد ، ومع ذلك يظل تقياً وفياً ، حتى

يلقى ربه على خير ما استطاع من طاعة ونضال : انه الصحابي الجليل ، أبو الطفيل عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو الليثي الكناني ، الذي ولد يوم غزوة أحد ، وكأن هذا كان رمزاً إلى ما ينتظره من حياة الكفاح والنضال ، فهو قد ولد على صوت قعقعة السلاح وضربات السيوف وطعنات الرماح .

وكان أبو الطفيل رضي الله عنه شاعر قبيلته « كنانة » ، ويقول ابن عبد البر في « الاستيعاب » إنه كان شاعراً محسناً (١) ، وكان فارس قبيلته ، ومن ذوي السيادة فيها . ولقد رأى أبو الطفيل النبي عليه الصلاة والسلام وهو فتى يافع ، وأدرك من حياة النبي ثماني سنوات ، وروى عنه جملة أحاديث ، وكان آخر من مات من الصحابة (٢) .

وكان صحابياً عاقلاً فاضلاً حاضر الجواب ، ومن كلماته الرائعة : « إن لنا ديناً لا يميل به الهوى ، ويقيناً لا تزحمه الشبهة » (٣) . وأنعم بها من كلمة تدلنا على أن المسلمين الأصحاء لا يجعاون دينهم خاضعاً لهواهم ، يقبلون عليه حينما يشاءون ، ويعرضون عنه حينما يشاءون ، ويظهرون الاعتزاز به حينما يريدون ، ويستخفون بشأنه حينما يريدون، بل ان لهم يقيناً وطيداً لا تختلط به شبهة ، ولا تعرض له ريبة ، ولا يزعزعه تردد .

وكان أبو الطفيل موصول الجهاد ، وكان يحث قبيلته « كنانة » على الجهاد في سبيل الله : سبيل الحق والعدل والعزة ، ويقول لها : « طاعنوا وضاربوا ، ثم يحمل لها لواءها ، ويتقدم صفها ، ويجاهد أمامها ، وهو يردد لها نشيد الوفاء والفداء ، مثل قوله :

---

(١) الاستيعاب على هامش الاصابة ، ج ٤ ، ص ١١٧ .
(٢) الاصابة ، ج ٤ ، ص ١١٣ . والاستيعاب ، ج ٤ ، ص ١١٦ .
(٣) شرح نهج البلاغة ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

قد ضاربت في حربها كنانه   والله يجزيها به جنانه
من أفرغ الصبر عليه زانه   أو غلب الجبن عليه شانه
أو كفر الله فقد أهانه   غداً يعض من عصى بنانه

وكان هذا الشعر سبباً في تحريض آخرين من المناضلين قادوا وجاهدوا وأنشدوا ، فهذا هو عمير بن عطارد يقود جماعة من تميم — مع أبي الطفيل — ويقول : يا قوم ، إني أتبع آثار أبي الطفيل ، فاتبعوا آثار كنانة ، ثم يتقدم برايته ، ويرتجز فيقول :

قد ضاربت في حربها تميم   إن تميماً خطبها عظيم
لها حديث ، ولها قديم   إن الكريم نسله كريم
دين قويم ، وهوى سليم   إن لم تردهم رايتي فلوموا

وهذا هو قبيصة بن جابر الأسدي يأتي بعد عامر وعمير ، يقود جماعة من بني أسد ، ويقول لأصحابه : يا بني أسد ، أما أنا فلا أقصر دون صاحبي ، وأما أنتم فذاك إليكم . ثم يتقدم برايته ويقول :

قد حافظت في حربها بنو أسد   ما مثلها تحت العجاج من أحد
أقرب من يمن ، وأنأى من نكد   كأننا ركنا ثبير أو أحد
لسنا بأوباش بيض البلد   لكننا المحة من ولد معد (١)

ويندفع رفقاء الجهاد والجلاد نحو الأعداء حتى ينتصفوا منهم ، ويوسعوا فيهم طعناً وضرباً ، ويصور أبو الطفيل ذلك بشعره الحماسي المثير فيقول مقدراً جهود القبائل المتلاقية على احتمال البلاء وصدق الفداء :

---

(١) المحة : الشيء الخالص .

حامت كنانة في حربها   وحامت تميم ، وحامت أسد
وحامت هوازن يوم اللقا   فما خام[1] منا ومنهم أحد
لقينا الفوارس يوم الخميس   والعيد والسبت ثم الأحد
لقينا قبائل أنسابهم   إلى حضرموت وأهل الجند[2]
فأمدادهم خلف آذانهم   وليس لنا من سوانا مدد
فلما تنادوا بآبائهم   دعونا معداً ، ونعم المعد
فظلنا نفلق هاماتهم   ولم نك فيها ببيض البلد[3]
ونعم الفوارس يوم اللقاء   فقل في عديد ، وقل في عدد
وقل في طعان كفرغ الدلاء   وضرب عظيم كنار الوقد[4]
ولكن عصفنا بهم عصفة   وفي الحرب يمن ، وفيها نكد
طحنا الفوارس وسط العجاج   وسقنا الزعانف سوق النقد[5]

ولقد كان أبو الطفيل يحب الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويشايعه ويناصره ، حتى يقول فيه :

وقلنا علي لنا والد   ونحن له طاعة كالولد

ومع ذلك كان يحفظ حرمة الباقين من خلفاء الرسول الراشدين ، ويعرف لهم قدرهم وكرامتهم . كان يثني على أبي بكر وعمر ، ويترحم على عثمان ،

(١) خام : جبن ونكص .
(٢) الجند : احدى الولايات بأرض اليمن .
(٣) بيض البلد : بيض النعام ، يقال : هو أذل من بيضة البلد .
(٤) الفرغ ـ بفتحتين ـ جمع فراغ وهو مصب الدلو ، وسكنت الراء لضرورة الشعر والوقد هو الحطب .
(٥) الزعانف : الجماعات . والنقد : الغنم . وانظر شرح نهج البلاغة ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤ .

رضوان الله على الجميع ، وكان لا يرتضي تصدعاً ، ولا تفرقاً بين أبناء الأمة المؤمنة الموحدة . وكان يجاهد مع الإمام علي ، وشهد معه حروبه كلها [١] ، فلما نال الإمام نعمة الشهادة حزن عليه أبو الطفيل حزناً شديداً ، حتى يروي التاريخ أن معاوية بن أبي سفيان أراد أن يعرف مبلغ حزن أبي الطفيل على الإمام الشهيد ، فاستدعاه إليه وسأله :

كيف وجدك على خليلك أبي الحسن ؟

فأجابه أبو الطفيل : كوجد أم موسى على موسى [٢] ، وأشكو إلى الله التقصير .

وفي رواية أن معاوية قال له : ما أبقى لك الدهر من ثكلك علياً ؟

فأجابه : ثكل العجوز المقلات والشيخ الرقوب [٣] .

قال معاوية : كيف حبك له ؟

فأجابه : حب أم موسى لموسى ، وإلى الله أشكو التقصير .

وكان لأبي الطفيل ولد يسمى « الطفيل » . والولد سر أبيه ، وقد نشأ هذا الولد في أسرة مسلمة تعرف الإيمان والإحسان ، وتعرف الدين الذي لا يميل به الهوى ، واليقين الذي لا تزحمه الشبهة ، ولذلك نشأ « الطفيل » وهو يعرف طريق الكفاح والنضال ، وشاء الله له أن ينال نعمة الشهادة في « معركة الزاوية » سنة ثنتين وثمانين للهجرة ، ومعنى هذا أنه قد سقط شهيداً وأبو الطفيل في

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٩٠ .
(٢) يقول القرآن في سورة القصص : « واصبح فؤاد ام موسى فارغا ان كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » .
(٣) المقلات : المرأة التي لا يعيش لها ولد . والرقوب : الرجل الذي لا يبقى له ولد .

نحو الثمانين من عمره ، لأنه ولد كما عرفنا يوم غزوة أُحد ، في السنة الثالثة للهجرة .

ومع ذلك لم يجزع أبو الطفيل ولم يقنط ، بل احتسب ابنه عند ربه ، وتذكر قول بارئه : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله ، وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » .

وقد رثى أبو الطفيل ولده بأبيات رائعة منها قوله :

خلى طفيل علي الهم فانشعبا وهد ذلك ركني هدة عجبا
وأخطأتني المنايا لا تطالعني حتى كبرت ، ولم يتركني لي نشبا
وكنت بعد طفيل كالتي نضبت عنه المياه ، وفاض الماء فانقضبا
فاملك عزاءك إن رزء بليت به فلن يرد بكاء المرء ما ذهبا
وليس يشفي حزيناً من تذكره حر البكاء إذا ما ناح وانتحبا
فإن سلكت سبيلاً كنت سالكها فلا محالة أن يأتي الذي كتبا

وإلى جوار بطولة أبي الطفيل وشجاعته روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم طائفة من الأحاديث ، كما روى عن أبي بكر وعمر وعلي وحذيفة وابن مسعود وابن عباس وزيد بن أرقم وغيرهم ، وروى عنه كثيرون (١) ومما يدل على حضور بديهته وقوة حجته وسرعة إجابته أن معاوية استدعاه وهو في الحكم وحاوره ليحرجه فقال له : « يا أبا الطفيل ، أكنت فيمن حاصر عثمان » ؟

(١) الاصابة ، ج ٤ ، ص ١١٣ .

فأجابه أبو الطفيل قائلاً : لا ، ولكني كنت فيمن حضره .

فقال معاوية : فما منعك من نصره ؟

فأجابه : وأنت فما منعك من نصره ، إذ تربصت به ريب المنون ، وكنت مع أهل الشام ، وكلهم تابع لك فيما تريد ؟

فحاول معاوية أن يتنصل من التبعة ومن مواجهة السؤال ، فقال لأبي الطفيل : أو ما ترى طلبي لدمه نصرة له ؟ . . فقال أبو الطفيل : بلى ، ولكن كما قال الشاعر :

لا ألفينك بعد الموت تندبني   وفي حياتي ما زودتني زادا

ولقد حاول بعض حكام الأمويين أن يكسبوا أبا الطفيل إلى جانبهم ، ولكن هيهات ، فقد كانت مأساة استشهاد الحسين بن علي — رضوان الله عليهما — جريمة كبرى لا تغتفر في تاريخ هؤلاء . ولذلك نرى أبا الطفيل يخرج ليطالب بثأر أبي الشهداء ، الذي ضرب أروع الأمثال في الثبات على المبدأ ، والجهاد في سبيل الحق ، ومقاومة الفساد والجور .

وعانى أبو الطفيل في حياته كثيراً من الأهوال والمخاطر ، مما عجل ببياض الشيب إلى رأسه ، وحينما حسب بعض الناس أن هذا الشيب بسبب تقدم السن عند أبي الطفيل ، صحح لهم فهمهم قائلاً :

وما شاب رأسي من سنين تتابعت   علي ، ولكن شيبتني الوقائع

وامتد العمر بأبي الطفيل ثم امتد ، وأدرك عهد خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه ، فأحس عامر أن نسمة من نسمات الخير تهب على المجتمع في عهد هذا الخليفة الصالح ، فتمنى من هذا الخير المزيد .

وكأن السنين التي قاربت المائة من عمره قد أثقلته ، وكأنه رأى نفسه بحاجة إلى أن يزداد تعبداً وتقرباً من الله ، فاتجه إلى مكة حيث أول بيت وضع للناس ، وهناك جاور حول بيت الله تبارك وتعالى .

وأخذ الموت يختطف الباقين من صحابة رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – واحداً بعد الآخر ، حتى لم يبق على ظهر الأرض من هؤلاء الصحابة الأجلاء سوى البطل المجاهد أبي الطفيل عامر بن واثلة الكناني .

ولذلك كان يقول في أواخر أيامه : « ما على وجه الأرض رجل اليوم رأى النبي صلى الله عليه وسلم غيري » . وقال أيضاً : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ولم يبق على وجه الأرض أحد رآه غيري » (١) . وقال كذلك : « ما بقي على وجه الأرض عين تطرف ممن رأى النبي صلى الله عليه وسلم غيري » (٢) .

وكأنه كان حينئذ يستعرض بتذكره ذلك التاريخ الطويل الجليل الحافل بالمواقف والأعمال : تذكر كيف خرج إلى الدنيا ومعركة أحد تدور رحاها . وكيف رأى النبي واستجاب له ، وكيف روى عنه ، وكيف جاهد وكافح ، ومضت عليه كل هذه السنين بسرائها وضرائها .

وانتقل أبو الطفيل إلى عالم البقاء سنة مائة من الهجرة ، أو بعد ذلك بسنوات (٣) ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

---

(١) الاستيعاب ، ج ٤ ، ص ١١٦ .
(٢) يقول التاريخ أن ابا الطفيل هو آخر من عاش من الصحابة بالاجماع (انظر البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٩٠ . وكتاب العبر ، ج ١ ، ص ١١٨ . وتاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ١٨٠) .
(٣) قيل : سنة مائة ، او سنة مائة واثنتين ، او مائة وسبع، او مائةوعشر (انظر الاصابة ، ج ٤ ، ص ١١٣) .

هرم بن حيان

خلق الله تبارك وتعالى الخلق ، وأجرى بين أيديهم الرزق ، ولم يكن ذلك لهواً ولا باطلاً ، لأن القرآن المجيد يقول : « أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً ، وإنكم إلينا لا ترجعون » . بل أراد الله من وراء ذلك — وهو أعلم بمراده — أن يحس الإنسان بذاته ورسالته ، وأن يشكر نعمة الله عليه ، فيحسن العمل في أولاه ، مع الاستمتاع بما أباحه الله ، ويحسن الاستعداد للقاء مولاه في أخراه ، حتى يفوز بالنعيم الدائم في جواره وحماه ، ولذلك قال كتاب الله : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين » .

ولقد أخبرنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بأن خير الناس ليس من عمل للدنيا وحدها ونسي الآخرة ، ولا من عمل للآخرة وحدها ونسي الدنيا ، ولكن خيرهم من عمل لهذه وتلك ، وجاء الأثر الإسلامي البليغ يقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . وقال القائل الحكيم :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا   وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

ولقد شهدت مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام كثيرين ممن أحسنوا المواءمة بين دنياهم وأخراهم ، واتقنوا العمل للعاجلة والآجلة ، وأعطوا كلاً

منهما ما تستحقه من حظ ونصيب ، ذاكرين خير الذكر قول ربهم جل جلاله : « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان (١) لو كانوا يعلمون » .

وهذا واحد منهم ، يمثل السعي والزهد ، ويمثل التنسك والجهاد ، ويمثل الوفاء والفداء .

إنه التابعي الفاضل ، والقائد الفاتح ، والعابد المجاهد ، والناسك المتماسك : هرم بن حيان (٢) العبدي الأزدي البصري ، من بني عبد القيس ، الذي كان من كبار التابعين النساك .

وفيه يقول المؤرخ ابن سعد في الطبقات : « كان ثقة ، وله فضل وعبادة » ج ٧ ص ٩٥ .

وقيل فيه : « أعبد العرب هرم بن حيان صاحب أويس القرني » ، وقد نقل هذا ابن أبي الحديد في « شرح نهج البلاغة » ج ٥ ص ٢٣٨ .

وقد عده ابن عدي والعتبي أحد الزهاد الثمانية .

قال العتبي — فيما يرويه العقد الفريد — : سمعت أشياخنا يقولون :

انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين : عامر بن عبد القيس ، والحسن بن أبي الحسن البصري ، وهرم بن حيان ، وأبي مسلم الخولاني ، وأويس القرني ، والربيع بن خيثم ، ومسروق بن الأجدع ، والأسود بن يزيد » ج ٣ ص ١٢٠ .

---

(١) الحيوان : أي الحياة الدائمة الخالدة .
(٢) أغلب المصادر تذكره « هرم بن حيان » بالياء المنقوطة بنقطتين من أسفلها ، ولكن تاج العروس يذكره « هرم بن حبان » بالباء المنقوطة بنقطة واحدة ، وقال انه من صغار الصحابة (ج ٩ ، ص ١٠٣) .

ومع زهد هرم ونسكه وعبادته ، كان أميراً لقبيلته بني عبد القيس في الفتوح والمعارك .

وقد تولى إمارة طائفة من الحروب في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، والخليفة عثمان بن عفان ، رضوان الله عليهما ، وذلك في أرض فارس .

وحاصر هرم هناك مدينة « بوشهر » في السنة الثامنة عشرة للهجرة ودخلها .

كما كلفه عثمان بن أبي العاص أمير البحرين أن يفتح قلعة « بجرة » وهي من قرى البحرين ، ويقال لها : « قلعة الشيوخ »[1] ، فافتتحها عنوة في السنة السادسة والعشرين .

وكان هرم رجلاً معتدلاً متوسطاً في حياته ، لا يسرف في طعام ولا شراب ، ولا يحرص على شيء من توافه الأهواء والرغبات ، وكان أغلب زاده التمر ، يطعمه في السهل والجبل ، كما يعبر التاريخ[2] .

وحينما تولى هرم بن حيان بعض الولايات عاهد ربه أن يكون عادلاً منصفاً بين الناس ، وألاّ يحابي أو يمالىء لقرابة أو صداقة أو نسب ، ولقد علم عقب توليه الولاية أن أفراداً من قومه سيأتون إليه طامعين راغبين في أن يخصهم بشيء مما في حوزته وسلطانه ، فأمر هرم بإيقاد نار كبيرة من حوله ، لا يستطيع أحد أن يتخطاها إليه ، ثم جاء القوم فرأوا النار ، فسلموا عليه من بعيد ، فقال لهم بعد رد السلام :

مرحباً بقومي ، ادنوا .

---

(١) معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٤٦ .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٧٤ .

فقالوا له : والله ما نستطيع أن ندنو منك ، فقد حالت النار بيننا وبينك .

فرد عليهم قائلاً :

فأنتم تريدون أن تلقوني في نار أعظم منها في جهنم .

فيئسوا من تأثيرهم فيه ، فرجعوا (١) .

وكان هرم بن حيان رجلاً حساساً مرهف الإحساس ، يشعر بالتبعة ويقدر المسئولية ، ويندم ندماً شديداً وجيعاً حينما يشعر بأنه تسرع في عقاب . ولقد حدث أن غضب على رجل غضباً شديداً ، فأغلظ له القول ، وأمر بعقابه ، ثم ندم ، وأقبل على أصحابه يقول لهم : « لا جزاكم الله خيراً ، ما نصحتموني حين قلت ، ولا كففتموني عن غضبي ، والله لا ألي لكم عملاً » .

ثم كتب إلى أمير المؤمنين عمر يستعفيه من الولاية ، ويقول له : « يا أمير المؤمنين ، لا طاقة لي بالرعية ، فابعث إلي عملك » .

وكان هرم يضيق كل الضيق بمن يخالف عمله قوله ، ولذلك قال : « إياكم والعالم الفاسق » أي الذي يعظ ولا يتعظ ، وينصح ولا ينتصح ، ولما سمع عمر بكلمته هذه سأله عما أراد بها ، فقال هرم : « ما أردت إلا الخير ، يكون إمام يتكلم بالعلم ويعمل بالفسق ، فيشتبه على الناس فيضلون » .

وكان رضي الله عنه يؤمن بأن إخلاص الإنسان في إيمانه وتقواه ، وإقباله على الله ، يكون سبباً لإقبال الكرام من الناس عليه ، وثقة المؤمنين به ، وحبهم له ، لأن ألسنة الصادقين من الخلق هي أقلام الحق .

---

(١) الطبقات لابن سعد ، ج ٧ ، ص ٩٦ .

ولذلك كان هرم يردد قوله : « ما أقبل عبد بقلبه على الله عز وجل ، إلاّ أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم » .

وطالما خشي هرم تغير الزمان وتبدل الناس ، وخاف أن يدركه زمان يضيع فيه الحق ، ويفسد فيه الخلق ، ومن هنا ردد كثيراً قوله : « اللهم أني أعوذ بك من شر زمان يتمرد فيه صغيرهم ، ويؤمل فيه كبيرهم ، وتقرب فيه آجالهم ، ويرون أعز أخوانهم على المعاصي (أي يرتكبون المعاصي) فلا ينهونهم » (١) .

وطالما ردد الدعاء فقال فيه : « اللهم أخر رجال السوء إلى زمن السوء » !

وحينما يسمع الناس منه أمثال ذلك يقولون له : أوصنا .

فيجيبهم قائلاً : أوصيكم بخواتيم سورة البقرة .

وهو يقصد الآيات الثلاث التي ختمت بها سورة البقرة . وفيها يقول الحق جل جلاله :

« لله ما في السموات وما في الأرض ، وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله على كل شيء قدير ، آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا أصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، وأعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

---

(١) طبقات الشعراني ، ج ١ ، ص ٢٥ .

وكأنه يقصد بذلك أن يقول : أوصيكم بحفظ ذلك ، وفهمه ، والعمل به ، والإخلاص فيه ، ولا عجب في ذلك . فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنز تحت العرش ، فتعلموهما ، وعلموهما نساءكم وأبناءكم ، فإنهما صلاة وقرآن ودعاء » . ويقول : « من قرأ بالآيتين آخر سورة البقرة في ليله كفتاه » . ويقول الإمام علي كرم الله وجهه : « ما أظن أحداً عقل وأدرك الإسلام ينام حتى يقرأهما » .

ويروي التاريخ أنه قيل لهرم بن حيان : أوص .

فقال : قد صدقتني نفسي في الحياة ، ما لي شيء أوصي فيه ، ولكني أوصيكم بخواتيم سورة النحل [1] .

وهو يقصد بخواتم سورة النحل قوله عز وجل : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم وبه ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، وأصبر وما صبرك إلاّ بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وحين ننظر في كلام هرم بن حيان نجد البيان المشرق ، والإشارة الواعظة ، والرمز البليغ ، مع ميل ظاهر إلى الإيجاز والاختصار ، فهو مثلاً يقول : « صاحب الكلام بين منزلتين ، ان قصر فيه خصم ، وأن أغرق فيه أثم » [2] . فهو في الغالب لا يعتدل على الصراط ، ولا يضمن نيل الحمد على كلامه ، لأنه إن لم يتوسع فيه لم ينل شكر الناس عليه ، وإن توسع أتى بما ليس بحق فيدركه الإثم والذنب » .

---

(١) عيون الاخبار ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .
(٢) العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

ويقول أيضاً : « لم أرَ مثل النار نام هاربها ، ولم أرَ مثل الجنة نام طالبها »[1] وهي عبارة بليغة أخاذة ، تحذر مستحق العذاب من النار ، لكي يقلع عن أسباب دخولها ، ويواصل الفرار منها ، وتحذر مستحق النعيم في الجنة ، حتى يظل على الدوام طالباً لها ، مستمسكاً بأسباب دخولها .

وحسب هرم بن حيان قدراً أن يكون من بين الرواة عنه الحسن البصري رضوان الله تعالى عليه .

ومع زهد هرم واستقامته الأخلاقية كتب له الله جل جلاله أن يموت شهيداً ، فقد روى التاريخ أنه مات في إحدى غزواته بعد سنة ست وعشرين للهجرة ، وروى ابن سعد في « الطبقات » أنه مات في غزاة له في يوم صائف فلما انتهوا من دفنه أقبلت سحابة فهطل منها ماء على القبر ثم رحلت [2] .

ولعلها بشرى ، والله سبحانه أعلم بحقيقة ما كان .

ولحق هرم بن حيان بربه تبارك وتعالى ، بعد أن عاش حياته التي عمرها بصالح القول والعمل ، فسلام عليه في عباد الله الطيبين الطاهرين : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

---

(1) كتاب الزهد لابن حنبل ، ص ٢٣١ ، مطبعة أم القرى .
(2) الطبقات لابن سعد ، ج ٧ ، ص ٩٧ . وكتاب الزهد لابن حنبل ، ص ٢٣١ .

أيمن بن خريم الأسدي

لقد عرف التاريخ كثيراً من الشعراء القوالين ، الذين يجيدون تشقيق المقال في كل مجال ، والذين يبرعون في تصوير البطولات المتخيلة ، والأمجاد المدعاة ، والذين يتحدثون عن أنفسهم ، فيصورونها نماذج فريدة ، أو وحيدة ، للشجاعة والإقدام ، مع أنه ليس لهم من كل هذا في دنيا الحقيقة نصيب مذكور .

ولعل هذا هو السر في أن يقول القرآن الكريم في سورة الشعراء: «والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ».

ولكن التاريخ عرف أيضاً قلة من الشعراء المؤمنين الصادقين مع الله ، ومع أنفسهم ، ومع الناس ، حيث جمعوا بين بطولة الكلام وبطولة الحسام ، وجمعوا بين صدق القول وصدق العمل ، وكأن هذه القلة هي التي استثناها العليم الخبير ، فأخرجها من جموع الشعراء الغاوين فقال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعدما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »[1] .

وفي وسط هذه القلة الكريمة المجيدة ، نلمح اسم صحابي مناضل ، جمع بين الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، والفروسية الباهرة ، وهو الصحابي الجليل ، العابد المجاهد ، أيمن بن خريم بن فاتك بن الأخرم بن شداد الأسدي ،

(١) انظر كتابي « سلاح الشعر » فصل « القرآن والشعر » ، ص ٦٥-٨٠.

الذي يقول عنه ابن سعد في الطبقات الكبرى هذه العبارة : « كان أيمن شاعراً فارساً شريفاً » .

وكان والده — وهو خريم بن فاتك — من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك ، وقد شهد غزوة بدر مع أخيه سبرة بن فاتك ، وقيل ان خريماً أسلم يوم فتح مكة ، ولكن الصحيح أنه بدري ، شهد غزوة بدر [1] ، وقد صحب النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه أحاديث ، وجاهد معه جهاداً طويلاً ، وقد عده بعضهم في أهل الصفة ، وترجم له في التهذيب ، والإصابة ، وتاريخ حلب لابن العديم [2] .

ويبدو أن خريماً كان رجلاً ليناً رحيماً ، والذلك جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى على رجل قد قطعت يده في سرقة ،وهو في فسطاط ، فقال : من آوى هذا المصاب ؟

فقالوا : خريم بن فاتك .

فقال : اللهم بارك على آل فاتك كما آوى هذا المصاب [3] .

وأم أيمن بن خريم هي : الصماء بنت ثعلبة بن عمرو الأسدية .

ونشأ الفتى أيمن على طريقة أبيه ، وهو شامي الأصل نزل الكوفة ، وقد أسلم عام الفتح وهو فتى يافع ، فازدانت به شبيبة الإسلام ، لما كان يتحلى به من عقل راجح ، ولسان مبين ، وشاعرية متوقدة ، ورغبة في الجهاد والنضال ، ومع هذا كان ذا عمل صالح ، وكان يروي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان صاحب « أسد الغابة » قد أورد هذه

---

(١) أسد الغابة ، ج ١ ، ص ١٩٢ . وتهذيب الاسماء واللغات ج ١ ، ص ١٧٥ .
(٢) التحفة اللطيفة ، ج ٢ ، ص ١٦ .
(٣) النهاية لابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٤٤٦ .

االعبارة : « قال الدارقطني : روى أيمن عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما أنا فما وجدت له رواية إلا عن أبيه وعمه . أخرجه الثلاثة »[1] .

ولقد روت السنة أن أيمن بن خريم سمع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يخطب ذات يوم فيقول : «أيها الناس ، عدلت شهادة الزور الإشراك بالله (ثلاثاً) . ثم تلا قوله عز من قائل : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به » .

وكأن سماع أيمن لهذا التوجيه النبوي الحكيم كان عظة له في قوله وشعره ، حتى لا يقول في شعره باطلاً ولا يشهد به زوراً ، فيجعل الجبان الرعديد بطلاً صنديداً ، والبخيل الشحيح كريماً مسماحاً ، والداعر الأثيم تقياً صالحاً ، كما يفعل الكثير من الكذبة المفترين ، الذين شوهوا جبين التاريخ ،ولطخوه بالمفتريات والأكاذيب .

وحرص رسول الله عليه الصلاة والسلام على توجيه أيمن بن خريم إلى طريق الحق والهدى والاستقامة ، كما فعل مع أبيه خريم من قبل ، فقد روت السيرة العطرة أن النبي صلوات الله وسلامه عليه لاحظ على خريم أنه يعنى يعني بتجميل صورته وشكله ، ويسرف في ذلك بعض الشيء ، حتى يجعله ذلك يبدو كالمنعمين المترفين اللاهين ، فقال له ذات يوم وقد رآه في زينته : يا خريم .

فقال له : لبيك يا رسول الله .

فقال له : لولا خلتان (خصلتان) فيك كنت أنت الرجل (أي الرجل الكامل من كل وجه) .

---

(١) أسد الغابة ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

فسأل خريم في لهفة وحرص على إصلاح عيبه وعودته إلى الحق : وما هما بأبي وأمي يا رسول الله ؟

قال له : « توفي شعرك ، وتسبل إزارك » . أي تطيل شعرك أكثر من اللازم ، وتطيل ثوبك حتى يلمس الأرض وتجره وراءك .

فما كان من خريم إلاّ أن سارع بلا إبطاء فجز شعره وقص إزاره .

ولمَ لا يفعل ، ولم لا يسارع في ذلك قدر طاقته ، وربه العلي الأعلى هو الذي يخاطب المؤمنين قائلاً : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وانه إليه تحشرون » !

* * *

وكان أيمن بن أخرم يقول الشعر في الحكمة والعظة والعبرة ، وإذا كان بعض هذا الشعر قد ابتعد عن صراط الحكمة أحياناً ، لهذا السبب أو ذاك ، فإنه قد أيدها وناصرها أحياناً وأحياناً ، ولم يقتصر أيمن الشاعر المؤمن على القصائد ينظمها وينشدها ، ولم يكتب شعره بالقلم وحده ، بل نظم شعراً آخر أمجد وأخلد ، نظم شعراً بحسامه وسنانه ، حيث شارك في كثير من مواقف الفداء والوفاء ، وغزا فيما غزا مع يحيى بن الحكم (١) .

وكان يحاول قدر طاقته أن يجعل ضربة سيفه موجهة إلى أعداء الله وأعداء عباده ، وكان يحذر كل الحذر أن يشارك في فتنة ، أو يقر حرباً أهلية ، ولذلك بلغ به الألم مبلغه حين نزغ الشيطان بين المسلمين ، فجعل بأسهم بينهم شديداً ، فتحزبوا وتعصبوا وتحاربوا ، ولقد تودد إليه زعيم طائفة تقاتل أخرى ،

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ج ١ ، ص ٤٥٢ .

وكلهم ينتسبون إلى الإسلام ، وطلب منه ذلك الزعيم أن ينضم إلى صفه في محاربة تلك الطائفة الأخرى ، فأبى أيمن ذلك كل الإباء ، وقال له : ان أبي وعمي شهدا بدراً ، وأنهما عهدا إلي أن لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلاّ الله ، فإن جئتني ببراءة من النار قاتلت معك .

ثم أنشد في ذلك شعراً منه قوله :

ولست مقـــاتلاً رجلاً يصلي على سلطان آخر مـــن قريش
له سلطانه ، وعـــلي وزري معـــاذ الله من سفـــه وطيش
أأقتل مسلماً ، وأظـــل حياً فليس بنافعي ما عشت عيشي

ولعله كان يتذكر خير التذكر قول ربه : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » .

ولأيمن أبيات تصد عن الفتنة ، وتنهى عن اقترابها ، وتنصح بالابتعاد عنها ، فيقول :

إن للفتنـــة ميطـــاً بينا (1) فرويد الميط منهـــا تعتدل
فإذا كـــان عطـــاء فـــأتهم وإذا كـــان قتـــال فاعتزل
إنمـــا يسعرهـــا جهالهـــا حطب النـــار ، فدعها تشتعل (2)

وله في وصف طبائع النساء شعر يدل على خبرة وصرامة ، ومنه قوله :

لقيت من الغـــانيات العجابا لو أدرك مني العذارى الشبابا
ولكن جمع العذارى الحسان عناء شديد إذا المرء شابـــا
يرضن بكـــل عصـــا رائض ويصبحن كـــل غداة صعابا

(1) جورا ظاهرا .
(2) الشعر والشعراء ، ج ١ ، ص ٥٤١ .

علام يكحلن نجل العيون ... ويحدثن بعد الخضاب الخضابا
ويبرقن ، إلاّ لما تعلمون ... فلا تحرموا الغانيات الضرابا
إذا لم يخالطن كل الخلا ... ط أصبحن مخرنطمات غضابا[1]
يميت العتاب خلاط النساء ... ويحيي اجتناب الخلاط العتابا

وقد أنشد أيمن هذه الأبيات لعبد الملك بن مروان ، فقال له عبد الملك : ما عرف النساء أحد معرفتك ، وما وصف أحد النساء مثل صفتك .

فقال له : لئن كنت صادقاً في ذلك لقد صدق الذي يقول :

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب[2]

ولقد كان يقال لأيمن بن خريم « خليل الخلفاء » لأنهم كانوا يحبون مجالسته ، ويعجبون بحديثه وفصاحته وعلمه ، مع أنه كان مصاباً بالبرص .

وكان كثير المجالسة للأمراء ، وكان أثيراً عند عبد العزيز بن مروان .

* * *

وظل المجاهد الشاعر أيمن بن خريم الأسدي بعيداً عن الوقوع في الفتنة ، حريصاً ما استطاع على جمع الكلمة وصيانة الأمة ، حتى لقي ربه عز وجل ، عابداً مناضلاً ، مجاهداً مقاتلاً ، رضوان الله تعالى عليه .

توفي نحو سنة ثمانين للهجرة .

---

(١) مخرنطمات : جمع مخرنطمة ، وهي الغاضبة المتكبرة .
(٢) انظر الشعر والشعراء ، ج ١ ، ص ٥٤٢ . وعيون الاخبار ، ج ٤ ، ص ١٠٢ ، والابيات الثلاثة لعلقمة بن عبدة .

فضالة بن عبيد الانصاري

نجد في الإسلام بيعتين : الأولى بيعة الدخول في الدين ، والأخرى بيعة الجهاد في سبيل الله [1] . والبيعة كلمة مأخوذة في اللغة من مادة « البيع » ، والبيع في الأصل هو مبادلة مال بمال ، أو شيء بشيء ، والمبايعة هي المعاهدة ، وكأن الطرفين فيها يتبايعان ويتبادلان .

وهذا المعنى ملحوظ في البيعة الدينية الإسلامية ، فكأن المسلم يبيع نفسه وجهده لربه ، في مقابل أن يرضى عنه ويوفقه ، ويكتب له عنده الثواب الخالد والنعيم المقيم ، ومن هنا قال الحق جل جلاله: « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

وفي سبيل هذه البيعة أو المبايعة يضحي المؤمن بمتاع الحياة في سبيل الله ، ويؤثر ما عند ربه على ما تحويه يداه ، ولذلك يترك أعمال البيع والشراء ، وهي أهم شاغل للناس ، وأقوى محرك لدولاب الحياة ، كي يجيب النداء يوم الجمعة ويحرص على الصلاة : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . ووصف الله تعالى الأبرار الأخيار من عباده بأنهم « رجال لا

---

(١) هناك بيعة ثالثة ، هي بيعة المسلم لولي الامر الشرعي (وهو الخليفة او الإمام) ولهذه البيعة حديث خاص يأتي في مقامه .

تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار » .

وإذا كانت بيعة الدخول في الإسلام قد أعلنها كل صحابي مؤمن لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه معاهداً أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ، وأن يقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً ، وأن يحل ما أحله الله ، وأن يحرم ما حرمه ، فـإن مجموعة كريمة عظيمة من صحابة رسول الله قد بايعوه بيعة أخرى لهـا مكانتها ومجادتها في الإسلام ، وهي بيعـة الجهاد والكفاح ، أو بيعة البذل والتضحية ، أو بيعة الوفاء والفداء ، أو بيعة الجهاد حتى الاستشهاد ، أو ــ بتعبير السيرة العطرة ــ بيعة الرضوان .

وهي البيعة التي يقول فيها الحق جل جلاله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

ويقول عنها أيضاً : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليها ، وأثابهم فتحاً قريباً » .

ولقد ظل هؤلاء الذين بايعوا الرسول بيعة الرضوان كواكب تتألق على طريق المسيرة الإسلامية المجيدة عبر القرون ، حيث صانوا عهدهم ، وحفظوا وعدهم ، وصدقوا مع ربهم ، ومضوا إلى لقائه الكريم عناوين مضيئة لأهل الوفاء والفداء ، وما بدلوا تبديلاً .

وهذا واحد من هؤلاء :

بايع بيعة الإسلام ، فكان للإسلام وفياً أميناً ، وبايع بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان فدائياً مجيداً .

إنه الصحابي الجليل ، المجاهد في البر والبحر ، فوق التراب وفوق الأمواج ، المناضل في الجزيرة والشام ومصر : أبو محمد فضالة [1] بن عُبيد ابن نافذ بن قيس بن صهيب بن الأحرم بن جحجبا [2] بن كلفة بن عوف الأنصاري الأوسي العمري ، الذي دخل في الإسلام مخلصاً موقناً .

وتروي بعض المصادر [3] إنه شهد غزوة بدر ، فإن صحت الرواية فقد فاز فوزاً عظيماً .

ومن الثابت الأكيد انه شهد غزوة أُحد وما بعدها من المشاهد ، ومن بينها غزوة الحديبية التي بايع فيها بيعة الرضوان ، وهي البيعة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم لأهليها : « أنتم خير أهل الأرض » .

وقال عنهم : « لا يدخل أحد النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة التي بايعوا تحتها » .

وسمعت منه ذلك أم المؤمنين حفصة ، فقالت كالمعترضة : بلى يا رسول الله (أي سيدخلونها) .

فانتهرها النبي ، فرددت قول الله تعالى : « وإن منكم إلاّ واردها » .

فرد عليها النبي قائلاً : قد قال تعالى : « ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً » أي باركين على ركبهم لشدة الهول .

---

(١) فضالة ـ بفتح الفاء والضاد ـ كما ضبطها النووي في « تهذيب الاسماء واللغات » ج ٢ ، ص ٥٠ . وقد ورد الاسم مضموم الفاء في مواضع من تاريخ الطبري ، فليصحح الضبط .
(٢) جحجبا ـ بجيمين مفتوحتين بينهما حاء ساكنة ـ تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ، ص ٥٠ .
(٣) التاج ، ج ٨ ، ص ٦٢ .

ويقول البراء بن عازب عن بيعة الرضوان : «تعدون الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية »[(١)] .

ويقول عبد الله بن مسعود : « إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية » وقد كان الصلح عقب بيعة الرضوان .

ويقول جابر : « ما كنا نعد الفتح إلاّ يوم الحديبية » .

وحول هذه البيعة ونتائجها نزلت سورة الفتح وفي أولها : « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ،وينصرك الله نصراً عزيزاً ،هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ،ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً » .

وقد اشترك فضالة بن عبيد في فتح مصر[(٢)] باسم الإسلام ، فكان أحد أصحاب الفضل علينا — نحن أبناء الكنانة — بعد فضل الله الأكبر ، حيث حملوا إلينا دعوة الخير وعقيدة الحق ، ونور الإيمان الذي هدانا الله به سبل السلام ، وأخرجنا به من الظلمات إلى النور .

ثم سكن فضالة الشام ، وجاهد فيها وحولها بعد أن شهد فتحها ، وفي سنة تسع وأربعين للهجرة قام فضالة بغزوة بلدة « جرية » أو « جربة » ، وهي بلدة بالمغرب لها ذكر كثير في الفتوح ، وقد غزا فيها رويفع بن ثابت ،

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ .
(٢) البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٧٨ . وتهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

وقيل هي جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية قرب « قابس » ، وفيها بساتين كثيرة [1] .

وقد فتحت « جربة » على يدي فضالة ، وأصاب فيها مغانم كثيرة ، وأعلى بها كلمة الإسلام ، ويروي التاريخ أنه ما شتى — أي غزا في الشتاء — بهذه السنة إلاّ الصحابي الجليل : فضالة بن عبيد [2] .

وفي سنة خمسين للهجرة أخذ فضالة في غزوات البحر [3] ، حيث ولاه الخليفة قائداً وأميراً على المجاهدين ضد الروم في البحر الأبيض المتوسط ، وهو الذي ظل حيناً طويلاً من الزمن يسمى « بحر العرب » ، لسيطرة المسلمين عليه ، وتأمينهم لجوانبه بأساطيلهم ومجاهديهم ، وشتان شتان بين الماضي والحاضر .

وفي سنة إحدى وخمسين كان مشتى فضالة بن عبيد بأرض الروم [4] .

وهكذا جاهد فضالة بن عبيد في وسط الجزيرة العربية ، وجاهد في شمالها في بلاد الشام ، وجاهد في شمال افريقية ، حيث شارك في فتح مصر ، وجاهد في البر والبحر ، ولم يكن مجاهداً عادياً ، بل كان قائداً وأميراً ، وأن العظائم كفؤها العظماء .

وكما كان هذا المجاهد الكبير وفياً لبيعة الجهاد والرضوان ، بمواصلة القتال والنضال ، في كل موطن ومجال ، كان وفياً لبيعة الإسلام باليقين

---

(1) معجم البلدان لياقوت ، ج ٢ ، ص ١١٨ .
(2) انظر النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٣٧ و ١٣٨ . وتاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ . والبداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٣٢ .
(3) البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٤٥ . وتاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ . وتهذيب الاسماء ، ج ٢ ص ٥٠ .
(4) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ .

والإخلاص ، وتطهير الحس مع تطهير النفس ، وثبات الأخلاق مع ثبات الأشباح ، والازدياد من العلم والفقه ، فقد كان فضالة من رواة الأحاديث النبوية ، حتى روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من خمسين حديثاً ، وقد روى عنه جماعة من الأعلام ، منهم ثمامة بن سعد ، وعلي بن رباح ، وحنش الصنعاني ، وسلمة بن صالح ، وعمرو بن مالك ، وعبد الله بن محيرز ، وآخرون (١) .

وتولى قضاء دمشق حيناً من الزمن (٢) ، والقضاء في الإسلام منصب ذو جلال وخطر ، وإنما يتولاه العالم الفقيه البصير بشئون مجتمعه وقومه ، الخبير بالحلال والحرام .

وهكذا جمع فضالة بن عبيد بين بطولة الميدان وبطولة العلم والإيمان ، ولعله من اللافت للفكر والبصيرة أن فضالة هو الذي روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « المجاهد من جاهد نفسه » .

ولا شك أن من ينجح في إصلاح نفسه ومجاهدتها يغدو صالحاً لإتقان الجهاد في كل مجال ، لأنه سيحمل نفسه راضية مؤمنة على مواقف الوفاء والفداء باستمرار ، ولعل هذا هو السر في تكرار السنّة المطهرة التعبير عن هذا المعنى ، فجاءت فيها هذه الأحاديث :

١ — جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم .

٢ — أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه .

٣ — أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك في سبيل ذات الله تعالى .

---

(١) تهذيب الاسماء ، ج ٢ ، ص ٥٠ .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ . وتهذيب الاسماء ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

٤ — قدمتم خير مقدم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، مجاهدة العبد هواه [١] .

وقد ظل هذا البطل المغوار — فضالة بن عبيد — يجاهد نفسه ، ويجاهد عدو دينه، ويناضل من أجل إسلامه، ويبذل في سبيل ربه ، حتى لحق به سنة ثلاث وخمسين للهجرة رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

وهناك أكثر من قول في تحديد السنة التي توفي فيها فضالة .

روي أنه توفي كما سبق سنة ثلاث وخمسين ، هكذا جاءت الرواية في « تهذيب الأسماء واللغات » ، وفي « البداية والنهاية » وفي « الأعلام » [٢] .

وقيل أنه توفي سنة أربع وخمسين . روى ذلك صاحب « النجوم الزاهرة » [٣] .

وقيل توفي سنة سبع وستين أو تسع وستين [٤] ، ولكن النووي يقول أن الصحيح هو القول الأول ، لأنهم نقلوا أن معاوية حمل نعش فضالة، وقال لابنه : أعني يا بني ، فإنك لا تحمل بعده مثله . ومعاوية توفي سنة ستين .

سلام على فضالة بن عبيد في الأبرار الخالدين .

---

(١) انظر درجات هذه الاحاديث في تفسير المنار ، ج ١٠ ، ص ٣٦١ .
(٢) انظر تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ، ص ٥٠ . والبداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٧٨ . والاعلام ، ج ٥ ، ص ٣٥٠ .
(٣) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٤٦ .
(٤) البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٧٨ ، وتهذيب الاسماء ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

أبو قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري

إذا كان للأمة المؤمنة المجاهدة صفات تحدد معالم ذاتها ، ومقومات تبرز ملامح شخصيتها ، فإن أهم هذه الصفات وتلك المقومات أن تتجلى في الأمة روح الفروسية القائمة على الهمة والعزيمة ، واليقظة والاستعداد ، وعدم التردد في مواطن الإقدام ،و الترفع عن الدنايا والآثام ، والثبات على المبدأ ، والاعتزاز بالإيمان .

ولعل القرآن المجيد قد رمز إلى هذه الصفات والملامح حين قال عن مجموعة خيرة من عباد الله عز وجل : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذن شططاً » .

ولقد كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم أمة تجلت فيها الفروسية المؤمنة الراشدة ، وكان من حول الرسول مجموعة من الفرسان الميامين الذين أحاطوا به ودافعوا عنه ، وسبقوا غيرهم في استجابة ندائه كلما جد الجد ، وحانت ساعة الكفاح ، فهم يأتون في طليعة من يعنيهم الرسول بكلمته الرائعة وهتافه المثير : « يا خيل الله اركبي » . لأنهم خير من تدبروا قول ربهم المحذر : « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » . وتأثروا بقول رسولهم المبشر عليه الصلاة والسلام : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه ، كلما سمع هيعة طار إليها » .

وفي الصف الأول من هؤلاء يأتي فارس الإسلام ، وفارس رسول الإسلام : محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو الصحابي الجليل أبو قتادة الحارث ابن ربعي بن بلدمة بن خناس بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة الخزرجي السلمي الأنصاري (١) ، الذي قال أبو سعيد الخدري عنه : « أخبرني من هو خير مني أبو قتادة الأنصاري » .

وأبو قتادة هو الذي قال : « والله ما غضبت إلاّ الله ولرسوله » . وهذا معناه انه قد أخلص وجهه وحسه ونفسه لله عز وجل ، ولمولاه رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، فهو لا يناضل ولا يقاتل ، ولا يغضب ولا يثور ، لعرض من أعراض الدنيا ، ولا لغرض من أغراض الحياة ، وإنما هو قد باع نفسه لخالقه عز علاه : « وما عند الله خير للأبرار » .

وقد شهد أبو قتادة غزوة أُحد وما بعدها من المشاهد والغزوات (٢) ، وثبت إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم مناضلاً ومدافعاً وفادياً ، وكان أحد خمسة من الفدائيين الأنصار الذين بعث بهم رسول الله للتخلص من عدو الله الأكبر اليهودي الطاغية الأثيم : أبي رافع سلام بن أبي الحقيق الذي حزب الأحزاب ضد المسلمين ، وألب الجموع ضد الرسول ، وكاد للإسلام مكائد خسيسة ، وقد وفق الله ولي التوفيق هؤلاء الخمسة ، فتم مصرع الطاغية على أيديهم (٣) .

ثم بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم قائداً لسرية قوامها خمسة عشر فدائياً إلى قبيلة « غطفان » المشركة المعادية ، لتأديبها والنيل منها ، فكان أبو قتادة

---

(١) اختلفوا في اسمه ، فقيل انه الحارث ، وقيل انه النعمان ، وقيل انه عمرو ، ولكنه مشهور بلقبه وهو « أبو قتادة » .
(٢) وقيل انه شهد غزوة بدر ، ولكن هذا القول فيه نظر .
(٣) الدرر لابن عبد البر ، ص ١٩٥ .

يسير بجنوده ليلاً ويكمنون نهـــاراً ، لتتحقق سرية العمل الفـــدائي ، وتم المباغتة اللازمة في الهجوم ، ثم انقضوا على أعدائهم فجأة ، وأحاطوا بهم وأوسعوهم رمياً وطعناً ، وغنموا منهم غنيمة كبيرة قوامها مائة بعير وألفان من الغنم .

ثم بعثه الرسول عليه الصلاة والسلام قائداً لسرية عددها ثمانية إلى « بطن أضم » ، عندما هم الرسول بفتح مكة ، وكان يقصد من توجيه هذه السرية التغطية والتعمية ، ليظن المشركون أن الرسول يتجه بجيشه إلى تلك الناحية ، فتتم المفاجأة في فتح مكة بلا قتال ولا صدام ، على طريقة الحرب الخاطفة حسب تعبير العصر .

وكذلك أبلى أبو قتادة بلاء حسناً في غزوة « ذي قرد » وهي التي تسمى « غزوة الغابة » أيضاً . وكان معه فيها المجاهد البطل سلمة بن الأكوع [1] : وهي الغزوة التي قال فيها الرسول لأول مرة تلك الكلمة البليغة : « يا خيل الله اركبي » [2] ، أي يا فرسان خيل الله اركبي ، وكان الرسول يسمي خيل الجهاد « خيل الله » ، فالكلام على حذف مضاف . وهذا من أحسن المجازات وألطفها .

وقال الرسول لأبي قتادة وهو خارج إلى هذه الغزوة : « امض يا أبا قتادة ، صحبك الله » ، وكان لبركة هذا الدعاء النبوي الكريم أثره الطيب وثمره الحميد .

وقد وفق الله تعالى أبا قتادة ، فقتل في أول هذه الغزوة : حبيب بن عيينة المشرك ، وغطاه ببردته ، وواصل نضاله ، ولما رأى بعض المسلمين

---

(١) لسلمة بن الاكوع حديث خاص يأتي في مجال آخر .
(٢) عيون الاثر ، ج ٢ ، ص ٨٧ ، وهناك خلاف في ذلك .

بردة أبي قتادة ، ظنوه قتيلاً فاسترجعوا وأبلغوا ذلك لرسول الله ، ولكن الرسول المؤيد بالحق قال : « ليس بأبي قتادة ، ولكنه قتيل لأبي قتادة ، وضع عليه برده ، لتعرفوا انه صاحبه [1] ، والذي أكرمني بما أكرمني به ، إن أبا قتادة على آثار القوم يرتجز » .

وكذلك قتل أبو قتادة رئيس المشركين في هذه الغزوة ، وهو مسعدة الفزاري . وكان أبو قتادة قد اشترى فرساً [2] ، فأراد مسعدة أن ينافسه عليها ، ويأخذها منه ، ولكن أبا قتادة أبى ذلك ، وقال لمسعدة : أما أني أسأل الله أن ألقاك وأنا عليها .

وكذلك كان ، فقد تلاقى أبو قتادة ومسعدة في غزوة « ذي قرد » ، وأراد مسعدة أن يكشف عن طغيانه وغروره ، فقال لأبي قتادة : مجالدة أو مطاعنة أو مصارعة ؟ !

فرد عليه أبو قتادة مستخفاً بتحدي عدوه قائلاً : ذلك إليك .

فقال مسعدة : مصارعة !

وتصارعا ، وكان الفوز من نصيب أبي قتادة ، فقضى على عدوه .

وأصيب أبو قتادة يومئذ بسهم في وجهه فلم يبال به ، وعاد إلى الرسول بنصر وغنيمة ، فلما رآه الرسول قال : أفلح وجهك يا أبا قتادة .

فأجاب : ووجهك يا رسول الله .

ولما رأى الرسول السهم قال : ما هذا الذي بوجهك يا أبا قتادة ؟

---

(١) عيون الاثر ، ج ٢ ، ص ٨٦ .
(٢) لعل هذه الفرس هي التي كانت تسمى « حزوة » . والفرس هي الانثى من الخيل .

فأجاب : سهم أصابني .

فقال له : ادن مني .

فدنا منه ، فنزع النبي السهم ، ومس مكانه بريقه ، ووضع عليه يده قليلاً ، فزال الألم عن أبي قتادة (١) .

ثم جاء موقف التكريم ، فقال الرسول عليه الصلاة والتسليم : « خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع » .

ثم عاد الرسول يقول لأبي قتادة : « أبو قتادة سيد الفرسان » ويقول له : « بارك الله فيك ، وفي ولدك وولد ولدك » !

ومضت الأعوام وأبو قتادة يواصل في الله تعالى جهاده وكفاحه ، وقد شهد مع الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه مشاهده كلها .

وكان أبو قتادة يقدم حق الله تعالى على كل حق ، ومن شواهد ذلك أن كعب بن مالك تخلف عن غزوة تبوك ، دون عذر ، وإنما كان تخلفه لأمر قضاه الله عز وجل ، ولما عاد الرسول من تبوك ، ذهب كعب بن مالك إليه واعتذر ، واعترف بذنبه ، فنهى النبي الناس عن كلام كعب حتى يحكم الله فيه بأمره ، مع صاحبيه ، مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

وظل كعب خمسين يوماً والمسلمون مقاطعون له ، وكان أبو قتادة ابن عم كعب وأحب الناس إليه ، فطمع كعب في أبي قتادة ، وذهب إليه لعله يكلمه ويرد عليه .

---

(١) السيرة الحلبية ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

يقول كعب : « حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة — وهو ابن عمي ، وأحب الناس إلي — فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام .فقلت : يا أبا قتادة ، أنشدك بالله ، هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت . فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم .

ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار »[1] .

* * *

ومع ما أظهره أبو قتادة من بطولة موصولة وإقدام مستمر في ميادين الجهاد والنضال ، كان محدثاً ، روى طائفة من الأحاديث النبوية عن جملة من الأعلام .

وكما كان أبو قتادة مثلاً رائعاً في أدب النفس ، كان عنواناً لجمال الذوق والحس ، فقد كانت له جمة ، أي شعر يسقط على منكبيه . فقال للنبي : يا رسول الله ، إن لي جمة ، أفارجلها يا رسول الله ؟

قال النبي : نعم وأكرمها .

فكان أبو قتادة ربما دهنها في اليوم مرتين ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

ولا عجب فقد روى ابن الأثير في « النهاية » انه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جمة جعدة[2] .

* * *

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤٥ .
(٢) النهاية ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ، وانظر العقد الفريد ، ج ٧ ، ص ٢٥٦ .
وجعدة : قوية .

ولحق أبو قتادة بربه ، واختلفت أقوال المؤرخين في سنة وفاته . قيل انه قتل سنة سبع وثلاثين في معركة صفين [1] ، وقيل انه قتل سنة أربع وخمسين [2] وعمره سبعون سنة ، ودفن بالكوفة ، وقيل أنه توفي بالمدينة سنة أربع وخمسين وقيل انه توفي بالكوفة سنة ثمان وثلاثين ، وصلى عليه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه [3] .

ولا يضيرنا هذا الخلاف ، فالذي يعنينا أن أبا قتادة قضى حياته مجاهداً مجيداً ، ولقي ربه مؤمناً حميداً ، عليه رضوان الله .

إن أهل الصدر الأول من المسلمين قد جمعوا — كما رأينا — بين عقول العلماء وثبات الأبطال وأخلاق الملائكة ، وسيماء أهل الطهارة والأدب ، فليت الأخلاف تمضي على طريق الأسلاف ، لنكون أقوياء في نفوسنا ، أنقياء في حواسنا ، أشداء على أعدائنا ، رحماء فيما بيننا .

« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً » .

---

(١) العبر للذهبي ، ج ١ ، ص ٤١ .
(٢) العبر ، ج ١ ، ص ٦٠ .
(٣) البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٦٨ .

بريدة بن الحصيب الاسلمي

لم يكن القائل الحكيم بعيداً عن عين الحق والصواب حين قال : « إن الحياة عقيدة وجهاد » . فالحياة بلا عقيدة ضرب من المتاع الرخيص والعيش التافه ، والحياة بلا جهاد لون من الجمود أو البرود لا يليق بمن كرمه ربه ، واستخلفه في أرضه وأنعم عليه ، وفضله على كثير من خلقه ، وهيأ له أسباب الحركة والتنقل في البر والبحر « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » .

وما زالت مدرسة النبوة الطاهرة العامرة الباهرة تعطينا نماذج بعد نماذج من أولئك السابقين الموقنين ، الذين آمنوا بربهم ، واعتزوا بعقيدتهم ، وأخلصوا لوجه الله خطواتهم ، فساحوا في جنبات الأرض ، يعلون كلمة الله عز وجل حيثما استطاعوا ، ويتحملون آلام الهجرة والاغتراب وشظف العيش ، ويفضلون موت الشهادة في ثغر بعيد من ثغور الإسلام ، على أن يموتوا فوق فراشهم وبين أهليهم وذويهم : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وهذا واحد منهم ، نراه ما يكاد يلمح أول شعاع من نور الإيمان حتى يسارع إليه ، ويتشبث به ، ثم يترك موطنه مهاجراً في سبيل ربه ، معرضاً رقبته وحياته للسيوف والحتوف ، ثم يظل في رباط ونضال طيلة حياته ، ثم يتنقل في جنبات الأرض مجاهداً مجالداً ، ثم تدركه منيته وهو بعيد أوسع البعد عن منشئه وموطنه : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً

كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً » .

إنه الصحابي الفاضل ، والمجاهد المناضل ، والمغترب المحتسب : أبو عبد الله [1] بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث بن الأعرج بن سعد بن رزاح بن عون بن سهم الأسلمي .

وهو من كبار الصحابة ، وممن كانت لهم عدة مشاهد ، ولقد أسلم بريدة قبل غزوة بدر ، ولم يشهدها ، وقيل أسلم بعدها [2] ، وكان إسلامه في وقت شديد عصيب ، وهو وقت هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة ، فقد مر النبي في طريق الهجرة على مكان يسمى « كراع الغميم » وهو موطن بريدة حينئذ ، وهو موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة ، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال ، وهذا الكراع جبل أسود في طرف الحرة يمتد إليه [3] .

وعند مرور النبي على هذا المكان خرج بريدة مع ثمانين شخصاً من قومه ، وتلقوا رسول الله بالتحية ، وعرض النبي الإسلام على بريدة ، فشرح الله له صدره ، وشرح الله كذلك صدور من معه للإسلام ، وعلمهم الرسول كيفية الصلاة ، وصلى بهم صلاة العشاء . ثم علم النبي بريدة صدرا من سورة مريم ، وسنرى فيما بعد أن الرسول قد علمه بنفسه بقية السورة حينما

---

(١) وقيل ان كنيته هي أبو سهل ، وقيل : أبو الحصيب ، وقيل أبو ساسان . وقيل ان اسمه عامر . والحصيب : بضم فسكون . انظر تهذيب الاسماء ، ج ١ ، ص ١٣٣ . والاعلام ، ج ١ ، ص ٤٩ . وفي الاصابة أن اسمه عامر وبريدة لقبه ، ج ١ ، ص ١٥٠ . وفي الطبقات : « توفي بريدة بن الحصين » بالنون وهذا تحريف ، ج ٧ ، ص ٤ .
(٢) تهذيب الاسماء ، ج ١ ، ص ١٣٣ . والتحفة اللطيفة ، ج ١ ص ٣٥٦ .
(٣) معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ .

أقام بريدة معه [1] .

ويروى، أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما رأى بريدة لأول مرة قال له : من أنت ؟

قال : أنا بريدة .

فقال النبي لأبي بكر متفائلاً : « برد أمرنا وصلح » ، أي سهل ، لأن العرب قد تقول عن الشيء السهل المرغوب فيه : انه بارد ، وقد جاء في الحديث : « الصوم في الشتاء هو الغنيمة الباردة » أي السهلة التي لا تعب فيها[2].

وقبل أن يدخل الرسول المدينة لحق به بريدة في الطريق ، وقال له : يا رسول الله ، لا تدخلها إلاّ ومعك لواء .

ثم نزع عمامته وفكها ، ثم ربطها في طرف رمح ، ومشى بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم مرحلة يرفع له هذا اللواء [3] .

وتلبث بريدة بعد ذلك في « كراع الغميم » حيناً من الزمن لبعض شأنه ، ثم انتقل فلحق بالرسول ، فظل يشهد معه المشاهد والغزوات ، حتى يقول ابن حجر في « الإصابة » انه جاء في الصحيحين انه شهد مع الرسول ست عشرة غزوة [4] ، وظل مع الرسول حتى لحق الرسول بالرفيق الأعلى .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٤ ، ص ١٧٨ . والبداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٢١٦ . ويروى أن بريدة أسلم فيمن انخرع من بطون خزاعة هو وأخواه مالك وملكان ، وأسلم حين مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم للهجرة ، الطبقات ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .

(٢) النهاية لابن الاثير ، ج ١ ، ص ١١٥ .

(٣) التحفة اللطيفة ، ج ١ ، ص ٣٥٦ .

(٤) الاصابة ، ج ١ ، ص ١٥٠ .

وكان مما شهده بريدة غزوة خيبر ، وكان عليه ثوب أحمر يلحظ الناس لونه ، وعلى الرغم من أن بريدة قاتل يومئذ قتالاً عنيفاً مجيداً ، يريد به وجه الله وحده ، كان يخاف الرياء والعجب بسبب هذا الثوب الأحمر الذي قد يتساءل الناس عن صاحبه فيعرفونه .

يقول بريدة : « لقد شهدت خيبر ، فكنت فيمن صعد الثلمة ، فقاتلت حتى رُؤِيَ مكاني ، وعليَّ ثوب أحمر ، فما أعلم أني ركبت في الإسلام ذنباً أعظم علي منه ، للشهرة »[1] . وهكذا تكون الجندية المجهولة ، ويكون الخوف من المباهاة والرياء .

وفي الفتح الأعظم : يوم فتح مكة ، عقد الرسول لواءين ، فجعل أحدهما في يد بريدة بن الحصيب فحمله وحمل اللواء الآخر ناجية بن الأعجم [2] .

ومضت الأيام ، وبريدة يخرج من معركة ليدخل معركة ، وينتهي من غزوة ليبتدىء غزوة ، وهو لا يرى متعته ولذته إلاّ في الفروسية والجهاد في سبيل الله ، ولذلك حدث محمد بن أبي يعقوب العتبي قال : حدثني من سمع بريدة الأسلمي وراء نهر بلخ وهو يقول : « لا عيش إلا طراد الخيل » [3].

وإلى جوار بطولة بريدة في الجهاد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعين به في أكثر من مجال ، فقد عهد إليه مثلاً بالإشراف على أسارى غزوة المريسيع ليرعاهم ويتولى شئونهم . والمريسيع اسم ماء في ناحية قديد على الساحل ، سار إليه النبي عليه الصلاة والسلام في سنة خمس أو ست لمجاهدة بني المصطلق . وكذلك استعمله النبي أميناً وعاملاً على الصدقات في قبيلتي

---

(١) التحفة اللطيفة ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .
(٢) الطبقات ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .
(٣) الطبقات ، ج ٧ ، ص ٤ .

أسلم وغفار . وكذلك أرسله إلى قبيلة أسلم يستنفرهم إلى الجهاد في غزوة تبوك ، وكذلك بعثه النبي مع الإمام علي إلى اليمن (١) .

وهكذا أثبت صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام أنهم صالحون للعمل في أكثر من ميدان .

* * *

ومات الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وكان بريدة لم يطق البقاء في المدينة بعد ذلك ، فخرج مهاجراً مجاهداً في سبيل الله هنا وهناك ، أو لعله فعل ذلك لما يرويه بعض الرواة ، من أن النبي قال لبريدة : يا بريدة ، انه سيبعث من بعدي بعوث، فإذا بعثت فكن في بعث أهل المشرق، ثم كن في بعث خراسان ، ثم كن في بعث أرض يقال لها : مرو ، فإذا أتيتها فانزل مدينتها فإنه بناها ذو القرنين ، وصلى فيها عزير ، أنهارها غزيرة ، تجري بالبركة ، على كل نقب منها ملك شاهر سيفه ، يدفع عن أهلها السوء إلى يوم القيامة .

فقدمها بريدة غازياً ، وأقام بها إلى أن مات ، وقبره يقول عنه ياقوت الحموي المتوفي سنة ست وعشرين وستمائة للهجرة : انه معروف بمرو إلى الآن ، وانه رأى عليه راية منصوبة (٢) .

ولقد روى بريدة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد عن مائة وستين حديثاً ، وروى عنه أبناه عبد الله وسليمان والشعبي وجماعة (٣) .

وكان بريدة يتجنب الخلاف ويحذر الطعن في غيره ،فعن رجل من بكر ابن وائل قال :

---

(١) الطبقات ، ج ٤ ، ص ١٧٨ . والتحفة اللطيفة ، ج ١ ، ص ٣٥٦ .
(٢) معجم البلدان، ج ٥ ، ص ١١٣ ، وانظر عيون الاخبار، ج ٦ ، ص٢١٥ .
(٣) تهذيب الاسماء ، ج ١ ، ص ١٣٣ . والتحفة اللطيفة، ج ١ ، ص١٥٦ .

كنت مع بريدة الأسلمي بسجستان ، فجعلت أعرض بعلي وعثمان وطلحة والزبير ، لأستخرج رأيه ، فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال : اللهم اغفر لعثمان ، واغفر لعلي بن أبي طالب ، واغفر لطلحة بن عبيد الله ، واغفر للزبير بن العوام .

ثم أقبل علي فقال لي : لا أبا لك ، أتراك قاتلي ؟

فقلت : والله ما أردت قتلك ، ولكن هذا أردت منك .

قال : قوم سبقت لهم من الله سوابق ، فإن يشاء يغفر لهم بما سبق لهم فعل ، وإن يشاء يعذبهم بما أحدثوا فعل ، حسابهم على الله (١) .

* * *

ولقد ظل بريدة بن الحصيب ما يزيد عن نصف قرن ، أي ما يزيد عن خمسين عاماً بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في جهاد موصول وكفاح مستمر ، حتى لقي ربه تبارك وتعالى بعيداً عن موطنه ومنبته ، ولكنه مات يوم مات في أرض من صميم بلاد الإسلام يوم ذاك .

يقول ابن سعد في « الطبقات » .

وحين فتحت البصرة ومصرت تحول بريدة إليها ، واختط بها ، وبنى بها داراً ، ثم خرج منها غازياً إلى خراسان ، في خلافة عثمان بن عفان ، فلم يزل بها حتى مات بمرو في زمن يزيد بن معاوية ، وبقي ولده بها ، وقدم من ولده قوم فنزلوا ببغداد فماتوا بها (٢) .

---

(١) الطبقات ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .
(٢) الطبقات ، ج ٧ ، ص ٤ ، و ج ٤ ، ص ١٧٩ . وانظر البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ١٢٧ .

وقد توفي على الأصح – كما يروي الذهبي في العبر – سنة ثنتين وستين ، ودفن في مرو ، وقال ابن كثير : « ذكر موته غير واحد في هذه السنة » (١) .

وهو آخر من توفي من الصحابة رضي الله عنهم بخراسان (٢) .

وفي مرو قبور أربعة من الصحابة منهم : بريدة بن الحصيب ، والحكم ابن عمرو الغفاري ، وسليمان بن بريدة ، في قرية من قراها يقال لها « فنى » أو « فنين » (٣) .

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

---

(١) العبر ، ج ١ ، ص ٦٦ . والبداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٢١٧ .
(٢) تهذيب الاسماء ، ج ١ ، ص ١٣٣ .
(٣) معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١١٥ .

عويم بن ساعدة الأنصاري

إذا كنا نصف الإسلام العظيم بأنه دين الطهارة والطاهرين ، وإذا كان القرآن المجيد يحدثنا بقوله : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، فليست الطهارة في مفهوم الإسلام مقصورة على طهارة البدن ، بل ان مفهومها يمتد حتى يشمل طهارة الحس بالنظافة ، وطهارة النفس بالصفاء ، وطهارة الفهم باستقامة العلم ، وطهارة العزم بعلو الهمة وسمو المقصد .

ولغة العرب — وهي لغة القرآن — تقول أن الطهر الحسي هو زوال الدنس والقذر ، ويجيء من ذلك المعنى الإسلامي الخاص ، فيكون نقيض النجاسة ، ويتم بالغسل والوضوء ونحوهما . ويجيء المعنوي ، فتكون الطهارة ضربين : طهارة جسم بالمعنى اللغوي أو الشرعي ، وطهارة نفس بسلامة الخلق ، والتنزه عما لا يحل ، وعلى المعنيين تحمل عامة الآيات القرآنية (١) .

وما أجمل المسلم حين يستجيب لربه كما استجاب رسول الله عليه الصلاة والسلام حين قال له تبارك وتعالى : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » . فيحرص المسلم على أن يكون نظيف البدن ، نقي الروح ، سليم الفهم ، وطيد العزم ، وأن يستمسك بشرعة الوفاء والفداء ، حتى يلقى الله تبارك وتعالى وهو على هدى من ربه وضياء .

---

(١) معجم الفاظ القرآن الكريم ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

ولقد خرجت مدرسة الصادق الأمين سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه رجالاً أبطالاً ، أتقياء أصفياء ، علماء حكماء ، مضحين أوفياء ، زانوا جبين الدنيا ، وخلدوا على الأيام أمثلة صالحة للناس .

من هؤلاء الصحابي الجليل ، والمؤمن الطهور ، والمجاهد الصبور ، المجهول عند كثير من المسلمين : أبو عبد الرحمن عويم بن ساعدة بن عائش ابن قيس بن النعمان بن زيد الأنصاري الأوسي (١). وهو الذي تقول عنه سيرته : « كان له فضل قديم في الإسلام » (٢) .

وأعظم من هذا أن نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه : « نعم العبد من عباد الله ، والرجل من أهل الجنة : عويم بن ساعدة » (٣) .

ولقد أسلم عويم قديماً ، وكان في طليعة الأنصار الذين استجابوا لله وللرسول ، فشهد البيعات الثلاث مع رسول الله عليه الصلاة والسلام : شهد بيعة العقبة الأولى مع سبعة أو ثمانية (٤)من أهل المدينة ، أراد الله بهم خيراً حين قدموا مكة في الموسم ، فحدثهم الرسول عن الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله فأجابوه وصدقوه ، وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الدين ، وبايعوه بيعة الإيمان ، ووعدوه أن يبلغوا قومهم من ورائهم ، وقالوا : « عسى الله أن يجمعهم بك » .

وشهد عويم أيضاً بيعة العقبة الثانية مع اثني عشر رجلاً ، ويروى أن الرسول عليه الصلاة والسلام تلا عليهم قول الله عز وجل من سورة إبراهيم :

---

(١) وامه هي عميرة بنت سالم بن سلمة .
(٢) شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ ، طبعة بيروت.
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٣ ، ص ٣١ .
(٤) المرجع السابق .

« وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ، رب انهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم » إلى آخر السورة (١) .

وشهد عويم كذلك بيعة العقبة الثالثة مع سبعين أو ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين . ويحدثنا عبادة بن الصامت عن صيغة هذه البيعة فيقول : « أنا بايعنا رسول الله صلى الله عايه وسلم على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم علينا يثرب ، ونمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ، ولنا الجنة ، فهذه بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي بايعناه عليها » (٢) .

وحين تمت الهجرة من مكة إلى المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عويم بن ساعدة وعمر بن الخطاب (٣) ، ويا لها من مؤاخاة ذات سمو وعلو ، فعمر هو الفاروق ، وهو الذي كان يفر منه الشيطان ، وهو الذي يقول فيه المصطفى : « لقد كان فيمن قبلكم ملهمون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر » .

وإذا كان عويم قد سبق فشهد البيعات الثلاث كما رأينا ، فإنه بعد ذلك قد أسهم بنصيب كبير مجيد في الكفاح والنضال تحت لواء الإسلام ، فشهد غزوات بدر وأُحد والخندق وسائر المشاهد كلها مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم ندبه الرسول لمهمة دقيقة، إذ كلفه بأن يقتل المنافق الأثيم اللعين :

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ، ص ١٧٩ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .
(٣) الطبقات لابن سعد ، ج ٣ ، ص ٣١ . وقيل ان الرسول اخى بين عويم وحاطب بن أبي بلتعة .

الحارث بن سويد بن الصامت الذي غدر بالمسلمين غدراً خسيساً لئيماً ، فقتل منهم — بطريق الخيانة والغدر — عدداً في غزوة أُحد، فاستجاب عويم مسارعاً ، ونفذ ما أمر به الرسول : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

وإلى جوار هذا الكفاح الموصول كان عويم حريصاً على وحدة الأمة المؤمنة ، عاملاً بكل ما استطاع على تجنيبها مواقف الخلاف ومواطن الفتنة ، ولذلك نراه حينما حاولت عقارب الإفساد أن تدب بين المسلمين ، بسبب اختيار الخليفة الأول بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، حيث وسوس الشيطان لبعض الناس أن يكون هناك خليفتان : أمير من المهاجرين ، وأمير من الأنصار ، نرى عويماً يسارع مع زميله معن بن عدي إلى سحق هذه الفتنة ، حيث ذهبا إلى أبي بكر وقالا له : « باب فتنة نرجو أن يغلقه الله بك » .

وكان هذا الكلام مفتاحاً طيباً لاجتماع « السقيفة » حيث بايع المسلمون أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وأبقوا الفتنة نائمة في مراقدها : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

وإلى جوار هذا الجهاد والنضال ، مع هذه الحكمة البينة والنية الطيبة ، كان عويم رجلاً نظيفاً طهوراً ، حتى يروى أنه أول من استنجى بالماء ، ويروى أن قول الله تعالى في سورة التوبة عن مسجد التقوى : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين» نزل في شأن عويم بن ساعدة وأخوان له من أمثاله (١) .

---

(١) انظر البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٠٥ . وتفسير الطبري وابن كثير عند الآية المذكورة . وفي الطبقات ، ج ٣ ، ص ٣١ : « وكان عويم أول من غسل مقعدته بالماء فيما بلغنا » .

ويروى أن الرسول عليه الصلاة والسلام علق على هذه الآية الكريمة بقوله : نعم المرء : منهم عويم بن ساعدة » ، وفي رواية انه قال : « نعم الرجال : منهم عويم بن ساعدة » ، ويقول راوي الحديث : « لم يبلغنا انه سمى منهم رجلاً غير عويم » (١) .

كما يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم استدعى عويم بن ساعدة بعد نزول الآية وسأله متأكداً : ما هذا الطهور الذي أثنى الله به عليكم ؟ فأجابه عويم قائلاً : يا رسول الله ، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلاّ غسل فرجه . فقال الرسول مؤيداً : هو هذا . وفي رواية : « إلاّ غسل مقعدته » . والمقعدة هي الدبر . وفي رواية انه قال للنبي : « اننا نستنجي بالماء » . وفي رواية أخرى : « اننا نغسل أثر الغائط والبول » (٢) .

وفوق هذا وذاك وذلك كان عويم بن ساعدة رجلاً رشيداً في قوله، حكيماً في كلامه ، وله عبارات بليغة مأثورة ، يستهدي فيها كتاب الله عز وجل ، فهو مثلاً يقول : « احذروا النقم » . وهو في هذا يستضيء بقول الخالق جل جلاله : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » .

ويقول عويم أيضاً : « احمدوا الله على حسن البلاء وطول العافية » . وهو يستضيء في هذا بقول الحق تبارك وتعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خيركم من طال عمره وحسن عمله » .

ولقد طال عمر عويم بن ساعدة وحسن عمله ، حتى بلغ

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ١١ ، ص ٣١ .
(٢) انظر تفسير ابن جرير وتفسير ابن كثير في الآية .

الخامسة والستين ، أو السادسة والستين ، وظل على عهده مع ربه عز شأنه ، يعبد ويجاهد ، ويتطهر ويتحرر ، ويسمو ويعلو ، ويفي ويفدي ، حتى أتاه أجله في عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب [1] ، سنة عشرين للهجرة [2] .

ولما علم عمر بوفاة عويم ، سارع إليه ، وشارك في تشييعه ، ثم وقف على قبره ، وهو بين دار الدنيا ودار الآخرة ، وقال لمن حوله : « لا يستطيع أحد من أهل الأرض أن يقول أنه خير من صاحب هذا القبر ، ما نصبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم راية إلا وعويم تحت ظلها » !

رضوان الله تبارك وتعالى على عمر بن الخطاب العظيم الجليل ، ورضوان الله تبارك وتعالى على عويم بن ساعدة المجاهد الطهور النبيل .

---

(١) وقيل توفي في حياة الرسول ، ولكن الصحيح ما ذكرنا ، لان لعويم أثرا في بيعة ابي بكر .

(٢) كان لعويم ولد اسمه عتبة ، وآخر اسمه سويد . وأمهما امامة بنت بكير .

ثابت بن أقرم البلوي

إن عقيدة الإيمان بالله جل جلاله تعلم صاحبها الجندية المجهولة الموصولة ، والعمل الدائب الصامت ، لأن المؤمن المخلص يعلم علم اليقين أن ما عند الله خير مما عند الناس : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » . وإن الآخرة أولى وأبقى وأعلى من الأولى : « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان [1] لو كانوا يعلمون » .

وصلوات الله وسلامه على من قال له ربه : « وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

ولذلك كان المؤمن في صدر الإسلام ينطلق في مجالات العبادة والعمل والنضال ، بلا ضجيج ولا عجيج ، وبلا مباهاة أو مفاخرة أو حديث عن النفس ، لأنه يعمل لوجه الله ، ولأن ربه تبارك وتعالى لا يكاد يذكر الجهاد إلا ويذكره بأنه في سبيل الله .

في سورة البقرة : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

وفيها : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » .

(١) أي الحياة الكاملة التامة .

وفيها : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » .

وفي سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

وفي سورة الأنفال : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض » .

وفي سورة التوبة : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله » .

وفيها : « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

والله خير من يحصي ويجزي ، فلا موجب للحديث عن النفس أو تزكية الذات ، والقرآن الكريم يقول : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن أتقى » .

ومن هنا ضم سجل السيرة النبوية العطرة أخبار رجال أتقياء أوفياء ، عاشوا للحق ، وناضلوا من أجله ، وماتوا ثابتين عليه ، في بذل وتضحية وفداء ، وفي تواضع وصمت وإصرار .

ولا أقل — فيما يجب علينا — من أن نتعرف إلى هؤلاء الأوفياء ، لعل نفحة من نفحات الاعتبار والادكار تطوف بساحتنا ، فتبعث الرقود ، وتحرك الجمود ، والذكرى تنفع المؤمنين .

وهذا واحد منهم لا يكاد يعرفه الأكثرون :

إنه المجاهد الصابر الصامت ، والشهيد الصالح المتواضع : ثابت بن أقرم ابن ثعلبة بن عدي بن العجلان البلوي [1]، وهو من طليعة المجاهدين السابقين ، فقد جاء في سيرته انه « شهد غزوات بدر وأحد والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وهذا تعبير كريم ، ووسام عظيم ، تحلي السيرة به صدور طائفة من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فما نكاد نطالع سيرة أحد منهم ، حتى نجد في مطلع السيرة هذا التعبير عنه: « شهد بدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وإلى جوار الغزوات التي شهدها ثابت بن أقرم ، أرسله النبي صلوات الله وسلامه عليه في طائفة من الواجبات النضالية الجهادية ، فقد أرسله مثلاً أميراً على سرية فدائية إلى جهة في نجد تسمى « الغمرة » وجاهد فيها جهاداً بطولياً ، وأصيب بجراح قاسية بليغة ، حتى قيل انه مات في هذه السرية ، مع أن الواقع أن الله عزت قدرته كتب له البقاء بعدها ، ليواصل كفاحه في سبيل الإيمان وكرامة الإنسان [2] .

---

(١) البلوي : نسبة الى بلي ، وهي احدى القبائل ، واغلب المراجع تذكره باسم ثابت بن أقرم ، ولكن النووي ذكره في كتابه : « تهذيب الاسماء واللغات » : ثابت بن أرقم ، ولعله تحريف .

(٢) عن عروة : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية قبل الغمرة من نجد ، أميرهم ثابت بن أقرم ، اصيب فيها (الاصابة ، ج ١ ص١٩٢) وقال الحافظ : يمكن تأويل قوله « أصيب » أي أصيب بجراح ، فلم يمت (أسد الغابة ، ج ١ ، ص ٢٦٣) . وفي تهذيب الاسماء (ج ١ ، ص ١٣٩) ان الصواب أن ثابتاً لم يمت في هذه السرية ، وبه قال الشافعي في المختصر والجمهور . والغمرة منهل من مناهل طريق مكة، ومنزل من منازلها ، وهو فصل ما بين تهامة ونجد (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢١٢) .

وفي السنة الثامنة للهجرة جاءت « غزوة مؤتة »[1] والتي كانت امتحاناً عسيراً لكتائب الإسلام ، والتي سقط فيها ثلاثة من كبار القادة المجاهدين شهداء في الميدان هم : جعفر بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة .

وقد شارك ثابت بن أقرم في هذه الغزوة ، وجاهد فيها بكل ما استطاع ، دون ضجة منه أو جلبة ، وكم من مخلص يعمل في صمت ودأب ، لا يحس به الناس ، ولا يبالون أمره ، وهو عند الله عظيم جليل ، لو اقسم على الله لأبره.

وهكذا كان شأن ثابت بن أقرم يوم مؤتة . وحينما سقطت الراية من يد القائد الشهيد الثالث ، سارع ثابت فتناولها ورفعها ، حتى يبقى لواء الإسلام عالياً . ولكنه يحب أن يجاهد في صمت ، ولا يريد لنفسه أن تدخل مدخلاً من مداخل الشهرة والإعلان عن الذات ، ولذلك قال لرفاق النضال من حوله : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم للقيادة .

فقالوا له : أنت !

فأجاب متوا ضعاً منكراً نفسه : ما أنا بفاعل .

وتطلع ثابت فرأى خالد بن الوليد قريباً منه ، فدفع إليه بالراية في عزم وتصميم قائلاً له : أنت أعلم بالقتال مني !

وتسلم خالد اللواء لإنقاذ الموقف ، ووافق المجاهدون على قيادته .

ونفهم من ذلك الحادث أن ثابتاً كان قريباً من مكان القادة أو الصالحين

---

(١) انظر تفاصيل من حديثها في كتابي : « الفداء في الاسلام » ، ص ١٢٦ وما بعدها ، الطبعة الثانية .

للقيادة ، فلم يكن نكرة من النكرات ، ولا أمعة من الامعات ، ونفهم أن رأي الناس فيه كأن رأياً جميلاً حسناً ، بدليل أنهم عرضوا عليه أن يواصل حمل اللواء ، وأن ثابتاً كان رجلاً متواضعاً مخلصاً ، فلم يغره هذا العرض ، وهو يعلم أن هناك من هو أقدر منه وأعلم بالقتال ، وهو خالد بن الوليد سيف الله الذي سله الله على المشركين .

وعاد ثابت بن أقرم من مؤتة ، لا لينام أو يهدأ ، بل ليواصل من جديد نضاله لرفع كلمة الإسلام ، في صبر وصمت وفداء . وكان يقرر أن النصر في الميدان ليس بالكثرة في العدد أو العدة ، وإنما هو — أولاً وقبل كل شيء — بقوة الإيمان وسلطان اليقين . ولذلك روى أبو هريرة قال : شهدت مؤتة ، فقال لي ثابت بن أقرم إنك لم تشهدنا ببدر ، إنا لم ننصر بالكثرة .

وصدق ثابت ، فالحق جل جلاله يقول في ذلك :

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

ويقول : « قل لا يستوي الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولي الألباب ، لعلكم تفلحون » .

ثم جاءت بعد ذلك معركة اليمامة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فسارع إليها ثابت بن أقرم ، وكان ثاني اثنين تقدما الجيش المؤمن ، ليمهد أمامه طريق الفتح والنصر بإذن الله تعالى ، فخرج ثابت مع عكاشة بن محصن الأسدي [1] ، وقاتلا قتال الرجال ، وناضلا نضال الأبطال ، وثبتا ثبات الجبال ، حتى لقيا الشهادة في سبيل الله عز وجل ، ودفنا في مكانهما ، بلا ضجة أو احتفال .

---

(١) انظر تفاصيل بطولته في كتابي «أبطال عقيدة وجهاد» ص ١٢٩–١٤٢. نشر مجمع البحوث الاسلامية .

وكما عاش ثابت بن أقرم البلوي مجاهداً صامتاً ، لا يزكي نفسه ، ولا يتحدث عن ذاته ، لحق بربه سبحانه مجاهداً صامتاً ، وهناك يلقى عظيم الجزاء عند الله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وكان استشهاد ثابت يوم اليمامة سنة إحدى عشرة للهجرة ، في قتال أهل الردة ، قتله طليحة ، وقتل معه عكاشة بن محصن ، وقد اشترك طليحة مع أخيه في قتلهما ، ثم أسلم طليحة بعد ذلك (١) .

وفي « الطبقات الكبرى » لابن سعد : « وأقبل خالد ابن الوليد معه المسلمون ، فلم يرعهم إلا ثابت بن أقرم قتيلاً تطؤه المطي ، فعظم ذلك على المسلمين ، ثم لم يسيروا إلا يسيراً حتى وطئوا عكاشة قتيلا » (٢) .

وفي أسد الغابة : إن ثابتاً قتل سنة إحدى عشرة ، في قتال الردة ، وقيل سنة اثنتي عشرة ، قتله طليحة الأسدي ، وقتل معه عكاشة بن محصن ، اشترك طلحة وأخوه في قتلهما ، ثم أسلم طليحة (٣) .

وفي الإصابة : قال عمر لطليحة بعد أن أسلم : كيف أحبك وقد قتلت الصالحين : عكاشة بن محصن وثابت بن اقرم ؟

فقال طليحة : أكرمهما الله بيدي ، ولم يهني بأيديهما !

ويا لها من إجابة .

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ، ص ١٣٩ .
(٢) الطبقات ، ج ٣ ، ص ٣٦ ، القسم الثاني .
(٣) اسد الغابة ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .

ولقد اتفق أهل المغازي على أن ثابت بن أقرم قتل شهيداً في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، قتله طليحة ابن خويلد الأسدي [1] .

رضوان الله تبارك وتعالى على الشهيد الصامت ، الصالح المتواضع ثابت ابن أقرم البلوي ؟

وسلام عليه في الخالدين .

---

(1) الاصابة ،ج ١ ، ص ١٩٢ .

عون بن جعفر بن أبي طالب

سيظل إمام الإنسانية محمد — عليه الصلاة والسلام — مثلاً أعلى في كل جانب من جوانب البطولة والعظمة ، وما من موقف نقفه البشرية ، وتتطلب فيه الرائد والقائد ، إلا وجدت في رسول الله بغيتها وطلبتها : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » . والله جل جلاله هو الذي يقول في شأن رسوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، ويقول له أيضاً : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ونحن بحاجة إلى الاستكثار من حوافز النضال والكفاح ، وأمثلة الوفاء والفداء ، ونماذج التضحية والجهاد . ولقد كان رسول الله إماماً أي إمام في هذا الباب . فهو المبرز السباق إلى مواطن الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد ، وهو القائل : « لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقتل في سبيل الله ، ثم أحيا فأقتل ، ثم أحيا فأقتل » .

وهو — صلى الله عليه وسلم — الذي كرم المجاهدين ، ورفع شأنهم ، وصان حرمتهم ، حتى قال فيما يرويه ابن حجر عن أبي موسى : « اتقوا أذى المجاهدين ، فإن الله يغضب لهم ، كما يغضب للرسل ، ويستجيب دعاءهم كما يستجيب دعاء الرسل »[1] .

(١) أسد الغابة لابن حجر ، ج ١ ، ص ٣٤٨ ، طبعة التعاون .

ولم يقتصر جهاد الرسول على ذاته ، بل كان من حوله هؤلاء الطاهرون المخلصون من آل بيته الكريم ، الذين حملوا معه لواء الكفاح والجهاد ، حتى أثبتوا للناس أن الانتساب إلى شجرة النبوة يستلزم تبعات وواجبات ، فحمزة عم النبي قد مات شهيداً في غزوة أُحد ، وعمه جعفر بن أبي طالب مات شهيداً في غزوة مؤتة ، وابن عمه علي مات شهيداً ، وابن عمه محمد بن جعفر ابن أبي طالب مات شهيداً ، وابن بنته الحسين بن علي مات شهيداً ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وهناك مئات من آل بيت النبي صلوات الله وسلامه عليه زانوا صفحات التاريخ بالجهاد حتى الاستشهاد ، وألف المؤرخون حول هذه البطولات كتباً تحدثنا عن هؤلاء الشهداء ، فقد ألف أبو مخنف كتابه : « مقتل علي » وكتابه : « مقتل الحسين »، وألف الهيثم بن عدي كتابه « أخبار الحسن ووفاته » وألف الواقدي « مقتل الحسن » و « مقتل الحسين » ، وألف بن النطاح : « مقتل زيد بن علي » ، وألف الغلابي « مقتل علي » و « مقتل الحسين » ، وألف الاشناني « مقتل الحسن » و « مقتل زيد بن علي »، وألف عمر بن شبة « مقتل محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن » ، وألف المدائني كتابه : « أسماء من قتل من الطالبيين » ، وألف أبو الفرج الأصفهاني كتابه « مقاتل الطالبيين » ، وهكذا (1) . . .

وهذا واحد من أولئك الرجال الأبطال :

إنه الصحابي الجليل ، المجاهد الشهيد : عون بن جعفر بن أبي طالب ، ووالد عون هو أبو المساكين ، الشهيد الطيار ، ذو الجناحين في الجنة : جعفر

---

(1) انظر كتاب « مقاتل الطالبيين » لابي الفرج ، بتحقيق الاستاذ السيد أحمد صقر ، صفحة : ك و ل .

ابن أبي طالب الهاشمي [1] ، الذي نال نعمة الشهادة في غزوة مؤتة ، والذي قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام : « كان جعفر خير الناس للمساكين » .

ووالدة عون هي أسماء بنت عميس الخثعمية ، الصحابية الجليلة ، السابقة إلى الإسلام ، التي هاجرت الهجرتين ، وصلت إلى القبلتين [2] .

وقد ولد عون بأرض الحبشة ، بعد أن هاجر إليها والداه جعفر وأسماء . ويذكر ابن عبد البر طائفة ممن هاجروا إلى الحبشة ، ثم يقول : « ثم خرج بعدهم جعفر بن أبي طالب ، ومعه امرأته أسماء بنت عميس ، فولدت له هناك بنيه : محمداً وعبد الله وعوناً » [3] .

ولم يرجع جعفر مع أهله من الحبشة إلى المدينة إلاّ بعد أن فتح المسلمون أرض خيبر ، ولما رآه الرسول فرح به وقال : « ما أدري بأيهما أنا أسر : بقدوم جعفر أم بفتح خيبر » .

ونشأ عون بن جعفر في ظلال الإسلام والقرآن والإيمان ، ترعاه عين الله ولاً ، ثم تلاحظه عيون والديه بالتأديب والتوجيه ، ثم تشمله نفحات النبوة عن قرب ، وبعد حين خرج والده جعفر ليكون أحد قواد ثلاثة عينهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ليقودوا كتائب المجاهدين في غزوة مؤتة تباعاً ، وشاءت الأقدار أن ينال جعفر نعمة الشهادة في هذه المعركة ، بعد مواقف بطولية ، أظهر فيها جعفر إقدام المؤمنين وثبات الموقنين .

---

(١) انظر ترجمته في مقابل الطالبيين ، ص ٦ — ١٨ . والبداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ . وتهذيب التهذيب ، ج ٢ ص ٩٨ . والاصابة ، ج ١ ، ص ٢٤٨ . وغير ذلك .

(٢) انظر حديثها مفصلا في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » نشر دار الرائد العربي ببيروت ، ص ٢٢٣ — ٢٢٧ .

(٣) الدرر ، ص ٥١ .

وحينما بلغ النبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ادعوا إلي بني أخي (يعني أولاد جعفر ، وفيهم عون) ، فجيء بهم إليه وهم كالأفراخ ، فقال النبي : ادعوا إلي الحلاق .

فأحضروه ، فأمره النبي فحلق رءوسهم ، ثم تطلع إليهم الرسول في رحمة وحنان ، وقال: «أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب ، وأما عون فشبيه خلقي وخلقي » . وأضاف قوله : « اللهم اخلف جعفراً في أهله ، وبارك لعبد الله (ابن جعفر) في صفقة يمينه » .

وحينما ظهر على أسماء بنت عميس ما يدل على خشيتها أن يتعرض أولادها لفقر أو حاجة ، أنكر عليها الرسول ذلك ، وأكد لها أنهم سيكونون موضع عنايته ورعايته ، وقال لها : « أتخافين عليهم العيلة (أي الفقر) وأنا وليهم في الدنيا والآخرة ؟ ! »[1] .

وشب عون بن جعفر ، وبلغ مبلغ الرجال ، وأخذ يشارك في الغزوات والقتال ، ونفعه الله تبارك وتعالى نفعاً كبيراً برعاية الرسول له ، حيث نفخ فيه روح البطولة والإقدام ، وعلمه أن ما عند الله خير وأبقى ، وأن المؤمن يجب أن يكون مستعداً على الدوام لبذل روحه في سبيل ربه الذي خلقه ورزقه ، لأن حياة الإنسان في الدنيا قليلة زائلة ، وأما حياة الشهداء عند ربهم فهي الحياة حق الحياة : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ، بل أحياء ، ولكن لا تشعرون ، ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٢٢١ .

ولحق الرسول صلى الله عليه وسلم بربه ، حيث انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وظل عون بن جعفر وفياً للعهد ، صادقاً في الوعد ، يجاهد في سبيل الله بما يستطيع ، وظل كذلك في عهد أبي بكر الصديق رضوان الله عليه ، ثم جاء عهد عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، وعون ما زال المؤمن الصادق الإيمان ، وكأنه كان يتذكر على الدوام ما روى عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إنه قال لصحابته : « أتصبرون على البلاء » ؟

فقالوا : نعم . . .

فعاد يسألهم : أتشكرون عند الرخاء ؟ . .

وأجابوا : نعم . . .

فرجع يسألهم : أتثبتون عند اللقاء ؟ . .

وكان جوابهم : نعم . . .

فقال لهم الصادق المصدوق : « مؤمنون ورب الكعبة » ! . .

وما داموا مؤمنين بهذه الصورة فهم إذن من أهل الفوز والنصر المبين : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

وجاءت في عهد عمر معركة شديدة بين المسلمين وأعدائهم المجرمين ، وهي معركة « تستر » وتستر اسم مدينة كبيرة ببلا د فارس في « خوزستان » . وخرج عون إلى هذه المعركة مجاهداً كعادته ، وخرج معه شقيقه محمد بن جعفر ، وشاءت عناية الله أن ينال الشقيقان معاً نعمة الشهادة في سبيل الله ، ومضيا إلى عالم الخلد ليقيما هناك نعم المقام : « إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

وإذا كان عون الشهيد ابن الشهيد أخو الشهيد، لم يترك ذرية ولا عقباً من

ورائه ، فحسبه شرفاً ومجداً أن يكون سلالة أولئك الشهداء الاوفياء ، من أهل الفداء والوفاء، وحسبه قبل هذا وبعده أن ينال نوعاً من الشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم في مجال الاستشهاد،فإذا كان الشهداء قد كثروا في آل بيت الرسول ، فنحن نرى أكثر أقارب عون بن جعفر قد كانوا كذلك من الشهداء ، فجده حمزة بن عبد المطلب مات شهيداً ، ووالده جعفر بن أبي طالب مات شهيداً ، وعمه علي بن أبي طالب مات شهيداً ، وابن عمه الحسين ابن علي مات شهيداً ، وأخوه محمد بن جعفر مات شهيداً ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ولا يعرف التاريخ الإسلامي– كما جاء في مقاتل الطالبيين– أسرة كأسرة أبي طالب تعرضت للبلاء حتى كثر منها الشهداء ، وقد بلغت الغاية من شرف الأرومة وطيب النجار ، وضل عنها حقها وجاهدت في سبيله حق الجهاد على مر الأعصار ، ثم لم تظفر من جهادها المرير إلا بالحسرات ، ولم تعقب من جهادها إلا العبرات ، على ما فقدت من أبطال أسالوا أنفسهم في ساحة الوغى راضية قلوبهم ، مطمئنة ضمائرهم ، وصافحوا الموت في بسالة فائقة ، وتلقوه في صبر جميل يثير في النفس أفانين الإعجاب والإكبار ، ويشيع فيها ألوان التقدير والإعظام (١) .

ويقول العقاد في « عبقرية الإمام » : « في سيرة ابن أبي طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة والإحساس المتطلع إلى الرحمة والإكبار ، لأنه الشهيد أبو الشهداء ، يجري تاريخه وتاريخ أبنائه في سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحداً بعد واحد ، شيوخاً جللهم وقار الشيب ، ثم جللهم السيف الذي لا يرحم ، أو فتياناً عوجلوا وهم في نضرة

---

(١) مقاتل الطالبيين ، المقدمة ، صفحة ي .

العمر ، يحال بينهم وبين متاع الحياة ، بل يحال بينهم أحياناً وبين الزاد والماء ، وهم على حياض المنية جياع ظماء .

وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الكون بصبغتهم وصبغة دمائهم ، حتى قال شاعر فيلسوف كأبي العلاء لا يظن به التشيع ، بل ظنت بإسلامه الظنون :

وعلى الأفق من دماء الشهيد ين : علي ، ونجله شاهدان
فهما في أواخر الليـــل فجرا ن ، وفي أولياته شفقان

وهذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة ، قلما تبلغها في سير الشهداء غاية ، وكثيراً ما تتعطش إليها سرائر الأمم في قصص الفداء التي عمرت بها تواريخ الأديان » [1] .

ويعود العقاد ليقول في كتابه « أبو الشهداء » هذه العبارة : « فليس في العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدوة وذكرى ، وحسبه انه وحده في تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء في مئات السنين [2] .

رضوان الله على سلالة المجاهدين الشهداء ، أهل الفداء والوفاء .

---

(١) عبقرية الإمام ، ص ٣ و ٤ .
(٢) أبو الشهداء ، ص ١٧٦ ، طبعة دار الهلال .

عثمان بن طلحة العبدري

حينما تحتشد الجموع حول الكعبة ، ترنو أبصارهم إلى بيت الله الحرام أول بيت وضع للناس ، فتثور خواطرهم تسترجع الذكريات الخوالد التي تدور حول هذا البيت العتيق ، ومن بين هذه الذكريات ذكرى تتعلق ببطل من أبطال الإسلام ، ومجاهد من كتيبة الإيمان ، هو حاجب بيت الله تعالى ، وحامل مفتاح الكعبة المشرفة : الصحابي الجليل عثمان بن طلحة بن أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى العبدري القرشي ، الذي يروى أنه مات شهيداً سنة ثنتين أربعين في معركة « أجنادين » رضوان الله تعالى عليه .

ولقد أراد الله جل جلاله — ليميز الخبيث من الطيب ، وليتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود — أن يظل عثمان بن طلحة حيناً من الزمن في ظلمات الجاهلية ، فظل على الشرك إلى ما قبل فتح مكة بقليل .

ولكنه كان شريفاً في قومه : « وكان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة ، ويقال : والندوة أيضاً في بني عبد الدار »(١) . وكان صاحب مروءة إنسانية ، وشهامة ملحوظة في جاهليته قبل إسلامه ، ومن هنا قام برعاية السيدة أم سلمة رضوان الله عليها حين هاجرت منفردة(٢) .

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ . مطبعة الاستقامة .
(٢) الدرر في المغازي والسير لابن عبد البر ، ص ٨١ بالهامش .

فقد خرجت أم سلمة على بعير ، وفي حجرها رضيعها سلمة ، وزوجها أبو سلمة يقود لها البعير ، فهجم عليهم أهلها ، وانتزعوا الطفل وأمه ، وهاجر أبو سلمة وحده مضطراً ، تاركاً وراءه زوجته وابنه الوليد ، وظلت أم سلمة كذلك قرابة سنة ، ثم تشفع لها بعض أقاربها ، فتركوها تهاجر وحيدة مع وليدها ، وفي أول الطريق لقيها عثمان بن طلحة فسألها : أو ما معك أحد ؟ فأجابت : ما معي أحد إلاّ الله وابني هذا . فقال : والله ما لك من مترك . وقاد لها بعيرها ، ورعى حرمتها خير رعاية ، وصان شرفها وكرامتها خير صيانة ، حتى أبلغها مكان زوجها ، فكانت تقول : « فوالله ما صحبت رجلا من العرب أرى انه أكرم من عثمان بن طلحة » .

ولندع ابن كثير يصور لنا الموقف بلغته ، فيقول :

« قال ابن إسحاق : فحدثني أبي ، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة ، عن جدته أم سلمة ، قالت : لما أجمع أبو سلمة [1] الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ، ثم حملني عليه ، وجعل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثم خرج يقود بي بعيره .

فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا له : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ فنزعوا خطام البعير من يده ، وأخذوني منه .

وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة ، وقالوا : والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا ابني سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو

---

(١) أجمع : أي عقد العزم .

سلمة إلى المدينة ، ففرق بيني وبين ابني وزوجي ، فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح [1] ، فما أزال أبكي حتى أمسي ، سنة أو قريباً منها ، حتى مر بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة ، فرأى ما بي فرحمني ، فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون من هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها ؟ . .

فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئت ، فرد بنو عبد الأسد إلي عند ذلك ابني ، فارتحلت بعيري ، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحد من خلق الله ، حتى إذا كنت بالتنعيم [2] لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار ، فقال : إلى أين يا ابنة أبي أمية ؟ . . قلت : أريد زوجي بالمدينة . قال : أو مامعك أحد ؟ قلت : ما معي أحد إلاّ الله وابني هذا ، فقال : والله مالك من مترك .

فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى انه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عني ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه ، ثم قيده في الشجر ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله ، ثم استأخر عني وقال : اركبي ، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقادني حتى ينزل بي .

فلم يزل يصنع ذلك حتى أقدمني المدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن

---

(١) الابطح : يضاف الى مكة والى منى ، لان المسافة بينه وبينهما واحدة، وربما كان الى منى أقرب ، وهو المحصب ، وهو خيف بني كنانة ، وقد قيل انه ذو طوي ، وليس به . « معجم البلدان » .

(٢) التنعيم : موضع بمكة في الحل ، على فرسخين من مكة ، وقيل على أربعة . (معجم البلدان) .

عوف بقباء قال : زوجك في هذه القرية . وكان أبو سلمة بها نازلاً ، فأدخلنيها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

فكانت تقول : ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن أبي طلحة » [١] .

* * *

وتأذن الله بفضله على عثمان بعد حين ، فتفتح قلبه للإسلام ، حيث توجه مع سيف الله المسلول خالد بن الوليد ، والبطل الفاتح عمرو بن العاص ، أثناء هدنة الحديبية ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا إسلامهم ، ويروى أنهم التقوا في طريقهم إليه عند مكان يسمى « الهدة » . ويقول ياقوت في « معجم البلدان » أن الهدة موضع بين مكة والطائف ، وجاء في « الدور » لابن عبد البر : قيل أسلم قبل عمرة القضاء وقيل بعدها [٢] .

وجاء في « البداية والنهاية » إن عثمان أسلم في أول سنة ثمان قبل الفتح [٣] .

وحدد الطبري في تاريخه اليوم والشهر الذي أسلم فيه عثمان ، فذكر أنه أسلم في أول صفر من السنة الثامنة للهجرة [٤] .

وحينما رأى الرسول عليه الصلاة والسلام هؤلاء الأبطال الثلاثة ، وهم

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ، ص ٢١٥ . واقرأ قصة أم سلمة وأبي سلمة بتفاصيلها في كتابي « الفداء في الاسلام » ، ص ٩١ — ١٠٠ الطبعة الثانية .
(٢) الدرر ، ص ٢٢١ .
(٣) البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٢٣ .
(٤) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٩ — ٣٠ .

عثمان ، وخالد ، وعمرو ، قال : « رمتكم مكة بأكبادها » يعني أنهم وجوه أهل مكة ، وقال ابن الأثير في « النهاية » : أراد صميم قريش ولبابها وأشرافها.

ثم جاء فتح الله المبين ونصره العظيم الذي تمثل في فتح مكة بلا معركة تذكر ، وخرج عثمان بن طلحة مع الركب النبوي الكريم ، وحين تم الفتح أمر الرسول صلوات الله وسلامه عليه عثمان وعمرو بن العاص بأن يفتحا الكعبة ، ويحطما ما فيها من الأصنام ، ويزيلا ما فيها من الصور ، وقد كان أهل الجاهلية من أفكهم وضلالهم قد رسموا لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلا صورة يستقسم فيها الأزلام (أي القداح) ، مع أنه داعية التوحيد الأول ، وقد غضب الرسول من ذلك وقال : قاتلهم الله ، جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام.

ودخل النبي الكعبة ومعه عثمان بن طلحة ، وبلال بن أبي رباح ، وأسامة ابن زيد ، وصلى النبي داخل الكعبة ركعتين ، ثم خرج فوقف على بابها ، وخطب خطبة جليلة قال فيها :

« الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ماذا تقولون ؟ وماذا تظنون ؟ قالوا : نقول خيراً ، ونظن خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت .

فقال : إني أقول كما قال أخي يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » ألا أن كل رباً في الجاهلية أو دم أو مأثرة فهو تحت قدمي هاتين ، إلاّ سدانة الكعبة وسقاية الحاج ، إلاّ وفي قتل شبه العمد : قتيل العصا والسوط ، الدية مغلظة ، مائة ناقة ، منها أربعون في بطونهم أولادها .

إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها ، كلكم لآدم ، وآدم

من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله ، لم تحل لأحد كان قبلي ، ولا تحل لأحد يأتي بعدي ، وما أحلت لي إلاّ ساعة من النهار ، لا ينفر صيدها ، ولا يعضه عضاهها (أي لا يقطع شجرها) ، ولا تحل لقطتها إلاّ لمنشد ، ولا يختلى خلاها (أي لا يقطع نباتها الرطب الرقيق) .

فقال العباس : إلا الأذخر يا رسول الله (والأذخر حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب) ، فإنه لا بد منه للقبور والبيوت. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ، ثم قال :

« إلاّ الأذخر ، فإنه حلال ، ولا وصية لوارث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، ولا يحل لامرأة أن تعطي من مالها إلاّ بإذن زوجها ، والمسلم أخو المسلم ، والمسلمون أخوة ، يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد عليهم أقصاهم ، ولا يقتل مسلم بكافر ، ولا ذو عهد في عهده ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، والبينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث إلاّ مع ذي محرم ، ولا صلاة بعد العصر ، ولا بعد الصبح ، وأنهاكم عن صيام يومين : يوم الأضحى ويوم الفطر »(١) .

* * *

وفي وسط هذا الجمع الحاشد ، والموقف المشهود ، نادى النبي صلى الله عليه وسلم على عثمان بن طلحة . . .

ولعل عثمان قد تذكر هنا يوماً مر عليه في جاهليته ، وكان يحرس الكعبة

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ٥ ، ص ١٩٨ ، طبعة بيروت .

ومعه مفتاحها ، فأقبل الرسول عليه الصلاة والسلام ليطوف ، وكأنه يريد أن يدخل الكعبة ، فأبى عثمان وأغلظ مع الرسول المعاملة ، فقال له النبي : يا عثمان ، لعلك سترى هذا المفتاح بيدي يوماً أضعه حيث شئت .

فقال عثمان وهو ما زال في ظلمات الجاهلية : لقد هلكت قريش إذن وذلت .

فرد عليه الرسول قائلاً : بل عمرت وعزت .

وخشي عثمان حين سمع النداء أن يحاسبه الرسول أو يعاتبه على ذلك ، وقد أصبح السيد المطاع .

ولكن الرسول أحسن استقباله حين أقبل عليه ، وحدث في ذلك الموقف أن رجا العباس بن عبد المطلب أن يعطيه الرسول مفتاح الكعبة فأبى ، ورجا علي بن أبي طالب أن يعطيه النبي المفتاح فأبى .

وأعطى النبي عليه الصلاة والسلام المفتاح لعثمان قائلاً : « خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلاّ ظالم ، يا عثمان ، إن الله استأمنكما على بيته فكلوا بالمعروف » .

وفي هذا الأمر نزل قول الله تبارك وتعالى ؛ « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، ان الله كان سميعاً بصيراً » .

وأخذ عثمان المفتاح ، وهو لا يكاد يصدق عينيه ، ولعله كان ما يزال يفكر في موقفه يوم أغلظ للنبي المعاملة ..

وانصرف عثمان ، ولكن الرسول عاد فناداه ، فلما دنا منه قال له بصوت رقيق : ألم يكن الذي قلت لك يا عثمان ؟ فرد عليه عثمان وهو يكاد يذوب خجلاً : بلى ، أشهد إنك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ولقد اجتهد عثمان بن طلحة رضوان الله تعالى عليه ، كي يعوض وهو في الإسلام ما فاته وهو في الجاهلية ، فأوسع خطاه في الطاعة والعمل الصالح ، وجاهد في سبيل الله بما استطاع ، وبسط الله له في عمره ، فانتفع به في العمل ابتغاء وجه الله ، وروى عن رسول الله ما روى من حديث الخير والعلم ، ثم لحق بربه عام اثنين وأربعين للهجرة ، يروى انه مات بمكة ، وقيل انه مات في معركة أجنادين ، وجاء عنه في الإصابة : « ثم سكن المدينة إلى أن مات بها سنة ثنتين وأربعين ، قاله الواقدي ، وابن البرقي ، وقيل : استشهد بأجنادين . قال العسكري : وهو باطل » .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

مسلمة بن عبد الملك بن مروان الاموي

روى الإمام البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « جعل رزقي تحت ظل رمحي » . والنفس تفهم من هذا الحديث الكريم معنى ترجو أن يكون صواباً من الله ، وإلاّ فالخطأ منها ومن الشيطان . . . إن الحق لا بد له من قوة تحرسه وتصونه ، وإلاّ ضاع تحت جبروت الباطل ، والعامة تقول : « المال السائب يعلم السرقة » ، وكذلك قيل : « من لم يتذأب أكلته الذئاب » .

فرزق المسلم – وهو يتمثل في داره وعقاره ، وسكنه ووطنه ، وزرعه وضرعه ، وكل ما يحوزه ويملكه – يجب أن يكون محروساً بعدته وعتاده ، مستظلاً بسلاحه ورماحه ، ومن هنا قال القرآن الكريم : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

وليست الحرب في الإسلام غاية مقصودة لذاتها ، ولكنها خطة يدفع إليها بغي الباغين وظلم الظالمين ، ولذلك قال التنزيل المجيد : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » . وقال أيضاً : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين »

وصيانة الحق والرزق تستلزم أن يكون أبناء الإسلام دائماً على إعداد واستعداد ، وأن تكون طائفة منهم على الدوام في حالة رباط ، أو على أرض

الميدان ، حتى يظل الجهاد فريضة قائمة باقية ، وصلوات الله وسلامه على رسوله حين مجد شأن المؤمن المجاهد الموصول النضال ، فقال : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها » .

* * *

وهذا واحد من أبناء الإسلام ، وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، يظل أكثر من خمسين عاماً يحمل سلاحه ، ويسدد رماحه ، ويذود عن حمى الدين ، ويصون حرمات المسلمين ، ويتقرب بالجهاد إلى الله رب العالمين : انه البطل القائد الأمير الفاتح أبو سعيد[1] مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي الأموي الدمشقي ، وإليه تنسب جماعة « بني مسلمة » التي كانت بلدتهم هي « الأشمونين » وفيها منازلهم ، وهي بلدة بالصعيد الأعلى في مصر غربي نهر النيل .

وكان مسلمة بن عبد الملك من أبطال عصره ، بل من أبطال الإسلام المعدودين ، حتى كانوا يقولون عنه أنه خالد بن الوليد الثاني ، لأنه كان يشبه سيف الله المسلول ، في شجاعته وكثرة معاركه وحروبه ، ويقول عنه المؤرخ يوسف بن تغري بردي صاحب كتاب « النجوم الزاهرة » هذه العبارة : « كان شجاعاً صاحب همة وعزيمة ، وله غزوات كثيرة »[2] .

ويقول عنه ابن كثير : « وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومساع مشكورة ، وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصوناً وقلاعاً ،

---

(١) وقيل في كنيته أيضا : أبو الاصبغ ، وقيل : أبو شاكر . ويقال ان هذه كنية لابن أخيه مسلمة بن هشام بن عبد الملك (النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٨٩) .

(٢) المرجع السابق .

وأحيا بعزمه قصوراً وبقاعاً ، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه ، في كثرة مغازيه ، وكثرة فتوحه ، وقوة عزمه ، وشدة بأسه ، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه ، وهذا مع الكرم والفصاحة » (١) . ويقول عنه صاحب العقد الفريد : « ولم يكن لعبد الملك ابن أسد رأياً ، ولا أزكى عقلاً ، ولا أشجع قلباً ، ولا أسمح نفساً ، ولا أسخى كفاً من مسلمة » (٢) .

ولذلك أوصى عبد الملك بن مروان أولاده ، وفيهم مسلمة ، فكان مما قاله لهم عنه : « يا بني ، أخوكم مسلمة ، نابكم الذي تفترون عنه ، ومجنكم الذي تستجنون به ، أصدروا عن رأيه » (٣) .

ومع أن أخوة لمسلمة تولوا الخلافة دونه ، ظل هو بينهم النجم المتألق الثاقب بجهاده وكفاحه ، وقال عنه مؤرخ الإسلام الذهبي : « كان مسلمة أولى بالخلافة من أخوته » . وليست العبرة بالمناصب والمراتب ، ولكنها بالإرادة والعزيمة ، والإقدام ، وعمق التفكير ، وحسن الخلق .

وكانوا يلقبون مسلمة بلقب « الجرادة الصفراء » ، لأنه كان متحلياً بالشجاعة والإقدام ، مع الرأي والدهاء . ومع أنه تولى إمارة أذربيجان وأرمينية أكثر من مرة وإمارة العراقين (٤) ، ظل يواصل الجهاد ، ويتابع المعارك ، منذ تولى والده الخلافة سنة خمس وستين (٥) وظل مسلمة على هذه الروح البطولية حتى لحق بربه سنة إحدى وعشرين ومئة .

لقد كانت له سلسلة طويلة من المعارك والغزوات

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٣٢٨ و ٣٢٩ .
(٢) العقد الفريد ، ج ٧ ، ص ١٤٥ .
(٣) مروج الذهب للمسعودي ، ج ٣ ، ص ١٦١ .
(٤) العبر ، ج ١ ، ص ١٥٤ .
(٥) البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٣٢٨ .

أرأيت ؟ . . . إنها سلسلة طويلة من المعارك والغزوات والحروب ، وإنها لسلسلة كثيرة الحلقات . وكأنما نذر مسلمة نفسه للجهاد والقتال ، واتخذ مسكنه في ساحات الكفاح والنضال ، ومع ذلك كان عالماً محدثاً ، روى الحديث عن خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، وروى عنه الأحاديث جماعة منهم : عبد الملك بن أبي عثمان ، وعبد الله بن قرعة ، وعيينة والد سفيان ابن عيينة ، وابن أبي عمران ، ومعاوية بن خديج ، ويحيى بن يحيى الغساني(١) .

ويظهر أن اتصال مسلمة بن عبد الملك بالحاكم العادل المخلص الأمين ، خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز كان من أقوى الأسباب في تكوين شخصية مسلمة تكويناً باهراً رائعاً ، لأني أؤمن بأن عمر بن عبد العزيز كان رجلاً تتمثل فيه نفحات إلهية من الخير والبر والتوفيق ، وأن الذين اتصلوا به وأخذوا عنه واقتبسوا منه هداهم الله ، ووهبهم توفيقاً ورشاداً . ولعل مسلمة قد عبر عن شيء من هذا القبيل حينما دخل على عمر بن عبد العزيز وهو في ساعته الأخيرة فقال له في تأثر عميق بليغ : جزاك الله يا أمير المؤمنين عنا خيراً ، فقد ألنت لنا قلوباً كانت قاسية ، وجعلت لنا في الصالحين ذكراً(٢) .

وهذه عبارة تدل على أن ملامح من شخصية مسلمة كان الفضل فيها لخامس الراشدين رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

ومن المواقف الخالدة الباقية بين مسلمة وعمر ما رواه بن عبد ربه ، وهو ن مسلمة بن عبد الملك ، دخل على عمر بن عبد العزيز في المرض الذي مات فيه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، ولا بد لهم من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم إن شاء الله .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٣٢٨ .
(٢) العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ١٨٣ .

فقال عمر : اجلسوني ، فأجلسوه ، فقال :

الحمد لله ، أبالله تخوفني يا مسلمة ؟ أما ما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة ، فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم ، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم . وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي ، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله ، فجعل الله له من أمره يسراً ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غير وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا لي بني ، فدعوهم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً ، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه ، حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال :

بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم . يا بني ، إني قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله . يا بني ، ميلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا ، وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان ان تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً النار . قوموا يا بني عصمكم الله ورزقكم .

فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر (١) .

* * *

وكان مسلمة يظهر نعمة الله تعالى ، ومن شواهد ذلك انه دخل على عمر بن عبد العزيز وعليه ريطة من رياط مصر (أي ثوب رقيق ناعم) . فقال له عمر . بكم أخذت هذا يا أبا سعيد ؟ .

---

(١) العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ٢٠٣ .

أجاب مسلمة : بكذا وكذا .

قال عمر : فلو نقصت من ثمنها ما كان ناقصاً من شرفك .

فأجاب مسلمة : إن أفضل الاقتصاد ما كان بعد الجدة ، وأفضل العفو ما كان بعد القدرة ، وأفضل اليد ما كان بعد الولاية (١) .

ولقد كان مسلمة رجلاً معطاء ، ولقد قال يوماً لنصيب الشاعر : سلني . قال : لا . قال : ولم ؟ قال نصيب : لأن كفك بالجزيل أكثر من مسألتي باللسان .

وكان مسلمة مع تقواه وحرصه على الصلاة رجلاً يحب العفو ويحبب فيه ، ولقد حدث بين الخليفة هشام بن عبد الملك وبين ابن هبيرة ما دعا إلى إهدار دمه . ولكن خادماً لمسلمة يحدثنا فيقول :

كان مسلمة بن عبد الملك يقوم من الليل فيتوضأ ويتنفل حتى يصبح ، فيدخل على أمير المؤمنين ، فإني لأصب الماء على يديه من آخر الليل وهو يتوضأ ، إذ صاح صائح من وراء الرواق : أنا بالله وبالأمير !

فقال مسلمة (في دهشة) : صوت ابن هبيرة ، أخرج إليه .

فخرجت إليه ورجعت فأخبرته ، فقال : أدخله ، فدخل ، فإذا رجل يميد نعاساً ، فقال : أنا بالله وبالأمير .

قال : أنا بالله ، وأنت بالله .

ثم قال : أنا بالله ، وأنا بالأمير .

---

(١) العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ١٩٨ .

قال مسلمة : أنا بالله ، وأنت بالله .

حتى قالها ثلاثاً ، ثم قال : أنا بالله . فسكت عنه ، ثم قال لي : انطلق به فوضئه وليصل ، ثم أعرض عليه أحب الطعام إليه فأته به ، وافرش له في تلك الصفة – لصفة بين يدي بيوت النساء – ولا توقظه حتى يقوم متى قام .

فانطلقت به فتوضأ ، وصلى ، وعرضت عليه الطعام فقال : شربة سويق ، فشرب ، وفرشت له فنام ، وجئت إلى مسلمة فأعلمته ، فغدا إلى هشام فجلس عنده ، حتى إذا حان قيامه قال : يا أمير المؤمنين ، لي حاجة . قال هشام : قضيت ، إلاّ أن تكون في ابن هبيرة . قال مسلمة : رضيت يا أمير المؤمنين .

ثم قام مسلمة منصرفاً ، حتى إذا كاد أن يخرج من الديوان رجع فقال : يا أمير المؤمنين ، ما عودتني أن تستثني في حاجة من حوائجي ، وإني أكره أن يتحدث الناس إنك أحدثت علي الاستثناء .

قال هشام : لا أستثني عليك .

قال مسلمة : فهو ابن هبيرة .

فعفا عنه هشام (1) !

ومن ملامح شخصية مسلمة انه كان يعرف للفصحى مكانتها ، وللبيان السليم منزلته ، وكان يقول : « اللحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه » (2) . وكان يقول أيضاً : « مروءتان ظاهرتان : الرياسة والفصاحة » (3) .

---

(1) العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٥٧ و ٥٨ .
(2) عيون الاخبار ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .
(3) عيون الاخبار ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

ومن كلماته قوله : « ما أخذت أمراً قط بحزم فلمت نفسي فيه ، وإن كانت العاقبة علي ، ولا أخذت أمراً قط . وضيعت الحزم فيه ، فحمدت نفسي وإن كانت لي العاقبة »[1] .

وكان مسلمة يحب أهل الأدب ، وأوصى لهم بثلث ماله ، وقال : إنها صنعة جحف أهلها[2] ، أي سلبهم الناس حقهم .

وكذلك كان يعرف للشعراء مكانتهم وحقهم ، ولقد تحدث كثير عزة فقال : شخصت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وكل واحد منا يدل عليه بسابقة وإخاء قديم ، ونحن لا نشك أن سيشركنا في خلافته ، فلما رفعت لنا أعلام خناصرة[3] لقينا مسلمة بن عبد الملك ، وهو يومئذ فتى العرب ، فسلمنا فرد ، ثم قال : أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر ؟ قلنا : ما توضح إلينا خبر حتى انتهينا اليك ، ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا .

فقال : إن يكن ذو دين بني مروان قد ولي وخشيتم حرمانه ، فإن ذا دنيانا قد بقي ، ولكم عندي ما تحبون ، وما ألبث حتى أرجع إليكم ، وامنحكم ما أنتم أهله .

فلما قدم كانت رحالنا عنده بأكرم منزل عليه[4] .

وكان مسلمة يعرف للعلماء كذلك أقدارهم ويهدي إليهم ، وكان يهدي إلى الحسن البصري ، وأهدى إليه ذات مرة خميصة لها أعلام ، فكان الحسن يصلي فيها[5] .

(١) العقد الفريد ، ج ١ ، ص ١٩٤ .
(٢) البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٣٢٩ .
(٣) خناصره : بلدة من أعمال حلب .
(٤) العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٣١٤ .
(٥) العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢١١ . والخميصة ثوب من الخز .

وكان يتقدم بالنصيحة في مواطنها ، ولقد لاحظ على أخيه يزيد بن عبد الملك نوعاً من اللهو وهو في الخلافة ، فنصحه وذكره بسيرة عمر بن عبد العزيز وقال له فيما قال : « إنما مات عمر أمس ، وقد كان من عدله ما قد علمت ، فينبغي أن تظهر للناس العدل ، وترفض هذا اللهو ، فقد اقتدى بك عمالك في سائر أفعالك وسيرتك »[1] .

ومن أروع المشاهد المأثورة المذكورة في سيرة البطل الفاتح ، مسلمة بن عبد الملك ، والتي يجب أن نطيل فيها التأمل والاعتبار ، إن كنا من أصحاب القلوب والأبصار ، إن مسلمة كان يحاصر ذات يوم حصناً ، وما أكثر الحصون التي حاصرها ، وما أكثر الحصون التي افتتحها باسم الإسلام والمسلمين ... واستعصى فتح الحصن على الجنود ، فوقف مسلمة يخطب بينهم ويقول لهم ما معناه : أما فيكم أحد يقدم فيحدث لنا نقباً في هذا الحصن؟.

وبعد قليل تقدم جندي ملثم ، وألقى بنفسه على الحصن ، واحتمل ما احتمل من أخطار وآلام ، حتى أحدث في الحصن نقباً كان سبباً في فتح المسلمين له ، وعقب ذلك نادى مسلمة في جنوده قائلاً : أين صاحب النقب؟.. فلم يجبه أحد ، فقال مسلمة : عزمت على صاحب النقب أن يأتي للقائد ، وقد أمرت الآذن بإدخاله علي ساعة مجيئه .

وبعد حين أقبل نحو الآذن شخص ملثم ، وقال له : استأذن لي على الأمير فقال له : أأنت صاحب النقب ؟

فأجاب : أنا أخبركم عنه ، وأدلكم عليه ، فأدخله الآذن على مسلمة ، فقال الجندي الملثم للقائد : إن صاحب النقب يشترط عليكم أموراً ثلاثة :

---

(1) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ١٩٦ .

ألا تبعثوا باسمه في صحيفة إلى الخليفة ، وألاّ تأمروا له بشيء جزاء ما صنع ، وألاّ تسألوه من هو ، فقال مسلمة : له ذلك ، فأين هو ؟. فأجاب الجندي في تواضع واستحياء : أنا صاحب النقب أيها الأمير . ثم سارع بالخروج .

فكان مسلمة بعد ذلك لا يصلي صلاة إلاّ قال في دعائها : اللهم اجعلني مع صاحب النقب يوم القيامة (١) .

وبعد ما يزيد عن نصف قرن من الزمان قضاها مسلمة بن عبد الملك في قتال ونضال ، وكفاح وحمل سلاح ، مضى إلى ربه سنة إحدى وعشرين ومئة ، لينال ثوابه مع أهل التقوى وأهل المغفرة : « إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر » . وهو الذي سأله أخوه هشام : هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو ؟ . . فقال : ما سلمت في ذلك من ذعر ينبه على حيلة ، ولم يغشني ذعر سلبني رأيي . فقال هشام : هذه والله البسالة (٢) .

توفي مسلمة يوم الأربعاء لسبع مضين من المحرم سنة إحدى وعشرين ومئة ، في موضع يقال له الحانوت ، وقيل سنة عشرين ومائة . وقيل سنة ثنتين وعشرين ومئة .

ومن العجيب أن صاحب « النجوم الزاهرة » ذكر خبرين عن وفاته . . . فذكر أولاً أنه مات سنة عشرين ومئة ، ثم عاد بعد قليل فذكر أنه مات سنة ثنتين وعشرين ومئة ، ولكن القول الأول أصح (٣) .

---

(١) عيون الاخبار ، ج ١ ، ص ١٧٢ .
(٢) العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٨٢ .
(٣) انظر البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٣٢٩ . والعبر ، ج ١ ، ص ١٥٤ . والاعلام ، ج ٨ ، ص ١٢٢ . والنجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٨٥ ثم ص ٢٨٨ .

ولقد رثى الوليد بن يزيد بن عبد الملك عمه البطل مسلمة بن عبد الملك فقال في رثائه هذه الأبيات :

أقول — وما البعد إلا الردى — : أمسلم ، لا تبعدن ، مسلمه
فقد كنت نوراً لنا في البلاد مضيئاً ، فقد أصبحت مظلمه
ونكتم موتك نخشى اليقين فأبدى اليقين لنا الجمجمه !

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

هذا الكتاب

« بين الوفاء والفداء » صلة عميقة وثيقة ، ترمز إلى ارتباط المبدأ بتطبيقه . وتصور العلاقات القائمة بين الفكرة وتنفيذها .

فالوفاء هو أحد المثل العليا التي تدين بها الإنسانية المؤمنة النبيلة، والفداء هو التطبيق الحي ، والتصديق العملي لذلك المثل الرفيع .

والأمة التي تريد الحياة الشريفة ، والبقاء الكريم ،بحاجة دائمة إلى عنصري الوفاء والفداء .

وفي تراثنا الإسلامي صفحات مجهولة لدى الكثيرين تنطوي على مواقف باهرة ، لأبطال تألقوا في ميدان الوفاء والفداء ، ولكنهم ظلوا بحاجة إلى التعريف والإنصاف ، وظلت الأمة بحاجة إلى أن تعرف عنهم ، وتغترف منهم ، لتأخذ زادها الذي يشد سواعدها في مواقف النبل ومواطن الإقدام .

وقد أراد فضيلة الدكتور أحمد الشرباصي ،بتصوير الأديب، وتحقيق العالم ، وروح الداعية أن ينفض غبار السنين ، عن نماذج لبطولات مجهولة ، لها قدم صدق وسبق ، في فضيلة الوفاء ومكرمة الفداء ، فجاء هذا الكتاب إنصافاً لمهضومين وزاداً لطالبين .

رجال صدقوا

شعاع من كتاب الله

إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .

« سورة الحجرات »

تصدير

من دقائق لغة القرآن الكريم : اللغة العربية ، إنها تعقد صلة بين الصدق والنضال ، فمادة « الصدق » فيها تدل على القوة في الشيء ، سواء أكان هذا الشيء قولاً أم عملاً ، وسمى العرب الحق في القول صدقاً ، لقوة الحق في نفسه ، ولأن الكذب ضعيف مهين .

وتقول اللغة في مجازها : رجل صادق الحملة ، وذو صدق في القتال ، وصدقوهم القتال .

و « الصدق » معنى واسع ، قد يتمثله عامة الناس في صدق القول فحسب ، ولكن الصدق بالمعنى الواسع هو تطابق المظهر مع المخبر ، والشكل مع الباطن ، والمنطق مع الضمير .

ولغة القرآن العربية تضفي على مادة « الصدق » جلالاً وجمالاً ، حين تطلقها على كل عمل طيب حسن ، فنجد في القرآن المجيد قوله : « وقل رب ادخلني مدخل صدق ، واخرجني مخرج صدق » ، ونجد فيه : « وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » أي سابقة فضيلة . ونجد فيه : « ان المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » . . . وهكذا .

والله جل جلاله موصوف في القرآن بالصدق : « وصدق الله ورسوله » ، « ومَنْ أصدق منَ اللهِ حَديثاً » .

والرسل موصوفون بالصدق : « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ». والأخيار من عباد الله موصوفون بالصدق : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »[1] .

والإمام ابن القيم يشير إلى ارتباط الصدق بالجهاد حين يقول : « الصدق روح الأعمال ، ومحك الأحوال ، والحامل على اقتحام الأهوال ، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال » .

والصدق هو أقوى سبب يحتاج إليه أهل الجهاد والكفاح ، ولذلك طالب الله تعالى نبيه — صلى الله عليه وسلم — بأن يحرص على تبين الصدق فيمن يريدون الجهاد معه ، فقال له : « عفا الله عنكَ لِمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » .

وإذا كنا محتاجين إلى الصدق في أقوالنا وأخبارنا ، فإننا أشد احتياجاً إلى نصدق في أعمالنا ، وفي وجوه نضالنا . اننا محتاجون إلى صدق النية ، وصدق في العزم ، وصدق في الوعد ، وصدق في الوفاء ، وصدق في الفداء ، حتى الدرك ذلك المستوى الرفيع الذي وصف به رب العزة صفوة من خلقه ، فقال عنهم سبحانه : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » .

وهذه كوكبة من عمالقة التاريخ الإسلامي ، تألقوا بين قومهم بصدقهم في إيمانهم وإقدامهم وكفاحهم ، حتى عطروا الصفحات الكثيرة من تاريخ أمتهم المجيد بالشذا الطيب والعبير الجميل .

---

(١) يطالع بعناية فصل « الصدق » من كتابي « **إخلاق القرآن** » ، **الجزء** الاول ، ص ٤٠ — ٥١ ، الطبعة الاولى .

إنها كوكبة صاغها الإسلام على عينه ، وصنعها بعبقريته ، فتأنق في صنعها ، واستطاعوا بفضل الله وحده ، ثم بأثر الإسلام في نفوسهم وحياتهم ، أن يتقدموا الصفوف ، ويواجهوا الزحوف ، ويلاقوا الحتوف ، شعارهم كلمة توحيدهم : لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله ، ودينهم الوفاء المؤدي إلى الفداء ، ورأس مالهم : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » ، ومبدؤهم : الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد .

وما أجمل الصدق بداية وغاية ، وصدق العلي الكبير « قال الله : « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبداً ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم » .

د . أحمد الشرباصي

الطفيل بن عمرو الدوسي

قد يكون الإنسان عظيماً في قومه ، كثيراً في ماله ، واسعاً في جاهه ، يستطيع أن يأمر وينهى ، وأن يعطي ويأخذ ، وأن يتسلط ويتحكم . ثم يكون مع ذلك بلا عقيدة تهديه ، أو إيمان يزينه ويعليه ، فيظل جاهه مادياً محدوداً ، وتظل مكانته عرضة للزوال أو الاختلال .

ولكنه إذا أوتي مع جاه السلطة والمال نور الإيمان وقوة اليقين . فقد فاز بنعيمي الدنيا والعقبى ، ووصل أسباب مجده المادي بمجد آخر روحي ، يضمن له جمال المسعى في حياته ، وخلود الذكر بعد وفاته ، وصدق القائل : « ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا » .

وكم من أناس رتعوا في الحياة وجمعوا ، وتملكوا فكنزوا ، وسادوا فاستبدوا ، ثم جاءتهم ريح عاصف ، فقوضت ما بنوا ، وبعثرت ما جمعوا ، وكانوا صوراً لأمر هذه الدنيا التي يصفها رب العزة بقوله : « حتى إذا أخذت ألأرض زخرفها وأزينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلاً او نهاراً ، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

ولقد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير من الناس ، كسبوا العزة والمجد بين أقوامهم ، ولكن هذا لم يصدهم عن الاهتداء بنور

ربهم ، فلما ضمهم موكب الدعوة الإلهية على يد قائده محمد ، زادوا شرفاً ورفعة ، وكانوا عند الله من المصطفين الأخيار ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

إنه الصحابي الجليل ، المؤمن الكريم ، الغني التقي ، المجاهد الشهيد : أبو عمرو الطفيل بن عمرو بن طريف الدوسي الأزدي ، رضوان الله عليه . كان سيد قبيلته دوس ، وكان أكرم قومه ، وأوسعهم عطاء ، وكان أبينهم منطقاً ، وأنبلهم شعراً ، وكان أبصرهم بالتجارة ، وأقدرهم على الربح .

وسمع الطفيل بأمر النبي صلى الله عليه وسلم في صدر الدعوة ، فأقبل إلى مكة متاجراً ومستخبراً ، ولكن المشركين قابلوا هذا السيد الزعيم في قومه [1] ، وأخذوا يشوهون في نظره صورة محمد بن عبد الله رسول الله ، وجعلوا يقولون له : يا أبا عمرو ، يا أبا الطفيل [2] ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل أمره بنا (أي اشتد وصعب علينا) وفرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجته .

يقول الطفيل : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن ألاّ أسمع منه شيئاً ولا أكلمه ، وغدوت إلى الكعبة وقد حشوت أذني كرسفاً (أي قطناً) خوفاً أن يبلغني شيء من قوله ، حتى كان يقال لي « صاحب القطنتين » . وفرح المشركون بذلك . . .

وعند الكعبة شاهد الطفيل رسول الله يصلي ، وأبي الله إلاّ ما يشاء . فقد

---

(١) يرجع الى كتاب الروض الآنف للسهيلي ، ج ١ ، ص ٢٣٤ ، لانه اوسع وأوفى من غيره بكثير في هذا المقام .

(٢) كان العرب يكنونه أبا الطفيل تعظيما له ، حتى لا ينادوه قائلين : يا طفيل (السيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ٣٤٧) .

سمع الطفيل بعض كلام النبي على غير تعمد فأعجبه ، فقال في نفسه ، واثكل أمي ، والله إني لرجل لبيب شاعر [1] ، ما يخفى علي الحسن من القبيح ، فما يسعني أن أسمع من الرجل ما يقول ؟ . .

وانتظر الطفيل حتى انفض الناس ، وسعى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقال له : يا محمد ، إن قومك قالوا لي كذا وكذا ، حتى سددت أذني بالكرسف (القطن) لئلاّ أسمع قولك ، ثم أبى الله ألاّ أن يسمعنيه ، فسمعت قولاً حسناً ، فاعرض على أمرك .

وعرض الرسول عليه الإسلام ، وتلا عليه ما تيسر من القرآن الكريم . يروى – كما في السيرة الحلبية [2] – إنه تلا عليه قول الحق تبارك وتعالى : « قل هو الله أحد، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » وقوله : « قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن حاسد إذا حسد » . وقوله : « قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس » .

وفي هذا نظر ، لأن نزول المعوذتين كان بعد الهجرة ، إلاّ أن يقال أن نزول السورتين قد تكرر ، والله أعلم بحقيقة ما تلاه الرسول على الطفيل .

وقال الطفيل عقب تلاوة الرسول : والله ما سمعت قولاً قط أحسن من هذا ولا أمراً أعدل منه .

---

(١) يقول التاريخ عن الطفيل : « كان شاعرا كريما كثير الضيافة » . ومن شعره : « ففينا الشعر والملك الفدام » أي القديم (النهاية ، ج ١ ، ص ٢٨) .
(٢) السيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .

ثم أعلن الطفيل إسلامه قائلاً : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله !

وكان إسلام الطفيل بن عمرو عقب رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من رحلته إلى الطائف ، حيث قدم على رسول الله ، فعرض عليه الإسلام فأسلم ، وأمره النبي بأن يدعو قومه إلى الإسلام فاستجاب لذلك .

وتبدل أمر الطفيل . . .

لقد جاء لتجارة الدنيا فأسعده الله بتجارة الآخرة . وجاء معتزاً بزعامته وسيادته ، فأصبح يعتز بدينه وإيمانه ، وجاء وهو يسعى لجمع المال وزيادة الثروة ، فأصبح حريصاً على الدعوة إلى الله ، وحث الناس على عبادته ، ولذلك قال للنبي : يا رسول الله ، إني امرؤ مطاع في قومي ، وأنا راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يكون لي عوناً عليهم .

فدعا له الرسول بالخير ، ثم قال : اللهم اجعل له آية .

وفي رواية أن الطفيل هو الذي طلب من الرسول أن يجعل الله له آية تكون له عوناً على الدعوة إلى الله . فدعا له الرسول بذلك .

وعاد الطفيل إلى قومه وداره .

وبينما هو في الطريق سطع نور في وجهه من عينيه ، كأنه مصباح يضيء ، وكان ذلك كرامة من الله عز وجل ، واستجاب لدعوة الرسول . وأحس الطفيل بهذا النور الساطع ، وخشي أن يقول المشركون أن ذلك مثلة وتشويه بسبب خروجه على دينهم ، فدعا ربه قائلاً :

اللهم اجعل هذا النور في غير وجهي ، فإني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراق دينهم .

واستجاب الله دعاءه ، فنقل النور من وجهه إلى طرف سوطه ، فصار كقنديل يتلألأ وسط الظلام ويتأجج — أي يضيء من أجيج النار وهو توقدها — حتى صار يلقب بلقب يعرف به ، وهو « ذو النور » . والله يختص بفضله من يشاء .

وفي هذه الآية التي منحها الله تبارك وتعالى الطفيل يقول السبكي في تائيته :

وفي جبهة الدوسي ، ثم بسوطه   جعلت ضياء مثل شمس منيرة

وبدأ الطفيل جهاده السلمي عقب عودته ، بالدعوة إلى الله بين قومه ، فتحدث إلى أبيه أولاً عن الإسلام حتى أقنعه به ، وقال الوالد لابنه : ديني دينك . وأعان إسلامه .

ثم دعا زوجته فاستجابت ، ثم عم الإسلام أسرته . وأخذ الطفيل بعد ذلك يدعو قومه ، وكانوا أهل عناد وشدة ، فلم يطيعوه برغم صبره ومثابرته ، ولما صعبوا عليه رحل إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وشرح له متاعبه مع قومه ، وقال فيما قال : يا رسول الله قد غلبتني دوس فادع عليهم .

ولكن الرسول — وهو رحمة الله المهداة — قال : اللهم اهد دوساً وائت بها .

وفي رواية أن الطفيل قال للرسول عن دوس : ان دوساً غلب عليها الزنى والربا ، فادع الله عليهم . وقال الصحابة عندئذ : هلكت دوس . ولكن الرسول قال : الله اهد دوساً . ثم قال له الرسول : ارجع إلى قومك ، فادعهم وارفق بهم .

وفي رواية أخرى أن الطفيل قال : ان دوساً قد استعصت . وقال الرسول : اللهم اهد دوساً وائت بهم .

وفي رواية أن الطفيل قال : يا رسول الله : ان دوساً قد عصت وأبت فادع الله عليها . فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه ، فحسب الصحابة أنه سيدعو عليها . فقالوا : هلكت دوس ، ولكن الرسول الرحيم قال : اللهم اهد دوساً وائت بهم .

والروايات متقاربة . وهي في مجموعها تدل على جهد الطفيل ، وعلى حلم الرسول ، وتعليمه الدعاة أن يحتملوا ويصبروا في سبيل الله عز وجل .

وعاد الطفيل إلى قومه يواصل دعوته ، ويجاهد من أجل ذلك جهاد الدعاة الصابرين ، وبعد غزوة الخندق كان الإسلام قد انتشر بين قومه ، فأقبل الطفيل إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه ، ومعه رجال يمثلون ثمانين بيتاً من البيوت المسلمة في دوس ، فأكدوا للرسول بيعتهم على الإسلام ، وهنا قال الطفيل :

يا رسول الله ، اجعلنا ميمنتك ، واجعل شعارنا : « مبرور » .

فاستجاب الرسول لرجائه وحقق له ما أراد ، تكريماً لجهاده المسالم في سبيل الله ،

وأخذ الدوسيون يشاركون في جهاد الميدان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاركة عظيمة ، وسقط منهم شهداء بعد شهداء .

وكان الطفيل قد رأى أنه أدى واجبه في ميدان الدعوة إلى الله ، فسارع عندئذ إلى الجهاد في ميدان السلاح والكفاح ، وبعد فتح مكة أرسله الرسول

عليه الصلاة والسلام إلى صنم « ذي الكفين » فذهب وأحرقه ، وجعل يقول :

ياذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أكبر من ميلادكا
إنا حشونا النار في فؤادكا

وظل الطفيل على هذا الجهاد بعد وفاة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، واشترك في المعارك التي دارت بأرض نجد للقضاء على فتنة الردة الخبيثة ، ولتثبيت دين الله في أرض الله . . .

ثم اشترك في معركة « اليمامة » بعد أن رأى في النوم — كما تذكر السيرة — أنه قد حلق رأسه ، وأن طائراً خرج من فمه ، وأن امرأة أدخلته في رحمها .

فأول هذه الرؤيا لنفسه — كما تحدث — بأن حلق رأسه إشارة إلى قطعه في الحرب ، وأن الطائر إشارة إلى خروج روحه ، وأن المرأة التي ضمته إلى رحمها إشارة إلى الأرض التي يضمه ثراها .

وكذلك كان . . .

ظل الطفيل يجاهد حتى سقط شهيداً في معركة اليمامة ، وقطعوا رأسه ، وصعدت روحه إلى بارئها . تزكي عمله وتشهد له ، وضمت الأرض أشلاء ذلك المجاهد الشهيد ذي النور ، عليه من ربه تبارك وتعالى سحائب الرضوان .

شرحبيل بن حسنة

ما زال كثير منا يخجلون من ذكر أسماء الأمهات والبنات ، ولعل ذلك كان نتيجة لعزل المرأة المسلمة عن إسهامها الطهور في الحياة الاجتماعية بعقلها وفضلها ، ولعل ذلك أيضاً كان استصحاباً للخوف على المرأة من تعرضها لمواقف يخشى منها على عرضها وسمعتها .

وقد بلغ هذا الخوف مداه حينما تعرض المجتمع الإسلامي في بعض مراحله لغزوات غاشمة لم تقتصر على غصب الأرض ، بل بلغت غصب العرض .

وقديماً — وفي صدر الإسلام — كانت المرأة المؤمنة ذات مكانة وفطانة ، وصاحبة سمو وعلو ، وكان الرجل يفخر حين ينتسب إلى أمه ، ويذكر اسمها في إجلال وإعزاز قائلاً : أنا ابن فلانة ، لأنها شريفة عفيفة ، خيرة طاهرة .

ولقد ازدان تاريخ الإسلام مثلاً بالحديث العاطر الباهر عن نساء البيت النبوي الكريم ، فذكر لنا اسم أم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسماء زوجات النبي أمهات المؤمنين ، وأسماء بنات النبي ، وأسماء عمات النبي وهكذا . . . وسيظل هذا الحديث على الدوام مصدراً من مصادر التربية والتوجيه للمرأة المسلمة على مر العصور.

وهذا رجل من تلاميذ سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان أبوه معروفاً مشهوراً ، ولكن هذا التلميذ المحمدي لم يشتهر بنسبته إلى أبيه ، بل اشتهر بين الصحابة وفي التاريخ بنسبته إلى أمه ، لأن أمه رضي الله عنها كانت مثلاً طيباً للمرأة المؤمنة المعتزة بالله ، المهاجرة في سبيل الله .

ولو كان النساء كمثل هذي   لفضلت النساء على الرجال

ذلكم الرجل هو الصحابي المجاهد ، والمناضل القائد ، أبو عبد الله شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن الغطريف الكندي . وقد جاء في كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه أنه : شرحبيل بن عبد العزى ، الذي يقال له شرحبيل بن حسنة ، من بني الغوث بن مر بن اد بن طابخة ، وفيهم كانت الإجازة في الجاهلية ، وكانوا يدفعون بالناس في عرفات [1] .

و « حسنة » هي أمه ، نسب إليها وغلب ذلك عليه ، كما يقول ابن كثير [2].

وقد أسلمت بمكة قديماً ، فهي من السابقات إلى الإسلام ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهي من المعاهدات الوفيات ، وهاجرت إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية مع ابنها شرحبيل ، ثم هاجرت أيضاً إلى المدينة [3] ، فهي من أصحاب الهجرتين .

وقد أسلم شرحبيل أيضاً قديماً كأمه ، فهو من السابقين إلى الإسلام ،

---

(١) العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٩٣ ، طبعة المطبعة التجارية ، تحقيق العريان .

(٢) البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٩٣ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٨ ، ص ٢١٠ . وقيل انها تبنته هو وأخاه عبد الرحمن (انظر التحفة اللطيفة، ج ٢ ، ص ٢١٧ في الهامش) ولكن الصحيح انها امه ، والمراجع الكثيرة تنص على ذلك . انظر الطبقات ، ج ٤ ، ص ٩٤ ، القسم الاول ، وكذلك ج ٧ ، ص ١١٨ .

وأسلم معه أخواه لأمه : جنادة وجابر . وهاجروا مع أمهم إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة . ويقول ابن سعد ان أخويه اللذين هاجرا معه هما : خالد وجنادة .

وقد روى شرحبيل بعض الأحاديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام . جاء عنه في « الإصابة » هذه العبارة : « وله رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ابن ماجة ، وعن عبادة بن الصامت ، روى عنه ابناه وربيعة وعبد الرحمن بن غنم وأبو عبد الله الأشعري »(١) .

وكان شرحبيل معدوداً في وجوه قريش كما يذكر ابن عبد البر في « الاستيعاب » ، وكان أحد عشرة من الكتاب ، هم الأشراف الذين كتبوا للمصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وهم : علي وعمر وعثمان ، وخالد بن سعيد بن العاص وأخوه ابان ، وعمرو بن العاص ، وزيد بن ثابت ، والعلاء ابن الحضرمي ، ومعاوية ، وشرحبيل(٢) .

وكان شرحبيل « من علية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغزا معه غزوات »(٣) .

ويروى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أوفده إلى مصر في مهمة ، وظل شرحبيل في هذه المهمة حتى توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام(٤) .

* * *

وجاء الصديق أبو بكر رضي الله عنه إلى الخلافة ، وفاجأته فتنة « الردة »

---

(١) الاصابة في تمييز الصحابة ، ج ٤ ، ص ١٤١ .
(٢) العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ ، طبعة المطبعة التجارية .
(٣) ابن سعد في الطبقات ، ج ٤ ، ص ٩٤ ، القسم الاول .
(٤) الاعلام للزركلي ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ ، الطبعة الثانية .

على الطريق ، وكان لا بد من القضاء عليها وهي في مهدها ، قبل أن تدمر المجتمع الذي قام على الإيمان والوحدة .

واختار أبو بكر شرحبيل بن حسنة ليكون من مجاهدي هذه الحرب مع خالد بن الوليد ، ثم جعله أحد الأمراء الأربعة الذين وجههم إلى الشام في السنة الثالثة عشرة ، وكان الأمراء الأربعة هم : عمرو بن العاص ، ويزيد ابن أبي سفيان ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة (١) .

وخطب أبو بكر فيهم خطبة حث فيها على الجهاد ، وقال فيها بعد أن أثنى على الله تبارك وتعالى بما هو أهله : « ألا أن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهي حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله ، عليكم بالجد والقصد ، فإن القصد أبلغ ، ألا أنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا إيمان لمن لا خشية له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وأن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به ، هي النجاة التي دل الله عليها ، إذ نجى بها من الخزي ، وألحق بها من الكرامة » (٢) .

وكان شرحبيل بن حسنة في هذه الحروب أميراً لفلسطين — أين اليوم فلسطين يا جموع العرب والمسلمين ؟ . .

وقد افتتح شرحبيل ببطولته بلاد الأردن كلها عنوة ، ما خلا طبرية ، فإن أهلها صالحوه (٣) ، واشترك شرحبيل في فتح دمشق عاصمة الشام ، وفي موقعة أجنادين ، وفتح كذلك بلدة « قدس » — بفتحتين — وهي موضع

---

(١) انظر العبر ، ج ١ ، ص ١٥ و ٢٢ . والبداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٩٣ . والطبقات ، ج ٤ ، ص ٩٤ ، القسم الاول .
(٢) البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٣ .
(٣) البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٢٥ .

بالشام يقول عنه ياقوت الحموي في « معجم البلدان » انه « بلد بالشام قرب حمص ، من فتوح شرحبيل بن حسنة ، وإليه تضاف بحيرة قدس » ، وهي أيضاً قرب حمص ، بين حمص وجبل لنبان ، تنصب إليها مياه تلك الجبال ، ثم تخرج منها ، فتصير نهراً عظيماً ، هو « نهر العاصي » الذي تقع عليه مدينة حماة ومدينة شيزر .

* * *

ومضى أبو بكر رضي الله عنه إلى ربه ، وجاء عمر الفاروق رضي الله عنه ، فواصل الخليفة استعانته بقيادة البطل المناضل شرحبيل بن حسنة ، ثم ولاه قائداً على « المدائن » (١) .

وكان هذا تدليل على أن الأعلام العمالقة من صحابة سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام كانوا أصحاب كفايات متعددة متنوعة ، فهم يزينون المحاريب بتعبدهم وتقواهم وصلاحهم ،وهم يزينون ساحات النضال بشجاعتهم وبطولاتهم ، وهم يضربون في ميدان البناء والتعمير بسهامهم ، وهم يعطون القدوة الصالحة في العدل بين الناس ، والبصر بدخائل الأمور .

وإذا كنا نرى بطلنا شرحبيل بن حسنة يتولى منصب القضاء في « المدائن » فإننا نتذكر في الوقت نفسه ما ذكره السلف من أن القاضي يكون صالحاً للقضاء إذا كان فيه خمس خصال : علم بما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع ، وحلم على الخصم ، واقتداء بالأئمة ، ومشاورة أهل الرأي (٢) .

* * *

---

(١) معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣١١ ، و ج ١ ، ص ٣٥٢ ، طبعة بيروت .
(٢) عيون الاخبار ، ج ١ ، ص ٦٠ ، بالهامش نقلا عن العقد الفريد .

ومن الطرائف التي نتذكرها في سيرة البطل الفاتح شرحبيل بن حسنة حينما كان في الحبشة ، أن أم المؤمنين أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان) رضوان الله تبارك وتعالى عليها ، كانت من السابقين إلى الإسلام ، وهاجرت إلى الحبشة في سبيل الله مع زوجها عبيد الله بن جحش ، فمات زوجها هناك ، في دار الهجرة والغربة ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي في الحبشة سنة ست للهجرة ، وأمهرها النجاشي أربعة آلاف درهم (أو أربعمائة دينار) ، وأرسلها معززة مكرمة في صحبة البطل شرحبيل بن حسنة .

وكأن أم المؤمنين قد أرادت أن تكافئه على ما شهدت من عمق إيمانه وأخلاقه، فوهبته داراً كانت لها في المدينة ، ومن حسن الحظ لهذه الدار ، وحظ صاحبها ، أن الخليفة المهدي العباسي ، اشترى جانباً من هذه الدار سنة مائة وإحدى وستين ، وأدخلها في ساحة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة [1] .

وظل بطلنا الفدائي شرحبيل بن حسنة مناضلاً مقاتلاً ، مجاهداً عابداً ، حتى السنة الثامنة عشرة للهجرة حيث فشا طاعون « عمواس » ، وعمواس — بكسر ففتح ، أو بفتحتين — كورة من فلسطين بقرب بيت المقدس — رد الله فلسطين على العرب والمسلمين — قال ياقوت عنها أنها على بعد ستة أميال من « الرملة » على طريق بيت المقدس ، ومنها كان ابتداء الطاعون في عهد عمر رضي الله عنه ، ثم فشا في أرض الشام ، فمات فيه خلق كثير لا يحصى من الصحابة رضوان الله عليهم ومن غيرهم ، قيل مات فيه خمسة وعشرون ألفاً من المسلمين [2] .

---

(١) التحفة اللطيفة للسخاوي ، ج ٢ ، ص ٢٧١ .
(٢) معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٥٨ ، بيروت .

وكان ممن أصيب بطاعون عمواس البطل القائد شرحبيل بن حسنة ، حيث لقي ربه شهيداً ، واستشهد معه بالطاعون في يوم واحد : أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو مالك الأشعري .

وكان لشرحبيل يوم وفاته من العمر سبع وستون سنة .

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

* * *

أرأيت ؟ . .

إن والد شرحبيل هو عبد الله بن المطاع بن الغطريف الكندي ، ولكن شرحبيل لم يعرفه التاريخ بأبيه ، وإنما عرفه باسم أمه « حسنة » التي كانت لها صحبة ، وكانت لها هجرة ، فحفظ التاريخ لنا اسمها بين نساء الإسلام الخالدات ، وحفظ لنا اسمها أماً البطل شرحبيل بن حسنة الذي لا يكاد يذكره التاريخ مضافاً إلى غير اسمها رضوان الله تبارك وتعالى عليها .

أرأيت ؟ . .

في صدر الإسلام خرج الرجال الرجال ، وفي صدر الإسلام خرجت النساء الأبطال ، وفي صدر الإسلام لم يروا غضاضة في نسبة البطل إلى والدته .

وفي صدر الإسلام كان الشعار : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

وما زال الشعار قائماً وباقياً ، فهل له اليوم من أنصار ؟ . .

مصعب بن عمير

ما أعظم ما يصنعه الإيمان في النفوس . كأنه يخلقها خلقاً جديداً ، ويصوغها صوغاً مجيداً .

ولقد يكون الإنسان لاهياً غافلاً ، تشغله الملذات ، وتسيطر عليه الشهوات فإذا انبثق نور الإيمان في قلبه ، محصه بنار التطهير ، وأضاءه بأشعة الهدى ، فيمضي على طريقه طائعاً نافعاً ، مكافحاً ناجحاً ، ينسى كل شاغل له عن دينه ، ويحيا مجنداً لإيمانه ويقينه ، حتى يلقى ربه تبارك وتعالى مرفوع الهامة موفور الكرامة ، فإذا اللقاء العظيم والثواب الجزيل ، عند من لا يضيع أجر من أحسن عملاً : « وما كان الله ليضيع إيمانكم ، ان الله بالناس لرءوف رحيم » .

ومن هذا الطراز النبيل : الصحابي الجليل ، أبو عبد الله مصعب بن عمير ، الذي نستطيع أن نقول عنه أنه أول مبعوث في الإسلام للدعوة إلى الله ، وأول سفير لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

وهو من فضلاء الصحابة وأخيارهم ، ومن الذين بكروا في السبق إلى الدخول في دين الله عز وجل . ولقد كان في أول أمره منعماً مترفاً مدللاً ، وكان أروع الفتيان بمكة شباباً وبهاء ، وكانت أمه تحبه كثيراً ، وكان يحبها كثيراً ، وكانت تكسوه أحسن ما يكون من الثياب في مكة ، حتى قال فيه الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما رأيت بمكة أحسن لمة [1] ، ولا أرق حلة ، ولا أنعم نعمة ، من مصعب بن عمير » .

ولكن مصعباً كان – مع – هذا – متفتح العقل منذ صباه ، فما كاد يسمع عن ظهور الإسلام حتى أقبل يستطلع أنباءه ، ويستوعب أخباره ، وسرعان ما جذبته الدعوة الصادقة المشرقة إلى حماها ، فذهب إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وأعلن إسلامه .

وفرح الرسول بإسلامه ، ولمس صدر مصعب بيده الشريفة ، فكأنما ثبت بهذه اللمسة قواعد الإيمان في صدر مصعب ، فغدا وطيد الإيمان ، راسخ اليقين ، وكأنما قد أعيد تكوينه وتركيبه ، فلا ترف ولا سرف ، ولا تدلل أولا تحلل ، بل همة وعزيمة ، واستقامة وإنابة .

وتروي السيرة العاطرة أنه حينما علمت أمه بإسلامه – وكانت كافرة – غضبت وثارت ، واستعانت ببعض أهلها حتى حبست مصعباً ، وأغلقت عليه الأبواب ، وجعلوا يحرضونه على ترك دينه ، والعودة إلى الشرك دين الآباء والأجداد ، وهو يرفض – في إباء وشمم ، وعزم وتصميم – أن ينقلب على وجهه من الهداية والإسلام ، إلى الكفر والضلال ، وكأنه كان يتذكر قول الله تعالى :

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » .

وظل مصعب كذلك مدة طويلة ، ثم سمع وهو في سجنه أن فريقاً من

---

(١) يعني شعر رأسه .

المسلمين قد هاجروا إلى الحبشة ، بسبب ما نالهم من تعذيب على أيدي المشركين المجرمين ، فاحتال مصعب حتى هرب ، وهاجر مع المهاجرين إلى الحبشة ، وبعد حين رجع معهم ، حينما ظنوا أن الطغاة قد انصرفوا عن بغيهم ، ثم عاد فهاجر إلى الحبشة ثانية حينما رأى أن الطغاة ما زالوا هم الطغاة ، ثم عاد فرجع منها ، ثم عاد فهاجر إلى المدينة حين فكر في الهجرة إليها سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام ، ولذلك يستحق مصعب أن يقال له : أبو الهجرات الثلاث .

* * *

ويا عجباً كل العجب . . .

لقد بدل الإيمان أمر مصعب كله . . .

إن الفتى المختال المعطار ، المدلل المترف في صباه ونشأته ، قد أصبح شيئاً آخر .

إنه صار – وقد أسلم – يحس بتبعاته ، ويفي لواجباته ، ويألف حياة الخشونة والاحتمال ، ويعرض عن مظاهر الراحة والرفاهية ، ويلبس الثياب المرقعة ، ويكتفي بالقليل منها .

وأخذ الصحابة يعجبون حين يقارنون بين ماضيه المنعم وحاضره المجاهد ، ويتأثر بعضهم حين يرونه يقسو على نفسه ويشتد في ذلك ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يزيل عجبهم ، ويخفف تأثرهم حين يقول لهم :

« لقد رأيت مصعباً هذا ، وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه ، ثم ترك ذلك كله حباً لله ولرسوله » .

وهكذا يكون الشباب الطاهر الناشيء في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم .

* * *

وحينما تمت بيعة العقبة بين رسول الله عليه الصلاة والسلام وطلائع المؤمنين من أهل المدينة المنورة ، اختار الرسول مصعباً ليكون مبعوثه الأول إلى المدينة ، وسفيراً له فيها ، يعلم المسلمين مبادىء الدين وتعاليم الإسلام ، ويقرئهم القرآن الكريم ، ويدعو إلى صراط الله العزيز الحميد من لم يدخل في الإسلام ، ولذلك سموه : « القارىء المقرىء » .

وبهذا كان مصعب أول من قدم على الأنصار من المهاجرين ، ويقال أنه أول من جمع الجمعة بالمدينة ، ويروي في تعليل ذلك أنه كان إلهاماً من الله تعالى قبل أن يؤمر المسلمون بصلاة الجمعة . ثم نزلت سورة الجمعة في المدينة ، وجاء فيها قول الله تبارك وتعالى : .

« يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، والله خير الرازقين » .

واستطاع مصعب بسمته وحكمته ، وبراعته في الدعوة ، والاهتداء بهدي الله تعالى الذي يقول :

ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

استطاع بهذا الهدي الحكيم الرزين الهادىء أن يجذب الكثيرين إلى صراط ربه ، فأسلم خلق كثير من الناس على يديه . ومن أمثلة براعته في الدعوة أن « أسيد بن حضير » كان مشركاً ، وغاظه تبشير مصعب بالإسلام ، فأقبل على مصعب ثائراً مندفعاً ، وفي يده حربة يريد أن يطعن بها مصعباً إن لم يترك الدعوة إلى هذا الدين الجديد .

ورآه مصعب فلم يخف ولم يضطرب ، بل قال لأسيد بكل هدوء :

« ألا تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره » .

فلم يسع أسيداً إلاّ أن يقول مجيباً : أنصفت .

وجلس ، فأخذ مصعب يتلو عليه من القرآن ، ويجيد له البيان ، فانشرح صدر أسيد للإيمان ، وقال لمصعب : « ما أحسن هذا القول وأصدقه . كيف يصنع من يريد أن يدخل هذا الدين » ؟ . .

فأرشده مصعب ، وأسلم أسيد .

وبهذا انضم بطل جديد إلى موكب الدعوة الرشيدة ، وزاد عدد المؤمنين المناضلين ، الذين يحبون جد الحياة وصرامة الجهاد .

* * *

وينبغي أن نتذكر أن مصعب بن عمير يلتقي والنبي صلى الله عليه وسلم في النسب : في الجد الرابع ، لأنه مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرة القرشي ، وأن مصعب بن عمير

كان متزوجاً من سيدة فاضلة تسمى « حمنة » ، وهي أخت السيدة « زينب » زوجة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وإحدى أمهات المؤمنين .

ومع ذلك لم يتكل مصعب على هذا العلو في النسب ، ولا على هذا الشرف في المصاهرة ، بل أيقن دائماً أن أي إنسان لا يغنيه حسب ولا نسب عن الطاعة والعمل ، وكأنه كان يتذكر على الدوام قول ربه تبارك وتعالى :

« وإن ليس للإنسان إلاّ ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

وقوله عز من قائل : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقول نبيه صلى الله عليه وسلم : « يا آل محمد ، لا يأتيني الناس بالأعمال ، وتأتوني بالأنساب ، اعملوا فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً » ! . .

ولذلك عمل مصعب ، وداوم على العمل ، واستمر يفعل الخير ، حتى كان يقال له : « مصعب الخير » ! . .

* * *

ولقد شهد مصعب غزوة بدر ، وكان بيده اللواء ، وشهد غزوة أحد ، وكان بيده اللواء ، وحينما اشتد الهول ، وضعف من ضعف يوم أُحد ، ثبت مصعب مع من ثبت ، وأخذ يجأر بالتكبير[1] ، حاملاً اللواء بإحدى يديه ، طاعنا بيده الأخرى .

وتكاثر عليه الأئمة الفجرة من الكافرين المشركين ، وضربه أحدهم

(1) يرفع صوته بكلمة : « الله أكبر » .

بالسيف على يده اليمنى فقطعها ، فهتف مصعب قائلاً : وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل .

وتناول اللواء بيده اليسرى ، فجاءتها طعنة فقطعتها ، فاحتضن مصعب اللواء بصدره ، وهو يعيد قوله : وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل.

وجاءته طعنة أخرى فسقط اللواء ، وهوى مصعب شهيداً .

وبحثوا عن شيء يلفونه به ، فلم يجدوا غير بردة إذا وضعوها على رأسه تعرت رجلاه ، وإذا وضعوها على رجليه تعرى رأسه ، فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اجعلوها مما يلي رأسه ، واجعلوا على رجليه نبات الأذخر »[1] .

ثم تلا النبي صلوات الله وسلامه عليه قول ربه تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه [2] ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » .

ثم قال يخاطب مصعباً :

« لقد رأيتك بمكة ، وما بها أحد أرق حلة ، ولا أحسن لمة منك ، ثم ها أنت شعث الرأس في بردة » .

ثم قال عنه وعن أمثاله :

« إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة » .

---

(١) الاذخر : نبات طيب الرائحة .
(٢) قضى نحبه : وفى بنذره ، فمات شهيدا في سبيل الله .

ثم قال للأحياء من حوله :

« أيها الناس ، زوروهم ، وأتوهم ، وسلموا عليهم ، فوالذي نفس محمد بيده ، لا يسلم عليهم مسلم إلى يوم القيامة إلاّ ردوا عليه السلام » .

وهذا هو خباب بن الأرت ، وهو سادس من دخلوا في الإسلام ، يتحدث عن مصعب بعد استشهاده ، فيقول :

« هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله تعالى ، فوقع أجرنا على الله ، فمنا من مات ولم يأكل من عمله شيئاً ، منهم مصعب ابن عمير » .

رضوان الله تعالى عليه .

* * *

هكذا يصنع الإيمان ، وهكذا يعيد اليقين بناء الإنسان ، وبهذا اليقين الراسخ الصابر المجاهد المحتسب الحريص على الشهادة ، عزت القلة المؤمنة ، وتغلبت على الكثرة الباغية ، فكان محمد وصحبه خير قدوة تحتذى وترتجى ، فليت الأخلاف ينهجون نهج الأسلاف ، لينال اللاحقون ما ناله السابقون من تأييد وتكريم .

وصدق الله العظيم : « وكأي من نبي قاتل معه ربيون [1] كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلاّ أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وأسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » .

---

(١) ربيون : علماء فقهاء ، او جموع كثيرة .

شجاع بن وهب الأسدي

إن الله جل جلاله يتحدث إلينا في قرآنه عن يوم لقائه في عالم البقاء والخلد ، فيقول سبحانه :

« الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاّ المتقين ، يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التي اورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » .

(سورة الزخرف ٦٧ ـ ٧٣)

والأخلاء هم الأصدقاء . ومن هذا البيان الإلهي المعجز نفهم أن الأصدقاء الذين يجتمعون على الشر والضلال ، أو يرتبطون بروابط الرذائل والمآثم ، أو يلفهم زمام الشهوات والملذات ، لا تدوم لهم صداقة ، ولا يبقى لهم وفاء ، لأن الملذات مصيرها إلى انتهاء وفناء، ولذلك تنتهي صداقتهم أو تقلب إلى عداء.

وأما المؤمنون المتقون ، الذين يتصادقون على الحق والفضيلة والإيمان ، فإن صداقتهم تبقى في الدنيا والآخرة ، ويتلقاهم ربهم في اليوم الآخر بتكريمه ونعيمه ، فيقول لهم كما جاء في الحديث القدسي : « أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي ، يوم لا ظل إلاّ ظلي » .

ولعل هذا هو السر في قول إمام البشرية وسيد الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنح لله ، فقد استكمل الإيمان » .

ولقد شهد صدر الإسلام أعلاماً تكوكبوا حول رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لم يجمعهم غرض من أغراض الدنيا ، ولا مرض من أمراض النفوس ، ولا شهوة من شهوات الحياة ، وإنما جمعهم جامع الإيمان واليقين ، والحب في الله تبارك وتعالى ، فعزت وحدتهم ، وعلت كلمتهم ، وبقيت صداقاتهم ، حتى لاقوا ربهم كراماً عظاماً : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

* * *

وهذه لمحة عابرة من سيرة عاطرة لواحد من هؤلاء :

إنه الصحابي الجليل ، المجاهد الشهيد : أبو وهب شجاع بن وهب بن ربيعة الأسدي ، الذي كان من السابقين الأولين ، والذي أخلص المحبة لله ولرسوله ولسائر المؤمنين ، وقد احتمل الأذى في سبيل ربه ، حتى اضطر أن يهاجر إلى الحبشة ، وهاجر مع شقيقه وصديقه ورفيقه « عقبة بن وهب الأسدي » الذي كان يرد على اليهود مزاعمهم دون خوف ، فحينما قال هؤلاء المفترون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وأنكروا رسالة النبي ، صلوات الله وسلامه عليه ، قال لهم عقبة ومعه سعد بن معاذ وسعد بن عبادة :

يا معشر يهود ، اتقوا الله ، فوالله إنكم لتعلمون أن محمداً رسول الله .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الافتراء ، فقال في سورة المائدة : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟

بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير » . ويقول في سورة البقرة : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين دونوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » .

ثم شهد عقبة مع أخيه الغزوات والمشاهد ، ونال عقبة نعمة الشهادة يوم خيبر ،حيث قتله أحد هؤلاء اليهود اللئام [1] ، والشهادة نعمة يتعاقب عليها أبناء الإسلام تباعاً ، ويمضون إليها : مجاهداً وراء مجاهد، وشهيداً خلف شهيد.

ولقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين بطلنا شجاع بن وهب وأوس بن خولي ، وكأن هذه المؤاخاة النبوية الكريمة القائمة على الإيمان والحب في الله بين المهاجرين والأنصار ، كانت لوناً من ألوان الجمع العجيب بين الأشباه والنظائر ، وكأنها تحقيق لقول النبي : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ولذلك تشابهت مسيرة الأخ وأخيه في الإسلام .

فإذا كان شجاع بن وهب قد شهد غزوات بدر ، وأُحد ، والخندق ، وسائر المشاهد مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فقد زامله في ذلك أخوه في الله والإيمان « أوس بن خولي » الذي كان يقال له : « أحد الكملة » ، ولما توفي النبي عليه الصلاة والسلام وأراد الأنصار أن يحضروا غسله ودفنه ، قالوا للمهاجرين : « الله الله فإنا أخواله ، فليحضره بعضنا » .

أي نذكركم الله في حقنا لكي نشهد تجهيز الرسول ، فلنا نصيب في ذلك ، لأننا أخواله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) كتاب الثمرة البهية في الصحابة البدرية ، ص ٢٨ .

فقيل لهم : فاجتمعوا على رجل منكم (أي اتفقوا على ممثل لكم ينوب في ذلك عنكم) .

فاختاروا ممثلاً لهم هو « أوس بن خولي » رضوان الله عليه ، فحضر أوس غسل الرسول الكريم ، وكان أحد أربعة نزلوا قبره الشريف الطاهر .

* * *

وكان شجاع بن وهب رجلاً نحيفاً طويل القامة ، في ظهره شيء من الميل والتقوس ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يكون الفارس المقدام في سبيل الإسلام ، ولذلك كان من أمراء السرايا الأعلام ، تلك السرايا التي كانت معارض للبطولات الفدائية ، ومواقف للتضحية والبذل .

ولقد اختاره الرسول صلوات الله وسلامه عليه عدة مرات ، ليكون أميراً ، وقائداً لفرق فدائية مضحية مكونة من شباب الإسلام ، فهاجم بهم المشركين في وقائع كثيرة ، ومن بينها سرية قادها « شجاع » وكانت تضم أربعة وعشرين مجاهداً فدائياً ، وكان من بينهم الصحابي العلم « عبد الله بن عمر » ، وهاجمت هذه السرية قبيلة هوازن الضخمة المتجبرة حينئذ ، وقد جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد أن هوازن كانت تقيم في « السي » من أرض بني عامر ، ناحية « ركبة » ، وكانت هذه السرية في شهر ربيع الأول سنة ثمان من الهجرة ، و « السي » ـ بكسر السين وتشديد الياء ـ على خمس ليال من المدينة .

وكان الهجوم في وقت مبكر ، وفي سرية تامة ، وبحركة سريعة خاطفة ، حتى يعبر عن ذلك الإمام ابن كثير في كتابه « السيرة النبوية » فيقول : « وكان يسير الليل ، ويكمن النهار ، حتى صبحهم وهم غافلون » (١) .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ، ص ٤٥٣ .

واستطاع هؤلاء النفر القليل أن يهزموا هوازن ، وأن يؤدبوهم أوجع تأديب ، واستولوا منهم على غنائم كثيرة ، عادوا بها كلها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشكر لهم هذا الصنع البطولي الذي قدموه من أجل السلام .

وكذلك أرسل النبي عليه الصلاة والسلام شجاعاً البطل المقدام إلى الحارث ابن أبي شمر الغساني ، أحد الكبار المتسلطين في غوطة دمشق حينئذ ، وأمره النبي أن يعرض الإسلام على الحارث ، فأدى شجاع الرسالة باذلاً كل ما استطاع في سبيل غرضه .

وإذا كان الحارث لم يسلم على يد شجاع فإن ذلك لا يضيره ، فقد أدى واجبه ، ولكن الأمور بمواقيتها ، وفوق تدبيرنا لله تدبير ، وعلى المرء أن يسعى ، وليس عليه إدراك النجاح .

وحينما يئس شجاع من إسلام « الحارث » على يديه ، أراد أن يغرس نبتة من نبات الإسلام في بيئة الحارث وإقليمه ، رجاء أن تكبر النبتة غداً ، فتصير شجرة طيبة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، فيتجمع الناس تحت ظلها باسم الإسلام ، والاستجابة لدعوة الله تعالى الكبير .

وتمثلت هذه النبتة في إسلام حاجب الحارث ومساعده الذي كان إسلامه على يد شجاع بن وهب ، وكتب الحاجب واسمه « مرى » خطاباً كريماً إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يقرئه فيه التحية ، ويخبره بأنه قد أصبح على دينه ، وحينما بلغ الخطاب مسمع النبي قال عنه : صدق .

وكذلك يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث شجاع بن وهب إلى جبلة بن الايهم الغساني [1] .

* * *

(1) كتاب المحبر ، ص ٧٦ .

ودارت الأيام والأعوام ، ودار معها المسلمون الأوفياء الذين تحابوا في الله ، وتزاملوا في الإسلام ، وتصادقوا على الحق ، وتعاهدوا على الجهاد ، هنا وهناك مناضلين مقاتلين ، ليرفعوا لواء الدعوة الهادية المنقذة بين الناس ، وشجاع يتنقل من ميدان إلى ميدان ، مع رفقاء السلاح وزملاء الجهاد .

وأقبلت معركة « اليمامة » الطاحنة ، التي رأينا فيها مئات من أحباب الله تعالى ورسوله ، يتلاقون في ساحة المعركة ، ليتساقطوا شهيداً وراء شهيد ، وكأنهم أرادوا ألاّ تطول بين بعضهم وبعض مدة الفراق ، فتلاحقوا ليتلاقوا هناك أحبة أوفياء في نعيم رحمن الدنيا والآخرة ، وقيوم السموات والأرض : « إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

وكان شجاع بن وهب أحد هؤلاء الشهداء ، وقد قارب الستين من عمره .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

إن الله جل جلاله يقول :

« ويوم يعض الظالم على يديه يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، وكان الشيطان للإنسان خذولاً » . فلنحذر صداقة أهل الشيطان ، ولنستمسك بصداقة عباد الرحمن ، ولتجمعنا ساحة العمل الطيب المشترك الموحد ، من أجل عزتنا وكرامتنا وحريتنا ، حتى نعيش كرماء ، أو نموت شرفاء .

ولنتذكر على الدوام قول الله جل جلاله :

« الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاّ المتقين .

يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون » .

صدق الله العلي العظيم .

رافع بن عميرة الطائي

إذا أراد الله تعالى بإنسان خيراً أخذ بيده ، فأنقذه من ظلمات الحيرة والضلال والباطل ، وأقامه على صراط الحق والهداية والنور ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ولقد يستذل الشيطان إنساناً فيرديه في المهالك ، ويغرقه في طوفان الإثم ، ويطول الزمن بهذا الإنسان أو يعتدل أو يقصر ، ثم تتحرك في أعماقه نزعة الفطرة الإلهية ، وتضيء في صدره شعلة الهداية الربانية ، فإذا هو ترجف أعضاؤه من حديث ربه إليه معاتباً محاسباً : « يا أيها الإنسان ، ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك » .

وإذا هو يرتفع بنفسه من حضيض الإثم والمعصية إلى محراب الطاعة والفضيلة ، وإذا هو يعمر عقله وقلبه ، بزاد فهمه الواعي لقول ربه جل جلاله : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ولو عدنا إلى مشرق الإسلام لوجدنا أناساً أغواهم الشيطان حيناً أو أحياناً ، فأسرفوا على أنفسهم وعلى غيرهم ، وتنكروا لإنسانيتهم ، وغفلوا عن رسالتهم ، ثم تهيأت لكل منهم لحظة ادكار واعتبار ، فإذا هم يفيئون إلى الحق بعد أن رافقوا الباطل ، ويستضيئون بالنور بعد أن طال تخبطهم في

الظلام ، ويلتزمون طريق الجهاد والنضال ، والفداء ، في يقين وإخلاص ووفاء ، وإذا الواحد منهم يستقيم ويستقيم ، داعياً ربه في إخلاص « ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ،فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين ».

من هؤلاء الصحابي الجليل ، المجاهد العابد ، المقاتل المناضل ، أبو الحسن رافع بن عميرة [١] بن جابر بن حارثة الطائي السنبسي ،وقد روت بعض المصادر انه كان صحابياً ، وروى بعض آخر منها أنه كان من التابعين [٢] .

وكان يقال له في مجتمع الإسلام : « رافع الخير » لكثرة سعيه في الخير ، وتقديمه للبر ، بعد أن شرح الله تعالى صدره لكلمة الإيمان ، ولكن هذا المسلم الكثير الطاعات المبادر إلى الخيرات ، كان في جاهايته لصاً ، يسطو على الناس ، فينهب أموالهم ، ويغتصب أمتعتهم .

وكان يتخذ من الصحراء وشعابها وهضابها ميداناً لسرقاته وعدوانه على المسافرين والمنقطعين ، وكان يقضي الوقت الطويل في الصحراء انتظاراً لفريسته ، ولذلك كان يعمد إلى بيض النعام الضخم ، ويفرغه من داخله ببراعة ، ثم يملأ البيض بالماء ويحكم سده ، ويخبئه في أماكن خفية يميزها بعلامات مستورة ، فإذا ظمىء أو احتاج إلى الماء وهو في الصحراء ، عمد إلى هذا البيض المملوء بالماء فانتفع به .

---

(١) في الاصابة : « ويقال له رافع بن ابي رافع » ، ج ١ ، ص ٤٨٥ . وفيها ايضا انه اختلف في اسم ابيه ، فقيل : رافع بن عمرو بن جابر ابن حارثة . وقيل رافع بن عميرة . وفي الاستيعاب ان اسم ابيه مختلف فيه . قيل : رافع بن عمرو ، وقيل : رافع بن عمير . وقيل : رافع بن عميرة ، ج ١، ص ٤٨٥ على هامش الاصابة ، فالشخص واحد ، والاسماء واحدة .

(٢) قال ابن سعد انه لم ير النبي صلى الله عليه وسلم ، وعده بعضهم في التابعين (المرجع السابق) .

وذات يوم رأى رافع ذئباً في الفلاة يعوي بأصوات متوالية ، فكان عواء الذئب سبباً في أن يستغرق رافع في تفكير عميق ، غرب به وشرق ، حتى قيل — فيما يزعمون — أن الذئب كلم رافعاً ، ودعاه إلى الدخول في الإسلام ، ومتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونسبوا إليه فيما يزعمون شعراً قال فيه ضمن ما قال :

رعيت الضأن أحميها بكلبي	من الضب الخفي ، وكل ذيب
فلما أن سمعت الذئب نادى	يبشرني بأحمد من قريب
سعيت إليه قد شمرت ثوبي	على الساقين قاصدة الركيب
فـألفيت النبي يقول قولاً	صدوقاً ليس بالقول الكذوب
فبشرني بـدين الحق ، حتى	تبينت الشريعـة للمنيب
وأبصرت الضياء يضيء حولي	أمامي إن سعيت ومن جنوب[1]

والذي يهمنا هنا أن رافعاً دخل في دين الله تعالى ، وآمن برسوله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ يصوغ نفسه صياغة جديدة في مدرسة الإسلام ومصنع الإيمان ، فلقد كان بالأمس في الجاهلية لصاً يستبيح أموال الناس ، ويسطو على ممتلكاتهم ، فتاب عن ذلك الجرم الشنيع ، وابتعد عن طريقه .

ولم يكتف بذلك ، بل أخذ يعطي ويجود ، ويتطوع ويتبرع ، ويبسط مائدته للفقراء والضعفاء ، حتى روت السيرة أنه كان يغدي أهل ثلاثة مساجد ، ويسقيهم الحيس [2] ، وكان رافع في جاهليته يخبأ الماء في بيض النعام ، ويدفنه في الصحراء ليستعين به على ارتكاب جرائمه ، فلما أسلم شارك في المعارك

(١) الاستيعاب على هامش الاصابة ، ج ١ ، ص ٤٨٥ . في أبيات اكثر من هذه . وانظر الاصابة ، ج ١ ، ص ٤٨٥ .
(٢) الحيس هو الطعام المتخذ من التمر واللبن والسمن ، وقد يجعل الدقيق بدل اللبن .

والغزوات ، وحينما يحتاج المسلمون المجاهدون إلى ماء وهم في الصحراء ، يسارع ويدلهم على ما خبأ من ماء ، ليشربوا منه ويستقوا .

وكان رافع بالأمس يترف نفسه ، ويمتعها بالمال الحرام ، فأصبح في الإسلام يعلمها التواضع ويحملها على الحرمان ، فيكتفي بقميص واحد للبيت وللجمعة [1] وهو مع هذا يعطي العطاء الجزيل ، ويمنح المال الجليل ، وكأنه بهذا يكفر عما اقترفه في جاهليته .

واستمر رافع بن عميرة يناضـــل ويناضل ، واشترك في غزوة ذات السلاسل [2] ، التي كانت قبيل فتح مكة ، وكان من خبرها — كما يروي ابن كثير — أن النبي عليه الصلاة والسلام بعث عمرو بن العاص أميراً فيها ، فلما قرب عمرو من مكان الغزوة خاف من كثرة عدوه ، فبعث إلى النبي يستمده ، فأرسل إليه أبا بكر وعمر ، وجماعة من سراة المهاجرين ، وجعل أبا عبيدة أميراً عليهم .

فلما تلاقى عمرو وأبو عبيدة قال عمرو : أنا أميركم ، وأنا أرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أستمده بكم . فقال المهاجرون : بل أنت أمير أصحابك ، وأبو عبيدة أمير المهاجرين . فقال عمرو في إصرار : بل أنتم مدد أمددته ! . .

فلما رأى أبو عبيدة ذلك — وكان رجلاً حسن الخلق لين الشكمية — قال :

---

(١) الاصابة ، ج ١ ، ص ٤٨٦ .

(٢) بضم السين الاولى وكسر الثانية . وهي ماء بأرض جذام، وبه سميت الغزوة . ويذكر ياقوت أنها بلفظ جمع السلسلة . وقال ابن اسحاق : اسم الماء سلسل ، وبه سميت ذات السلاسل .

يا عمرو ، إن آخر ما عهد إلى ربه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ، وإنك إن عصيتني لأطيعنك .

وقد انتصر المسلمون في هذه الغزوة .

ولقد حدث رافع عن نفسه في هذه الغزوة ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً ، فأمر عليهم عمرو بن العاص ، وفيهم أبو بكر وعمر ، وأمرهم أن يستنفروا من مروا به ، فمروا علينا فاستنفرونا ، فنفرنا معهم في غزوة ذات السلاسل ، وهي التي يفخر بها أهل الشام ، فيقولون : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص على جيش فيه أبو بكر وعمر .

فقلت : والله لأختارن في هذه الغزاة لنفسي رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أستهديه ، فإني لست أستطيع إتيان المدينة ، فاخترت أبا بكر ولم آل . . . فلما قضينا غزاتنا قلت له : يا أبا بكر ، إني قد صحبتك ، وإن لي عليك حقاً ، فعلمني شيئاً أنتفع به .

فقال : قد كنت أريد ذلك لو لم تقل لي : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتحج البيت ، وتصوم شهر رمضان ، ولا تتأمر على رجلين (يعني لا تقبل الإمارة على غيرك) .

قلت : أما العبادات فقد عرفتها ، أرأيت نهيك لي عن الإمارة ؟ وهل يصيب الناس الخير والشر إلاّ بالإمارة ؟

فقال : إنك استجهدتني فجهدت لك ، إن الناس دخلوا في الإسلام طوعاً وكرهاً ، فأجارهم الله من الظلم ، فهم جيران الله ، وعواد الله ، وفي

ذمة الله ، فمن يظلم منكم إنما يحقر ربه ، والله ان أحدكم ليأخذ شويهة جاره أو بعيره ، فيظل عمله بأساً بجاره ، والله من وراء جاره .

فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى أتتنا وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألت : من استخلف بعده ؟

قيل : أبو بكر . . .

قلت : أصاحبي الذي كان ينهاني عن الإمارة ؟

فشددت على راحلتي فأتيت المدينة ، فجعلت أطلب خلوته ، حتى قدرت عليها ، فقلت : أتعرفني ؟ أنا فلان ابن فلان ، أتعرف وصية أوصيتني بها ؟

قال : نعم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ، والناس حديثو عهد بالجاهلية ، فخشيت أن يفتتنوا ، وإن أصحابي حملونيها .

فما زال يعتذر إلى حتى عذرته ، وصار من أمري بعد أن صرت عريفاً (أي رئيساً على غيري) .

هكذا تحدث رافع بن عميرة رضي الله عنه ، وهو حديث يدل على التواضع من جهة ، وعلى الحرص على طلب العلم والمعرفة والنصيحة من جهة ، وعلى قبول العذر من صاحبه من جهة أخرى .

ولقد استجاب رافع لنصيحة الصديق ، رضوان الله عليهما ، وبذل ما بذل في سبيل الله ، ثم شارك مجاهداً في معارك العراق وما حول العراق ، وحينما طلب أبو بكر من سيف الله خالد بن الوليد أن يعجل بالرحيل مع جانب من جيشه من العراق إلى الشام ، لنجدة جيش الإسلام والمسلمين هناك ،

اضطر خالد إلى قطع صحراء السماوة ، وهي من أخطر المناطق وأطولها ، وكان رافع بن عميرة دليلاً في هذه الرحلة ، واستطاع بخبرته بالصحراء ومهارته في الأسفار ، أن يسلك بالمجاهدين الطرق الآمنة أو الأقل خطراً ، واستطاع أن يقطع بهم ما بين الكوفة ودمشق في خمس ليال ، حتى قال ابن عبد البر : « يقال أن رافع بن عميرة قطع ما بين الكوفة ودمشق في خمس ليال لمعرفته بالمفاوز ، أو لما شاء الله »[1] .

واستمر رافع على نضاله وجهاده ، حتّى لحق بربه في آخر خلافة عمر بن الخطاب ، سنة ثلاث وعشرين للهجرة .

رضوان الله تعالى على الجميع .

---

(١) الاستيعاب على هامش الاصابة ، ج ١ ، ص ٤٨٦ .

سلمان بن ربيعة الباهلي

يوجد في تاريخ الوفاء والفداء جمع من المجاهدين المنسيين ، الذين صدقوا في إيمانهم ، واستقاموا في سلوكهم، وطابوا في أعمالهم ، وأخلصوا في نضالهم ، ورأوا أن الإخلاد إلى الأرض جمود ، وأن ضيق الحركة في الحياة تقصير ، فخرجوا من بيوتهم إلى أرض الله في الشرق والغرب ، وفي صدورهم نور اليقين ، وفي إيمانهم هدي السماء ، وعلى أكتافهم عدة الكفاح ، وانساحوا في جنبات الأرض ، عقيدتهم : لا إله إلاّ الله ، وشعارهم : عزت كلمة الله ، وصيحتهم : الله أكبر ، وغايتهم : ابتغاء وجه الله ، لا يريدون سواه ، ولا يتطلعون إلى غنيمة أو جاه ، ولا يسأمون ترديد قول ربهم : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

ولقد عاش هؤلاء في الحياة ما عاشوا ، وظلوا فوق ساحتها ما ظلوا ، لا تستقر جنوبهم على فراش ، ولا تتخلف أقدامهم عن استجابة لنداء : يدافعون هنا ويهاجمون هناك ، ويفتحون هنالك ، ثم ينتهي بهم المطاف إلى رحاب الله العلي الكريم، ليجزيهم أجر ما عملوا ، ويثيبهم على غربتهم في الحياة إقامة في نعيمه ، وخلوداً في جناته .

ولعل سيدنا ورائدنا وقائدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى ذلك في حديث له ، فقال : « طوبى للغرباء » .

قيل : ومن هم الغرباء يا رسول الله ؟ . .

قال : « الذين يصلحون إذا فسد الناس » ! . .

ولقد أشار الرسول أيضاً إلى هذا المنهج البطولي — كما روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما — حيث روى عنه أنه قال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » .

ولقد كان ابن عمر يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غداً ، وعد نفسك من أهل القبور » .

ومن كلام الإمام علي رضي الله عنه : « إن أخوف ما أخاف عليكم تباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة ، ألا وأن الدنيا ارتحلت مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحد منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » . وهذا قد روي موقوفاً ومرفوعاً .

* * *

وهذا أحد أبطالنا الغرباء الأوفياء المجهولين عند الكثيرين : انه الصحابي(١)

---

(١) ذكره العقيلي في الصحابة ، وقال أبو حاتم الرازي : له صحبة وأيد ذلك ابن عبد البر ، (الاستيعاب ، ج ٢ ، ص ٥٩) وكذلك ابن حجر ، (الاصابة ، ج ٢ ، ص ٥٩) . وجاء عنه في أسد الغابة : « أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وليس له صحبة » ثم قال : « ذكره البخاري في الصحابة ولا يصح » . ج ٢ ، ص ٤١٥ . وفي البداية والنهاية : « يقال له صحبة » ، ج ٧ ، ص ٢٢٠ .

المجاهد المغترب أبو عبد الله سلمان بن ربيعة بن يزيد بن عمرو بن سديم بن ثعلبة الباهلي ، وهو من القادة ، الرواة ، القضاة ، الغزاة ، الفرسان ، الشهداء ، الغرباء ، يقول عنه ابن كثير : « وكان من الشجعان الأبطال المذكورين ، والفرسان المشهورين »[1] .

وكان يقال عنه « سلمان أبصر بالمضارب من المجازر بمفاصل الجزور »[2].

وكان سلمان رجلاً عابداً صالحاً ، يغزو في سبيل الله سنة ، ويحج لربه سنة[3] وقد ولاه عمر قضاء الكوفة ، ثم تولى القضاء في المدائن ، فكان بذلك أول قاض قضى لعمر بن الخطاب ، وكان عادلاً في قضائه ، دقيقاً في حكمه ، ولذلك كان الناس يهابونه ، ويروى أنه كان يمكث أربعين يوماً لا يأتيه خصم[4] .

ولا عجب فقد كان مؤمناً فقيهاً ، مستقيماً من القرآن ، راوياً للحديث ، وكان ثقة ، فلا يروج عند مثله باطل ، وروى عنه كبار التابعين ، من أمثال أبي وائل وأبي ميسرة وأبي عثمان النهدي وسويد بن غفلة[5] .

ولقد خرج سلمان بن ربيعة من داره مغترباً في سبيل الله ، فشهد فتوح الشام مع أبي إمامة الباهلي ، وتولى غزو أرمينية ، وتولى إمارة جيش وجهه

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٢٢٠ .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ .
(٣) تهذيب الاسماء واللغات للنووي ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .
(٤) الاستيعاب ، ج ٢ ، ص ٥٩ . وأسد الغابة ، ج ٢ ، ص ٤١٥ . وعيون الاخبار ، ج ١ ، ص ٦١ . والبداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٢٢٠ .
(٥) الاصابة ، ج ٣ ، ص ٥٩ و ٦٠ .

عثمان بن عفان في اثني عشر ألف مقاتل إلى بلدة ، بأقصى أذربيجان تسمى « برذعة » ففتحها »[1] .

يقول ياقوت في معجمه نقلاً عن الاصطخري : « برذعة مدينة كبيرة جداً ، أكثر من فرسخ في فرسخ ، وهي نزهة خصبة كثيرة الزروع والثمار جداً ، وليس ما بين العراق وخراسان بعد الري وأصبهان مدينة أكبر ولا أخصب ولا أحسن موضعاً من مرافق برذعة » .

ويستدرك ياقوت على ذلك فيقول : « هذه صفة قديمة فأما الآن فليس من ذلك كله شيء » ويذكر أن سلمان بن ربيعة الباهلي هو الذي سار إليها ففتحها في عهد عثمان رضي الله عنه .

واشترك سلمان في معركة المدائن ، وأبلى فيها بلاء حسناً ، وهو الذي تولى قسمة الغنائم في المدائن[2] . وكان يقال له : « سلمان الخيل » ، لأنه كان يقسم الغنائم بين المجاهدين ، وكان يقسم للخيول نصيباً ، ويقصر بما دونها ، تشجيعاً على الفروسية ، وتقديراً لمجهود الخيل[3] ، والحديث يقول : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » . . .

وروي أنه كان يلي الخيل لعمر بن الخطاب ، فكان يقال له : « سلمان الخيل » . وكان عمر قد أعد في كل مصر من أمصار المسلمين خيلاً كثيرة للجهاد ، فكان من ذلك بالكوفة أربعة آلاف جواد ، فكان العدو إذا دهم الثغور ركبها المسلمون وساروا مجدين لقتاله ، فكان سلمان يتولى تلك الخيل بالكوفة .

---

(١) العبر ، ج ١ ، ص ٢٨ .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٢٠ و ٢٩ .
(٣) الاصابة ، ج ٢ ، ص ٥٩ . وتاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

وروى ابن قتيبة في « عيون الأخبار » أن عمر بن الخطاب شك في العتاق من الخيل والهجن ، فدعا سلمان بن ربيعة الباهلي فأخبره ، فأمر سلمان بطست فيه ماء فوضع في الأرض ، ثم قدمت الخيل إليه فرساً فرساً ، فما ثنى منها سنبكه فشرب هجنه ، وما شرب ولم يثن سنبكه عربه ، وذلك لأن في أعناق الخيل الهجن قصراً فهي لا تنال الماء إلاّ على تلك الحال ، أي ثني سنابكها ، وأعناق الخيل العتاق طوال .

وروى ابن أبي الحديد في شرح النهج أن سلمان عرض جنده بأرمينية ، فكان لا يقبل من الخيل عتيقاً ، فمر عمرو بن معديكرب بفرس غليظ ، فرده سلمان وقال : هذا هجين . قال عمرو : إنه ليس بهجين ، ولكنه غليظ . فقال سلمان : بل هو هجين ، فبدرت من لسان عمرو كلمة نابية لا تليق ، حيث قال لسلمان معرضاً : إن الهجين ليعرف الهجين .

فصبر عليه سلمان ، إذ كان حليماً ، ولكنه كتب إلى عمر الخليفة بعبارة معديكرب ، فغضب الفاروق لكرامة سلمان ، فكتب إلى عمرو بن معديكرب مهدداً يقول له : أما بعد يا بن معديكرب ، فإنك القائل لأميرك ما قلت ، فإنه بلغني أن عندك سيفاً تسميه الصمصامة ، وأن عندي سيفاً أسميه مصمماً ، وأقسم بالله لئن وضعته بين أذنيك لا يقلع حتّى يبلغ قحفك [١] .

وكما كان سلمان حليماً كان حريصاً على مال الله تعالى لا يقبل استغلاله ، ولذلك حدث ابن أبي وائل فقال : غزونا مع سلمان بن ربيعة بلنجرد ، فخرج علينا) أي حرم علينا) أن نحمل على دواب الغنيمة ، ورخص لنا في الغربال والحبل والمنخل [٢] .

---

(١) شرح نهج البلاغة ، ج ٣ ، ص ٨٢٩ ، طبعة بيروت .
(٢) الاستيعاب ، ج ٢ ، ص ٦٠ .

ولقد غزا سلمان أذربيجان ، وقتل من أعداء الله كثيرين ، حتى قال — وهو يشير إلى سيفه البتار — : قتلت بسيفي هذا مائة مستلئم كلهم يعبدون غير الله ، ما قتلت منهم أحداً صبراً (أي حبساً [١]). ولا غرابـــة في ذلك ، فسلمان هو الذي شهدناه فارس المجاهدين يوم « القادسية ».وكان أحد اثنين ، مالا بعد هزيمة الأعداء في القادسية على من ثبت من الأعداء .

والثاني هو ذو النور عبد الرحمن بن ربيعة ، وكذلك مال سلمان على آخرين من الأعداء قد تكتبوا ونصبوا للمسلمين ، فطحنهم بخيله . وقد أبصر سلمان أناساً من الأعداء الأعاجم تحت راية قد حفروا لها ووقفوا تحتها وقالوا : لا نبرح حتى نموت ، فحمل عليهم سلمان فقتل من كانوا تحتها وسلبهم [٢] .

* * *

وظل سلمان بن ربيعة الباهلي مجاهداً مغترباً في سبيل الله عز وجل ، وابتغاء لوجه الله سبحانه ، يتنقل من بلد إلى بلد ، ومن دار إلى دار ، ومن إقليم إلى إقليم ، لا يكل ولا يمل ، حتى جاءت الغزوة الفاصلة ، وهي غزوة « بلنجر » ، وهي البلدة البعيدة النائية عن موطن سلمان ، فهي في أقاصي ولاية « أران » القريبة من أذربيجان والخزر .

ويذكر عنها ياقوت في معجمه أنها مدينة ببلاد الخزر ، وأن الذي فتحها هو سلمان — وقيل أخوه عبد الرحمن — ثم تجاوزها ، ولقيه « خاقان » في جيشه خلف بلنجر فاستشهد هو وأصحابه ، وكانوا أربعة آلاف ، وكان في أول الأمر قد خافهم الترك وقالوا : إن هؤلاء ملائكة لا يعمل فيهم السلاح ، فاتفق أن أحد الأتراك اختفى في غيضة ، ورشق مسلماً من وراء ستار بسهم

---

(١) المقتول صبرا هو كل من قتل في غير معركة ولا حرب ولا خطأ (النهاية).
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٥٦٩ .

فقتله ، فنادى التركي في قومه : أن هؤلاء يموتون كما نموت ، فلم تخافوهم ؟ واجترأوا عليهم فاستشهد سلمان وأخوه (1) .

كانت « بلنجر » بعيدة عن وطن سلمان بن ربيعة ، ولكنه لا يهتم لغربة ما دام الله معه ، وما دام هو مع الله ، يسعى في طاعته ورفع كلمته ونشر دعوته ، ومقاومة أعدائه وأعداء عباده وبلاده .

وكانت هذه المعركة سنة ثمان وعشرين للهجرة ، في أقصى بلاد العجم ، وصال سلمان وجال في الميدان البطولي الرائع ، وتقدم المجاهدون من حوله نحو النصر حثيثاً ، وحصلوا على جانب من الغنائم قبل أن تنتهي المعركة ، وأحس القائد المخلص سلمان أن بعض من معه فرحوا بالغنائم وتطلعوا إليها ، فأنكر عليهم ذلك ، وقال لهم :

أفرحتم بما فتح الله عليكم ، وبما أصبتم من الغنائم ؟

قالوا : نعم .

فقال لهم ناصحاً وموجهاً ومودعاً : « إذا أدركتم شباب آل محمد صلى الله عليه وسلم ، فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم ، منكم مما أصبتم من الغنائم ، أما أنا فإنني أستودعكم الله » !

وقفز على ظهر حصانه ، فكان فوقه في أقل من لمح البصر ، واندفع إلى حومة القتال ، ومن ورائه الأوفياء من رفاقه وزملائه ، وظل يصول ويجول ، لا يبالي مما يناله من طعنات أو ضربات أو جراح ، حتى أقبلت تباشير الفوز

---

(1) معجم البلدان ، ج 1 ، ص 490 .

النصر مرة أخرى ، ولكن أقبلت معها نهاية سلمان الحميدة المجيدة ، إذ ما زال يقاتل في طليعة القوم حتى نال نعمة الشهادة [1] .

ورقد المجاهد المغترب الشهيد هناك بعيداً عن موطنه ، وجاء الترك بعد ذلك فاتخذوا على قبره تابوتاً يستسقون به إذا أصابهم القحط والظمأ [2] . وهو لا يعنيه هذا في قليل أو كثير ، وإنما يعنيه أن ترتفع كلمة الله دائماً وأبداً ، لأنه القائل سبحانه : « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » [3] .

وأغلب الظن – والغيب يعلمه الله – أن مثل هذا الشهيد الغريب يدخل النطاق الطهور لمفهوم قول الله سبحانه : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد » .

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٩٦ .
(٢) البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٢٢٠ .
(٣) كان استشهاد سلمان سنة ٢٨ أو ٢٩ أو ٣٠ أو ٣١ (الاستيعاب ، ج ٢ ، ص ٦٠) .

ذكرى وعبرة

حينما نسترجع ذكرى من ذكريات أمتنا الخالدة الماجدة بفضل ربها ونعمة دينها ، ينبغي أن يكون لنا من وراء ذلك الاسترجاع عظة وعبرة ، فنفقه دروس الماضي لنستفيد منها في الحاضر ، ونلحظ وجوه الموافقة أو المخالفة بيننا وبين آبائنا وأجدادنا ، لنقوي جانب الموافقة الطيبة المثمرة ، ونقاوم جوانب المخالفة السيئة المردية .

وبذلك نسير على النهج القويم العظيم الذي سلكه الأخيار الأبرار من أسلافنا ، فعاشوا في عزة الإسلام ونور الإيمان ، ومضوا إلى ربهم كراماً عظاماً ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا ، إنك على كل شيء قدير .

وفي منتصف شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ ، وفي اليوم الخامس من شهر يولية سنة ١١٨٧ م ، بدأت طلائع معركة « حطين » في أرض فلسطين — ردها الله على العرب والمسلمين — وحطين — بكسر الحاء وكسر الطاء مشددة وياء ساكنة — موضع في فلسطين بين طبرية وعكا ، بينه وبين طبرية نحو فرسخين ، وبالقرب منها قرية يقال لها : « خيارة » بها قبر شعيب عليه السلام . يقول ياقوت في معجم البلدان : « وهذا صحيح لا شك فيه »[1] .

---

(١) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

وهناك « حطين » أخرى ، هي قرية بين أرسوف وقيسارية ، كذا قال الحافظان أبو القاسم الدمشقي ، وأبو سعد المروزي ، وإليها ينسب الزاهد الشهيد محمد بن عبيد بن حسين الحطيني الذي استشهد سنة ٤٧٢ هـ .

ولكن ياقوت خطاهما في ذلك التحديد .

وهناك « حطين » ثالثة في أرض مصر ، وهو موضع بين الفرما وتنيس ، وهو موضع يصطاد منه السمك الحطيني [١] .

وكان بطل المعركة وقائدها هو المجاهد الإسلامي الكبير ، السلطان الملك الناصر ، أبو المظفر صلاح الدين : يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان ، من الأكراد ، وقد ولد سنة ٥٣٢ هـ بتكريت ، أو دوين ، وتولى حكم مصر سنة ٥٦٤ هـ فأصلح شئونها ووحد كلمتها ، وكان شجاعاً شهماً ، مجاهداً في سبيل الله ، حسن العقيدة ، كثير الذكر لله ، حريصاً على أداء العبادة ، محباً لسماع القرآن .

ولقد كان صلاح الدين يستمد حوافز الإقدام والفداء من عقيدته وإيمانه أكثر من أي شيء آخر ، ولقد تولى صلاح الدين حكم مصر في ظروف سيئة عصيبة ، فالبلاد العربية محتلة بالإفرنج من عصابات الحروب الصليبية الاستعمارية ، والعرب والمسلمون في شقاق ونزاع ، مع أن أساس دينهم هو التوحيد والوحدة ، وأعداء الإسلام والعروبة يدوسون على كرامة الأمة وحريتها بالنعال .

فماذا أنت صانع يا صلاح الدين أمام هذا الوضع المؤسف الحزين ؟ . .

---

(١) المرجع السابق .

بدأ صلاح الدين بتوحيد مصر أولاً ، حيث جمع كلمتها ، ووحد زعامتها ، ثم اتجه إلى توحيد العالم العربي ثانياً ، وبخاصة توحيد البلاد المحيطة بفلسطين المحتلة حينذاك ، ثم وحد القيادة والجبهة ثالثاً ، ثم أحيا مبادىء الجهاد وروح الاستشهاد في أبناء الأمة رابعاً ، ثم أقدم على بركة الله ، مخلصاً النية لمولاه ، مطمئناً إلى أنه ما دام قد تحقق توحيد الكلمة على أساس من كلمة التوحيد ، فإن النصر آت من مصدر القوى والقدر : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ، « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ».

وتطلعت عين صلاح الدين إلى تحرير فلسطين ، وبخاصة مدينة القدس ، بلد المسجد الأقصى ، وانتظر الفرصة المؤاتية ، ليضرب ضربته القاصمة ، وكانت هناك هدنة عقدها صلاح الدين مع الإفرنج ، كي يلتقط جنوده أنفاسهم ، وكي يرتب صفوفهم ، ويعبىء نفوسهم .

ولكن القائد الإفرنجي الغشوم « أرناط »[1] الذي كان أميراً لقلعة « الكرك »[2] نقض الهدنة في صورة قذرة وقحة ، حيث اعتدى على قافلة من الحجاج المسلمين الذاهبين في هدوء وخشوع إلى بيت الله الحرام ، فقتل المجرم الأثيم منهم من قتل ، ونهب ما نهب ، بلا شفقة ولا ارعواء .

وكانت بين القافلة أخت للبطل صلاح الدين ، وحينما طلب هؤلاء الحجاج من أرناط أن يرعى حق الهدنة وحرمة الحج ، هزىء بهم ساخراً ، وتطاول

---

(١) يسمى عند الافرنج : رينولد دي شاتيون . وبعضهم يذكره باسم : ريجولند .

(٢) الكرك ــ بفتح الكاف والراء ــ اسم قلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء ، في جبالها ، بين ايلة وبحر القلزم وبيت المقدس ، وهي على سن عال تحيط بها أودية الا من جهة الربض ، والكرك أيضا قرية كبيرة قرب بعلبك (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٥٣) .

على مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسب والشتم ، وقال لهم فيما قال ، وهو يعمل فيهم القتل والتذبيح ، قولوا لمحمدكم يأتي ليخلصكم ! . .

وبلغ النبأ مسمع صلاح الدين ، فغاظه ذلك الإجرام الدنيء ، وأقسم إن أظفره بأعدائه الله ليقتلن « أرناط » بيده ، جزاء توقحه على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وأعد صلاح الدين للمعركة عدتها ، ولكن أحد المتنبئين الدجالين أراد أن يفسد في الأرض ، ويوهن العزم ، فقال : إن فتحت القدس فستذهب عين لصلاح الدين ، ولم يبال البطل بذلك ، بل قال : « رضيت أن أسترد القدس ، وأصاب بالعمى » ! . .

وجمع صلاح الدين الناس في صلاة الجمعة ، وتوجهوا إلى الله بالدعاء الخالص أن يؤيدهم وأن ينصرهم ، ثم بدأ يحرك الجيش في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣ متجهاً إلى بلدة « طبرية »[١] ، فبلغها في اليوم الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر المذكور .

وبدأت المعركة فعلاً يوم الجمعة الثالث والعشرين من ذلك الشهر ، وشعار المسلمين هو صيحة التكبير .

وأخذت المعركة تشتد ، وكان الوقت حاراً في عز الصيف ، وأمر صلاح الدين بإشعال النيران في الأحراش والحشائش المحيطة بالأعداء ، لتزيد عليهم الجو حرارة ولهباً ، فيسلموا ، والحرب مكيدة .

---

(١) المطلة على البحيرة المعروفة باسم طبرية ، وهي في طرف جبل ، وجبل الطور مطل عليها (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٧) .

وعند قرية حطين دارت الجولة الفاصلة، حيث انتصر المسلمون انتصاراً رائعاً باهراً ، كان خيراً وبركة على كل عربي وكل مسلم .

واشتركت المرأة المسلمة في المعركة ، فكان هناك عدد من المجاهدات ، شاركن في القتال وفي خدمة المقاتلين وكانت شقيقة صلاح الدين – واسمها ست الشام بنت أيوب – تصنع الأدوية والأشربة والعقاقير ، وتوزعها على الجرحى من المجاهدين ، وتعنى بأمرهم ، وهكذا كان الجهاد صبغة المجتمع الإسلامي ، فشمل الرجال والنساء ، والكبار والصغار .

وسقط من الأعداء المجرمين عشرة آلاف قتيل ، وكان عدد الأسرى ضخماً ، وكان من بين الأسرى الملك « جفري » ملك الإفرنج على بيت المقدس (١) .

وكان كذلك المجرم الأثيم « أرناط » من أسرى المعركة .

وعامل البطل صلاح الدين أسراه بنبل وشهامة ورحمة ، ولكنه استثنى منهم ذلك القذر الوضيع ، « أرناط » ، ونفذ فيه وعيده الذي أقسم عليه ، فقتله بيده ، ذاكراً أنه إنما يقتله دفاعاً عن حرمة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقصاصاً عادلاً لما فعله أرناط مع الحجاج المسلمين الآمنين .

ومضى صلاح الدين البطل الفاتح ، فاسترد عكا ، ونابلس ، والرملة ، وقيسارية ، ويافا ، وبيروت ، وغيرها .

ولقد كان لمعركة حطين شأن وأي شأن ، وعرف المؤرخون مكانتها فنوهوا بها أي تنويه ، وها هو ذا ياقوت مثلاً يقول في معجم البلدان :

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢ .

« أوقع صلاح الدين بالإفرنج في منتصف ربيع الآخر سنة ٥٧٣ هـ وقعة عظيمة منكرة ، ظفر فيها بملوك الإفرنج ظفراً كان سبباً لافتتاحه بلاد الساحل ، وقتل فرعونهم أرناط صاحب الكرك والشوبك ، وذلك في موضع يقال له : حطين ، بين طبرية وعكا [(١)] .

ويقول ابن تغري بردي في كتابه « النجوم الزاهرة » ، « ثم كانت وقعة حطين المباركة على المسلمين » [(٢)] .

ويقول مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي في كتابه « العبر » :

« سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، فيها افتتح صلاح الدين بالشام فتحاً مبيناً ، ورزق نصراً متيناً ، وهزم الفرنج وأسر ملوكهم ، وكانوا أربعين ألفاً ، ونازل القدس وأخذه ، ثم عكا فأخذها ، ثم جال وافتتح عدة حصون ، ودخل على المسلمين سرور لا يعلمه إلاّ الله » [(٣)] .

* * *

وبعد شهرين من معركة حطين استطاع الناصر صلاح الدين أن يسترد مدينة القدس من أيدي محتليها ، بعد أن ظلوا فيها ما يقرب من مائة عام ، ودخلها ظافراً ذاكراً نعمة الله عليه قبل كل شيء ، وكان دخوله في ليلة الإسراء والمعراج سنة ٥٨٣ هـ — ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م .

وكانت أول جمعة عقب الفتح في اليوم الرابع من شعبان ، وقد كانت هناك صلاة جمعة مشهودة مجموع لها الناس في المسجد الأقصى ، وقد شهدها

---

(١) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .
(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٥٦٧ .
(٣) العبر في أخبار من غبر ، ج ٤ ، ص ٢٤٨ .

صلاح الدين البطل الفاتح ، وقد خطب الجمعة في ذلك اليوم الخالد القاضي محي الدين محمد بن زكي الدين علي القرشي ، وقد حطب خطبة وعتها كتب التاريخ ، وصارت لدينا اليوم نسياً منسياً ، ومن الواجب أن ندرسها لطلابنا وشبابنا وجنودنا .

ومما قاله في هذه الخطبة :

« الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذي قدر الأيام دولاً بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع » . . .

ويقول فيها أيضاً :

« فاحذروا عباد الله — بعد أن شرفكم الله بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل ، وخصكم بنصره المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين — أن تقترفوا كبيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه ،فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، وكالذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

والجهاد الجهاد ، فهو أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم ، انصروا الله ينصركم ، احفظوا الله يحفظكم ، اذكروا الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، خذوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وطهروا بقية الأرض من هذه الأنجاس التي أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع

الكفر واجتثوا أصواه ، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية والملة المحمدية : الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، أذل الله من كفر »[1] .

لقد كان استرداد المسجد الأقصى يوماً لا ينسى ، وعملاً مذكوراً لا يطوي ، هيأه فضل الله أولاً ، ثم إخلاص المجاهدين بعد ذلك ، ثم بطولة ذلك القائد الإسلامي الكبير صلاح الدين الأيوبي الذي لم يعش بعد هذا الفتح العظيم غير سنوات معدودة ، فقد توفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وكان يوم وفاته يوماً ارتج له عالم الإسلام .

وها هو ذا صاحب « النجوم الزاهرة » جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي الأتابكي يقول عن صلاح الدين :

« ثم أنه توفي إلى رحمة الله تعالى ، بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وكان يوم موته يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين ، رضي الله عنهم ، وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة لا يعلمها إلاّ الله تعالى .

وبالله لقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وكنت أتوهم أن هذا على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالأنفس »[2] .

* * *

أما بعد ، فإن الله الدائم ما زال ولا يزال موجوداً فوق كل موجود ،

---

(۱) أنظر نص الخطبة مع التعليق عليه في كتابي « **من أجل فلسطين** » ، مطبعة الفتح بالقاهرة ، سنة ١٣٧٣هـ ــ ١٩٥٤م.
(۲) كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ، ص ٥١ .

وإن روح الإسلام ما زالت سارية في كل مقام محمود ، وليس بمستحيل أن يعيد التاريخ نفسه . فتكون هناك معركـــة أخرى لحطين تسترد من ورائها فلسطين ، ولكنا نحتاج إلى الاعتصام بكلمة التوحيد ، وأن نحقق توحيد الكلمة ، وأن نستمسك بحبل الله القوي المتين ، والله مع المؤمنين العاملين .

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته أخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .
صدق الله العظيم .

عقبة بن نافع الفهري

إنه البطل الإسلامي العظيم ، عقبة بن نافع الفهري القرشي ، فاتح أفريقية ، وباني مدينة القيروان ، وصاحب جامع عقبة المشهور ، وهو الولي المؤمن صاحب الدعوات المجابة ، وصاحب الغزوات والآثار الحميدة في صدر الإسلام .

ولقد ولد عقبة — رضي الله عنه — في حياة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، في السنة الأولى قبل الهجرة ، ولم يقدر الله له لقاء النبي ، وإن كان فريق من المؤرخين يعدونه من الصحابة ، حيث جاء في كتاب « رياض النفوس » للمالكي عن عقبة : « ذكر أبو سعيد وغيره أنه معدود من جملة الصحابة الذين دخلوا أفريقية »[1] .

وشهد عقبة فتح مصر : كنانة الله في أرضه ، وتولى قيادة الجيش الإسلامي الذي فتح الكثير من تخوم الشام ، وكان ذلك بتفويض من القائد الفاتح عمرو ابن العاص ، ثم تولى قيادة الجيش الذي اتجه إلى تحرير شمال أفريقية ، فظل في تقدمه حتى وصل وادي القيروان من أرض تونس ، فأعجبه المكان ، فبنى فيه مسجداً ظل يعرف حتى الآن باسم « جامع عقبة » ، وأمر من معه فبنوا مساكنهم من حوله ، جرياً على العادة المألوفة في تاريخ الإسلام ، وهي

---

(١) رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٦٢ .

أن يقوم المجتمع الإسلامي على أساس المسجد ، فيكون المسجد هو واسطة العقد بين الأبنية ، وهو نقطة الارتكاز في بناء المجتمع ، حتى يظل مجتمعاً ربانياً معقود الصلة ببيت الله عز وجل في الأرض ، وهو المسجد .

وأقام عقبة مدينة « القيروان » التي كانت مقر الحكام العرب ، وكانت عاصمة الفاطميين الأولى ، ويذكر الطبري أن عقبة هو أول من اختط « القيروان » ، وأقطعها للناس مساكن ودوراً ، وبنى مسجدها ، ثم يروي ما قيل عنه : « وهو خير وال وخير أمير »[1] .

وكان معه خمسة وعشرون صحابياً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجمع كبير من التابعين .

وحين فتح عقبة القيروان قال لأصحابه :

« أرى لكم معشر العرب أن تتخذوا بها مدينة تجعلوها عسكراً ، وتكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر »[2] .

ودعا للمدينة بعد بنائها دعاء إسلامياً جليلاً له رموزه وإشاراته ودلالاته فقال :

« اللهم املأها علماً وفقهاً ، وأعزها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزاً لدينك ، وذلاً على من كفر ، وأعز بها الإسلام ، وامنعها من جبابرة الأرض »[3] .

* * *

(١) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ .
(٢) رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٦ .
(٣) المرجع السابق .

ولقد كان عقبة رضي الله عنه من أولياء الله الصالحين قريب الصلة بالله رب العالمين ، ولذلك كان مجاب الدعوة عند الله تبارك وتعالى ، ويروي التاريخ في مصادره الوثيقة أنه حينما شرع عقبة في بناء القيروان وجدوا في ساحتها سباعاً وحيات ، وغير ذلك من الهوام ، فجمع من كان في عسكره من الصحابة وأخلص الدعاء لربه ، ونادى قائلاً :

« أيتها الحشرات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فارحلوا عنا ، فأنا نازلون ، فمن وجدناه بعد ذلك قتلناه » !

وحدث العجب ، لقد أخذت هذه السباع والحيوانات في الرحيل بقدرة الله العلي الكبير . يقول التاريخ : « فكان السبع يحمل أشباله ، والذئب يحمل اجراءه ، والحية تحمل أولادها ، وهم خارجون أسراباً أسراباً ، حتى حمل ذلك المشهد كثيراً من البربر على الدخول في الإسلام »(1) .

ويروي التاريخ كذلك أن عقبة كان في الجهاد مع طائفة من المجاهدين ، فأوغلوا في الصحراء ، وانقطع عنهم الماء ، حتى عطشوا عطشاً شديداً أشرفوا منه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين مخلصتين لربه ، ثم دعاه تبارك وتعالى أن يسقيهم ، فجعل فرسه يحفر برجليه في الأرض ، وإذا ماء ينبجس ، وجعل الحصان يمص الماء فأمر عقبة بحفر المكان ، فتفجر الماء غزيراً ، وشرب القوم منه وسقوا ، وحفظ التاريخ ذكرى هذا المكان ، فصار يسمي : « ماء الفرس ».

ويذكر التاريخ أن الروم والبربر تحالفا تحالف الشيطان ضد عقبة وجيشه ، فقام عقبة في الناس خطيباً ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

---

(1) انظر في ذلك رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٧ . والبداية والنهاية ، ج ٨ ص ٢١٧ . وتاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ . ومعجم البلدان (مادة القيروان) . ويروى انه قال لهذه السباع : « أنا نازلونا ، فاظعنوا عزينا، فخرجن من الجحور هوارب » . وعزين : أي جماعات.

« يا أيها الناس ، إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم ، وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان ، على من كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم ، والسابقون منكم إلى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة .

وأنتم اليوم في دار غربة ، وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلاّ طلباً لرضاه ، وإعزازاً لدينه ، فأبشروا ، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل ، إن شاء الله تعالى ، وربكم — عز وجل — لا يسلمكم ، فألقوهم بقلوب صادقة فإن الله — عز وجل — جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه ، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين »

وأقدم عقبة وقومه وقاتلوا فانتصروا ، وفازوا فوزاً عظيماً [1] .

وحينما شرع عقبة يجاهد في سبيل ربه جمع أولاده وقال لهم :

« إني بعت نفسي من الله ، وما أدري ما يأتي علي في سفري .

« يا بني ، أوصيكم بثلاث خصال ، فاحفظوها ولا تضيعوها ، إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن ، فإن القرآن دليل على الله عز وجل ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ، ويدلكم على مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه .

وأوصيكم أن لا تداينوا ولو لبستم العباء ، فإن الدين ذل بالنهار وهم بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم ، وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم .

---

(١) رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٢٣ .

ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين ، فيجهلوكم دين الله ، ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى ، ولا تأخذوا دينكم إلاّ من أهل الورع والاحتياط ، فهو أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا » .

ثم قال : « عليكم سلام الله ، وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا » .

ثم دعا فقال : « اللهم تقبل نفسي في رضاك ، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك »[1] .

وكان عقبة رضي الله عنه يتخذ هذا الدعاء شعاراً له في مراحل نضاله وقتاله ، ولكنه لم يكن يقتصر على ترديد الدعاء ، بـل هو يحسن الاعداد والاستعداد ، وكان يتقن اتخاذ الوسائل والأسباب ، وكان يفهم جيداً معنى قول الله تعالى : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » .

وغزوات عقبة بن نافع تدل على بطولته وشجاعته ، ففي سنة تسع وأربعين قام بغزوة رائعة في البحر[2] ، وفي سنة ثلاث وستين وصل منطقة « الزاب »[3] ودارت معارك بينه وبين الفرنجة أبلى فيها بلاء حسناً . ووصل في فتوحه وانتصاراته إلى شاطىء المحيط الاطلنطي ، وعلى شاطىء المحيط امتطى عقبة صهوة جواده ، واقحمه في الماء ، ثم نادى بأعلى صوته قائلاً : السلام عليكم ورحمة الله .

فقال له بعض أصحابه : على من تسلم يا ولي الله ؟

---

(١) رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٢٢ .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ .
(٣) الزاب : كورة عظيمة ، ونهر جرار بأرض المغرب ، على البر الاعظـم ، عليه بلاد واسعة وقرى متواطئة (معجم البلدان) .

فقال : على قوم يونس وهم من وراء هذا البحر ، ولولاه لوقفت بكم عليهم .

ثم رفع يديه نحو السماء وقال : اللهم أشهد أني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك ، حتى لا يعبد أحد دونك (١) .

ولقد كان مع عقبة قائد آخر اسمه « أبو المهاجر » وأراد عقبة أن يستخلف أبا المهاجر على شئون الناس خلفه ، فرفض قائلاً : « يا عقبة ، هل أترك الشهادة لك وحدك إذا كانت ؟ أنا أيضاً أريد الشهادة » .

وأصر على الخروج ، وتم الفتح والنصر ، ولكن ارادة الله تعالى شاءت أن يكون للنصر ثمن .

فحينما كان عقبة بن نافع في طريق العودة من هذا النصر ، وقد تقدمته جنوده ، وانفرد في قلة من رفاقه ، أطبق عليهم الفرنجة بعدد ضخم ، ودارت معركة غير متكافئة ، نال فيها عقبة نعمة الشهادة ، سنة ثلاث وستين (٢) ، ونال الشهادة معه رفيق كفاحه وسلاحه أبو المهاجر دينار ، وهكذا يرينا الخالق جل جلاله أن غاية المؤمن إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وم عند الله خير للأبرار .

ودفن عقبة في أرض « الزاب » رضوان الله تعالى عليه .

---

(١) رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٢٥ .
(٢) البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٢١٧ .

عكرمة بن أبي جهل

ما أجمل العودة إلى الحق ، ولو بعد طول الإعراض عنه .

وما أحسن الاهتداء إلى الصواب ، ولو بعد امتداد الحبال من الإنسان في الضلال والخسران .

وإن رحمة الله التي وسعت كل شيء لا تضيق منافذها الرحيبة عن قبول أي راجع مخلص عائد من حمأة الكفران إلى صراط الإيمان ، ومن ظلمات الرذيلة إلى نور الفضيلة .

والله جل جلاله يحث عباده الشاردين عن رحاب طاعته ورضاه ، لكي يسارعوا بالرجوع إلى مواطن محبته وهداه : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، انه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » .

وكم من أناس أسرفوا في الباطل ،وتوسعوا في الإثم،ثم أدركتهم عناية الله سبحانه ، فإذا هم يقلعون عن غيهم ، ويفرون من سيئات ماضيهم ، ويقبلون على رحاب ربهم ، يغسلون بدموع الندم والتوبة أقذار آثامهم وأوساخ ذنوبهم ، ويهدمون بأيدي العزيمة والشدة آثار بغيهم وطغيانهم ، ويشيدون بجدهم واجتهادهم صروح طاعاتهم وقرباتهم ، وإذا هم من

الصالحين السعداء ، بعد أن كانوا من الأشقياء التعساء ، وإذا هم من المجاهدين الشهداء ، أهل التضحية والبذل والفداء ، بعد أن كانوا يناصبون الإسلام والحق أشد العداء ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ما داموا على صراط يقينهم ثابتين وبعزة ربهم مستنصرين ،

وإذا العناية لاحظتك عيونها   نم ، فالمخاوف كلهن أمان !

* * *

وهذا نموذج رائع من هؤلاء :

إنه الصحابي الجليل أبو عثمان عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي .

وحسبنا هنا أن نتذكر أنه ابن عدو الله أبي جهل ، الذي كان يسمى أبا الحكم ، فسماه الرسول صلى الله عليه وسلم : أبا جهل ، لما كان فيه من جاهلية وضلال وكفران .

وكان أبو جهل من أشد الناس عداوة للرسول ، وهو الذي ألب عليه القبائل ، وتعمد إيذاءه بكل ما استطاع ، واقترح فكرة اغتياله ليلة الهجرة ، باختيار شاب جلد من كل قبيلة ، ليقتلوا الرسول معاً ، فيتفرق دمه في القبائل ، وهو الذي بالغ في إغراء المشركين بالخروج إلى غزوة بدر لقتال المسلمين .

ولقد لقي أبو جهل مصرعه الوبيل في تلك الغزوة ، فمضى إلى جهنم كافراً مشركاً ، وحينما علم الرسول بمصرعه قال : قتل فرعون هذه الأمة !..

وكان عكرمة في أول أمره كافراً كأبيه ، وكان شديد العداوة أيضاً للإسلام والمسلمين ، وهو الذي قاد الميسرة من فرسان المشركين يوم بدر ،

وكان ممن استطاعوا أن يتخطوا الخندق بخيولهم يوم غزوة الأحزاب ، وأسرف إسرافاً شديداً في عداوته لخير الخلق وسيد الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام .

ولكن العناية الإلهية فتحت الطريق أمام فيض من نورها ، فتحقق فتح مكة ، وانتصر دين الله انتصاراً مبيناً ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأهدر الرسول دماء أربعة من المشركين ، لكثرة جرائمهم ، وفحش عداوتهم ، وكان من بينهم عكرمة ، ففر بجلده ، وركب البحر يطلب مهرباً بعيداً .

ولكنه أخذ يفكر فيما كان ، وفيما هو كائن ، ويستعرض الأحداث منذ أشرقت دعوة الإسلام ، ويقلبها ظهراً لبطن ، فإذا هي تثير وجدانه ، وتهز كيانه ، وتزلزل بنيانه ، وبينما هو كذلك عصفت الريح بالسفينة ومن فيها .

وهنا قال أصحابها لركابها : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً هاهنا .

وكأن هذه الكلمة قد لمست الوتر العميق الحساس في نفس عكرمة ، فإذا هو يقول ، وكأن نور الإيمان قد بدأ يضيء صدره ، إن لم ينجني في البحر إلاّ الإخلاص ، فلن ينجيني في البر غيره . اللهم لك علي عهد ان عافيتني مما أنا فيه ، أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده ، فلأجدنه عفواً كريماً .

وشاء ربك ما شاء ، ونجا عكرمة ، وصدق وعده ، وتطهر من ذنبه ، وأقبل على ربه ، وسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلن إسلامه .

ويقال في رواية أنه سار إلى اليمن ، وأن زوجته أم حكيم بنت الحارث ابن هشام أسلمت وحسن إسلامها ، وأنها رجت الرسول أن يعطيها الأمان

لزوجها عكرمة ، حتى تذهب إليه ، وتحضره من اليمن ليعلن إسلامه [1] .

واستجاب للرجاء النبي الذي قال فيه ربه : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » .

وسارعت أم حكيم إلى زوجها ، ثم عادت به ليفتح صدره للإسلام في يقين وإيمان .

ويروى أنها قالت لزوجها حين بلغته في اليمن : جئتك من عند أوصل الناس وأكرمهم ، وقد أمنك .

وحينما رأى الرسول عكرمة عائداً من اليمن ، وعليه نور الإسلام ، قام إليه وعانقه ، وقال له : مرحباً بالراكب المهاجر .

وعن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت لأبي جهل عذقاً في الجنة ، فلما أسلم عكرمة قال : يا أم سلمة ، هذا هو ! . .

والعذق — بفتح فسكون — هو النخلة ، وبكسر العين هو العرجون بما فيه من الشماريخ ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد رأى جزءاً من أبي جهل في الجنة ، فعجب لأن أبا جهل من أهل النار ، فلما أسلم عكرمة ولد أبي جهل ، كان ذلك تفسيراً لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان بعض المسلمين يقول عن عكرمة : هذا ابن عدو الله أبي جهل . وكان عكرمة يسمع ذلك فيتألم ، فذهب إلى رسول الله يشكو هؤلاء ، فجمعهم النبي وقال لهم : لا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذي الحي ! . .

* * *

(1) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ، ص ٥٦٥ . وسيأتي باذن الله حديث مفصل عن أم حكيم رضي الله عنها .

وحسن إسلام عكرمة ، وصار من « صالحي المسلمين » ، كما تعبر السيرة العطرة ، واستقام على الطريقة بلا انحراف . حتى روي أنه لا يعرف له ذنب بعدما أسلم ، وكان يكثر التلاوة في كتاب الله عز وجل ، ويقبل المصحف وهو يبكي ، ثم يردد قوله : كلام ربي ، كلام ربي [1] .

وجاهد في الله حق جهاده ، حتى قال فيه الإمام الشافعي رضي الله عنه : « كان عكرمة محمود البلاء في الإسلام » .

ولقد قال للرسول عقب إسلامه : يا رسول الله ، لا أدع مالاً أنفقته عليك (أي في محاربتك) إلا أنفقت في سبيل الله مثله .

وعمل على الوفاء بما وعد .

وقد استعمله الرسول على صدقات هوازن في عام حجة الوداع .

وكان لعكرمة أثر عظيم [2] في قتال أهل الردة ، بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، حيث كان أحد القادة الاثني عشر الذين قادوا الجيوش في حروب الردة ، وقد أرسله أبو بكر رضي الله عنه إلى أهل عمان حين ارتدوا ، فظفر بهم ، ثم سار عكرمة إلى اليمين فجاهد فيها وانتصر .

ثم اتجه عكرمة إلى الجهاد في ربوع الشام مع غيره من المجاهدين ، وخرج فضرب له خيمة كبيرة في مكان يسمى « الجرف » على ميلين من المدينة ، وجاء بثمانية خيول ورماح وعدة ظاهرة .

---

(١) استدل بذلك الإمام احمد على جواز تقبيل المصحف ومشروعيته (البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٧ ، ص ٣٤) .
(٢) تهذيب الاسماء واللغات للنووي ، ج ١ ، ص ٣٣٩ .

وجاءه أبو بكر فسلم عليه ، ودعا له بخير ، ثم عرض عليه أبو بكر المعونة ، فقال له عكرمة : لا حاجة لي فيها ، معي ألفا دينار .

فدعا له أبو بكر بخير .

ومضى عكرمة إلى الميدان ، فكان أميراً على بعض الكراديس (قسم من الجيش) ، ثم أقبلت معركة قيل إنها معركة اليرموك ، وقيل اجنادين ، وقيل مرج الصفر ، وكانت المعارك الثلاث سنة ثلاث عشرة (1) .

واشتد القتال في المعركة ، وهتف فيها عكرمة يقول لأعداء الله : قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل موطن ، وأفر منكم ؟ . .

ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ . .

فبايعه عمه الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور ، في أربعمائة من المجاهدين الفرسان ، فقاتلوا قتال الأبطال أمام فسطاط القائد خالد بن الوليد .

وكان عكرمة يركب الأسنة دون مبالاة ، حتى كثرت الجراح في صدره وجهه ، وحينما قالوا له : اتق الله ، وارفق بنفسك .

أجاب : كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعزى ، فأبذلها لهما ، أفأستبقيها عن الله ورسوله ؟ لا والله أبداً .

وما زال يقاتل ويناضل ، في تضحية وفداء ، حتى سقط شهيداً مضرجاً بدماء العزة والكرامة ، ماضياً إلى أكرم مآل عند الله جل جلاله .

---

(1) البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٣٤ . والراجح انها أجنادين .

ووجدوا في جسمه بضعاً وسبعين ، ما بين طعنة وضربة .

واستشهد وله من العمر اثنتان وسبعون سنة .

واستشهد معه ابنه عمرو ، وعمه الحارث بن هشام .

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

وصدق الحق جل جلاله حيث يقول وهو أصدق القائلين :

« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » .

الضحاك بن سفيان الكلابي

إن الإنسان إذا لاحظته عناية الله تبارك وتعالى هدته إلى سواء السبيل ، وقرنته بالعمل الجليل ، ودفعته ، إلى المقصد النبيل ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وهو عز شأنه يهدي بحكمة وعلم ، ويهب بقسطاس وعدل ، وهو أحكم الحاكمين .

ولقد يكون الإنسان سادراً في غلوائه ، غارقاً في شهواته وأهوائه ، ثم يتدبر ويتبصر ، فإذا نور الحق يسطع أمامه ، ويضيء أيامه ، فيعتدل بعد انحراف ، ويستقيم بعد اعتساف ، وإذا هو — بعد أن كان أسيراً لشهواته— يصبح طالباً لما عند الله وحده ، طامعاً لديه في تجارة لن تبور ، وما عند الله خير للأبرار ، فيحمل روحه على راحته ، ويمضي بها إلى كريم غايته ، باذلاً ماله ودمه ، وحسه ونفسه،في سبيل ربه الداعي إلى العزة والكرامة : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

ولنأخذ لنا مثلاً من أمثلة هذا الطراز الكريم :

إنه الصحابي الجليل ، البطل الشجاع ، المجاهد الشهيد : أبو سعيد الضحاك بن سفيان بن كعب بن عبد الله بن أبي بكر بن عبيد بن كلاب بن

ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري الكلابي [1] .

وقد كان أحد الذين شهدوا جانباً من عهد الجاهلية ، فعرفوا لهوها وسوءها ، ثم استضاء بصره وبصيرته بنور الإسلام ، فامتثل واعتدل ، وأخذ يعيد بناء شخصيته من جديد ، على أساس الإيمان .

كان يلهو بالشعر فشغله القرآن الكريم : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، وكان يقطع فراغه بباطل القول ، فأصبح يعمره بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتلقاه ويحفظه ، ثم يرويه عنه بعد ذلك جماعة من الأعلام الكبار ، أمثال سعيد بن المسيب ، والحسن البصري [2] : « يؤت الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » .

وكان لا يعرف له نحو الحق رائداً ولا قائداً ، فوجد خير رائد وقائد في شخص الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فأخلص له ، وفداه بنفسه ، حتى كان يقوم وراء النبي متوشحاً سيفه ، حارساً لأكرم ذات بين الناس .

وكان يبذل قوته وفتوته في فنون من الصراع لا تخلص لوجه الله عز وجل ، فأصبح يجلي بطولته في ساحات الجهاد ، حتى صار يعادل مائة فارس ، بشهادة الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ، ففي فتح مكة أعطاه النبي لواء ، وجعله أميراً على بني سليم ، وكانوا تسعمائة فقال لهم رسول الله : هل لكم في رجل يعدل مائة الفارس ، يوفيكم ألفاً [3] ؟

فقالوا : ومن هو يا رسول الله ؟ . .

---

(١) كتاب تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ، ص ٢٥٠ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق .

فقال : الضحاك بن سفيان .

فقبلوا ذلك فرحين .

ولقد عقد الرسول أيضاً للضحاك بن سفيان ، فجعله أميراً على سرية فدائية إلى بني كلاب في أرض نجد ، وكان ذلك في شهر ربيع الأول من السنة التاسعة للهجرة ، وهناك دعا الضحاك القوم إلى الإسلام فأبوا وتطاولوا ، ووقعت بينهم معركة ثبت فيها الضحاك ومن معه ثباتاً عجيباً ، حتى انتصروا على أعدائهم .

وكان معه رفيق سلاح له هو الأصيد بن سلمة الذي عرض على أبيه الإسلام فأبى ، وأخذ الوالد الجاهل العنيد يسب الإسلام سباً فاحشاً ، فغضب ولده الأصيد ، وطارده حتى أوقعه من فوق فرسه ، وهم بالفتك به تقديماً لحق دينه على حق أبيه، ولكنه تردد قليلاً ، مضطرباً بين عاطفتين تتصارعان في نفسه ، وأنقذ الله الموقف ، فأقبل أحد المجاهدين فقتل والد الأصيد [1] .

ويقول ياقوت الحموي في « معجم البلدان » ما خلاصته : أن هذه المعركة كانت في موضع يقال له : « زج لاوة » ، وهو موضع نجدي بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الضحاك بن سفيان ، ومعه سلمة بن قرط ، ليدعوهم إلى الإسلام فدعوهم فأبوا ، ونشبت بينهم معركة أبلى فيها الضحاك بلاء حسناً .

ويقول العباس بن مرداس في بطولة الضحاك :

إن الذين وفوا بما عاهدتهم جيش بعثت عليهم الضحاكا

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ١ ، ص ١١٧ ، القسم الاول .

ولقد بذل الضحاك مع أهله وقومه المشركين جهوداً كبيرة حتى أسلموا ، فجعله الرسول صلى الله عليه وسلم والياً عليهم في نجد ، وجامعاً للزكاة منهم ، ونصحه بأن يكون على وعي ويقظة فيهم .

وفي السنة التاسعة للهجرة قدم وفد يمثل بني كلاب — وهم قوم الضحاك — إلى الرسول ، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً ، فأكرم النبي وفادتهم ، واحتفى بهم كعب بن مالك الصحابي الجليل ، وأهدى إليهم ، وهو الذي ذهب معهم إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فسلموا عليه بتحية الإسلام ، وأثنوا على الضحاك وعلى مسيرته فيهم لله وارسوله ، وقالوا فيما قالوا : ان الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله (تبارك وتعالى) وبسنتك التي أمرته بها ، وإنه دعانا إلى الله ، فاستجبنا لله ولرسوله ، وأنه أخذ الصدقة (الزكاة) من أغنيائنا ، فردها على فقرائنا ،فسر النبي صلى الله عليه وسلم لذلك[1] .

وكما عمل الرسول على إبراز البطولة الكامنة في نفس الضحاك ، وتمكينها من أداء واجبها على أوسع نطاق ، عني بتربيته وتخريجه في الناحية الروحية والأخلاقية ، فكان يلقي إليه بأحاديثه وتوجيهاته ، التي أفاد منها الضحاك فوائد جليلة ، نفع بها نفسه ، وأرشد بها غيره .

ومن أمثلة ذلك أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال الضحاك يوماً :

يا « ضحاك » ألست تؤتي بطعامك وقد قزح[2] وملح (أي جعلت فيه التوابل المشهية) ثم تشرب عليه الماء ؟ . .

---

(١) الطبقات لابن سعد ، ج ١ ، ص ٤٤ ، القسم الاول .
(٢) في تاج العروس : القزح — بكسر فسكون — التابل الذي يطرح في القدر كالكمون والكزبرة . وقزح القدر — كمنع — جعل فيها التابل .

قال الضحاك : بلى يا رسول الله .

فقال له النبي : فإلى ماذا يصير ؟ . .

فأجاب الضحاك : يصير إلى ما قد علمت يا رسول الله .

فقال له النبي : فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم .

وجاء الخبر في « العقد الفريد » ، و « عيون الأخبار » هكذا :

قال النبي صلى الله عليه وسلم للضحاك بن قيس : ما طعامك ؟ . .

فقال : اللحم واللبن .

قال النبي : ثم إلى ماذا يصير ؟ . .

فأجابه : يصير إلى ما قد علمت .

قال النبي : فإن الله عز وجل ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا [1] .

ولذلك روى المفسرون أن هذا المعنى هو المراد من قول الله تبارك وتعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه » .

أي فلينظر إلى أي شيء يصير هذا الطعام ، فإنه بعد أن كان شهياً محبوباً مرغوباً فيه ، يصبح نجاسة قذرة منتنة ، لا يطيق الإنسان رائحتها ولا يحتمل النظر إلى شكلها .

وكذلك يقول الحق جل جلاله : « فلينظر الإنسان مم خلق » ، ويقول : « خلق الإنسان من علق » . والعلق جمع علقة ، والعلقة القطعة من الدم الرطب المتجمد ، وهما مما يستقذره الإنسان وينفر منه .

---

(١) العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ١٢٢ . وعيون الاخبار ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ .

وهذا يذكرنا بما روي عن الإمام عبد الله بن المبارك — رضي الله عنه — حيث وقف ذات يوم متدبراً بين مزبلة ومقبرة ، فقيل له : ما وقوفك بين هاتين ؟ . .

فأجاب : أنا بين كنزين من كنوز الدنيا ، فيهما عبرة : هذا كنز الرجال (وأشار إلى المقبرة) وهذا كنز الأموال (وأشار إلى المزبلة) ! . .

ويا لها من عبرة فيها ذكرى ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ويذكرنا هذا أيضاً بما يروى عن أمير المؤمنين الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه ، فقد رووا أنه مر على مزبلة ، فقال : هذا ما بخل به الباخلون.

وفي رواية أخرى أنه قال ؛ هذا ما كنتم تتنافسون فيه بالأمس (١) ! . .

* * *

ونعود إلى بطلنا الضحاك :

لقد مضى البطل المجاهد الجسور ، في طريق نضاله وجهاده ، حتى شهد المعارك الشرسة الفاصلة ، التي عرفها تاريخ الإسلام باسم « حروب الردة » في عهد الصديق أبي بكر رضوان الله عليه ، وفي أتون هذه المعارك نال الضحاك العظيم نعمة الشهادة في سبيل الله تعالى ، في السنة الحادية عشرة للهجرة .

ومضى إلى ربه ليلقى عنده خالد الثواب وعظيم الجزاء .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

---

(١) شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد ، ج ٥ ، ص ٤٨٢ .

البهلول بن راشد

يحسب بعض الناس – إذا سمع حديثاً عن الفداء – أن الفداء لا يتحقق معناه إلاّ بالموت في ميدان ، مع أن الفداء أنواع وألوان ، فالمجاهد الذي يناضل في سبيل ربه وعقيدته حتى يسقط شهيداً في الميدان إنسان فدائي .

والرجل الذي يضحي من أجل حريته وعزته – سواء أمات أم نجا – إنسان فدائي .

والرجل الذي يبذل لغيره كل ما عنده – برغم احتياجه إليه – إنسان فدائي .

والطبيب المخلص الحي الضمير ، الذي يقاوم الوباء ، ويتعرض للأخطار ، كي ينقذ الذين حوله إنسان فدائي .

والذي يجهر بكلمة الحق أمام الجبروت والطغيان إنسان فدائي .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول ! «أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » أي سلطان ظالم (١) .

ولقد حفظ لنا تاريخ الإسلام والمسلمين نماذج كثيرة لأهل الوفاء والفداء ، الذين ناضلوا بحواسهم ونفوسهم ، وأعمالهم وأقوالهم ، وسلاحهم وأموالهم .

---

(١) انظر كتابي « الفداء في الاسلام » ، ص ١٦ و ١٧ .

وهناك طائفة من هؤلاء كانوا من أهل الزهد والتصوف ، الذين أعرضوا عن متاع الحياة ، وشغلوا أنفسهم بذكر الله ، وقاوموا فتنة الشهرة والجاه ، ومع ذلك لبوا دعوة الإصلاح ونداء الواجب .

وهذا واحد من هؤلاء :

إنه العالم المجاهد ، والفقيه العابد ، والفدائي الزاهد ، أبو عمرو البهلول ابن راشد الرعيني ، الذي كان من أهل القيروان المشهورة في شمال أفريقية .

وقد ولد البهلول سنة ثمان وعشرين ومائة للهجرة ، ونشأ زاهداً عابداً ، ثم صار عالماً مجتهداً ، ثم أصبح ثقة رائداً .

ولقد شغل نفسه أولاً بالعبادة والذكر ، حتى قال فيه أنس بن مالك : هذا عابد بلده .

وقال فيه بعض واصفيه : إنه وتد من أوتاد المغرب (١) .

ولكنه رأى الناس في حاجة إلى العلم والفقه ، فعكف على الدراسة والطلب والتحصيل ، وسمع من طائفة كبيرة ، في طليعتها : مالك ، والثوري ، والليث ابن سعد .

ثم أخذ يعلم الناس ويفقههم ويفتيهم في فقه المالكية ، ذاكراً أن هذا التفقيه من أفضل القربات إلى الله عز وجل ، فهو سبحانه القائل في تنزيله

---

(١) كتاب ترتيب المدارك للقاضي عياض ، ج ٣ ، ص ٨٨ ، وكتاب الديباج المذهب ، ص ١٠١ . وفي تاج العروس ، أوتاد الارض جبالها لانها تثبتها ، والاوتاد من البلاد : رؤساؤها ، والواتد : الثابت . ووتد فلان رجله في الارض اذا ثبتها .

الحكيم : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو القائل : « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » .

ومع أن البهلول بن راشد قد صار علماً يشار إليه بالبنان ، وقد ذاع صيته هنا وهناك ، كان كثير الاتهام لنفسه ، وقد جاءه بعض الناس يمدحه ، ويطيل في الثناء عليه ، فأجابه قائلاً : « والله لو كانت للذنوب رائحة ما جلست إلي ، ولا جلست إليك » .

وهذا يذكرنا بقول الشاعر أبي العتاهية :

أحسن الله بنـــا إن الخطايا لا تفوح
فـإذا المستور منـا بين ثوبيه فضوح
نح على نفسك يا مسكين إن كنـت تنوح
لتموتن ولو عمرت كما عمر نـوح !

* * *

ولقد وصلت شهرة البهلول من القيروان — في أقصى المغرب — إلى سمرقند خراسان — في أقصى المشرق فكتبت إليه امرأة من سمرقند رسالة تقول له فيها :

هذا كتاب من امرأة من سمرقند خراسان ، ارتكبت من المجون والآثام ما لم يرتكبه غيرها ، ثم تابت إلى الله ، وسألت عن العباد في الأرض ، فذكروا

لها أربعة ، منهم بهاول بأفريقية ، فسألتك بالله أن تدعو لها بأن يدوم عليها ما فتحه الله لها من هداية .

فلما قرأ البهاول كلامها جعل يبكي تأثراً به ، ويقول لنفسه : يا بهاول ، وصلت شهرتك سمرقند خراسان ؟ ! الويل لك من الله إن لم يستر عليك (١) .

ولقد كان البهلول عالماً بصيراً بحكمة التشريـــع ، ووجوه الإصلاح الاجتماعي ، وكان يؤمن بأن معاونة المحتاجين من أفضل العبادات والقربات عند الله جل شأنه .

وهذا شخص من معارفه يأتي إليه ، ويخبره بأنه خارج إلى الحج تطوعاً ، وكان قد حج قبل ذلك .

فقال له البهلول : كم أعددت لهذا الحج ؟ . .

فقال : مائة دينار .

فعرض عليه أن ينفق هذه الدنانير على محتاجين إليها ، وهو يرجو له من الله عز وجل أن يكتب له ثواب عشر حجات .

واستجاب الرجل ، فوزع البهلول هذه الدنانير على قوم هم في أشد الاحتياج إليها (٢) .

ماذا يقول في هذا الذين يدمنون الحج كل عام ، كأنه عادة موصولة مكررة ؟

---

(١) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ، ج ٣ ، ص ٨٩ . وقد نقلت القصة بشيء من التصرف .
(٢) انظر كتاب رياض النفوس ، ج ١ ، ص ١٣٨ .

ماذا يقول في هذا أولئك الذين حجوا مرات ، ومع هذا يظلون يحجون مرات ، ويزحمون مواسم الحج بعددهم وطاقتهم ، على حين يوجد أناس لا يملكون حجة الفريضة ؟ !

إن المسلمين يشكون في السنوات الأخيرة ذلك الزحام الشديد المرهق في موسم الحج ، بصورة تجعل من الصعب على ولاة أمور المسلمين أن يوفروا لحجاج بيت الله الحرام ما ينشدونه من يسر وراحة وطمأنينة أثناء أدائهم هذه الفريضة .

* *

ثم يختم البهلول بن راشد المرحلة الأخيرة من حياته بصفحة من صفحات النضال الباهرة الرائعة .

فقد كان على أفريقية في زمنه أمير يسمى : « محمد بن مقاتل العكي » ، ولم يرع هذا الأمير أمانة الإسلام أو حرمة المسلمين ، فأنشأ صداقة بينه وبين عدو الإسلام والمسلمين ملك الاسبانيول في ذلك الوقت مع أن الحق جل جلاله يقول : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلاّ أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » .

ويقول أيضاً سبحانه : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

ويقول كذلك : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » .

وعم البلهول إن ذلك الملك الطاغية ، قد أرسل إلى العكي ، ليبعث إليه بمقادير من السلاح وا لحديد والنحاس ، وكان المسلمون في حاجة إلى كل ذلك .

فذهب البهلول إلى الأمير ونصحه بأن يقطع صداقته مع ذلك العدو ، ووعظه في ذلك وعظاً بليغاً ، فكبر ذلك على العكي ، وأمر بحبس البهلول وتقييده وضربه بالسياط .

وأحدث ذلك الضرب في جسد البهلول قرحة مات بسببها في سنة ثلاث وثمانين ومائة [1] .

ولم يمهل القدر ذلك الأمير الخائن ، فعاجله بعد قليل بالنكبات والنوازل ، ومضى إلى آخرته مشيعاً باللعنات والشتائم ، على حين تألق اسم البهلول في تاريخ الإسلام والمسلمين ، علماً من أعلام الزهد والورع ، وإماماً في الفقه والعلم ، ومجاهداً لخدمة الناس وإصلاح المجتمع .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

---

(١) كتاب ترتيب المدارك ، ج ٣ ، ص ١٠١ . وقيل توفي سنة ١٨٢هـ ، انظر الديباج المذهب ، ص ١٠١ .

معن بن عدي الأنصاري

كلما أهل علينا شهر ربيع الأول من عام هجري جديد ، تذكرنا أنه الشهر الذي أسعد الله به الدنيا ، وأعز من شأنها ، ومكانها ، حيث جعله موطناً لمولد إمام البشرية وسيد الإنسانية محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ولا ريب أن في هذا الميلاد ذكرى باهرة عاطرة ، تفجر ينابيع الفرحة والبهجة في نفس المؤمن الذي يوقن بأن ربه قد من عليه وعلى أخوته في الله المنة الكبرى ، ووهبهم المنحة العظمى ، حين هداهم الصراط المستقيم ، بوساطة هذا النبي الكريم : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ، « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

ولكن شهر ربيع الأول يتضمن أيضاً من وراء هذه الذكرى المجيدة الفريدة ذكريات إسلامية أخرى ، لها عبرتها وثمرتها ، ولها مكانتها ومنزلتها ، ومن بينها ذكرى جليلة تنفعنا في حياتنا ، ويجب أن تتألق في خواطرنا ، حتى تحرك فينا ما خمد من جذوة الحياة ، وتبعث ما همد من روح النضال .

ففي شهر ربيع الأول من السنة الثانية عشرة من الهجرة كانت معركة

« اليمامة » التي جاءت امتحاناً عصيباً لأبناء الإسلام ، ومع ذلك ثبتوا له ، ونجحوا فيه ، وفتحت أرض اليمامة في بلاد نجد [1] .

وقضت روح الجهاد والاستشهاد على عش الفتنة ووكر الردة ، وعلى شيطانها الأثيم ، مسيلمة الكذاب ، ويده اليمنى « الرجال بن عنفوة » ، وعاد الحق إلى نصابه ، وهيمن الإسلام من جديد على المكان والزمان والإنسان .

وكان من أعلام هذه المعركة الصحابي المجاهد ، الشهيد الثابت معن بن عدي بن عجلان الأنصاري ، الذي كان رجلاً مثقفاً في جاهليته ، حيث كان يجيد الكتابة بالعربية ، والكتابة حينئذ في العرب قليلة نادرة [2] .

ولعل هذا قد ساعد على انشراح صدره بسرعة للإسلام ، ولذلك كان أحد السبعين الذين سبقوا إلى الاستجابة في بيعة العقبة الأخيرة [3] .

وحين تمت الهجرة النبوية المجيدة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين معن بن عدي وزيد بن الخطاب [4] — شقيق عمر الفاروق رضوان الله عليهما — وزيد بن الخطاب هو الشهيد الصامت الذي كان أسن من عمر ، وأسلم قبله ، ونال الشهادة قبله .

ولذلك كان عمر يقول عن أخيه :

« سبقني إلى الحسنيين ، أسلم قبلي ، واستشهد قبلي » ! . .

---

(١) كتاب العبر للذهبي ، ج ١ ، ص ١٣ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٣ ، ص ٣٥ .
(٣) الدرر لابن عبد البر ، ص ٧٦ .
(٤) الطبقات ، ج ٣ ، ص ٣٥ . والدرر ، ص ١٠٠ .

وقد فصلت الحديث عن بطولة زيد بن الخطاب في كتابي « فدائيون في تاريخ الإسلام » [1] .

ومن العجيب أن هذين المتآخيين في الله على يد رسول الله — وهما معن وزيد — قد تآخيا كذلك في الجهاد لوجه الله ، وتآخيا لنيل الشهادة معاً في معركة واحدة ، هي معركة اليمامة ، فمضيا أخوين إلى عالم البقاء ، كما كانا أخوين في هذه الحياة .

ولقد حرص معن على مواقف الفداء والوفاء ، فشهد غزوات بدر وأُحد والخندق ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي غزوة تبوك رأى رسول الله خطورة ما فعله بعض المنافقين وأعداء الإسلام ، من بنائهم مسجد الضرار ، ليفرقوا به كلمة المسلمين ، وليمزقوا به وحدتهم ، ويتخذوه وكراً للمؤامرات والدسائس ضد الإسلام ، كما صور القرآن الكريم ذلك حيث يقول في سورة التوبة :

« والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، وأرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن ان أردنا إلاّ الحسنى ، والله يشهد أنهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبداً ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين ، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلاّ أن تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم » .

---

(١) فدائيون في تاريخ الاسلام ، ص ١٧٤ — ١٧٨ .

فاختار النبي — صلى الله عليه وسلم — ثلاثة رجال ، وأمرهم بالذهاب إلى هذا المسجد وهدمه وإحراقه .

وقال : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه وحرقوه .

فاستجابوا لذلك .

وكان هؤلاء الثلاثة هم مالك بن الدخشم ، ومعن بن عدي ، وشقيقه عاصم بن عدي [١] .

وعاصم هذا كان من خيار الصحابة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يندبه أحياناً لبعض المهمات الدقيقة ومن أمثلة ذلك أنه كلفه في غزوة بدر أن يقوم بمهمة عند أهل قباء ، ولذلك لم يحضر عاصم غزوة بدر ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام عده كمن شهدها ، وضرب له بسهمه وأجره [٢] .

وهذا تصوير نبوي رائع لاتساع مجال الجهاد ، حتى لا يظن ظان أن الجهاد مقصور على الذين يحملون السلاح ، وينخرطون به في الميدان [٣] .

* * *

وكان معن بن عدي يحسن فهم الإسلام ، ويحسن إدراك مكانة الرسول عليه الصلاة والسلام .

---

(١) ويروى ان المأمورين كانا اثنين فقط . انظر تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ١١٠ . والدرر لابن عبد البر ، ص ٢٥٧ . والطبقات الكبرى ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

(٢) الدرر لابن عبد البر ، ص ٢٥٧ .

(٣) الطبقات لابن سعد ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

ومما يشهد لذلك أن المسلمين أخذوا — عقب وفاة الرسول — يبكون ويقولون : والله اوددنا إنا متنا قبله ، نخشى أن نفتن بعده .

وحينما سمع معن ذلك قال : أني والله ما أحب أني مت قبله ، حتى أصدقه ميتاً كما صدقته حياً [1] .

وكأنه بهذا لا يريد أن يستخف بالمصيبة الكبرى في فقد الرسول ، ولكنه يريد أن يشير إلى الثبات على الإسلام ، وعلى متابعة النبي عليه الصلاة والسلام ، سواء أكان حاضراً أم كان غائباً ، وكأنه يريد أن يقول : إنني صدقت الرسول وهو حي بيننا أشهده وأراه ، وسأظل أصدقه وأتبع هديه ، وإن غاب عنا بشخصه .

وكأنه كان يتذكر قول الله تبارك وتعالى :

« وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين ، وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلاّ أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » .

---

(١) شهد عاصم بن عدي غزوتى أحد والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله وقد توفي بالمدينة سنة خمس واربعين ومائة سنة (الطبقات ، ج ٣ ، ص ٣٦) .

وأذكر أني في سنة ١٩٤٨ م قلت في كتابي «واجب الشاب العربي» هذه الكلمات :

«ويعيبكم يا شباب أن تسيطر عليكم غريزة الخضوع للأشخاص لا للمبادىء ، وأن يملككم الإعجاب بالزعماء لا بالزعامة وأهدافها، وأن تتعلقوا بالذوات أكثر من تعلقكم بالحقائق والمعاني ، وأن تؤمنوا بالدعاة أكثر من إيمانكم بالدعوة .

وهذه مع الأسف علة متحكمة ، نراها مستشرية في البيئات العربية على صورة مفزعة ، فالتلميذ يفنى في شخص أستاذه ، والموظف يذل لرئيسه ، والحزبي يصبح عبداً لزعيم حزبه ، و «النائب» لا يتحرك إلاّ بوحي من قائده.

والدعوات تقوم بيننا في الغالب على أشخاص امتازوا في ناحية أو نواح ، ثم استطاعوا أن يجمعوا حولهم الاتباع والأنصار ، بقدرتهم على العرض والتأثير والجذب والتكوين ، ويظل هؤلاء الجنود مسحورين بعبقرية قائدهم ، أو بريق حديثه، أو سحر خطابته ، أو تأثير شخصه ، أو سلطان ذاته ، دون أن يمتزجوا بالمبادىء أو الحقائق ، أو الأهداف أو الآراء .

فإذا انتهى ذلك القائد — وهو فرد — انتهت دعوته التي جمع حوله باسمها الآلاف ، أو أصابها تصدع وانهيار . . . » الخ [1] .

ولقد تعودت أن أقول لتلاميذي وطلاّبي حينما أراهم يحاولون تقليدي أو التشبه بي : «لا أريدكم مني نسخاً مكررة ، ولكني أريدكم لأنفسكم صوراً مبتكرة» ! . .

---

(١) كتابي « واجب الشباب العربي » ، ص ٣٩ ، الطبعة الاولى .

فلنستمسك بالدعوة ، بدل أن نفنى في الدعاة .

ولذلك نرى معن بن عدي يحرص على أن لا تكون هناك فتنة بسبب اختيار خليفة للرسول ، وحينما رأى نوعاً من تعدد الآراء في اختيار الخليفة سارع مع الصحابي الجليل عويم بن ساعدة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وجعل يقول له مع صاحبه : « إنه باب فتنة نرجو أن يغلقه الله بك » (١) .

وكذلك كان ، وأنقذ الله عز وجل وحدة المسلمين بمبايعتهم لأبي بكر رضوان الله عليه .

وكان معن بن عدي رجلاً يحرص على أن يكون من الأمة الوسط ، العادلة المعتدلة ، التي لا تنحرف ولا تعتسف ولا تسرف ، فهو يلبس لكل حال لبوسها ، وهو يعامل كل انسان بما يناسبه ، دون إفراط أو تفريط ، ولذلك كان يقول :

وإني لحلو تعتريني مرارة ... وملح أجاج تارة وشروب
لكل امرىء عندي الذي هو أهله ... أفانين شتى والرجال ضروب (٢)

وهذا يذكرنا بقول القائل الحكيم :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر ، كوضع السيف في موضع الندى

وقول الآخر :

وقسا ليزدجروا ومن يك حازماً ... فليقس أحياناً على من يرحم

* * *

---

(١) العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ١٢ ، طبعة التجارية .
(٢) الاجاج : الشديد الملوحة . والشروب : الماء الذي يصلح للشرب مع بعض كراهة . وضروب : انواع وأشكال .

وفي معركة اليمامة خرج الأخوان المجاهدان في الله وفي الإسلام : معن بن عدي وزيد بن الخطاب [1] .

وحمل زيد الراية ، وهتف معن بالمسلمين ليثبتوا و يتقدموا .

وما زال البطلان يتقدمان ويجاهدان ، حتى حققا مع زملائهما النصر والفتح . . .

ولكنهما دفع ثمناً لذلك : هو الشهادة . . .

ورقد البطلان معاً في ثرى اليمامة ، ليلقيا الله يوم القيامة ، مشتركين في الجهاد ، مشتركين في حسن الاعداد ، مشتركين في نعمة الاستشهاد ...

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع . . .

(١) اقرأ تفاصيل البطولة عند زيد في باب « المجاهد الصامت زيد بن الخطاب » من كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ، ص ١٧٤–١٧٨ .

أبو سعيد الخدري

ماذا يريد الإسلام من المسلم ؟ . .

إنه يريد منه أن يكون مؤمناً صادق الإيمان بعقيدة الحق والعدل والخير ، مستجيباً خالص الاستجابة لله وللرسول ، فقيهاً في دينه ، بصيراً بمجتمعه ، عاملاً لدنياه كأنه يعيش أبداً ، عاملاً لأخراه كأنه يموت غداً ، محتملاً ما يساق إليه من الاختبار والابتلاء ، مجاهداً في سبيل ربه ، حريصاً على العزة أو الشهادة ، مستقيماً على طريق أهل الوفاء والفداء ، صادقاً في قوله وفعله وحاله .

وقد تبدو هذه الصفات أمامنا اليوم عزيزة منيعة ، لا يسهل إليها الوصول ، وذلك لغربة الحق ، وقلة الخير ، وطغيان الفساد ، ولكن هذه الصفات كانت معروفة مألوفة في مجتمع النبوة ، على قائده أفضل الصلاة والسلام ، لصدق الهمم حينئذ وسمو العزائم ، وإقبال الناس منذ بداية الطريق على خالقهم الذي يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم : « أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون » .

وهذا واحد من هؤلاء :

إنه الصحابي الجليل ، والفقيه المحدث ، والعالم المجاهد : أبو سعيد

الخدري [1] رضي الله عنه وهو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري . الذي كان من فقهاء الصحابة وعلمائهم وأعيانهم ، حتى قيل أنه لم يكن أحد من الصحابة أعلم منه [2] .

وكان من ملازمي النبي — صلوات الله وسلامه عليه — ولذلك روى الكثير من أقواله وأعماله وأحواله .

ووالده مالك بن سنان كان أيضاً محدثاً مجاهداً ، وقد اشترك في غزوة أُحد ، . ونال فيها الشهادة ولحق بربه . وعاد المسلمون من الغزوة العصيبة ، فخرج الفتى أبو سعيد الخدري ليستطلع أخبار المعركة ، ولا هم له — كما يروي هو — إلاّ أن يطمئن على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينظر إليه

فلما رآه النبي قال له : سعد بن مالك ؟ : .

فأجابه أبو سعيد : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله .

ودنا أبو سعيد من النبي ، وقبل ركبته والنبي على فرسه .

فقال له النبي : آجرك الله في أبيك [3] .

فلم يفزع أبو سعيد ولم يجزع لذلك .

وقد وصف أبو سعيد حالة رجوع الرسول من غزوة أحد وصفاً دقيقاً فقال :

« كنا ممن رد من الشيخين [4] : لم نجيء مع المقاتلة ، فلما كان من

---

(١) نسبة الى خدرة ــ بضم فسكون ــ اسم احد أجداده (تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ، ص ٢٣٧) .
(٢) التحفة اللطيفة للسخاوي ، ج ٢ ، ص ٦٣ .
(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ٤ ، ص ٤٩٤ .
(٤) موضع بالمدينة كان به معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم باحد.

النهار ، بلغنا مصاب رسول الله صلى الله عليــه وآله ، وتفرق الناس عنه ، فجئت مع غلمان بني خــدرة نعرض لرسول الله صلى الله عليه وآله ، ننظر إلى سلامته ، فنرجع بذلك إلى أهلنا ، فلقينا الناس متفرقين ببطن قناة ، فلم يكن لنا همة إلاّ النبي صلى الله عليه وسلم ، ننظر إليه .

فلما رآني قال : سعد بن مالك ؟ . .

قلت : نعم ، بأبي أنت وأمي .

ودنوت منه فقبلت ركبته وهو على فرسه ، فقال : آجرك الله في أبيك .

ثم نظرت إلى وجهه ، فإذا في وجنتيه مثل موضع الدرهم في كل وجنة ، وإذا شجة في جبهته عند أصول الشعر ، وإذا شفته السفلى تدمى ، وإذا في رباعيته اليمنى شظية ، وإذا على جرحه شيء أسود .

فسألت : ما هذا على وجهه ؟

فقالوا : حصير محرق .

وسألت : من أدمى وجنتيه ؟ . .

فقيل : ابن قميئة .

فقلت : فمن شجه في وجهه ؟ . .

فقيل : ابن شهاب .

فقلت : ما أصاب شفتيه ؟ . .

قيل : عتبة بن أبي وقاص .

فجعلت أعدو بين يديه حتى نزل ببابه ، ما نزل إلاّ محمولاً ، وأرى

ركبتيه مجحوشتين [1] ، يتكىء على السعدين : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، حتى دخل بيته .

فلما غربت الشمس ، وأذن بلال بالصلاة ، خرج على تلك الحالة ، يتوكأ على السعدين : سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، ثم انصرف إلى بيته ، والناس في المسجد يوقدون النيران يتكمدون بها من الجراح .

ثم أذن بلال بالعشاء حين غاب الشفق ، فلم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس بلال عند بابه صلى الله عليه وسلم حتى ذهب ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة يا رسول الله . فخرج ، وقد كان نائماً .

فرمقته فإذا هو أخف في مشيته منه حين دخل بيته ، فصليت معه العشاء ، ثم رجع إلى بيته قد صفف له الرجال ما بين بيته إلى مصلاه ، يمشي وحده حتى دخل .

ورجعت إلى أهلي فخبرتهم بسلامته ، فحمدوا الله وناموا ، وكانت وجوه الأوس والخزرج في المسجد على النبي صلى الله عليه وسلم ، يحرسونه فرقاً (خوفاً) من قريش أن تكر » [2] .

أرأيت أروع من هذا الوصف ؟ أرأيت أدق من هذا التصوير للمشهد والصورة ؟ لكأن الكلمات تجسم الأحداث فهي قائمة شاهدة ومشاهدة ، ومن هذا الوصف الدقيق نأخذ فكرة عن أدب أبي سعيد وبيانه ، منذ صباه وشبابه .

* * *

---

(١) جحش الجلد : قشره وخدشه .
(٢) المرجع السابق .

وكان أبو سعيد الخدري قد طمع في أن يخرج إلى غزوة أُحد ، وكان عمره حينئذ ثلاث عشرة سنة فحسب ، وكان والده يرغب كذلك في أن يشترك ابنه في الغزوة ، ولكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه استصغر سن أبي سعيد فرده ، وصعب ذلك على الوالد والولد ، حتى يعبر أبو سعيد عن ذلك فيقول ببيانه الدقيق :

« عرضت يوم أُحد على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنا ابن ثلاث عشرة سنة ، فجعل أبي يأخذ بيدي ، ويقول : يا رسول الله ، انه عبل (ضخم) العظام . وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصعد في النظر ويصوبه ، ثم قال : رده ، فردني »[1] .

ومرت الأيام ، وبلغ الغلام الخامسة عشرة ، وأقبلت غزوة الخندق — غزوة الأحزاب — فاشترك فيها بفتوته وشبابه ، وإيمانه بربه ورسوله وكتابه . كما شهد ما بعدها من غزوات ، حتى اشترك في اثنتي عشرة غزوة.

وكان من أهل بيعة الرضوان التي بايع المسلمون فيها رسولهم عليه الصلاة والسلام ، على الثبات حتى الموت .

وبجوار هذه البيعة العظيمة كانت هناك بيعة كريمة أخرى لأبي سعيد الخدري ، عقدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي ألاّ يقدم حقاً على حق الله ، وإلاّ يقبل مهادنة أو تفريطاً في واجبه نحو الله ، ولذلك يقول سهل بن سعد :

بايعت النبي صلى الله عليه وسلم : أنا ، وأبو ذر ، وعبادة بن الصامت ، وأبو سعيد الخدري ، على أن لا تأخذنا في الله لومة لائم[2] .

* * *

(١) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .
(٢) التحفة اللطيفة ، ج ٢ ، ص ١٦٣ . وانظر تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٥٠٥ . والدرر لابن عبد البر ، ص ١٥٥ .

ولقد مرت على أبي سعيد الخدري أيام في الإسلام كانت شديدة الوطأة عسيرة الاحتمال ، فقد ذاق الجوع مع غيره ، حتى أكلوا ورق « البشام » وهو نوع من الشجر ، واقتسم التمرة مع زميل له : هو عتبة بن غزوان ، كما اقتسم معه بردة اتزر كل واحد منهما بنصفها (١) .

ولقد مات والده مالك بن سنان (٢) ، ولم يترك لأسرته شيئاً ، وشكا أهل أبي سعيد إليه الحاجة ، فخرج وفي نيته أن يسأل الرسول شيئاً من المعونة ، فلما بلغ أبو سعيد المسجد ، وجد الرسول واقفاً على المنبر وهو يقول :

« أيها الناس ، قد آن لكم أن تستغنوا عن المسألة ، فإنه من يستعف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، والذي نفس محمد بيده ما رزق الله عبداً من رزق أوسع له من الصبر ، ولئن أبيتم إلاّ أن تسألوني لأعطينكم ما وجدت » .

فلما سمع أبو سعيد ذلك رجع ولم يسأل الرسول شيئاً ، وقال لنفسه : ما يريد النبي غيري (٣) ؟

وكان أبا سعيد قد تذكر أن الاختبار الإلهي لا بد له من الصبر حتى يعظم الأجر ، وذلك عن طريق الشرفاء الأوفياء .

وهذا أبو سعيد يسأل النبي فيقول : يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاء ؟..

فيقول الرسول : النبيون .

فيعود أبو سعيد إلى السؤال قائلاً : ثم أي ؟ . .

---

(١) العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٢١٥ ، طبعة التجارية .
(٢) أم أبي سعيد هي : أنيسة بنت أبي حارثة . وزوجته هي زينب بنت كعب بن عجرة .
(٣) البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٤ .

فيجيب النبي : ثم الصالحون .

وهذا هو القرآن الرائد يقول : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » .

ولعل هذا الاحتمال الصابر من أبي سعيد الخدري هو الذي جعل أبا نعيم المؤرخ للأولياء والصوفية يقول : إن حال أبي سعيد قريب من حال « أهل الصفة » لايثاره واختياره الفقر والتعفف (١) .

وعلى الرغم من الشواغل الكثيرة التي شغلت أبا سعيد الخدري في ميادين النضال والاحتمال — كان من كبار المحدثين عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، حتى روى عنه ألفا ومائة وسبعين حديثاً ، سمعها ووعاها ، وحفظها وعمل بها ، وبلغها سواه .

وقد تلقى عنه رواية هذه الأحاديث أعلام في تاريخ هذه الأمة ، من أمثال : ابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وجابر بن عبد الله ، وخلائق من التابعين (٢) .

ولما وقعت الفتنة بين المسلمين في وقعة « الحرة » سنة ثلاث وستين اعتزلها أبو سعيد الخدري ، ودخل غاراً يتعبد فيه حتى تنكشف الغمة وتستقر الأمة ، فدخل عليه رجل من أهل الشام يريد أن يقاتله ، وكان مع أبي سعيد الخدري سيفه ، فألقى به إلى الأرض وقال للرجل : بؤ بإثمي وإثمك ، لتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين .

---

(١) التحفة اللطيفة ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .
(٢) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

ففزع الرجل من هذه العبارة وارتدع ، ولم يمس أبا سعيد بسوء ، بل رجاه أن يدعو له ، فقال أبو سعيد : غفر الله لك[1] .

وظل أبو سعيد الخدري عاملاً مناضلاً تحت لواء الإسلام ومن أجل المسلمين ، حتى بلغ عمره أربعة وتسعين عاماً ، ثم لحق بربه تبارك وتعالى ، حيث توفي بالمدينة سنة أربع وسبعين في يوم جمعة[2] ، ودفن في مقبرة البقيع .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

(١) العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ١٥٢ .
(٢) وقيل سنة اربع وستين (انظر تهذيب الاسماء ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ ، وانظر البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٤) .

شريح بن هانىء الحارثي

يوجد في الحياة أناس كل همهم أن يأكلوا ويشربوا ، ويتمتعوا ويلعبوا ، ولا يعنيهم سوى أن يزدادوا مما اشتهوا أو أرادوا ، فلا رسالة لهم ولا هدف ، وهؤلاء هم أجبن الناس في مواطن الهول ، وتجدهم أحرص الناس على الحياة ، لأن عبوديتهم للأهواء والشهوات تدفعهم دائماً إلى طلب المزيد من البقاء في هذه الحياة ، وكأنهم ممن قال فيهم الحق جل جلاله :

« ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر ، والله بصير بما يعملون » .

وهناك أناس يحاولون أن يجمعوا بين أداء رسالة لهم في الحياة ، والاستمتاع بما طاب من زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، وكأنهم المشار إليهم بقول القرآن المجيد : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعملون » .

فهؤلاء يأخذون حظوظهم العادلة من دنياهم الفاضلة ، ولكنهم لا ينسون واجباتهم وتبعاتهم ، بل يحملون أنفسهم على مواجهة التبعات والمشقات قدر طاقتهم واستطاعتهم : قد يخافون ولكنهم لا يجبنون ، وقد يتألمون ولكنهم لا يذلون ، وقد يطول بهم المدى ولكنهم لا يقنطون ، وقد تتقاصر حدود

طاقاتهم عن بلوغ غاياتهم ، ولكنهم لا يرتدون على أعقابهم ، ولا يتنكرون لمبدئهم أو عقيدتهم .

ومن بين هؤلاء يخرج أفراد أعلام ، يضربون المثل الرائع في الصدق والفداء والوفاء ، فتهون عندهم الحياة ، حتى كأنها جناح بعوضة ، ويحلو في أفواههم طعم الموت في سبيل ربهم كأنه شهد مذاب .

وكأن هؤلاء يحشرون في ركاب من قال فيهم الحق جل جلاله : « انا أخلصناهم بخالصة[1] ذكرى الدار ، وأنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » .

ولقد يتفتح أمام هؤلاء — وهم في موقف الهول — باب للخلاص أو مسالك للنجاة ، ولكنهم يفضلون عليها لقاء ربهم راضياً عنهم ، ليجزيهم أجرهم ، ويرفع قدرهم ، ويمجد ذكرهم ، والله يختص بفضله من يشاء .

وكأن هذا الطراز من الصادقين الأوفياء هم الذين قال في أحدهم القائل الحكيم :

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده إليــه الحفاظ المرّ والخلق الوعر
ونفس تعــاف الضيم حتى كأنه هو الكفر يوم الروع ، أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجلــه وقال لها : من تحت أخمصك الحشر
تردى ثياب الموت حمراً ، فما أتى لها الليل إلاّ وهي من سندس خضر

* * *

وهذا واحد نستطيع أن نلحقه بهؤلاء :

---

(١) أي جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة عظيمة لا شوب فيها هي تذكرهم للآخرة دائما .

إنه الصحابي الجليل ، أبو المقدام شريح بن هانيء بن يزيد الحارثي ، الذي عاش عمراً طويلاً ، مع أنه كان غير حريص على الحياة ، وأدرك الجاهلية والإسلام ، وكان راجزاً شجاعاً ، وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسلم ، ودعا له النبي (١) .

ووفد والده هانيء على النبي وأسلم ، فسأله الرسول عن أكبر أولاده ، فذكر له أنه « شريح » . فقال له النبي : « أنت أبو شريح » . فصارت هذه كنيته بعد ذلك (٢) .

وأخذ فضل شريح يظهر ويتألق ، حتى قال عنه القاسم بن مخيمرة : ما رأيت أفضل منه (٣) .

وقد زان شجاعته وشعره وفضله بالفقه في الدين ، والرواية للحديث ، فروى عن عائشة ، وعلي ، وبلال وغيرهم .

وروى عنه ابناه المقدام ومحمد ، وآخرون .

وكان شريح بن هانيء من أصحاب الإمام علي رضي الله عنه ، بل من أجلهم (٤) ، ومن مقدمي جنوده ، ومن أمراء جيشه ، وشهد معه حروبه ومعاركه (٥) . وفي موقف التحكيم بين علي ومعاوية بعث علي أبا موسى الأشعري ممثلاً له ، وبعث أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانيء ، وبعث معهم عبد الله بن عباس ليصلي بهم (٦) .

---

(١) أسد الغابة ، المجلد ٢ ، ص ٥١٨ ، طبعة دار الشعب .
(٢) الاصابة ، ج ٢ ، ص ١٦١ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) الاستيعاب ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .
(٥) أسد الغابة ، المجلد ٢ ، ص ٥٢٠ .
(٦) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٦٧ .

وأوصى الإمام علي شريحاً بقوله : « اتق الله في كل مساء وصباح ، وخف على نفسك الدنيا الغرور ، ولا تأمنها على حال ، واعلم إنك إن لم تردع نفسك عن كثير مما تحب مخافة مكروهه ، سمت بك الأهواء إلى كثير من الضرر ، فكن لنفسك مانعاً رادعاً ، ولنزوتك واقماً قامعاً »[1] .

ويروي ابن أبي الحديد أن الإمام علي بن أبي طالب رضوان الله عليه دعا إليه زياد بن النضر وشريح بن هانىء ، وجعلهما أميرين على الجيش ، ثم قال لزياد : « يا زياد ، اتق الله في كل ممسى ومصبح ، وخف على نفسك الدنيا الغرور ، ولا تأمنها على حال ، واعلم أنك إن لم تزعها (تمنعها) عن كثير مما تحب مخافة مكروهه ، سمت بك الأهواء إلى كثير من الضرر ،فكن لنفسك مانعاً وازعاً من البغي والظلم والعدوان ، فإني وليتك هذا الجند فلا تستطيلن عليهم ، ان خيركم عند الله أتقاكم . تعلم من عالمهم ، وعلم جاهلهم ، واحلم عن سفيههم ، فإنك إنما تدرك الخير بالحلم وكف الأذى والجهل » .

فقال زياد : أوصيت يا أمير المؤمنين حافظاً لوصيتك ، مؤدياً لأربك ، يرى الرشد في نفاذ أمرك ، وألغي في تضييع عهدك » ! . .

وكان شريح رجلاً يقول الحق وينطق به في مواطن الرعب ، ومن أمثلة ذلك أنه لما قبض زياد بن أبيه على الشهيد المجيد : حجر بن عدي الشهيد المدفون بأغلاله[2] ، وكان هذا بأمر من معاوية بن أبي سفيان ، حاول زياد أن يحمل شريحاً على أن يطعن حجراً أو يفتي بإباحة دمه ، ولكن شريحاً أبى ذلك ، وكتب لمعاوية خطاباً يقول فيه :

---

(١) الحفيظة : الغضب . واقما : قاهرا . انظر شرح نهج البلاغة ، ج ٥ ، ص ١٠٠ .

(٢) تراجع تفاصيل بطولته في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ، ص ٩٠ — ٩٧ .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من شريح بن هانىء . أما بعد ، فإنه بلغني أن زياداً كتب إليك بشهادتي على حجر بن عدي ، وشهادتي على حجر أنه ممن يقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ويديم الحج والعمرة ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، حرام الدم والمال ، فإن شئت فاقتله ، وإن شئت فدعه » ! . .

يقول شريح هذا على سبيل التعريض والوعيد ، ولمن ؟ .. لمعاوية المصر على قتل غريمه حجر بن عدي ! !

وفي يدي معاوية حينئذ السلطة والجاه والسيف ! . .

* * *

وطال عمر شريح ثم طال ، فبلغ المائة عام ، وتجاوز ذلك بعشر سنوات ، وهو دائب على أداء ما يستطيع لدينه وقومه .

ثم جاء الموقف الهائل الفاصل في معركة « سجستان » التي أظهر فيها شريح مدى استهانته بالحياة ، بل مدى استطالته لعمره ، وضيقه بالحياة الدنيا ، ورغبته العميقة في لقاء ربه عز وجل .

كانت هذه المعركة سنة ثمان وسبعين للهجرة ، أو سنة تسع وسبعين ، وكانت ضد الروم ، وكان قائدها عبد الله بن أبي بكرة . وقد استطاع الجيش الإسلامي أن ينتصر وينتصر ، وأن يتوغل في أرض الأعداء ويتوغل .

ثم أقبلت بعد ذلك معركة في غاية الشدة والشراسة ، وابتلى المؤمنون فيه ابتلاء شديداً ، وأراد قائد المعركة أن يخفف على الجنود ، فيأذن لهم في الانسحاب .

ولكن شريح بن هانىء أصر على مواصلة الجهاد ، لينال نعمة الاستشهاد ، وجعل يقاتل ويقاتل ، حتى نال الشهادة في هذه المعركة مع عدد من رفاقه .

وكان شريح يعبر في هذه المعركة عن ضيقه بالحياة ، فيردد :

أصبحت ذا بث أقاسي الكبرا   وعشت بين المشركين أعصرا
ثمت أدركت النبي المنذرا   وبعده صديقه وعمرا
ويوم مهران ، ويوم تسترا   والجمع في صفينهم والنهرا
وبا جميرات مع المشقرا   هيهات ، ما أطول هذا عمرا (١)

ويذكر التاريخ أن القائد ابن أبي بكرة عرض على شريح فكرة الانسحاب ، فأبى شريح وقال :

« والله لقد بلغت سنا ، وقد هلكت لداتي ، ما تأتي علي ساعة من ليل أو نهار فأظنها تمضي حتى أموت ، ولقد كنت أطلب الشهادة منذ زمان ، ولئن فاتتني اليوم ما أخالني مدركها حتى أموت » ! !

وأخذ يهتف : يا أهل الإسلام ، من أراد منكم الشهادة فإلي ! !

وفي نهاية المعركة القاسية سقط شريح بن هانىء شهيداً وسط مجموعة من رفاقه ، وهو في سن المائة عام وعشرة أعوام .

تقول كتب التاريخ :

توفي شريح سنة ثمان وسبعين غازياً في سجستان ، وكان الكفار قد أخذوا

---

(١) الاصابة ، ج ٢ ، ص ١٦٢ . وأسد الغابة ، ج ٢ ، ص ٥٢٠ . وتاريخ الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٢٣ .

الدروب على المسلمين ، فقتل عامة ذلك الجيش ، ويذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » انه توفي سنة تسع وسبعين [1] .

ويلاحظ هنا أن شريح بن الحارث الكندي القاضي توفي — على قول — في العام نفسه ، وعاش أيضاً أزيد من مائة سنة .

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

---

(١) انظر الاصابة ، ج ٢ ، ص ١٦١ . والعبر ، ج ١ ، ص ٨٩ . والبداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٢٩ .

الأقرع بن حابس التميمي

يا لروعة ما يصنع الإسلام العظيم بالنفوس الداخلة فيه ، المؤمنة به !

لكأنه ينشئها بفضل الله إنشاء ، أو يعيد بناءها من جديد ، فهو — بعقيدة التوحيد — يطلقها من أوهام الشرك وضلال الكفر ، ويحررها من ذل الخضوع لغير الخالق الرازق ، البارىء المصور .

وهو — بما شرع من عبادات — يطهرها في ظاهرها وباطنها ، وهو — بأخلاقه النبيلة — يزكيها ويعليها ، ويعودها الفعل الحميد ، والكلمة الطيبة ، والسلوك الجميل ، وهو — بعقيدة البعث ولقاء الله في الدار الآخرة الباقية — يعلمها كيف تلقى الموت في رحاب الشهادة باسمة ناعمة ، لأن هذا الموت الكريم هو مفتاح بابها إلى ربها ، حيث يقال لها :

« يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

ولقد ظهر الإسلام الحنيف في بدايته بين قوم فيهم غلظة البادية ، وجفاف الصحراء ، وتحكم الأهواء . حتى قال الحق تبارك وتعالى في بعضهم : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » . فما زال الإسلام بهم ، يهذب نفوسهم ، ويطهر حواسهم ، وينفخ على كيانهم ، وبنيانهم ، بناره المزكية المطهرة ، حتى صاروا كالملائكة

يمشون بين الناس ، ويحملون أرواحهم على أكفهم ليبذلوها رخيصة في سبيل الله الذي خلق الحياة وأوجد الأحياء .

وهذا واحد من هؤلاء :

إنه الصحابي الفاضل ، المجاهد المناضل : الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان المجاشعي الدارمي التميمي ، وقيل أن اسمه « فراس » ، وأن الأقرع لقب له ، بسبب وجود قرع كان في رأسه ، ولكن الظاهر أن المسمى باسم « فراس » هو أخو الأقرع (١) .

وقد كان الأقرع في جاهليته مثلاً من أمثلة الغلظة والخشونة والعنف . نعم ، كان عظيماً في قومه ، وكان أكثرهم معرفة وخبرة ، وكان حكماً بينهم ، يفصل في خصوماتهم ومفاخراتهم في سوق عكاظ وغيره (٢) .

ويتحدث القلقشندي عن أسواق العرب ويقول : « ثم يرتحلون إلى عكاظ في الأشهر الحرم ، فتقوم أسواقهم ، ويتناشدون الأشعار ، ويتحاجون، ومن له أسير سعى في فدائه ، ومن له حكومة ارتفع إلى من له الحكومة ، وكان يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تميم ، وكان آخر من قام بها منهم الأقرع ابن حابس » (٣) .

وكان أول من حرم القمار في الجاهلية (٤) . كما لا يخلو الرجل من صفات أخرى ، تحمد ولا تعاب .

---

(١) نهاية الارب ، ج ٢ ، ص ٧١ .
(٢) نهاية الارب ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .
(٣) صبح الاعشى ، ج ١ ص ٤١١ ، وراجع حكومته في مناظرة بين جرير البجلي وخالد بن أرطاة في بلوغ الارب للالوسي ، ج ١ ، ص ٣٠١ .
(٤) صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٤٣٥ .

ولكنه كان في أول أمره مجوسياً[1] . وحينما أشرق نور الإسلام لم يسارع الأقرع إليه ، بل تقاعس عنه وتمرد عليه . وكانت فيه إلى جوار ذلك فظاظة في الحديث ، وتكبر على الناس ، وتكابر بالمال والمتاع ، وتفاخر بالنفس والحسب ، ولقد وفد ذات يوم مع قومه من بني تميم ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونادوا عليه بطريقة مؤذية ، ثم قال الأقرع للرسول : يا محمد ، أن حمدي لزين ، وأن ذمي لشين .

فوجهه الرسول إلى حسن الأدب في الخطاب قائلاً : ذلك هو الله سبحانه .

فعاد الأقرع يقول للنبي في غرور وكبرياء : نحن بنو تميم ، جئنا بشاعرنا وخطيبنا ، لنشاعرك ونفاخرك .

فقومه النبي بهدوء ، وعلمه قائلاً : ما بالشعر بعثنا ، ولا بالفخار أمرنا ، ولكن هاتوا .

وجرت المسابقة . . .

فانتصر خطيب الرسول على خطيب تميم ، وفاز شاعر الرسول على شاعر تميم ، حتى انتبه الأقرع لنفسه ، وأدرك الفرق بعينه ، فمال نحو قومه يقول لهم : يا هؤلاء ، ما أدري مع هذا الأمر ، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أرفع صوتاً ، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أرفع صوتاً وأحسن قولاً ! ؟

ثم بادر الأقرع نحو الرسول ماداً يده يقول له : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله .

ويقبل النبي إسلامه ، ويقول له : لا يضرك ما كان قبل هذا . . .

---

(١) بلوغ الارب ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ، وج ٢ ، ص ٢٣٥ .

وأخذ نبي الإسلام — عليه الصلاة والسلام — يصوغ الأقرع بن حابس بالإسلام من جديد . . .

لقد انتقل الأقرع إلى الدين العظيم ، وما زالت فيه رواسب من حياته في الجاهلية ، فلا بد من علاجها بحكمة ورفق ، حتى يستقيم على الطريق .

لقد بقيت فيه بقية من غلظة وقسوة ، حتى أنه أبصر النبي ذات يوم وهو يقبل الحسن ، فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً .

فأعطاه النبي درساً وجيزاً بقوله : « من لا يرحم لا يرحم »[1] .

وكان الأقرع جديداً على الإسلام ، وفيه تطلع إلى المال والمتاع ، فجعله النبي صلى الله عليه وسلم من المؤلفة قلوبهم ، الذين دعا الإسلام إلى معاونتهم وإعطائهم وتشجيعهم ، ليقوى إيمانهم ، وتثبت قلوبهم عليه ، وفي عددهم خلاف ، قيل أنهم خمسة عشر رجلاً هم : الأقرع بن حابس ، وأبو سفيان ابن حرب ، وعيينة بن حصن ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، وحويطب بن عبد العزي ، وسهيل بن عمرو الجهني ، وأبو السنابل بن يعكك ، وحكيم بن حزام ، ومالك بن عوف النصري ، وصفوان بن أمية ، وعبد الرحمن بن يربوع ، وأحمد بن قيس السهمي ، وعمرو بن مرداس السلمي ، والعلاء بن الحارث الثقفي[2] .

وحينما أقبلت غنائم حنين الضخمة أعطاه الرسول مائة ناقة منها .

وكان في الأقرع تطلع إلى سمو المنزلة وعلو المكانة ، لأنه كان شريفاً

---

(١) التحفة اللطيفة ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .
(٢) انظر الاعلام ، ج ١ ، ص ٣٤٣ . وتاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٩٠ ، وصبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٤٤٨ .

وسيداً بين قومه في الجاهلية ، حتى يقول السخاوي عنه في « التحفة اللطيفة » : كان شريفاً في الجاهلية والإسلام ، فأكرمه الرسول وحفظ له مكانته [1] .

وكان في الأقرع غلظ في الحديث ، فأخذ الرسول يعوده الكلمة الطيبة ، ويعلمه أنها صدقة .

وهكذا انطلقت يد رسول الله عليه الصلاة والسلام في شخصية الأقرع ، تهذبها وتؤدبها ، وتصوغها من جديد صياغة توافق هدي الدين وأدب الإسلام .

واستجاب الأقرع للتوجيه والإرشاد ، وحسن إسلامه ، وسكن المدينة ، وتألقت شخصيته ، مستنيرة بنور الإيمان وأشعة القرآن : كان غليظاً فرققه الإسلام ، وكان جافياً فهذبه الإسلام ، وكان طامعاً فأقنعه الإسلام ، وكان متعالياً فنهنه من كبريائه الإسلام .

وانطلق الأقرع في ركب الرسول الكريم ، يجاهد ويناضل ، فشهد معه غزوة حنين ، وغزوة فتح مكة ، وغزوة حصار الطائف ، وظل يبذل في سبيل الله جهده حتى لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بربه ، وواصل الأقرع بعد ذلك جهاده ، فاشترك مع شرحبيل بن حسنة في موقعة « دومة الجندل » في عهد أبي بكر ، رضوان الله عليه ، ثم اشترك مع خالد بن الوليد ، سيف الله المسلول ، في معارك فتح العراق والانبار ، وكان على مقدمة الجيش في أغلب الأحيان .

كما اشترك في معركة اليمامة .

ثم انتقل إلى ميدان جديد من ميادين النضال والطعان ، هناك بعيداً في

---

(١) التحفة اللطيفة ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

بلاد العجم ، وفي منطقة خراسان ، حيث جاهد مع الأحنف بن قيس وعبد الله ابن عامر ، وهما بطلان علمان من أبطال هذه الأمة الربانية المؤمنة .

ثم تولى الأقرع بن حابس إمارة الجيش المجاهد في خراسان، حيث خاض معركة تسمى « معركة الجوزجان » ، نسبة إلى « الجوزجان » ،وهي بلدة من بلاد خراسان ، ويذكر ياقوت في « معجم البلدان » أن يحيى بن زيد حفيد الإمام علي ، استشهد في الجوزجان .

وكانت معركة الجوزجان معركة شرسة قاسية ، وكان الأقرع بن حابس يقاتل فيها ، وحوله عشرة من أهل بيته ، كل منهم قد باع نفسه لربه ، وكان لا بد من الفتح بإذن الله وفضله .

وتحقق نصر الله ، وفتحت الجوزجان سنة ثلاث وثلاثين . في عهد عثمان .

ولكن ، كان هناك ثمن لهذا الفتح . . .

فقد استشهد عدد كبير من المسلمين ، وكان في طليعة من ذاق الشهادة : الأقرع بن حابس رضي الله عنه ، وذاق تلك النعمة معه أولئك العشرة الكرام ، الذين أحاطوا به من أهل بيته ، رضوان الله على الجميع (١) .

وهناك ، في بلدة الجوزجان ، من بلاد خراسان ، رقد جثمان الصحابي المناضل الشهيد : الأقرع بن حابس ، الغليظ الذي هذبه الإسلام ، الشريف الذي زاده الإسلام شرفاً وعزاً .

---

(١) انظر البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٦٠ . وبلوغ الارب ، ج ١ ، ص ٣١٥ . وهناك رواية عن الشاطبي ان الاقرع استشهد باليرموك بين عشرة من أهل بيته (التحفة اللطيفة ، ج ٧ ، ص ٣٢٤) .

فسلاماً سلاماً على من استجاب لكلمة الله ، واهتدى بهدي الله ، ومضى عزيزاً كريماً في سبيل الله .

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

« إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

« والذين جاهدوا فيها لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

حنظلة بن أبي عامر الأنصاري

من المبادىء التي ينبغي أن نفهمها من الإسلام ، أن أي عمل مشروع من أعمال الدنيا ، يصير طاعة لله تبارك وتعالى ، وسبباً للثواب عنده ، إذا عمره الإخلاص ، والنية الطيبة ، والمقصد الكريم ، حتى ولو كان هذا العمل أكلاً أو شرباً أو لبساً أو شهوة .

وقد تربط يد الله العلي الكبير بين موطن تبدو فيه المتعة الحسية ، أو النعمة المادية ، وموطن يسمو بمعنوياته وتضحياته إلى أعلى عليين .

وهذا مشهد من حياة أحد الصحابة الأكرمين ، يجلي لنا هذا المعنى الدقيق :

إن هذا الصحابي هو المجاهد البطل الشهيد : حنظلة بن أبي عامر عمرو ابن صيفي الأنصاري الأوسي المدني ، الذي كان من سادات الصحابة وفضلائهم وكان من أهل « الصفة » الأتقياء الأوفياء .

وقد آخى النبي – صلوات الله وسلامه عليه – بين حنظلة والمجاهد البطل الشهيد شماس بن عثمان . ونحن نشهد هنا كيف تكون هذه المؤاخاة النبوية مظهراً رائعاً من جمع الأقران بالأقران ، ووصل الاشباه بالأشباه ، وكأن يد القدر هي التي كانت تحرك لسان الرسول وهو يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ، ليجمع الند بنده ، والقرين بقرينه .

وهذه ناحية يجب أن نتتبعها بتفصيل وتحليل في السيرة العطرة ، لنستعرض مزيداً من وجوه التشابه في العمل أو القول أو المصير بين هؤلاء المتآخين .

شماس هذا قد هاجر إلى الحبشة ، وجاهد كما جاهد حنظلة ، وشهد غزوتي بدر وأُحد ، وأبلى فيهما بلاء حسناً ، وبالغ في الدفاع عن النبي يوم أحد حين غشي على رسول الله ، وأصيب شماس بجراح كثيرة حتى ارتث (١) ، فحملوه وبه رمق إلى المدينة ، فلم يلبث إلاّ يوماً وليلة ، لم يذق طعاماً أو شراباً ، وهو بين الحياة والموت ، حتى لحق بربه .

فعده الرسول صلى الله عليه وسلم من شهداء غزوة أُحد ، وأمر بحمله إلى مقبرة شهدائنا ، ودفنه فيها بلا غسل ولا تكفين ولا صلاة ، فحسبه استشهاده وهو في عز شبابه ، فقد كان يومئذ في الرابعة والثلاثين من عمره .

ومن يدري . . . لعل مضجعه حين دفن كان إلى جوار أخيه في الإسلام ، وشبيهه في البطولة ، وشريكه في الشهادة ، حنظلة بن عامر الذي لقي ربه شهيداً في غزوة أُحد أيضاً (٢) .

يقول ابن سيد الناس في كتابه « عيون الأثر » عن شماس بن عثمان :

« قتل يوم أُحد ابن أربع وثلاثين سنة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرمي ببصره يميناً ولا شمالاً يومئذ إلاّ رأى شماساً في ذلك الوجه ، يذب بسيفه عنه ، حتى غشي رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم ، فترس

(١) ارتث : الارتثاث هو أن يحملوا الجريح من المعركة وهو ضعيف قد ابخنته الجراح ، والرثيث أيضا الجريح ، كالمرتث (النهاية) .
(٢) اقرأ تفاصيل بطولة شماس في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ، ص ٢٢٨ وما بعدها .

بنفسه دونه ، حتى قتل ، فحمل إلى المدينة وبه رمق ، فأدخل على عائشة ، فقالت أم سلمة : ابن عمي يدخل على غيري ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احملوه إلى أم سلمة ، فحمل إليها ، فمات عندها ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد إلى أحد فيدفن هنالك كما هو في ثيابه التي مات فيها ، بعد أن مكث يوماً وليلة ، إلاّ أنه لم يأكل ولم يشرب .

ولم يصل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يغسله »[1] .

* * *

ونعود إلى بطلنا حنظلة . . .

كان حنظلة قد خطب لنفسه فتاة ، هي « جميلة بنت عبد الله بن أُبي » . واستأذن حنظلة النبي في أن يدخل عليها ، فأذن له ، وكان ذلك في الليلة السابقة لغزوة أُحد .

ولعل النبي صلى الله عليه وسلم قد أذن له بذلك لأمر يعلمه الله ، ويكشفه للأنظار بعد ذلك ، فتكون فيه عبرة وعظة ، وحكمة وذكرى .

وأفضى حنظلة إلى عروسه ، فضمهما فراش واحد لأول ليلة ، ثم سمع حنظلة صوتاً ينادي إلى الجهاد ليلتئذ ، فشغله الصوت عن كل شيء ،وأعجلته الاستجابة السريعة حتى عن الاغتسال[2] .

---

(١) عيون الاثر ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٢) يروى انه قام عند الفجر فصلى ، ثم عاد الى النوم ، ثم عاشر زوجته، ثم سمع الصيحة ..

ودخل حومة القتال ، فجاهد ما جاهد ، وتصارع مع أبي سفيان الذي كان حينئذ مشركاً ، فطعن حنظلة حصان أبي سفيان ، وأوقعه من فوقه ، وتمكن منه ليضربه الضربة القاضية ، فجاء من الخلف رجل مشرك اسمه : شداد بن الأسود ، وطعن حنظلة طعنة قاتلة ، فسقط شهيداً .

ومضت المعركة حتى نهايتها ، ثم تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حنظلة الشهيد فقال لأصحابه :

ما شأن حنظلة ؟ إن صاحبكم لتغسله الملائكة ، فاسألوا أهله (يعني زوجته) ما شأنه ؟ . .

فسئلت زوجته عن ذلك فقالت : سمع الهيعة (أي صيحة الحرب التي فيها فزع)[1] وهو جنب ، فخرج ولم يتأخر الاغتسال ! . .

فلما بلغ كلامها مسمع النبي قال : لذلك غسلته الملائكة . لقد رأيت الملائكة تغسله في صحاف الفضة بماء المزن بين السماء والأرض .

وروى أن جبريل عليه السلام أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبر الرسول به أصحابه .

ويروى أنهم التمسوا حنظلة بين القتلى ، فوجدوا رأسه يقطر ماء ، وليس بقربه ماء ، فكان ذلك تصديقاً لما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا مستنداً لمن قال من الفقهاء : إن الشهيد يغسل إذا كان جنباً ، وبعضهم يقول : لا يغسل كسائر الشهداء ، لأن التكليف سقط عنه بالموت ، فهو غير مكلف بالاغتسال حينئذ .

---

(١) ويقال لها أيضا : الهائعة ، او الهاتفة .

ومنذ ذلك اليوم وحنظلة يلقب بلقب « الغسيل » أو : « غسيل الملائكة » ، فلا يفتح الإنسان كتاباً من كتب السيرة العطرة إلاّ ويقرأ في أخبار غزوة أحد قصة « حنظلة غسيل الملائكة » .

وهكذا اتصل هذا اللقب في بدايته وسببه بمتعة حسية جنسية كانت بين زوج وزوجته ، في بداية حياتهما الزوجية ، وارتفع هذا اللقب في خاتمته حتى اقترن بملائكة الرحمن ، وهم العباد المكرمون ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وتزكى هذا اللقب — برغم اتصاله بناحية اللذة والشهوة — حتى صار تذكيراً رائعاً بأولئك الذين صدقوا ، وباعوا لله أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فهم لا يتحركون إلى ساحة الجهاد برهبة أو خوف ، ولا يساقون إلى القتال بإكراه أو إرغام ، وإنما يسارعون إلى ساحات الجهاد بلا توقف أو تلبث ، لأنهم يرونها مسالك تؤدي بهم إلى جنات النعيم ، وإلى رضوان الله المقيم ، من أقرب طريق .

ولأنهم قد وعوا خير الوعي قول سيدنا وقائدنا ورائدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه ، كلما سمع هيعة طار إليها » .

وهذا تصوير لا مثيل له لاستعداد الجندي المؤمن ويقظته ، فهو دائماً في حالة انتباه تام ، وتأهب كامل ، وترقب شامل ، فما يكاد يسمع أي صوت يستدعي البدء في القتال ، حتى يطير طيراناً إلى البذل والتضحية والفداء .

وتروي السيرة العطرة من مكارم حنظلة غسيل الملائكة وشمائله ، أن زوجته « جميلة » رأت في نومها ، في الليلة الوحيدة التي نامها معها ، كأن باباً في السماء قد فتح أمام حنظلة ، فدخل منه ، ثم أغلق الباب عليه .

فأدركت « جميلة » من رؤياها هذه أن زوجها سيلقى الشهادة عما قريب .

وكذلك كان . . .

كما كان من عجيب صنع الله تبارك وتعالى أن « جميلة » حملت من زوجها حنظلة في هذه الليلة ، وبعد مدة الحمل ولدت ابناً سمي : « عبد الله ابن حنظلة » ونشأ عبد الله رضي الله عنه فاضلاً خيراً ، حتى أن أهل المدينة اختاروه ليكون والياً عليهم ، حين خلعوا يزيد بن معاوية لانحرافه وفسقه .

وهكذا أراد الله سبحانه أن ترتبط « جميلة » بالشهيد المبارك غسيل الملائكة ، فتكون زوجته في الدنيا والآخرة ، وتحتمل فقده خير احتمال ، وتكون أم ولده النجيب الصالح ، فترى فيه صورة من أبيه ، وعوضاً عنه ، حين تراه : « ألا ان أوليـــاء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم » .

* * *

لقد كرم رسول الله — عليه الصلاة والسلام — شهداء أُحد ، فقال فيهم : ادفنوهم بدمائهم وثيابهم » .

ثم دعا لهم ، ذاكراً فضلهم وجهدهم ، فقال : « أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة » .

ثم عاد بعد حين فدعا لهم ، فقال : « أنا شهيد على هؤلاء ، انه ما من جرح يجرح في سبيل الله ، إلاّ والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه : اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » ! . .

وهكذا يجعل الله عنده موازين لتقدير الأعمال غير موازين الناس ، وإنما ترجح موازين العباد عند الله سبحانه ، ويفوزون الفوز الكبير ، إذا أخلصوا لله نياتهم ، واحتسبوا لوجه الله أعمالهم وخطواتهم ، إنما يتقبل الله من المتقين .

« وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

رضوان الله تبارك وتعالى على حنظلة الشهيد غسيل الملائكة ، ورضوان الله على جميع الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فكانوا نبراساً يضيء الطريق أمام الأوفياء .

غالب بن عبدالله بن مسعر الليثي

من حقائق التاريخ الواضحة ، وشواهده اللائحة ، أن القائد لا بد له من جنود مخلصين ، وأتباع صادقين ، حتى يثق بهم ، ويتحرك بهم ، ويعتمد بعد الله جل جلاله عليهم . ولا بد للراعي الصالح من رعية صالحة ، تعينه على الخير ، وتصده عن الشر ، ولعل هذا هو الذي جعل عبد الله ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام يهتف قائلاً : من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، وأشهد بأنا مسلمون .

ولعل هذا هو الذي جعل القرآن المجيد يجمع بين النبي وأتباعه ، فيقول : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم . . . » .

وما أشد حاجة القائد إلى الأنصار من حوله ، يؤيدونه ، ويستجيبون له ، ويصدقونه النصيحة والتأييد والمعاونة ، فإن سيد البشرية محمداً — صلى الله عليه وسلم — قد قال : « ما بعث الله من نبي ، ولا استخلف من خليفة ، إلاّ كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضّه عليه ، فالمعصوم من عصم الله تعالى » .

ومع أن أستاذ الإنسانية محمداً كان نبياً ورسولاً ، ومؤيداً من الله ومعصوماً وموعوداً بالنصر والغلبة ، فقد جعل الله له من حوله كوكبة مشرقة مضيئة من صحابته ، يفدونه بأرواحهم وآبائهم وأمهاتهم ، ويسارعون إلى طاعته

ومرضاته ، ويبادرون إلى توجيهه وأمره . وأمتن عليه ربه بذلك فقال له : « هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم » .

وبذلك الإخلاص الراسخ المتمكن المتبادل بين الرسول وأتباعه ، أو بين القائد وجنوده ، استطاعوا أن يحيوا حياة العزة والحرية والكرامة ، لا يخضعون ولا يخنعون ، بل يعزون ويرتفعون ، حتى قال القرآن الكريم فيهم : « يا أيها النبي حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين » .

وهذا واحد من أولئك الصحاب الأحباب ، الذين صدقوا الله ، وأخلصوا للرسول ، وحرصوا على المسارعة إلى مواطن الفخر والأجر ، فكانوا من الفائزين في الدنيا ويوم الدين :

إنه الصحابي الجليل ، والمجاهد القائد ، أمير السرايا : غالب بن عبد الله ابن مسعر الليثي ، رضي الله عنه . وقد كان أبرز ما فيه من صفات الخير أنه على استعداد دائم للقيام بالواجب ، وأنه لا يمل الانتقال من ميدان إلى ميدان ، وكأن الله قد جعله سيفاً له في يد رسوله ، يسدد به الضربات ، ذات اليمين وذات الشمال ، بلا ضعف أو كلال .

فها نحن أولاء نرى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في شهر شوال من السنة الثانية للهجرة ، يبعث غالب بن عبد الله في سرية فدائية ، إلى أعداء الله من بني سليم وغطفان ، فيوسع فيهم – مع رفاقه – الضرب والقتل ، ويغنم منهم غنائم كبيرة ، وبعد أسبوع تقريباً يعود مع رفاقه ظافرين منتصرين إلى الرسول الأمين ، عليه الصلاة والسلام (١) .

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ .

ويواصل غالب كفاحه ، ثم يظهر التبجح والتمرد من بني الملوح ، في مكان يقال له « الكديد » فيبعث الرسول إليهم بغالب ، ومعه ستون مجاهداً ، سنة خمس للهجرة ويأمرهم بأن يغيروا على أعداء الله جل علاه ، فيستجيبوا ويقتلوا ويغنموا ، ويعودوا ظافرين [١] .

ثم يرسله النبي مرة ثالثة في سرية إلى أهل « الميفعة » بناحية نجد ، ومعه مائة وثلاثون مجاهداً ، وكان دليلهم في الطريق هو « يسار » مولى رسول الله عليه الصلاة والسلام . وكانت هذه السرية سنة سبع ، في شهر الصوم العظيم : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى الناس وبينات من الهدى والفرقان .

وما أكثر الروابط التي ربطت بين شهر رمضان ومعارك النزال والطعان ، في تاريخ اليقين والإيمان .

وصاحب التوفيق « غالباً » ورفاقه ، فهاجموا الأعداء من بني مرة — وفي رواية من بني عبد ثعلبة [٢] وقتلوا من تصدى لهم ، وغنموا ما غنموا من الإبل والشاء وعادوا ظافرين منتصرين [٣] .

وهذا شاعر الإسلام أحمد محرم في ديوانه الجليل « مجد الإسلام » يخلد هذه الموقعة ، فيقول فيما يقول :

اسألي يا نجد أرض الميفعه　　كيف أمسوا بعد أمن ودعه
وانظري ما صنع الكفر بهم　　من أذى يعجبه أن يصنعه

---

(١) الاصابة ، ج ٣ ، ص ١٨١ . والاستيعاب على هامش **الاصابة** ، ج ٣ ، ص ١٨١ .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٣ .
(٣) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢ . والطبقات لابن سعد ، ج ٢ ، ص ٨٦ وعيون الاثر ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

هو صنو الشر ، أو توأمـــــه   مـــا ثوى في موطن إلاّ معه
ما الذي يعصمهم من « غالب »   جذوة الحرب ، وليث المعمعه
جـــاءهم يقدم من أبطــــاله   كل ماض لا يبالي مصرعـــه
يمنع الإسلام مــــن أعدائــه   بــدم يأبى لــه أن يمنعــه
لو تمشى المـــوت في بردتـــه   حـــين يمشي للوغى ما روعه
أخـــــذوهم أخــــــذة رابيـــة   صـــادفت منهم نفوساً فزعه
ثم آبوا كـــــالنجوم الزهر في   نعمــــة مما أصـــابوا وسعــه

ويقول أيضاً عن سريته إلى بني الملوح :

بني الملـــوح لا حـــام ولا واق   طاف الردى ، وتلاقى الشرب والساقي
أتتكم المرهفات البيض زائـــرة   فاستقبلوهـــا بهامات وأعنـــاق
مشى بها « غالب » في غير ما وهن   يلف للحرب آفـــاقاً بـــآفاق
رمت بـــه همم الإيمان ممنعــــة   فالشرك يرجف من خوف وإشفاق

* * *

ثم يرسل النبي غالب بن عبد الله الليثي مرة رابعة في شهر صفر سنة ثمان للهجرة ، في سرية فدائية إلى « فدك » ، وهي قرية في الحجاز ، بينها وبين المدينة يومان ، وفي هذه السرية أوصى غالب رفاقه وزمـــلاءه بالوحدة والاجتماع ، وعدم التفرق أو التنازع ، وآخى بينهم بأخوة الإسلام والنضال .

وقال لهم فيما قال : « لا تعصوني ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال : من أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني ، وأنكم متى ما تعصوني فإنكم تعصون نبيكم صلى الله عليه وسلم »[1] .

---

(١) الطبقات لابن سعد ، ج ٢ ، ص ٩١ .

وصدق غالب فيما قال ، فقد رسم له الرسول الخطة ، واختاره للإمارة ، ووكل إليه مهمة التنفيذ . فهو إذن متبع ، وليس بمبتدع ، فطاعته حينئذ من طاعة الرسول ، ما دام مهتدياً بهديه ، ملتزماً بأمره ، وطاعة الرسول من طاعة الله تعالى .

وقد صاحب التوفيق « غالباً » مرة أخرى مع رفاق السلاح وزملاء الجهاد وأخوة الميدان ، فهاجموا وأصابوا ، وغنموا وانتصروا ، والله ولي العاملين .

وجاء عام الفتح الأعظم : فتح مكة ، بعد سنوات شداد ، قضاها فرسان الرحمن وخيل الله في النضال والطعان ، وتهيأت أمام الرسول الفرصة الذهبية للعودة إلى مكة وبيت الله الحرام ، وأرادها الرسول معركة خاطفة بيضاء ، بلا ضحايا ولا دماء ، وأرادها عودة مظفرة باهرة ، شعارها : جاء الحق ، وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقاً .

وقبل أن يتحرك الرسول بجيشه نحو مكة ، أرسل غالب بن عبد الله الليثي سراً ، ليسهل له الطريق بين يديه ، وليكون عيناً أمام تحركه ، فلا تفوته صغيرة ولا كبيرة يحتاج إلى علمها ، لينبه إليها الرسول .

وقام غالب بمهمته خير قيام ، واستولى وهو في الطريق على ستة آلاف رأس من الغنم كانت للأعداء المشركين المحاربين . وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم على « غالب » وهو في الطريق يرصد ويلاحظ ويتابع وكان الوقت حينئذ في رمضان شهر الصوم ، ولكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أفطر تقوياً على الجهاد ، ودعا من حوله إلى الإفطار ، وقد سقاه غالب من لبن الشياه .

ونادى الرسول على الناس ليفطروا ويشربوا ، وحين قال بعضهم : إني صائم ، رد النبي بقوله : هؤلاء العاصون .

وهكذا أراد نبي الملحمة ورسول الحرية أن يبين للناس أن الاستعداد للجهاد منزلة مقدمة على غيرها من الفروض ، ولذلك وجه المسلمين المجاهدين إلى الإفطار في رمضان وهم يحاربون ، ليكون ذلك أقوى لهم على حسن الجهاد.

* * *

ولقد اشترك غالب بن عبد الله الليثي في فتح القادسية ، وهو الذي قتل هرمز ملك « الباب » وتولى غالب إمارة خراسان في عهد معاوية ، ولاه إمارتها زياد بن أبيه ، ومات غالب بعد ذلك .

وكان غالب كثير البكاء من خشية الله ، فقيل له : انا نخاف على عينك العمى من طول البكاء ! . .

فقال : هو لها شهادة ! . .

وقيل له مرة أخرى : أما تخاف على عينك من العمى من طول البكاء ؟ . .

فقال : شفاءها أريد .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

لقد كان من الذين يحسنون التدبر لقول الله جل جلاله : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ، وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه ، تنزيلاً ، قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا تتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ، ويقولون : سبحان ربنا ، إن كان وعد ربنا لمفعولاً ، ويخرون للأذقان يبكون ، ويزيدهم خشوعاً » .

رويفع بن ثابت البلوي

من الحقائق التي لا تقبل الجدل ، ولا تحتمل الشك ، إن الله تعالى جعل أمة الإيمان واحدة : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون » .

وجعل أبناء هذه الأمة فروع شجرة واحدة ، هي شجرة الإسلام والأخوة في الله : « إنما المؤمنون أخوة » .

وجعل الوطن المؤمن كله وحدة متماسكة ، جواز المرور فيه هو شهادة لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله .

وجعل أبناء هذا الوطن مترابطين متكافلين كالجسد الواحد ، أو كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

ولذلك كان الوطن الإسلامي يمتد في أرجاء المشرق والمغرب قوياً وطيداً ، وكان المسلم يتنقل في جنبات هذا الوطن العريض الواسع ، آمنا مطمئناً ، عزيزاً كريماً ، شاعراً بأنه في بلده وداره ، وبين أهله وأخوته ، من حلب الشهباء حتى الدار البيضاء على شاطىء المحيط .

ونحن اليوم — مثلاً — نردد بألسنتنا أن وطننا العربي يمتد من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر ، ولكننا نردد ذلك على سبيل التمني والتطلع والرجاء ،

لا على سبيل الوصف للواقع . فيا حسرتا على المسلمين في حاضرهم ، ويا سعة بعدهم عن ماضيهم المجيد .

لقد تفرق الشمل الجميع ، وتمزق الوطن المنيع ، وتقطعت أواصر الأخوة والمحبة والمودة بين ثمانمائة مليون ينتسبون إلى الإسلام ، وأصبح بأسهم بينهم شديداً ، فهانوا على أنفسهم ، وعلى الناس ، وعلى الله عز وجل :

إني تذكرت ، والذكرى مؤرقة   مجداً تليداً بأيدينا أضعناه
أني اتجهت إلى الإسلام في بلد   تجده كالطير مقصوصاً جناحاه
ويح العروبة ، كان الكون مسرحها   فأصبحت تتوارى في زواياه
كم صرفتنا يد كنا نصرفها   وبات يملكنا شعب ملكناه

ولقد كان المؤمن يرى نفسه مسئولاً عن أمته وقومه ووطن دينه ، مهما بعدت الديار ، أو تناءت الأقطار ، فالكل ربهم الله ، ورسولهم محمد ، ودستورهم القرآن ، وقبلتهم الكعبة ، وشعارهم الوحدة والعزة ، ورسولهم يقول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .

ولذلك كان المسلم يتنقل في أرجاء الوطن الإسلامي مجاهداً مصلحاً ، داعياً إلى الخير وإلى صراط مستقيم .

* * *

وهذا واحد من السلف ، نراه ينشأ في وسط الجزيرة العربية ، ويقيم في المدينة ، ثم يسكن مصر ، ثم يرحل إلى أفريقية ، ويدخل المغرب ، ويصبح أميراً في طرابلس، ويجاهد في شمال أفريقية ، ثم يسلم روحه إلى بارئها في مدينة « برقة » وهو أمير عليها ، دون أن يحس بوحشة أو اغتراب .

إنه الصحابي الجليل ، المجاهد المناضل ، الأمير القائد : رويفع بن السكن ابن حارثة البلوي الأنصاري النجاري المدني المصري الطرابلسي الأفريقي ، الذي يقول عنه ابن كثير في « البداية والنهاية » : « صحابي جليل شهد فتح مصر ، وله آثار جيدة في فتح بلاد المغرب » (١) . ويقول السخاوي عنه في « التحفة اللطيفة » (٢) : « صحابي ، سكن بمصر ، وكان أميراً لطرابلس ، وغزا أفريقية ، ومات في برقة ، وهو أمير عليها » .

كان رويفع ينزل مكاناً في الجزيرة يسمى « الجناب » ، ثم أسلم وصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وروى عنه (٣) ، وشهد معه مشاهد ، وكانت له في الجهاد والبطولة مواقف ، وكان صاحب بيان وخطابة .

وقد أراد الله تبارك وتعالى أن يكون رويفع همزة الوصل بين قومه قبيلة « بلى » ورسول الله عليه الصلاة والسلام ، حيث قادهم إلى ساحة النبي ليسلموا ، يقول : « قدم قومي في شهر ربيع الأول سنة تسع ،فأنزلتهم في منزلي ببني جديلة ، ثم خرجتهم حتى انتهينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس مع أصحابه في بيته ، في الغداة ، فقدم شيخ الوفد أبو الضباب ، فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فتكلم ، وأسلم القوم ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الضيافة ، وعن أشياء من أمر دينهم فأجابهم ، ثم رجعت بهم إلى منزلي ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي بحمل تمر ويقول : استعن بهذا التمر ، فكانوا يأكلون منه ومن غيره ، فأقاموا ثلاثاً ،

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٦١ .
(٢) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، ج ٢ ، ص ٨١ .
(٣) الطبقات ، ج ٤ ، ص ٧٢ ، القسم الثاني .

ثم جاءوا الرسول يودعونه ، فأمر لهم بجوائز ، كما كان يجيز من قبلهم ، ثم رجعوا إلى بلادهم »[(١)] .

وظل رويفع يناضل ويجاهد في سبيل الله والأمة ، وفي سنة ست وأربعين جعله معاوية أميراً على طرابلس الغرب (في ليبيا) فغزا وفتح في شمال أفريقية . وفي سنة سبع وأربعين توجه في كتيبة بحرية ، وفتح بلدة « جربة » ، وهي بلدة في بلاد المغرب قرب « قابس » ، ونشر فيها الدين ، وضم أهلها البربر إلى جماعة المسلمين .

ووقف رويفع بين رفاقه خطيباً عقب الفتح ، فحذر المجاهدين أن يمس أحدهم شيئاً من المغانم خلسة أو دون حق ، حتى يظل جهادهم خالصاً لوجه الله ، وحتى يتحقق لهم الإيمان على وجهه[(٢)] . وذكر لهم أنه كان مع رسول الله عليه الصلاة والسلام يجاهد في غزوة خيبر ، فلما انتصر المسلمون ، وغنموا الغنائم ، وقف الرسول بين صحابته ، فقال لهم :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يأخذ دابة من المغنم فيركبها حتى إذا أعجفها (أهزلها) ردها في المغانم . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس ثوباً من المغنم حتى إذا أخلقه (جعله باليا) رده في المغانم »[(٣)] .

وقد روى ابن إسحاق هذا الخبر هكذا :

« عن حنش الصنعاني قال :

---

(١) في تاريخ الطبري عن أحداث السنة التاسعة : « قدم وفد بلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الاول فنزلوا على رويفع ابن ثابت البلوي » ، ج ٣ ، ص ٩٦ .
(٢) انظر كتاب رياض النفوس للمالكي ، ج ١ ، ص ٥٣ .
(٣) كتاب التمهيد لابن عبد البر ، ج ٢ ، ص ٢١ .

غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصاري المغرب ، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها جربة ، فقام فينا خطيباً فقال :

أيها الناس، إني لا أقول فيكم إلاّ ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول فينا يوم خيبر ، قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره — يعني إتيان الحبالى من السبي — ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً حتى يقسم ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيىء المسلمين ، حتى إذا أعجفها ردها فيه ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فيىء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه » (١).

وهكذا أعطى رويفع المجاهدين درساً في الأمانة ، وتجنب الخيانة ، حتى تظل معهم يد الله تبارك وتعالى .

وكان رويفع بن ثابت البلوي — رضي الله عنه — يشعر بتبعة التبليغ وواجب التذكير بالله عز وجل ، وكان يحس كأنه وارث للرسول في الدعوة ، فلا بد له من أن يصون الأمانة ، ولذلك نراه يقف بين قومه ذات يوم ، وهو يواصل جهاده في أفريقية ، فيقول :

« إن الله عز وجل قبض نبيه صلى الله عليه وسلم وخلفني حتى أخبركم » .

وهنا بلغ به التأثر مبلغه ، فغلبه البكاء ، فجلس حتى هدأت دموعه ، ثم قام وواصل كلامه !

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ .

وهكذا كان كل صحابي من صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، يرى أنه مكلف بالتبليغ ، مسئول عن الدعوة ، لأن الله عز شأنه يريد من أمته المؤمنة أن تكون كذلك : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

ولذلك تسلسلت جموع الأمة الربانية المحمدية ، وانتظم أفرادها في عقد الدعوة إلى الله سبحانه : بدأ التبليغ بالرسول الأعظم ، ومن ورائه الصحابة الكرام ، ومن ورائهم التابعون ، ومن ورائهم تابعو التابعين ، ومن ورائهم كل من دعا بدعوة الإسلام بإحسان إلى يوم الدين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ومن ولوع رويفع بالدعوة أنه ذهب إلى موسى بن نصير وقال له :

« إني رأيت أن علي حقاً أن أودك ، وأذكر لك شيئاً قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرغبك به في فعل الخير ، وكثرة الصدقة والمعروف ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المعروف من أبواب الجنة . وهو يمنع مصارع السوء » [1] .

وقد بلغ رويفع في العلم بالحديث الشريف أن روى عنه جماعة ، كما يذكر ذلك السخاوي [2] .

توفي رويفع بن ثابت البلوي سنة ست وخمسين للهجرة ، وهو أمير على برقة من جهة مسلمة بن مخلد ، وفي « رياض النفوس » أنه توفي سنة ثلاث

---

(١) **رياض النفوس** ، ج ١ ، ص ٥٣ .
(٢) التحفة اللطيفة ، ج ٢ ، ص ٨١ .

وخمسين ببرقة [1] . وفي « تهذيب الأسماء » للنووي : « توفي ببرقة أميراً عليها ، وقبره بها ، وقيل: مات بالشام ، والصحيح الأول » [2] . وقبره مشهور في الجبل الأخضر ببرقة ، وهو آخر من توفي من الصحابة في مدينة برقة .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

(١) رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٥٤ .
(٢) تهذيب الاسماء ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

قطري بن الفجاءة المـــازني

نحن نقرأ قول الله تبارك وتعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

وهناك في تاريخ الإسلام جماعة يسمون أنفسهم « الشراة » ، لأنهم جعلوا هذه الآية الكريمة شعاراً لهم ، فهم يجاهدون حسب اعتقادهم على أن يكونوا من الذين باعوا نفوسهم لربهم . ومن أعلام هذه الطائفة قطري بن الفجاءة المازني الذي أشار إلى هذا الشعار حين قال :

رأت فتية باعوا الإله نفوسهم   بجنات عـــدن عنـــده ونعيم

وحين قال أيضاً :

فسر نحونا تلق الجهـــاد غنيمة   نفدك ابتياعاً رابحاً غير خاسر !

وقطري هذا هو الشاعر الخطيب البليغ ، الفدائي الشهيد : أبو نعامة قطري بن الفجاءة بن مازن بن يزيد الكناني التميمي ، من رؤساء طائفة الأزارقة وأبطالهم ، وهو من أهل « قطر » ، وهي تلك الإمارة العربية الإسلامية الشقيقة ، التي تقع بين عمان والبحرين ، وكنية قطري هي « أبو نعامة » نسبة إلى فرسه التي كان يقاتل عليها ، وكان اسمها « نعامة » .

وهكذا كان الأسلاف يربطون بين حياتهم وجهادهم ، حتى في الأسماء والألقاب .

وقد ولد في مكان يقال له : « الاعدان » ، والاعدان — كما في معجم البلدان — ماء لبني تميم بن مازن .

وإذا كان عهدنا بعدد من الشعراء أنهم جبناء ، وأنهم — كما يقول القرآن الكريم — : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » فقد كان قطري بن الفجاءة شاعراً خطيباً فارساً ، وكان سيداً عزيزاً ، يقول شعره كثيراً في الحماسة ، ويقرن القول بالعمل ، فهو يدعو إلى الجهاد بشعره ، ثم يكون من أوائل الخارجين إلى الميدان للقتال ، وهو يدعو إلى البذل والتضحية ، ثم يصدق ذلك بعمله .

ولذلك يقول عنه ابن كثير : « كان قطري بن الفجاءة مع شجاعته المفرطة وإقدامه ، من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، وجودة الكلام والشعر الحسن »[1] .

ويقول عنه بعض المؤرخين : « كان طامة كبرى ، وصاعقة من صواعق الدنيا في الشجاعة والقوة » .

ولذلك لم يكن عجيباً أن يقول هذه الأبيات عن حديثه إلى نفسه :

أقول لها وقد طارت شعاعـا ... من الأبطال ويحك لن تراعي
فـإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجـال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع[2]

(١) البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٣٠ .
(٢) كتاب الفداء في الاسلام ، ص ٥٠ ، الطبعة الثانية .

ولقد وصف ابن كثير هذه الأبيات بقوله : « فمن مستجاد شعره قوله يشجع نفسه وغيره ، ومن سمعها انتفع بها » ثم يورد الأبيات ، ثم يقول عنها : « ذكرها صاحب الحماسة ، واستحسنها ابن خلكان كثيراً » [1] .

ولم يكن قطري يقاتل أو يجاهد زهواً أو تباهياً ، أو طلباً لمتاع الحياة وزينة الدنيا . بل كان يجاهد بمقتضى مبدئه وعقيدته ، وكان يجاهد تطلباً للشهادة ، وحرصاً على التقوى ، وطلباً للآخرة ، وفراراً من خداع الفانية ، ولذلك كان يردد قوله :

حتى متى تخطئني الشهاده … والموت في أعناقنا قلاده
ليس الفرار في الوغى بعاده … يا رب زدني في التقى عباده
وفي الحياة بعدها زهاده

وهو القائل يصور شجاعته وإقدامه :

لا يركنن أحد إلى الإحجام … يوم الوغى متخوفاً لحمام
فلقد أراني للرماح دريئة … من عن يميني مرة وأمامي
حتى خضبت بما تحدر من دمي … أكتاف سرجي أو عنان لجامي
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب … جذع البصيرة قارح الاقدام [2]

وهو أيضاً القائل :

ألا أيها الباغي البراز تقربن … أساقك بالموت الذعاف المقشبا
فما في تساقي الموت في الحرب سبة … على شاربيه فاسقني منه واشربا [3]

---

(١) **البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٣٠ و ٣١ .**
(٢) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ، ج ١ ، ص ١٣٠ .
(٣) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

والتساقي أن يسقي بعضهم بعضاً ، والذعاف : السم السريع ، والمقشب ، الذي خلطوا به أدوية تقويه .

ولقد شارك قطري في معركة « دولاب » حيث جرت الحرب بين جماعة قطري وأهل البصرة ، وفخر قطري ما شاء الله الفخر بما فعل يوم « دولاب » ، ونظم في ذلك قصيدة جعل مطلعها :

لعمرك أني في الحيـاة لزاهد ... وفي العيش ما لم ألق أم حكيم

ومنها قوله :

ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى في الحرب غير ذميم
غـداة طغت غلمان بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم
فلم أرَ يومـاً كان أكثر مقعصاً ... يمج دماً من قائظ وكليـم
وضـاربة خـداً كريماً على فتى ... أغر نجيب الأمهـات كريم
أصيب بدولاب ولم تكن موطنـاً ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنـا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفـار كل حريم
رأت فتيـة بـاعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنـده ونعيم (١)

* * *

وإذا كان الحق جل جلاله يقول في وصف أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام : « أشداء على الكفار » فقد أوتي قطري بن الفجاءة صورة في ملامحه وهيئته ترعب وتخيف ، فقد كان صاحب رهبة ومهابة ، ولقد كان يهاجم أعداءه أحياناً وهو ملثم ليفجأهم برؤيته وهيبته حين يقتربون منه .

(١) رحلة الشعر من الاموية الى العباسية للدكتور الشكعة ، ص ٦٦ .

ولقد حدث أن هاجم أحد أعدائه ، فلما دنا منه كشف قطري عن وجهه ، فارتعد عدوه وولي هارباً ، فنادى عليه قطري يقول : «أما تستحيي أن تفر ولم ترَ طعناً ولا ضرباً » ؟

فقال الرجل المولي هارباً : أن الإنسان لا يستحيي أن يفر من مثلك [1] !

ولذلك يروي أن أصحابه « الأزارقة » كانوا يهابونه ويعظمونه ، ولعل من مظاهر ذلك أنهم ظلوا سنوات يسلمون عليه بالخلافة ، وينعتونه : « أمير المؤمنين » .

وهذا أمر غير بعيد مما يحرص عليه قادة الجيوش الآن من تعويد الجنود – وبخاصة أفراد فرق الصاعقة وما أشبهها – على الغلظة والشدة على الأعداء ، ولعل كلمة « وحش » التي ينادون بها الجندي أحياناً مظهر من مظاهر هذا الاعداد .

والغلظة على الأعداء البغاة الطغاة لا تبعد عن منطق القرآن الكريم ، فهو يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . ويقول : « قاتلوا الذين ياونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ». ويقول : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

* * *

وكان لقطري بن الفجاءة زوجة بطلة مقاتلة مناضلة ، مجاهدة فدائية اسمها : « أم حكيم » . وكانت من أجمل النساء وجهاً ، ومع ذلك كانت

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٣٠ .

من أحسن النساء بالدين تمسكاً ، ومن أشجع الناس قتالاً وجهاداً ، وكانت تتمنى أن تهيىء لها الأقدار — وهي تجاهد — بطلاً أقوى منها ، يقطع رأسها في سبيل الله عز وجل ، لتنال نعمة الشهادة ، فتفوز بثوابها عند ربها ، ولكي تستريح من غسل شعرها ودهنه وتمشيطه ، فتقول وهي في حومة الوغى :

أحمل رأساً قد مللت حمله   وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله[1] ؟

وهناك ظاهرة تاريخية في حياة هؤلاء الفدائيين الشراة ، وهي أن الكثير من رجالهم كانت زوجاتهم مجاهدات فدائيات مؤمنات ، تعرضن للقتال في ساحات النضال ، في سبيل العقيدة والمبدأ .

* * *

ويروي الجاحظ خطبة لقطري بن الفجاءة ، يصور فيها الدنيا وخدعها تصويراً رائعاً أخاذاً ، ويحذر الناس شرها وشررها ، وخطرها وضررها ، ويذكر الجاحظ أن هذه الخطبة خطبها قطري من فوق منبر الأزارقة ، حيث صعده ، وحمد الله تبارك وتعالى ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات ، وراقت (أعجبت) بالقليل ، وتحببت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور ، لا تدوم حبرتها ، ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة ، خوانة غدارة ، وحائلة زائلة ، ونافذة بائدة ، أكالة غوالة ، بدالة نقالة ، لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال

---

(١) كتاب الفداء في الاسلام ، ص ٤٧ ، الطبعة الثانية .

الله تعالى : « كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً » .

مع أن امرأ ً لم يكن منها في حبرة إلاّ أعقبته بعدها عبرة (دمعة) . ولم يلق من سرائها بطناً ، إلاّ منحته من ضرائها ظهراً ، ولم تطله غيثة رخاء ، إلاّ هطلت عليه مزنة بلاء ، و حري إذا أصبحت له منتصرة ، أن تمسي له خاذلة متنكرة ، وأن جانب منها اعذوذب وأحلولى (صار عذباً حلواً) أمر عليه منها جانب وأوبى (أصاب بالوباء)، وإن أتت امرأ ً من نضارتها ورفاهيتها نعماً ، أرهقته من نوائبها تعباً ، ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن ، إلاّ أصبح منها على قوادم خوف .

غرارة ، غرور ما فيها ، فانية فان ما عليها ، لا خير في شيء من زادها إلاّ التقوى ، من أقل منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه (يهلكه) ، ويطيل حزنه ، ويبكي عينيه .

كم واثق بها قد فجعته ، وذي طمأنينة إليها قد صرعته ، وذي اختيال فيها قد خدعته ، وكم من ذي أبهة فيها قد صيرته حقيراً ، وذي نخوة قد ردته ذليلاً ، وكم من ذي تاج قد كبته (صرعته) لليدين والفم .

سلطانها دول ، وعيشها رنق (كدر) ، وعذبها أجاج ، وحلوها صبر ، وغذاؤها سمام ، وأسبابها رمام ، وقطافها سلع (شجر مر) ، حيها بعرض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، ومنيعها بعرض اهتضام ، مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجامعها محروب (مسلوب) ، مع أن وراء ذلك سكرات الموت ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدي الحكم العدل : « ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » .

ألستم في مساكن من كان أطول منكم أعماراً ، وأوضح منكم آثاراً ، وأعد عديداً ، وأكثف جنوداً ، وأعتد عتاداً ، وأطول عماداً ، تعبدوا للدنيا أي تعبد (صاروا) لها عبيداً) وآثروها أي إيثار ، وظعنوا عنها بالكره والصغار .

فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفساً بفدية ، أو أغنت عنهم فيما قد أهلكتم بخطب (بأمر) ؟ بل قد أرهقتهم بالفوادح ، وضعضعتهم بالنوائب ، وعقرتهم بالمصائب . وقد رأيتم تنكرها لمن دان لها ، وأخلد إليها ، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد ، إلى آخر الأمد . هل زودتهم إلاّ السغب (الجوع) ، وأحلتهم إلاّ الضنك ، أو نورت لهم إلاّ الظلمة ، أو أعقبتهم إلاّ الندامة ؟ . .

أفهذه تؤثرون ؟ أم على هذه تحرصون ؟ أم إليها تطمئنون ؟ . يقول الله جل ذكره : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

فبئست الدار لمن لم يتهمها ، ولم يكن فيها على وجل منها .

فاعلموا — وأنتم تعلمون — إنكم تاركوها لا بد ، فإنما هي كما وصفها الله باللعب واللهو ، وقد قال الله تعالى : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين » .

واتعظوا فيها بالذين قالوا : « من أشد منا قوة » ؟ . . حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً ، وانزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفاناً ، وجعل لهم من الضريح أكنان ، ومن التراب أكفان ، ومن الرفات جيران ، فهم جيرة لا يجيبون داعياً ، ولا يمنعون ضيماً ، ولا يبالون مندبة (الندب على الميت) .

أن أخصبوا لم يفرحوا ، وإن قحطوا لم يقنطوا ، جمع وهم آحاد ، وجيرة وهم أبعاد ، متناءون لا يزورون ولا يزارون ، حكماء قد ذهبت أضغانهم ، وجهلاء قد ماتت أحقادهم ، لا يخشى فجعهم ، ولا يرجى دفعهم ، وكما قال الله تعالى : « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلاّ قليلاً وكنا نحن الوارثين » .

استبدلوا بظهر الأرض بطناً ، وبالسعة ضيقاً ، وبالأهل غربة ، وبالنور ظلمة ، ففارقوهم كما دخلوها ، حفاة ، عراة ، فرادى ، غير أن ظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة وإلى خلود الأبد ، يقول الله تعالى : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » .

فاحذروا ما حذركم الله ، وانتفعوا بمواعظه ، واعتصموا بحبله ، عصمنا الله وإياكم بطاعته ، ورزقنا وإياكم أداء حقه » .

ومع أن أكثر من مصدر قد روى هذه الخطبة ، مثل البيان والتبيين ، والعقد الفريد ، وصبح الأعشى ، فإن ابن أبي الحديد في « شرح نهج البلاغة » ، قد شكك في نسبة هذه الخطبة إلى قطري ، وحاول تعليل نسبة من نسبها إليه ، فقال بعد شرحه للخطبة :

« واعلم أن هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ، ورواها لقطري بن الفجاءة ، والناس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها في كتاب « المونق » لأبي عبيد الله المرزباني ، مروية لأمير المؤمنين عليه السلام ، وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه .

وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها من بعض

أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ، وقد لقي قطري أكثرهم »[1] .

* * *

ولقد ظل قطري بن الفجاءة يجاهد ويناضل ، حتى سقط شهيداً من أجل عقيدته ومبدئه ، سنة تسع وسبعين للهجرة . روى أنه اقتتل مع أعدائه بطبرستان فعثر به فرسه ، فوقع على الأرض ، وتكاثر عليه أعداؤه فقتلوه .

وقيل أن الذي تولى قتله هو سودة بن الحر الدارمي [2] .

وذكر الطبري أنه توفي سنة سبع وسبعين ، وقيل سنة ثمان وسبعين ، وقيل أن سفيان بن الأبرد الكلبي توجه إليه فقاتله حتى قتل في المعركة بالري أو طبرستان . وجاء في كتاب « العبر » أنه قتل سنة تسع وسبعين [3] وهذا هو الأرجح .

وقد وقع خطأ في كتاب « تاج العروس ، في مادة « فجأ » — طبعة الكويت — حيث جاء فيه أن قطرياً مات سنة تسع وسبعين ومائة ، وهذا خطأ ، فليصحح .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ٢ ، ص ٧٣٨ .
(٢) البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٣٠ .
(٣) العبر ، ج ١ ، ص ٩٠ .

أم حكيم بنت الحارث بن هشام

تعالوا بنا نتعرف إلى مسيرة امرأة مسلمة عظيمة ، عاشت بين أهل الحق والصدق ، وبين أهل الوفاء والفداء ، فكانت قرينة شهداء ، وعلا مقامها بين المناضلين الشرفاء ، وأسهمت بنصيبها البارز في التسامي بمكانة المرأة المسلمة إلى مرتقى كريم ملحوظ ، وما أجمل أن تستظل المرأة مع الرجل بظلال اليقين والإيمان ، والصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه يقول : « النساء شقائق الرجال » .

إنها المسلمة الشريفة ، المؤمنة العفيفة ، الصحابية الجليلة ، العابدة المجاهدة : أم حكيم بنت الحارث بن هشام .

وأبوها هو الحارث بن هشام ، المجاهد الشهيد ، الذي بايع بيعة الموت في إحدى معارك الشام ،وجاهد حتى وفى بحق هذه البيعة ،ونال نعمة الشهادة[1].

وقد تزوجت أم حكيم ثلاث مرات ، وكان أزواجها الثلاثة من الشهداء .

وزوجها الأول هو عكرمة بن أبي جهل ، المجاهد الذي نال نعمة الشهادة في معركة « أجنادين [2] من أرض فلسطين — ردها الله على العرب والمسلمين .

---

(١) انظر تفاصيل بطولته في كتابي «أبطال عقيدة وجهاد» ، ص ٢١٩–٢٣٥.
(٢) اجنادين : موضع في أرض فلسطين ، يقع بين الرملة وبيت جبرين .

وروجها الثاني هو خالد بن سعيد بن العاص . المجاهد البطل ، الذي نال نعمة الشهادة في معركة « مرج الصفر » .

وزوجها الثالث هو الخليفة البطل عمر بن الخطاب الذي نال نعمة الشهادة وهو في المحراب .

وهكذا عاشت أم حكيم موصولة الأسباب بدماء الشهداء وأنفاس الأبطال فلا عجب أن تصير بطلة ، تثبت أنها انتفعت بمعاشرة هؤلاء الأوفياء ، عليهم الرحمات والبركات .

لقد أسلمت أم حكيم يوم الفتح ، وأقبلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبايعته بيعة الإسلام والإيمان (١) ، ووفت لهذه البيعة خير الوفاء . وكان زوجها حينئذ هو عكرمة بن أبي جهل (٢) ، الذي أهدر الرسول دمه ، لما فعله وهو كافر .

وكأن أم حكيم كانت تحس بغريزة الزوجة أن اهتداء زوجها إلى نور الإسلام يسير غير عسير ، ولكن عكرمة خاف عقاب الرسول ، فأطلق ساقيه للريح ، وفر هارباً نحو اليمن .

وعلمت أم حكيم بذلك ، فسارعت بالذهاب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فاستأذنته في أن تذهب وراء زوجها لتعود به ، فأذن لها النبي الكريم الرحيم ، وأعطاها الأمان له ، فعجلت أم حكيم بملاحقة زوجها حتى أدركته، وطمأنته ، وعادت به إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، حيث أسلم عكرمة ، وأقرهما النبي على زواجهما ، وصار عكرمة من فضلاء الصحابة

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٨ ، ص ١٩١ .
(٢) انظر فيما سبق تفاصيل الحديث عن عكرمة .

وصالحي المسلمين ، وعكف على العبادة والجهاد في سبيل الله ، وكان له أثر عظيم في حروب الردة ، ونال نعمة الشهادة في حروب الشام .

وهكذا صدقت فراسة أم حكيم ، وأنقذت زوجها من القتل ، ومن ضلال الشرك والكفران .

ويروي عكرمة عن نفسه أن الذي وجهه إلى الإسلام في أول الأمر ، أنه حين فراره أراد أن يركب البحر إلى الحبشة ، فلما هم بركوب السفينة ، قال له صاحبها — وكان رجلاً مؤمناً — : يا عبد الله ، لا تركب سفينتي حتى توحد الله ، وتخلع ما دونه من الانداد ، فإني أخشى إن لم تفعل أن نهلك فيها .

فقال له عكرمة : ألا يركبها أحد حتى يوحد الله ويخلع ما دونه ؟

أجابه : نعم ، لا يركبها أحد إلاّ إذا أخلص التوحيد .

فقال عكرمة لنفسه : ففيم أفارق محمداً ؟ فهذا التوحيد هو الذي جاءنا به ، فوالله أن الهنا في البحر هو إلهنا في البر !

وأحس عكرمة حينئذ بنور الإسلام في صدره .

يقول عكرمة : فعرفت الإسلام عند ذلك ، ودخل قلبي (١) .

كما يروى أن أم حكيم حين ذهبت لإحضار زوجها عكرمة من اليمن ، كان في رفقتها عبد رومي لها ، وفي الطريق راودها العبد الخسيس عن نفسها ، وهم باغتصابها ، فاحتالت أم حكيم عليه ،فأطمعته بالوعد ، واستمهلته إلى

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٥٩ . وللحادثة اكثر من رواية .

أجل ، حتى أتت حياً من العرب ، فاستنجدت بهم ، وقصت عليهم قصة العبد الخئون . ورجتهم أن يوثقوه عندهم حتى تعود مع زوجها .

فغضب القوم لها ، وفعلوا ما أرادت .

وحين عادت أم حكيم مع زوجها قصت عليه قصة ذلك العبد ، فقتله عكرمة وهو في الطريق ، قبل أن يعلن إسلامه .

وظلت أم حكيم مع عكرمة زوجة وفية زكية ، حتى جاءت معركة أجنادين — وقيل اليرموك — فخرج إليها ، وخرجت معه ، وهناك نال نعمة الشهادة ، فسلك طريقه إلى فراديس الرضوان .

ثم تزوجت أم حكيم من خالد بن سعيد بن العاص ، خامس شخص دخل الإسلام ، وأول من كتب في أوراقه : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ولم يطل زواجه بها ، فقد أراد الدخول بها عقب عقده عليها ، ولكن المسلمين كانوا في انتظار معركة[1] ، فقالت له راجية : لو تأخرت حتى يهزم الله هذه الجموع ؟

فقال لها : إن نفسي تحدثني أني سأقتل ، وأني سأصاب في جموعهم .

قالت : فدونك .

فدخل عليها عند قنطرة هناك ، فعرفت هذه القنطرة بعد ذلك باسم « قنطرة أم حكيم » .

---

(١)معركة مرج الصفر ، وقيل اجنادين .

ثم أصبح خالد فأولم وليمة للناس ، فما فرغوا منها حتى أقبل الأعداء ، فخرج خالد ، وجاهد جهاد الأبطال ، حتى نال نعمة الشهادة في معركة « مرج الصفر » .

ورأت أم حكيم ذلك ، فشدت عليها ثيابها ، وما زال طيب العرس على جسمها ، وخرجت تقاتل بعمود الخيمة — بعد أن انتزعته — على مقربة من القنطرة .

ويروي التاريخ أنها قتلت بهذا العمود سبعة من الاعداء الروم . . .

فازداد الناس استمساكاً بتسمية تلك القنطرة خلال عصور التاريخ ، باسم « قنطرة أم حكيم » [1] .

ومع أن أم حكيم البطلة الرائعة قتلت هؤلاء السبعة بعمود خيمتها ، بقرب قنطرة أم حكيم ، شاءت لها الأقدار أن تخرج من المعركة سالمة ، وإن أصابتها طعنات وجراح .

وتألق اسمها العظيم في تاريخ المجاهدات في سبيل الله عز وجل .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — قد أعجب بها وببطولتها ، فتزوجها [2] وهي الثيب التي تزوجت قبله بأكثر من زوج ، ولكنها صاحبة البطولة والشجاعة والقوة .

ومن عجيب صنع الأقدار أن هذا الزوج الكريم الثالث قد مات أيضاً شهيداً .

---

(١) الطبقات ، لابن سعد ، ج ٤ ، ص ٧١ و ٧٢ . والروض الانف ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ١٩٩ .

وكان الله عز شأنه قد أراد لأم حكيم ألاّ تبعد عن دماء الشهداء الزكية ، لتظل موصولة الأسباب بمعاني التضحية والفداء ، فإن التاريخ يذكر أن عمر — رضوان الله عليه — كان يدعو في أخريات أيامه ، فيقول :

« اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وقلت حيلتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط ، اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسولك عليه الصلاة والسلام » !

واستجاب القدر . . .

فمات عمر شهيداً ، وفي المحراب . . .

مات وهو يكبر لصلاة الفجر ، وهو يؤم جموع المسلمين في مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام — في المدينة .

مات شهيداً بعد أن بذل في سبيل الله والإسلام ما بذل ، قبل الهجرة ، وبعد الهجرة ، وفي حياة النبي ، وبعد أن لحق بالرفيق الأعلى .

مات شهيداً حميداً ، بعد أن فتح الفتوح ، ومصر الأمصار ، وملأ بالعدل شتى الأقطار ، وتمّم بناء الدولة المسلمة القائمة على الحق والخير والإحسان .
رضوان الله على عمر ، ورضوان الله على أم حكيم .

أبو دجانة سماك بن أوس الأنصاري

مما يجب أن نتواصى به أن نوقن كل اليقين إنه لا نصر إلاّ بإيمان ، ولا إيمان إلاّ بعقيدة ، ولا عقيدة إلاّ بدين . والله تبارك وتعالى قد وضع بين أيدينا خير دين : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا » .

وهذا الدين قد تفضل علينا ربنا — تباركت آلاؤه — فأعطانا لتطبيقه صورة باهرة ، ممثلة في شخص رسوله صلى الله عليه وسلم ، والخيرة الطيبة من أنصاره وأتباعه ، فلنواصل التعرف إلى هؤلاء الأبطال الذين صدقوا فجاهدوا في الله حق جهاده ، فضربوا لنا القدوة الحسنة في المقاومة والنضال ، لعلنا نتشبه بهم ، أو نسير على طريقهم : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

وهذا واحد من هؤلاء :

إنه الصحابي الجليل ، المجاهد الشهيد : أبو دجانة سماك بن أوس الأنصاري من قبيلة الخزرج بالمدينة ، أسلم في طلائع المسلمين من الأنصار ، وآخى الرسول — عقب الهجرة — بينه وبين أحد المجاهدين المناضلين ، وهو عتبة ابن غزوان .

وعتبة بن غزوان بن جابر بن وهب المازني ، من السابقين الأولين ، هاجر إلى الحبشة ، ثم رجع مهاجراً إلى المدينة ، وشهد غزوة بدر وما بعدها ،

وولاه عمر في الفتوح ، فاختط البصرة ، وفتح فتوحاً ، واحتمل كثيراً ، ولقد روى الإمام مسلم عن عتبة قوله : لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما لنا طعام إلاّ ورق الشجر .

ولقد قدم على عمر يستعفيه من الولاية ، فأبى عمر ، فرجع عتبة في الطريق ، وعاش سبعاً وخمسين سنة ، ودعا الله فمات ، وروى الحديث عن النبي ، ومما رواه قوله عليه الصلاة والسلام : « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »[1] .

ونعود إلى بطلنا أبي دجانة :

شهد أبو دجانة غزوة بدر ، وكان فيها وفي غيرها من الأبطال الشجعان المتألقين ، وكان رجلاً فقيراً ، لا يكاد يملك من حطام الدنيا شيئاً ذا بال . ومما يدل على ذلك أن الرسول حينما وزع غنائم بني النضير جعلها محصورة في المهاجرين ، حتى يقترب مستواهم الاقتصادي من مستوى أخوتهم الأنصار ، ولم يعط منها أحداً من الأنصار إلاّ أبا دجانة وسهل بن حنيف ، حيث كانا من الفقراء .

وقبيل غزوة أُحد وقف الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، ورفع في يده سيفاً له كان مكتوباً عليه ،

في الجبن عار ، وفي الإقدام مكرمة   والمرء بالجبن لا ينجو من القدر

وقال الرسول لأصحابه : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟

فقال أكثر من احد : أنا يا رسول الله .

---

(١) الاصابة في تمييز الصحابة ، ج ٢ ، ص ٤٤٨ .

وكان من هؤلاء عمر الفاروق ، وعلي ابن عم الرسول ، والزبير بن العوام هو ابن عمة الرسول ، ولكن الرسول لم يعط السيف أحداً من هؤلاء ، ولعل السبب في هذا هو أنهم لم يسألوا عن حق أخذ السيف ، وقد قال الرسول : « من يأخذ هذا السيف بحقه » .

ثم قام أبو دجانة فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ . .

قال : حقه أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني .

فقال : أنا آخذه بحقه يا رسول الله .

لذلك جاء في صحيح مسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ سيفاً يوم أحد ، فقال : من يأخذ مني هذا ؟

فبسطوا أيديهم ، كل إنسان منهم يقول : أنا أنا .

فقال : فمن يأخذه بحقه ؟

فأحجم القوم ، فقال أبو دجانة رضي الله عنه : أنا آخذه بحقه .

فأخذه ففلق به هام المشركين (١) .

وكان أبو دجانة رجلاً مقداماً ، حريصاً على مواطن البأس ، كأنه يعشقها ويهواها في سبيل نصرة الحق والعدل ، ولذلك كان يختال بعض الشيء في مشيته إذا أقبل على الحرب ، كأنه مقدم على لقاء عروس ، فعلق السيف في وسطه ، وأخرج عصابة حمراء له كان يسميها « عصابة الموت » ، وكان مكتوباً على طرف منها : « الجبن في الحرب عار ، ومن فرّ لم ينج من النار » ! وعلى الطرف الآخر : « نصر من الله وفتح قريب » !

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات للنووي ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

وكان الأنصار إذا رأوه يخرجها يقولون : « أخرج أبو دجانة عصابة الموت » أشعاراً بما سيتلو ذلك من نضال شديد عنيف .

ربط أبو دجانة رأسه بالعصابة ، ثم مشى مختالاً بين الصحابة ، وهو يردد قوله :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
ألاّ أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول

والكَيول : — بفتح الكاف وتشديد الياء — هو مؤخرة الصفوف .

وتطلع إليه الرسول فقال له : يا أبا دجانة ، إنها مشية يكرهها الله إلاّ في مثل هذا الموطن .

وإنما لم يكرهها الله في مثل هذا الموطن ، لأنها تؤدي إلى إثارة الحماس والتنافس ومقاومة التردد والجبن في بعض النفوس : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

وبدأت المعركة ، ومضى أبو دجانة يقاتل بإيمان من يحرص على أحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة . يقول ابن إسحاق : « وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في الناس » . ويقول ابن هشام عن جرأة أبي دجانة : « فجعل لا يلقى أحداً إلاّ قتله » .

انطلق أبو دجانة يقاتل كأنه جزء من قدر الله الذي يصبه على أعدائه وأعداء أوليائه . وهذا هو الزبير بن العوام يتألم في نفسه بعض التألم ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يعطه السيف ، ويقول في نفسه : « أنا ابن

صفية عمته ، ومن قريش (قبيلته) ، وقد قمت إليه ، وسألته إياه قبله ، فأعطاه أبا دجانة وتركني ، والله لأنظرن ما يصنع » !

وأخذ ابن العوام يتابع نضال أبي دجانة ، فرآه يضرب ذات اليمين وذات الشمال ، لا يبالي أوقع على الموت . أم وقع الموت عليه ، فقد باع نفسه لربه ، ورآه وهو يقبل على شخص ملثم بين المشركين ، فلما هم أبو دجانة بضربه ، ولول هذا الشخص ، وإذا هو امرأة ، فلم يقبل أن يقتلها ، ولما سئل عن ذلك قال : « أكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة » !

وأقبل مشرك اسمه عبيد الله بن جابر العامري نحو الرسول صلوات الله وسلامه عليه يريد قتله ، فوثب عليه أبو دجانة في سرعة البرق ، وقطع رأسه قبل أن يبلغ الرسول عليه الصلاة والسلام .

وحينما اشتد الأمر على المسلمين في المعركة ، بسبب مخالفة الرماة لأمر الرسول ، ركز المشركين توجيه سهامهم نحو الرسول ، فانحنى عليه أبو دجانة ، وجعل ظهره ترساً يحمي به الرسول صلى الله عليه وسلم . وجعلت السهام تنهال على ظهر أبي دجانة ، وهو لا يضعف ولا يتخاذل ، وكيف وهو مؤمن بالله والرسول ، والسيف الذي بيمينه هو سيف الرسول ، والحبيب الذي يدفع عنه هو الرسول ، ولا يتحقق إيمان المؤمن حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ؟ !

وجاءت مواطن التقدير والتكريم من الرسول العظيم لهذا المجاهد البطل : أبي دجانة الأنصاري .

فحينما عاد الإمام علي بن أبي طالب مع الرسول إلى البيت من الغزوة ،

أعطى سيفه لزوجته البتول فاطمة الزهراء لتغسله ، وأثنى على السيف ، لأنه قد طاوعه في الجهاد ، فقال لها مشيراً إلى السيف : لقد صدقني اليوم .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام لعلي : إن تكن أحسنت القتال فقد أحسن معك أناس ، منهم أبو دجانة وسهل بن حنيف !

وحينما ذهب الرسول فيما بعد إلى حجة الوداع جعل أبا دجانة والياً على المدينة حتى يعود .

وظل أبو دجانة يخوض معارك التضحية والبذل ، بلا كلل أو ملل .

وظلت مظاهر التكريم والتقدير تظهر من الرسول لأبي دجانة المجاهد الصابر المحتسب ، حتى لحق الرسول بربه . وظل أبو دجانة على العهد قائماً وصادقاً ، لأنه لم ينس أبداً قول ربه جل جلاله : « وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين،وما كان انفس أن تموت إلاّ باذن الله كتاباً مؤجلاً ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزي الشاكرين ، وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلاّ أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » .

وحينما قامت حرب اليمامة التي أثار فتنتها عدو الله الأكبر مسيلمة الكذاب ، الذي سعى في الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، سارع

أبو دجانة من جديد إلى النضال ، وأبلى بلاء حسناً في هذه المعركة ، وكان أحد اثنين أو ثلاثة اشتركوا في قتل مسيلمة الكذاب رأس الفساد إذ ذاك (١) .

وكما شارك أبو دجانة في تحقيق الانتصارات ، ذاق حلاوة الاستشهاد ، فنال نعمة الشهادة في آخر معركة اليمامة ، بعد أن أدى واجبه ، ومضى إلى ربه راضياً مرضياً ، ليحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

رضوان الله تبارك وتعالى على صاحب عصابة الموت الشهيد ! . .

---

(١) انظر تفصيل القول في قاتل مسلمية في كتابي مسرحية « صراع » ، ص ٣٢ وما بعدها .

عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي

إن الحياة طرق ومسالك ، وشعاب ومناكب ، وكما يحتاج السائر في الظلام إلى نور وضياء ، يحتاج الإنسان في حياته وتصرفاته إلى نور وضياء . وإذا كان النور الحسي يصلح لكشف الأشياء المادية ، فإن الإنسان في عقيدته وعبادته ، ومبادئه وأفكاره ، يلزمه بجوار نور الحس نور العقل والنفس ، حيث يجمع بين البصر والبصيرة ، أو بين النظرة والفكرة .

والقرآن الكريم قد أوجب الحرص على استقامة الطريق واستقامة التدبير ، فقال : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن أتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » . وكأن هذه دعوة إلى سلامة التفكير ، ووضوح الرؤية ، وتحديد الخطة ، واستقامة الطريق .

ولعل كتاب الله المجيد قد رمز إلى هذه البصيرة الواعية القويمة بكلمة « النور » التي ذكر مادتها نحو خمسين مرة ، وزكى حديثه عن « النور » أجل تزكية ، فجعله من صفات الله تعالى ، فقال : «الله نور السموات والأرض».

ومعنى ذلك أن الله هو الذي يبصر بنوره ذو العماية ، ويستقيم بهداه ذو الغواية .

ووصف القرآن الكريم الرسول بأنه نور ، فقال : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » ، وقال عن الرسول : « وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً »

وجعل دعوة الإسلام نوراً ، فقال : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

وامتنّ الله على المؤمنين بأنه هداهم إلى النور : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

وجعل أهل الجنة يرجون يوم القيامة أن يكمل الله لهم النور : « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ، إنك على كل شيء قدير » .

وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « إن للإسلام صوى ومناراً كمنار الطريق » . « الصوى — بضم الصاد وفتح الواو — هي الأعلام المنصوبة على الطريق ، ليستدل بها السائر في الطريق المجهول . أي أن الإسلام وضع للناس شرائع وعلامات يهتدون بنورها إلى سواء السبيل .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يدعو ربه ، ليهبه النور في كل النواحي ، فيقول : « اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي لساني نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً ، وعن يساري نوراً ، ومن فوقي نوراً ، ومن تحتي نوراً ، ومن أمامي نوراً ، ومن خلفي نوراً ، واجعل لي في نفسي نوراً ، وأعظم لي نوراً » (١) .

وهو يقصد — طبعاً — نور الحق وضياء الهداية : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يردد : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » .

---

(١) حديث صحيح .

ولقد استضاء صحابة رسول الله بنور الله ، فهداهم الله ، وفسح لهم في حماه ، فعزوا في هذه الحياة . وكان الواحد منهم يستضيء بنور قلبه وعقله ، أكثر مما يستضيء بنور مصباحه .

وهذا واحد منهم ، نراه وأكبر ما يستعين به في حركاته وسكناته ، وغدواته وروحاته ، هو نور الإيمان الذي يعمر صدره ، فيحمي ظهره ، ويسدد أمره ، ويقوده على الدوام إلى مواطن الرشاد والصواب ، ولذلك لقبوه بلقب عظيم كريم ، وهو « ذو النور » .

ذلكم هو الصحابي الجليل ، والمجاهد الشهيد : ذو النور عبد الرحمن ابن ربيعة بن يزيد الباهلي ، الذي كان أول من غزا في سبيل الله في بلاد الترك . ويقول عنه ابن كثير : « غزا مرات عديدة ، ثم كانت له وقائع مذهلة في زمن عثمان »[1] رضي الله عنه .

وكان نور إيمانه يجعله على يقين موصول بأن النصر من الله يدوم له ، ما دام سائراً على طريق الوفاء والفداء ، ولذلك كان يردد : « إن الله بعث إلينا رسولاً وعدنا على لسانه بالنصر والظفر ، ونحن لا نزال منصورين » . وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

وقد عرف عمر الفاروق لذي النور مكانته وإخلاصه ، فجعله — بجوار اشتراكه في الجهاد — قاضياً لجيش الإسلام الذي قام بمعركة القادسية[2] ، كما عهد إليه بقسمة الغنائم بين المجاهدين . ثم وجهه إلى الجهاد في بلاد الترك والخزر .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٢٣ .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٩٨ .

والتاريخ يحدثنا بأن ذا النور أبلى بلاء حسناً في معركة القادسية ، حتى أنه قد شاهد مجموعة من الأعداء تظللوا براية حفروا لها ، وقالوا : لا نبرح مكاننا حتى نموت .

فحمل عليهم ذو النور ، ومعه أخوه سليمان بن ربيعه ، فقتلوا هؤلاء وسلبوهم (١) .

وفي عهد عثمان رضي الله عنه توغل ذو النور في بلاد الروم ، ونصحه الخليفة بأن يتريث ولا يجازف بنفسه ، ولكن ذا النور أصر على أن يفتح مدينة « بلنجر » ، وكأن فتحها كان أملاً عنده ، يريد أن يتوج به فتوحه وغزواته . ولذلك ناضل ثم ناضل ، ونصب حول المدينة المنجنيق والعرادات — وهي آلات ترمي الحجارة إلى مكان بعيد — حتى فتحها بفضل الله أولاً ، ثم بهذا الإيمان العميق الذي يفيض النور أمام المجاهد المخلص هنا وهناك .

ويروي التاريخ أن الروم حينما شاهدوا ذا النور مقبلاً عليهم مع جيش الإسلام ، أطلقوا سيقانهم للريح وهربوا ، وقالوا فيما بينهم : « ما اجترأ علينا هذا الرجل وقومه إلاّ ومعهم الملائكة تمنعهم من الموت » .

وهذا يذكرنا بقول الله جل جلاله : « إذ يوحي ربك إلى الملائكة إني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » . كما يذكرنا بقول سيدنا وقائدنا ورائدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « نصرت بالرعب من مسيرة شهر » .

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٥٦٩ .

وهذا هو ابن كثير يقول عن ذي النور وغزوة الروم : « ثم غزاهم غزوات في عهد عثمان ، فظفر بهم ، كما كان يظفر بغيرهم »[1] .

* * *

وكان فتح « بلنجر » — وهي مدينة ببلاد الخزر — أمنية أخيرة لذي النور عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ، فاستجاب الله له ، وجعلها ختاماً كريماً رائعاً لفتوحه وجهاده ، وأناله فيها نعمة الشهادة .

ويروى أنه حينما اشتدت المعركة يومئذ سمع ذو النور منادياً ينادي من الجو : « صبراً آل عبد الرحمن ، وموعدكم الجنة » ! . .

فاندفع ذو النور يقاتل بلا إبقاء على نفسه ، حتى أصيب إصابة قاتلة ، فتسلم منه الراية أخوه سلمان ، فقاتل قتالاً شديداً ، حتى نال هو الآخر نعمة الشهادة . وسلمان هو أبو عبد الله سلمان بن ربيعة بن يزيد بن عمرو الباهلي الكوفي التابعي ، من كبار التابعين ، وقيل أن له صحبة . شهد فتح الشام ، وسكن الكوفة ، وولاه عمر قضاءها ، وهو أول من تولى قضاء الكوفة ، وكان يمكث أربعين يوماً لا يأتيه خصم .

واشترك في غزوة أرمينية — وقيل انه استشهد فيها — سنة تسع وعشرين ، وقيل سنة ثلاثين ، وقيل سنة إحدى وثلاثين ، وكان يغزو سنة ، ويحج سنة ، وكان ثقة[2] .

ولقد دفن ذو النور عبد الرحمن بن ربيعة في مدينة « بلنجر »[3] .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٢٣ .
(٢) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .
(٣) انظر معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

ولقد أشار إلى قبره عبد الرحمن بن جمانة الباهلي حيث قال :

وإن لنـــــا قبرين : قبر بلنجر   وقبراً بصين استان ، يا لك من قبر
فهذا الذي بالصين عمت فتوحه   وهذا الذي يسقى به سبل القطر

وقبر بلنجر هو قبر عبد الرحمن بن ربيعة ، وقبر الصين هو قبر قتيبة ابن مسلم الباهلي (١) .

وينبغي أن نلاحظ هنا أن هناك شخصاً آخر يلقب بلقب « ذو النور » وهو سراقة بن عمرو (٢) .

* * *

لقد مضى ذو النور ، ومضى كذلك شقيقه سلمان ، إلى رحاب الله ، وقد أتم الله نعمته ، وحقق أمل ذي النور ، ففتحت مدينة « بلنجر » أبوابها لنور الإسلام ، وعدالة المسلمين .

وهناك في أرض « بلنجر » — من بلاد الترك الآن — رقد ذو النور في مثواه الأخير ، وانتشر الإسلام في تلك البلاد هنا وهناك ، وظل أبناؤها — بعد أن أناروا قلوبهم ، بنور الله — يذكرون البطل الشهيد ذا النور بالتكريم والتمجيد ، ويستسقون بقبره ، أجيالاً بعد أجيال (٣) .

فسلاماً سلاماً على المجاهد المؤمن ، والشهيد ذي النور ، دفين بلاد الترك ،

---

(١) انظر معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ١٥٥ .
(٣) البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٢٤ و ١٦٠ . وتاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ .

الصحابي الجليل : عبد الرحمن بن ربيعة بن يزيد الباهلي ، وسلاماً سلاماً على زميل كفاحه ، ورفيق سلاحه ، شقيقه سلمان بن ربيعة الباهلي .

ولنتذكر فيما نتذكر أن قبيلة « باهلة » كانت تضرب مثلاً للضعف في الجاهلية ، فيقال : أضعف من باهلة ، ولكنها في نور الإسلام وظل الإيمان ، خرج منها رجال أبطال .

سلاماً سلاماً على كل المجاهدين المخلصين الذين يهديهم ربهم بإيمانهم إلى جنات النعيم .

سليمان بن صرد بن الجون الخزاعي

جاء في السنّة النبوية المطهرة : « خيركم من طال عمره وحسن عمله » . وذلك لأن العمر هو رأس مال الإنسان ، ينفق منه كل حين ، سواء أراد أم لم يرد ، وكل يوم يمر هو جزء من هذا الرصيد يمضي بلا عودة ، وحسن العمل هو إتقان الاستثمار لهذا المال في أحسن تجارة ، ولعل هذا هو بعض ما نفهمه من مثل قول الله تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

ولقد شهد صدر الإسلام نماذج لرجال كرام ، طالت أعمارهم ، وتعطرت أخبارهم ، وبقيت من بعدهم آثارهم ، وانطوت عن الكثير منا معظم أنبائهم ، وفيهم عشرات — بل مئات — لا نعرف عنهم شيئاً ، حتى أسماءهم ، مع أنهم آباؤنا وأجدادنا ، وأعلام تاريخنا ، وحملة دعوتنا في الماضي ، ومستلهم عبرتنا وقدوتنا في الحاضر والمستقبل .

وهذا واحد منهم :

إنه الصحابي الجليل ، المجاهد الصبور ، العابد الشهيد : أبو المطرف سليمان بن صرد بن الجون الخزاعي الكوفي .

من منا يعرفه ، أو قرأ عنه ، أو سمع به ؟

وهو الذي يقول عنه الإمام ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » : « وقد كان سليمان بن صرد الخزرجي صحابياً جليلاً نبيلاً ، عابداً زاهداً »[1].

ويقول عنه الإمام ابن عبد البر في كتابه : « الاستيعاب » : « كان رضي الله عنه خيراً فاضلاً ، له دين وعبادة »[2].

ويقول عنه الإمام النووي في كتابه : « تهذيب الأسماء واللغات » : « كان خيراً فاضلاً ، صاحب عبادة ، وله قدر وشرف في قومه »[3].

وقد عرف سليمان الجهاد في سبيل الله وقضى فيه عهداً طويلاً ، وشهد مع الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه مشاهده كلها[4]. ولقد نظر الإمام علي إلى سليمان وهو مضروب بالسيف في وجهه خلال إحدى المعارك ، فقال له الإمام :

« فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً ، فأنت ممن ينتظر ولم يبدل »[5].

وشهد سليمان مع الإمام — فيما شهد — معركتي صفين والجمل ، وكتب إليه عقبة بن مسعود وهو يجاهد مع الإمام في صفين يذكره بفضيلتي الجهاد والصبر ، فيقول :

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٢٥٥ .
(٢) الاستيعاب على هامش كتاب الاصابة ، ج ٢ ، ص ٦٢ .
(٣) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ، ص ٢٢٤ . ويقول عنه ابن عبد البر أيضا : « كان له سن عالية ، وشرف وقدر وكلمة في قومه » الاستيعاب ، ج ٢ ، ص ٦١ .
(٤) أسد الغابة ، المجلد ٢ ، ص ٤٤٩ ، طبعة دار الشعب .
(٥) كتاب وقعة صفين ، ص ٥٩٦ .

« أما بعد ، فإنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ، ولن تفلحوا إذن أبداً ، فعليك بالجهاد والصبر مع أمير المؤمنين ، والسلام عليك » .

وكان سليمان يردد وهو يجاهد في معركة صفين قوله يعرض بالأعداء :

يا لك يوماً كاسفاً عصبصبا   يا لك يوماً لا يواري كوكبا
يا أيهـــا الحي الذي تذبذبا   لسنا نخاف أبا ظليم حوشبا
لأن فينـــا بطـــلاً مجربا   ابن بديل كالهزبر مغضبا
أمسى « علي » عندنا محببـــا   نفديه بالأم ، ولا نبقي أبا [1]

وتولى سليمان بن صرد إمارة قومه في بعض مراحل الجهاد ، وكانوا يسمونه « أمير التوابين » ، وهم جماعة كانوا قد تأخروا عن مناصرة أبي الشهداء الحسين بن علي رضوان الله عليهما ، ثم ندموا على ذلك عقب استشهاده ، وقالوا : « ما لنا توبة مما فعلنا ، إلا أن نقتل أنفسنا ، في الطلب بدمه » [2] .

وزاد في غيظ سليمان أنه كان قد جاءه قوم من أهل العراق ، يريدون أن يكتبوا إلى الحسين بن علي ليقدم عليهم حتى يناصروه ، ويجعلوه إماماً عليهم ، فقال لهم سليمان :

---

(١) وقعة صفين ، ص ٤٥٥ . وكاسفا : عبوسا . وعصبصبا : شديدا . ولا يواري كوكبا : نجومه ظاهرة لشدة ظلامه واحتجاب شمسه لما ثار من الغبار . وحوشب : هو ذو ظليم الالهاني ، وكان ممن يقاتلون ضد الإمام ، وقد قتله سليمان في المعركـة ، وابن بديل : هو عبد الله بن بديل . والهزبر : الاسد .
(٢) الاستيعاب ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

« إن كنتم تعلمون إنكم مناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه ، وإن خفتم الوهل والفشل ، فلا تغروا الرجل عن نفسه »[1] .

وخرج سليمان إلى الجهاد ، واستنفر الناس للخروج معه ، فقال له رفيق جهاده : المسيب بن نجبة الفرازي :

« إنه لا ينفعك الكاره ، ولا يقاتل معك إلاّ من أخرجته النية ، وباع نفسه لله عز وجل ، فلا تنتظرن أحداً ، وامض لأمرك في جهاد عدوك ، واستعن بالله عليهم » .

فوقف سليمان في القوم خطيباً وقال :

« يا أيها الناس ، من كان إنما خرج لوجه الله وثواب الآخرة ، فذلك منا ونحن منه ، ومن كان خروجه معنا للدنيا فليس منا ، فلا يصحبنا » .

فقالوا : ما للدنيا خرجنا ، ولا لها طلبنا .

فقال : سيروا على اسم الله تعالى .

ثم عاد سليمان يقول : « من كان منكم خرج للدنيا : ذهبها وزبرجدها[2] فليس معنا مما يطلب شيء . وإنما معنا سيوف على عواتقنا ، ورماح في أيدينا ، وزاد يكفينا حتى نلقى أعداءنا » .

وكان خروجه يوم الجمعة ، لخمس مضين من شهر ربيع الأول سنة خمس وستين للهجرة .

وقال وهو يقترب من الميدان :

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٥٢ .
(٢) الزبرجد : جوهر معروف ، ويقال فيه : الزبردج .

« على الله توكلنا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

وكان انتظار الموت لديه أقوى من انتظار الحياة ، ولذلك عين من خلفه أربعة من القادة للمعركة ، وقال لجنوده :

إن قتلت فالأمير عليكم المسيب بن نجبة ، فإن قتل فعبد الله بن سعيد بن نفيل ، فإن قتل فعبد الله بن وال ، فإن قتل فرفاعة بن شداد .

وهكذا جعل من ورائه أربعة أمراء مستعدين للجهاد حتى الاستشهاد .

أرأيت التصميم والعزم ، مع صدق الإحساس بخطورة الموقف وشدة المعركة ؟

أولئك آبائي فجئني بمثلهم . . .

وبدأت المعركة وحمي وطيسها (١) .

ولما بلغ القتال أشده ترجل سليمان بن صرد عن فرسه ، وكسر جفن سيفه ، واندفع هو ينادي في رفاقه :

يا عباد الله ، من أراد الرواح إلى الجنة ، والتوبة من ذنبه ، والوفاء بعهده ، فليأت إليّ .

وجعل يقاتل والضربات تتوالى عليه ، حتى وقع ثم وثب ، ثم وقع عاجزاً عن الوثوب بعد كل هذا المجهود ، فقال :

---

(١) الوطيس : شبه التنور ، أو هو الوطء الذي يطس الناس، أي يدقهم . وقيل : هو حجارة مدورة اذا حميت لم يقدر أحد على وطئها . وفي حديث حنين : « الآن حمي الوطيس » . ولم يسمع هذا التعبير من أحد قبل رسول الله عليه الصلاة والسلام .

فزت ورب الكعبة !

وحينما سقط سليمان شهيداً في الميدان ، بعد أن بالغ في جهاده وأداء واجبه — سارع نحوه المسيب بن نجبة الفزاري — رفيق جهاده — وتناول الراية من يده ، وقال يخاطب سليمان :

رحمك الله يا أخي ، فقد صدقت ووفيت بما عليك ، وبقي ما علينا ! . .

وأخذ نجبة يصول في الميدان ويجول ، مقاتلاً مناضلاً ، حافظاً حقوق الرفقة والزمالة ، حتى نال هو الآخر نعمة الشهادة [1] .

وهكذا مضى هؤلاء الكرام على طريق الوفاء والفداء ، بلا تردد أو إبطاء ، وإنما صلحوا لهذه البطولات ، لأمر هو معقد الصلاح والإصلاح ، وأساس العزة والسيادة ، وهو أنهم لم يحرصوا على الحياة ، ولم يهابوا الموت .

ولذلك كان سليمان بن صرد رضي الله عنه يقول :

« ألا لا تهابوا الموت ، فوالله ما هابه امرؤ قط إلاّ ذل » !

وكأنما استمد هذا التوجيه الرشيد من قول سيدنا وقائدنا ورائدنا ، وإمامنا وزعيمنا ، رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أخبرنا أن مصدر الذل كله هو حب الدنيا وكراهية الموت ، وذلك حيث يقول :

« يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها » .

قالو : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٩٩ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٥٠٤ .

قال : « لا ، بل أنتم حينئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن » .

قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ . .

قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » .

ويروي التاريخ أنه لما سقط سليمان بن صرد شهيداً وتناول منه المسيب الراية ، قال وهو يشرع في النضال :

قد علمت ميالة الذوائب واضحة اللبات والترائب
أني غداة ذي الروع والتغالب أشجع من ذي لبدة مواثب
قصاع أقران مخوف الجانب [1]

ولقد روى سليمان بن سرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة عشر حديثاً في الصحيحين ، ومن الأحاديث التي رواها عن النبي أن رجلين تلاحيا ، فاشتد غضب أحدهما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إني لأعرف كلمة لو قالها سكن غضبه : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

هذا وقد استشهد سليمان بن صرد وهو ابن ثلاث وتسعين سنة ، وكان استشهاده في مكان يسمى « عين الوردة » من الجزيرة ، والوردة مدينة مشهورة بالجزيرة كانت فيها وقعة للعرب ويوم من أيامهم [2] .

هذا ويروي ابن كثير في « البداية والنهاية » ، أن المختار بن أبي عبيد استقبل رفاق سليمان بن صرد بعد استشهاد سليمان ، فقال معزياً فيه وفي رفاقه :

---

(١) تنظر تفاصيل استشهاد سليمان في البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٢٥١ — ٢٥٤ .
(٢) معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ، طبعة بيروت .

« مرحباً بالذين أعظم الله أجورهم ، ورضي عنهم ، والله ما خطا منهم أحد خطوة إلاّ كان ثواب الله له فيها أعظم من الدنيا وما فيها ، وأن سليمان قد قضى ما عليه وتوفاه الله ، وجعل روحه في أرواح النبيين والشهداء والصالحين . . . » [1] .

أي صنف من الرجال كان هؤلاء ؟ . .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٢٥٥ .

هذا الكتاب

« رجال صدقوا » . . . هكذا جاء العنوان ، وهو بجزء من آية كريمة تقول : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » .

وفي مراحل بناء الأمم تكون الحاجة إلى صدق الأفعال ، أشد من الحاجة إلى صدق الأقوال ، وإن يكن الصدق خيراً كله ، في كل زمان ومكان.

وطليعة الأعمال التي تتطلب كمالها بالصدق هي الجهاد والنضال ، وقد كتب علينا قدرنا أن نحيا حياة الكفاح والمقاومة ، ولا شك أن وجود « النماذج » العالية أمامنا في هذا الميدان ضرورة لازمة ، وفي السيرة الإسلامية العطرة ، وتراثنا البطولي الباهر ، ذخيرة — أي ذخيرة — الرجال كانت لهم أعمال شوامخ ، عمرها الحق والصدق ، حيث صدقوا مع ربهم في الإيمان به ، والاتباع لرسوله ، والتقرب منه ، والجهاد في سبيله .

ومع جلال ما قدموا لم ينالوا حقهم من التمجيد والتخليد ، فطوتهم أيدي الإهمال أو النسيان ، مع شدة الحاجة إلى معرفتهم عند من يريدون بناء مجتمعهم على نور الإيمان وهدى الرحمن .

وقد كشف لنا فضيلة الدكتور أحمد الشرباصي الغطاء عن مجموعة من هؤلاء الأبطال ، بصدق البيان ، ودقة البحث ، وعمق الفكرة ، وروعة العبرة ، فتألف من حديث هؤلاء القمم موكب يبهر الأبصار ، ويثير البصائر ، ويواصل خطواته في مسيرة يتعهدها صاحبها في متابعة واستمرار .

من المراجع والمصادر

١ ـ القرآن الكريم .
٢ ـ كتب السنة النبوية .
٣ ـ تفسير ابن جرير الطبري .
٤ ـ تفسير ابن كثير .
٥ ـ تفسير الرازي .
٦ ـ تفسير الألوسي .
٧ ـ تفسير ابن الجوزي .
٨ ـ تفسير الزمخشري .
٩ ـ تفسير البيضاوي .
١٠ ـ تفسير المنار .
١١ ـ الاستيعاب في أسماء الاصحاب ، لابن عبد البر ، مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة ، سنة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م.
١٢ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لعز الدين بن الأثير ، طبعة التعاون بالقاهرة ، سنة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.
١٣ ـ الاصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلاني ، مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة ، سنة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩ . (على هامش الاستيعاب)
١٤ ـ الأعلام للاستاذ خير الدين الزركلي ، مطبعة كوستا توماس بالقاهرة سنة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.
١٥ ـ البداية والنهاية ، لابن كثير ، مطبعة السعادة بالقاهرة .
١٦ ـ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، لشمس الدين السخاوي، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ، سنة ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

١٧ ـ تهذيب الأسماء واللغات ، لمحيى الدين النووي ، المطبعة المنيرية بالقاهرة .
١٨ ـ جهاد شعب فلسطين ، للاستاذ صالح مسعود أبو يصير ، مطبعة دار الفتح ببيروت ، سنة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.
١٩ ـ حلية الأولياء ، لأبي نعيم الأصبهاني ، مطبعة السعادة بالقاهرة ، سنة ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.
٢٠ ـ دائرة المعارف ، للاستاذ فؤاد افرام البستاني ، طبعة بيروت سنة ١٩٥٨م.
٢١ ـ الدرر في اختصار المغازي والسير ، لابن عبد البر ، مطابع شركة الاعلانات الشرقية بالقاهرة ، سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.
٢٢ ـ الروض الأنف ، لعبد الرحمن السهيلي ، مطبعة الجمالية بالقاهرة، سنة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م.
٢٣ ـ السيرة الحلبية ، لعلي بن برهان الحلبي ، مطبعة الحلبي بالقاهرة ، سنة ١٣٤٩هـ.
٢٤ ـ السيرة النبوية ، لابن كثير ، مطبعة الحلبي بالقاهرة ، سنة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.
٢٥ ـ شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد ، مطبعة مكتبة الحياة، بيروت.
٢٦ ـ طبقات الصوفية ، لأبي عبد الرحمن السلمي ، مطبعة دار الكتاب العربي بالقاهرة ، سنة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م.
٢٧ ـ الطبقات الكبرى ، لمحمد بن سعد ، مطبعة الجمهورية بالقاهرة .
٢٨ ـ العبر في خبر من غبر ، لأبي عبد الله محمد الذهبي ، مطبعة حكومة الكويت ، سنة ١٩٦٠م.
٢٩ ـ العقد الفريد ، لابن عبد ربه الأندلسي ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، سنة ١٥٣٩هـ ـ ١٩٤٠م.
٣٠ ـ عيون الأثر ، لابن سيد الناس ، مطبعة مكتبة القدسي بالقاهرة ، سنة ١٣٥٦هـ.
٣١ ـ عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، مطبعة دار الكتب المصرية .
٣٢ ـ الفداء في الاسلام ، للدكتور أحمد الشرباصي ، مطبعة دار المعارف بالقاهرة ، سنة ١٩٦٩م.
٣٣ ـ فدائيون في تاريخ الاسلام ، للدكتور أحمد الشرباصي ، مطبعة دار الرائد العربي ببيروت ، سنة ١٩٧٠م.
٣٤ ـ القاموس المحيط ، للفيروزابادي .

٣٥ ـ لسان العرب ، لابن منظور .
٣٦ ـ مروج الذهب للمسعودي ، مطبعة دار الأندلس ، بيروت .
٣٧ ـ معجم البلدان ، لياقوت الحموي ، مطبعة دار صادر ودار بيروت ، سنة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.
٣٨ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، للاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، سنة ١٣٦٤هـ ـ ١٩٦٣م.
٤٢ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .
٤٣ ـ وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم ، مطبعة الحلبي بالقاهرة .

المؤلف في سطور

١ ــ الاسم : فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد الشربيني جمعة الشرباصي ، وشهرته : أحمد الشرباصي .

٢ ــ ولد في السابع عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨م في بلدة البجلات مركز دكرنس محافظة الدقهلية .

٣ ــ تخرج في كلية اللغة العربية فنال منها الشهادة العالية سنة ١٩٤٣م وكان ترتيبه (الأول) بين المتخرجين ، كما كان (الأول) بين زملائه في سنوات الدراسة بالكلية ، ثم نال الشهادة العالية والتخصص في التدريس سنة ١٩٤٥م وكان ترتيبه (الأول) أيضا ، وكانت هذه أول مرة يجمع فيها متخرج أزهري بين الأولية في الشهادة العالية و (الأولية) في شهادة العالية والتخصص في التدريس ، ثم نال دبلوم الدراسات العربية العالية سنة ١٩٥٥م وكان ترتيبه (الأول) .

٤ ــ أخذ درجة « الماجستير » بتقدير ممتاز في الدراسات الأدبية واللغوية سنة ١٩٦٣م « عن أمير البيان شكيب أرسلان » مع تقرير طبع الرسالة .

٥ ــ أخذ درجة (الدكتوراه) مع مرتبة الشرف الأولى في الدراسات الأدبية واللغوية سنة ١٩٦٧م « عن رشيد رضا » صاحب المنار .

٦ ــ رشح سنة ١٩٦١ لنيل جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية لأسباب تتعلق بنشأته العلمية ومؤلفاته وبحوثه ووجوه نشاطه والجمعيات واللجان والمؤتمرات التي اشترك فيها والرحلات التي قام بها وغير ذلك من وجوه النشاط العلمي والاجتماعي والقومي والديني في مختلف المجالات .

٧ ـ من مؤلفاته :

١ ـ حركة الكشف .
٢ ـ محاولة .
٣ ـ بين صديقين .
٤ ـ سيرة السيدة زينب .
٥ ـ واجب الشباب العربي .
٦ ـ المحفوظات الأزهري .
٧ ـ لمحات عن أبي بكر .
٨ ـ تحقيق كلمة الاخلاص (شرح) .
٩ ـ صفوة التصوف (تحقيق) .
١٠ ـ محاضرات الثلاثاء .
١١ ـ صلوات على الشاطىء .
١٢ ـ امين الأمة ابو عبيدة .
١٣ ـ عائد من الباكستان .
١٤ ـ مذكرات واعظ أسير .
١٥ ـ النيل في ضوء القرآن .
١٦ ـ من أجل فلسطين .
١٧ ـ من أدب النبوة .
١٨ ـ فدائيون في تاريخ الاسلام .
١٩ ـ صراع (مسرحية اسلامية) .
٢٠ ـ أخلاق القرآن .
٢١ ـ مدرسة الأستاذ الامام .
٢٢ ـ ملامح أدبية .
٢٣ ـ الدين والحياة .

هذا جزء من مؤلفاته وله مؤلفات كثيرة أخرى بعضها لم يطبع وبعضها تحت الطبع .

محتويات الكتاب

أبطال عقيدة وجهاد

تصدير	٩
تمامه بن اثال الحنفي	١١
عياش بن أبي ربيعة	٢٠
خلاد بن سويد	٢٨
وحش بن حرب الحبشي	٣٤
ابو ذؤيب الهزلي	٤٣
ابو سفيان بن الحارث	٥١
هاشم بن عتبة بن ابي وقاص	٦٠
الحارث بن الصمة	٦٩
ابو حذيفة بن عتبة القرشي	٧٦
عكاشة بن محصن الاسدي	٨٣
جليبيب الانصاري	٩١
عمرو بن ثابت بن وقش الاشهلي	٩٨
أبو سنان وهب بن محصن الاسدي	١٠٨
صلة بن أشيم العدوي	١٢١
ايمن بن أم أيمن	١٣٠
الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي	١٣٨
أسامة بن زيد بن حارثة	١٤٩
جرير بن عبد الله البجلي	١٦١
أسماء بنت يزيد بن السكن	١٧١
صهيب بن سنان الرومي	١٧٧
ابو خيشمة الانصاري	١٨٧

المقداد بن عمر البهراني ١٩٤
شعار تضحية وفداء ٢٠٢

بين الوفاء والفداء ٢٢١

قبس من كتاب الله ٢١٥
تصدير ٢١٧
النعمان بن مشير بن سعد الانصاري ٢١٩
هاشم بن عامر بن امية الانصاري ٢٢٧
ابو عبيد بن مسعود الثقفي ٢٣٧
معاذ بن الحارث بن الارقم الانصاري ٢٤٧
زيد بن الدثينة الانصاري ٢٥٤
قثم بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي ٢٦١
مرثد بن ابي مرثد الغنوي ٢٧٠
طلحة بن عبد الله ٢٧٩
مالك بن الحارث : الاشتر النخعي ٢٨٧
ابو الطفيل عامر بن واثلة الكناني ٣٠٠
هرم بن حيان ٣٠٨
أيمن بن خريم الاسدي ٣١٥
فضالة بن عبيد الانصاري ٣٢١
ابو قتادة الحارث بن ربعي الانصاري ٣٢٨
بريدة بن الحصيب الاسلمي ٣٣٥
عويم بن ساعدة الانصاري ٣٤٢
ثابت بن أقرم البلدي ٣٤٨
عون بن جعفر أبي طالب ٣٥٥
عثمان بن طلحة الصدري ٣٦٢
مسلمة بن عبد الملك بن مروان الاموي ٣٧٠

رجال صدقوا

شعاع من كتاب ٣٨٧
تصدير ٣٨٧
الطفيل بن عمرو الدوسي ٣٩١

شرحبيل بن حسنة	٣٩٨
مصعب بن عمير	٤٠٥
شجاع بن مصعب الاسدي	٤١٣
رافع بن عميرة الطائي	٤٢٠
سلمان بن ربيعة الباهلي	٤٢٧
ذكرى وعبرة	٤٣٥
عقبة بن نافع الفهري	٤٤٤
عكرمة بن ابي جهل	٤٥٠
الضحاك بن سفيان الكلابي	٤٥٧
البهلول بن راشد	٤٦٣
معن بن عدي الانصاري	٤٦٩
ابو سعيد الخدري	٤٧٧
شريح بن هانيء الحارثي	٤٨٥
الاقرع بن حابس التميمي	٤٩٢
حنظلة بن ابي عامر الانصاري	٤٩٩
غالب بن عبد الله مسعود الليثي	٥٠٦
رويفع بن ثابت البلوي	٥١٢
قطري بن الفجاءة المازني	٥١٩
أم حكيم بنت الحارث بن هشام	٥٢٩
أبو دجانة سماك بن أوس الانصاري	٥٣٥
عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي	٥٤٢
سليمان بن صرد الخزاعي	٥٤٩
المراجع والمصادر	٥٥٧
المؤلف في سطور	٥٦١